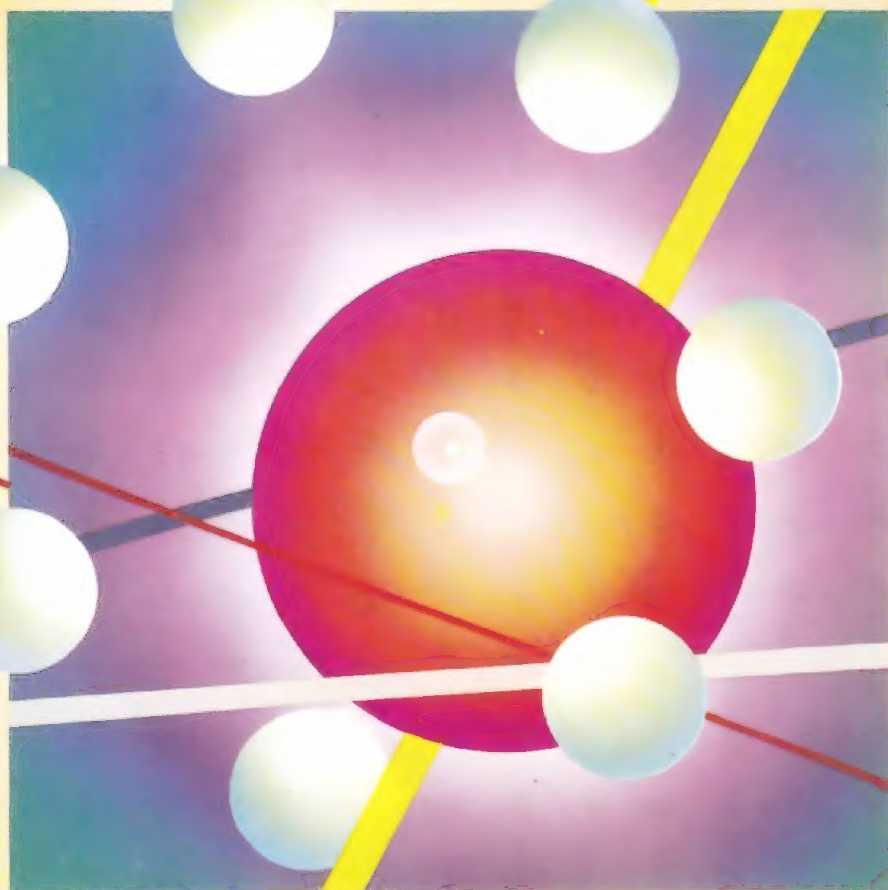


سَيِّدُ الْقَمَنِ

رَبُّ النَّمَانِ

الكتاب ومَلَف القضية



دَارُ قِبَابِ اللَّطَائِفِ وَالنِّقَمِ وَالنُّوَحِ

عَبْدُ مَرْيَمَ

Oriental
Book & Newspaper

الكتاب والصحيفة

مكتبة

رقم المكتبة
124
تاريخ

رَبُّ النَّمَانِ

الكتاب ومُلف القضية

رَبُّ الرِّضَاكِ

الكتاب ومَلَف القضية

سيد محمود القمى



Borlänge
Bibliotek

الناشر

دار فباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبدالله غريب

الكتاب : رب الزمان الكتاب وملف القضية

المؤلف : سيد محمود القمنى - ت/ف ٣٨٦٧٨٧٦

تاريخ النشر : (الطبعة الثانية) ١٩٩٨م

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبد غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

والمطابع المنطقة الصناعية (C1)

ت: ١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

التوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

رقم الإيداع : ٩٧/١١٧٦١

الترقيم الدولى : I. S. B. N.

977-5810-78-7

القسم الأول

وثائق القضية من المصادرة

إلى

الإفراج

كلام خارج السياق

من نبوءات المتنبى وتنبهاته

لتعلم مصر ومن بالعراق
ومن بالعواصم أنى الفتى

وأنى وفيت وأنى أبيت
وأنى عتوت على من عتى

على قدر أهل تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها
وتصغر فى عين العظيم العظائم

أنا من نظر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

على نحت القوافى من مقاطعها
وليس على إذا لم تفهم البقر

[illegible]

طلعت الساعات ٩

عمرى لم يقتل أحمد بدوى
هؤلاء هم الذين قتلوه



الْبَحْرَيْنِ

محمد الحواجة
رئيس تحرير
البراهمة عيسى

الدكتور

محاكمة كاتب مصري بتهمة التهمك على سيدنا يوسف والتعرض بما لا يليق لعثمان بن عفان


[illegible][illegible][illegible]

حمدین صباحی « محبوس » حتی اکتوبر القادم

[illegible]

المراجع: الجمعية الهندسية لهندسة
الهندسة المدنية

الوليد بن طلال أسرى
افضل أراضى «توشكى»



HEWLETT
PACKARD

YORK يورك

عادات المنارة البيضاء

الفهرست من کتابخانه مجلس شورای اسلامی
 جمهوری اسلامی ایران
 شماره ثبت: ۱۳۵۷
 شماره قفسه: ۱۳۵۷
 شماره کتاب: ۱۳۵۷

سکرواٹ

الحسابات
الشخصية
9
الطابعات





..وجاء الدور على سيد القمنى

■ د. سيد القمنى : التقرير لا يفرق بين الهجوم على سيدنا يوسف
والمساس بعبد الصبور شاهين . ■ مصدر قضائي . روح القانون
تفرق بين حرية التعبير والكتابة بسوء نية . ■ مركز الدراسات
القانونية : محاكم التفتيش خرجت من قبورها لحرق الكتب والكتاب

كرم جبر

١٥ سبتمبر القادم . هو يوم تحديد مصير الدكتور
سيد القمنى مؤلف كتب . رب الزمان ،
فإذا قرر قاضى الأمور بواقفة بمحكمة شمال
القاهرة مصادره الكتاب . انفتحت على القمنى بوابة
جهنم . ودخل نفس النفاق المظلم الذى سار فيه
الدكتور نصر حامد ابو زيد . وانشعب راسه مطلوباً

وهو المنصب الوحيد الذى يجب ان
يدير ظهره للوساطة ويعتمد اعتماداً
كليا على الطاعة العميلة

وكم تعرفون هذا المنصب للتجميد
لاكثر من ١٠ سنوات فى عهد إمام الأزهر
الصالح الشيخ جاد الحق على جاد الحق
بسبب خلافه مع أساتذة الجامعة فى
الأزهر حيث نال منصب الأمين العام
شاهراً

وكل من المأمول ان يعيد الشيخ
محمد سيد طنطوى إمام الأزهر اليوم
إلى المنصب الهام والخطير بعيداً عن
الخلافات والصراعات والمجاملات . إلا
ان تعيين الشيخ سامى الشعراوى على
مطالبة الجميع الأمر الذى أدى إلى
حدوث أول انقسام من نوعه داخل
الأزهر منذ تعيين طنطوى . والانسداد
هذه المرة لم يكن بين الجبهة المتشددة
والجبهة المعتدلة ونسبه هل سر
الشيخ طنطوى ونسبته الدبر
يؤيدونه فى مواجعة الجبهة المتوسطة
والمتشددة أى أنه أحدث شرخاً داخل
الجبهة المستقيمة فى الأزهر

ولا يوجد فى قوانين الأزهر رأى حال
من الأحوال يمنعنا الحق فى الوصاية
على الفكر الإسلامى وتجاوز خبره
الدولة . وهى أجرة تندو صعبة أمام
أى تقرير صادر عن الأزهر . لا يمنع ان
يكتب جميع المحوث الإسلامية مايشاء
من تقارير ضد الكتب والمطوعات
يشاءها ويذهبها ويرميها بكل الفتنة
لا يمنع من كل ذلك ولكن لا يجب ان
تتدخل أجهزة الدولة مع تقارير الأزهر
باعتبارها كلمة الإسلام وحك الإديانة أو
البرادة من انتماءات الفكر والإيمان . وإلا
عدنا إلى محاكم التفتيش فى عصور
الظلام . إن ما يحدث يؤكد ان المشايخ
الغوى من أجهزة الدولة

وفهم جميع المحوث الإسلامية
مؤجراً بإعداد تقارير تدنيس ١٩٦ كتباً
تهدداً بصورتها يعتبر أكثر مجرم من
نوعها ضد الفكر وحرية الرأى . وهى
الهجمة التى يقومها سامى الشعراوى
بنفسه ومن الألات لانتباه ان معتد
مؤلفى هذه الكتب المصدرة سبق ان
هاجموا الشيخ الشعراوى واستادوا
بعض فتاواه وأرائه فيبدو الأمر عاب
وكأنه تصفية حسابات

وما يؤكد أيضاً ان المشايخ الغوى من
أجهزة الدولة . إن الشيخ عبد الصبور
شاهين الذى منع من الخطبة فى جامع
عمرو بن العاص يصر على ان يخرج
لصفحة لأجهزة الدولة كل فترة ليقول
لها . أنا الغوى . فيعد ان قد معركة
تكفير الدكتور نصر حامد ابو زيد ها هو
الآن يقوم معركة جديدة ضد الدكتور
سيد القمنى لمجرد ان الأخير كتب فصلاً
ضده فى كتابه . رب الزمان ،
إنها حرب تصفية حسابات يبدو
واضحاً من خلالها ان المشايخ الغوى من
أجهزة الدولة ■

كاريكاتير محسن جابر



متفقون في القاهرة . والنفي منه
الأدباء النشيل من القاهرة والأقاييد
وخدمه اقدمهم من استند مشهوره
بانه سيفعل في القمني مثملا فعل
بصر اموزيد لانه تطاول عليه وا
رموز المسلمين على حد رعمه
ومدا التهديد واصحبا في تم
مجمع البحوث الإسلامية الذي
الإنهاتحت دون تدقيق أو فراءة مثا
تكتفب . رب الزمان . فلي
لصول التكتفب بمعاون . هل
الفراعة الكعكة . كنت ارد
الدكتور سيد خريم صاحب
الفقرة وهدمت فقرته نتي فطور
بحارا فموسماً فدمنا فمخرب سلك
امام مفة واستخدم حسب اسب
في سماء الكعكة واصف بان صبر
هاجروا من مفة إلى مفة . واه
اسمهم عدم مفة هه الدس .
الكعكة ورهم اسمي فمت ر
الدكتور فريم إلا ان مجمع الب
بسم ما فاته هو لي واعيموس
صاحب مقولة ان الفراعة
الكعكة وهذا ترصد لتكتفب
لأهم سموا . لي الفوالا وردت
نسل اعرس
الاهجود من علماء الب
« الأموات . فيفسدون به الب
مجمع الفرائي ولم فله فله
سبتمبر ١٩٩٢ . مده ما فله
مفلة في الأمان بمعاون . الب
الفراول وسقوط الاصفه . في
التي اعقلت فمفل فمخ فمده
كتب الفرائي مفلة في السم
سبتمبر ٩٣ . فلي فيها
ينافشون حد الردة يظلمون من
المسلمين فنوى تبيح الارتداد و

شرطة المصنفات فانبعثت بصورده
حضور الدكتور القمني لتسلم إعلان
بالحضور امام قاضي الأمور الوقفية
بمحكمة نشل القاهرة . وتسلم
إعلان بالفعل في الحدية عشرة مساء
من العقيد بحيث شرطة المصنفات
بعد التخطط على الكتفب وارمكت
والاعلام والصور والاعلاف ساء على
قرار بياية امن الدولة العليا في
المحصر رقم ١٠٧٥ حصر امن دولة
عليا اسس ٩٧ واستحواب المؤلف
كتمهم فيما ورد من نهاتفت متفريق
الأزهر

وامطر الإتهامات - بما مقول
القمني - هو انخاص بالمعربة
والتهكم من علماء الإسلام احياء
وامواتا حيث لم بشر الكتفب إلا
لأدس ففط . هما الشنيح محمد
العراول والدكتور عبدالصصور
شاهين
وقبل المصاصرة بشهور كان الدكتور
القمني في زيارة لككتيريا يلتقي بها

السابق . وطلب من الدكتور الرذ على
الإنهاتفت المسوية إليه
قل الدكتور القمني ردأ على الإتهام
الأول مان الحديث عن الإلهه ياتي
حصر دراسة علم الأساطير التي
تدرس في جميع جامعات العلم . ولي
جامعة الأزهر . وهو علم اسمه
« الميتولوجي » . ويلقن بين الإنشاء
في اليهود السابقة . وفي عصر
التوحيد الإسلامي والدليل ان
استيفريون المصري يبيع أشياء كثيرة
من هذا القبيل . واحرفا مسلسل
« هرگليز » . وفهر فيه إلهه ذكورا
واباتا على الارض ولي السماء
فلندا لم يبلغ مجمع البحوث
الإسلامية نهاية امن الدولة العليا
ضد التليزيون ووزير الإعلام »
ولي إيجاز شديد قل القمني انه لم
ينناول سيرة النبي يوسف إلا في
أربعة أسطر . رد فيها على المزاعم
الصهيونية .. اما علمان بن علمان فلم
يكتب عنه سطرأ وأحدأ غير مستقلى
من كتب التراث المعتمدة من الأزهر

■ ■ ■
كيف تمت المصاصرة ؟ وهل هناك
اصبح خفية وراءها ؟
في منزله الواقع بمنطقة بعيدة
روى الدكتور القمني الحكاية من
بدايتها .
فلي صباح السبت ١٦ المحسطن
توجهت قوة من شرطة المصنفات
الفنية إلى مكتبة ميمولي الصغير
بالمهندسين . وتعلقت على كتفب « رب
الزمان » . وفي اليوم التالي اتصل به
النشر . وابلفه فن مبعثت المصنفات
« ففزة عنوانك » . فطلب منه ان
يمهله قليلا . واتصل بالخاصي
إبراهيم عبدالرحمن . الذي اتصل

اما إذا كان الحكم هو عدم
المصاصرة فسينجو الدكتور القمني .
وستتقبل مراعات طويلا طويلا من
« تنظيم المظلمين » . الذين وردت
اسمهم في القوائم التكتفب . التي
اصفا مجمع البحوث الإسلامية
مالأزهر . واتخذ الإجراءات العملية
لبيداتهم والتكتفب بهم امام محاكم
امن الدولة العليا .

والقمني مجرد بداية جديدة . او
هيكل خفسي للتشقين في ميدان رماية
التكتفب . تفهيمها مرحلة الضرب في
المنين . وتفتيت الرؤوس لحيه
ورألة افكارها على الرمال . وتقدمها
قنوات شوية للتطوير الجائفة

كل المنهد قبل الأخير في سبيلبرو
حرب خفية ضد المظلمين في محكمة
شمال القاهرة بالعاصمة . في الساعة
الواحدة بعد ظهر الإثنين الماضي ١٨
المحسطن . حيث حضر إلى المحكمة
الدكتور القمني ومعه عدد كبير من
الحاضرين خليل عبدالكريم . ويسرى
مريخي . ومصطفى حسني ومن
جمعية حقوق الإنسان امير سالم .
ومصطفى عويس ومحمد
عبدالعال . ومن مركز المساعدة
القانونية اسامة شاكلي

وتلا عنه رئيس المحكمة الإتهامات
الموجهة إليه من مجمع البحوث
الإسلامية . وطلب مصادره كتب
« رب الزمان » . وهي على المحو
التالي

١ - الكتاب يتحدث عن إلهه
سملوية . واللهه ارضية ذكورا
وابتلا . ويناول تعدد تلك الإلهه
بصورة تخالف ما ورد في تعليم
الإسلام

٢ - الكتاب تحدث باستهتار
واستهزاء ومشتجون بلغة والتجريح
عن النبي يوسف

٣ - الكتاب ندد بالخطية الراشد
علمان بن علمان . وسبب إليه
ما لا يليق به كمصاحبي جليل

٤ - تناول الكتاب علماء المسلمين
بالسخرية والتهكم . سواء الأحياء او
الأموات . ووصفهم بما لا يليق

٥ - احتوى الكتاب على عبارات
تتهم على بعض رجال القضاء
والتهديد بثرات المسلمين والامة
الإسلامية

ولم يلق القمني اصل مذكرة مجمع
البحوث الإسلامية . وإنشا لخص
لفظ مجمل الإتهامات على المحو



..ده مهرجان (المصاصرة للجميع) ..

الخروج من قلوبها لتشرق الكتب
وتطير رفوف الكتب

الدكتور سيد الطمى الهيكز
الخبير الفني في ميدان رعاية
التكثير عمره (٥٠ سنة)
الكتابة المصنوعة أصغرت طابعه
طويلة من لأفراض عينية قد
معتوج في مستنسخة كتيليد و
لعملية الإحرة سنة ٩٤ توفيت قلب
تعاماً دقيقة و ١٠٠ ثانية قد عد
الحياة التوفيق بتعدي على
عظمه وعصامه ثلاث فرح مالا يسم
عمر وأوراق عصفور في سنوار
١٩ يوماً من الدواء على حد ١٠٠٠
قائمة بعد كل وحدة

فلون عن نفسه لا يريد سهره
ولا رطبه يريد فقط أن اسرا
لاولاً شتاً يحترقونه
وطبقت أسه الفخر والعفر
والكتابة ولكن جاء مجمع النحوت
ليطمس كل شيء ويشوه رمز الأوبة
امام الإمام فهدا سيلقول لهد
وإدا حسنت

قل صحنى أن تجعل النجر
لهد ساعه واحد وإدا أرادوا ذلك
لمستلموسى حقة هامة برفصه
لوه مشتاه ومهفوه فهدا

ولس سبهي الصخرته
سبس السور والطبيلام



... ياريت كل الناس تكتب زيك في الجنس وتريحنا "

وأصفت المصدر بأنه في حالة وفور
الجريمة يحور لرحال السلطة اسخار
إجراءات التخطف على الأصور
ولوات الضاعة والألاشيهات
والأفلام والصور . وإختار بداية اس
الدولة فوراً فإذا أقرت المينة بلد
الإجراءات يجب رفع الأمر فوراً إلى
رئيس المحكمة الابتدائية في طرف
ساعتين من الضبط إذا كانت
المطبوعة صحيفة يومية أو
اسبوعية وثلاثة أيام للمطبوع
الأخرى كما يجب إحطال المهنم
ومواجهته بملهم المنسوبة إليه
وسماع افواه

وإذا لم يلق مامور المسبب أو
المينة مهدد الإجراءت من حق
صاحب الشأن أن يقدم بمرصده
لرئيس المحكمة وللمحكمة الحق
أن تصدر حكماً برفع الحظر أو إعدام
الأشياء المتخطف عليها

أما مرقق الدراسات والمعلومات
الفقونية فيؤكد أن محكمة شمل
القاهرة غير مختصة بالتحقيق مع
مؤلف الكتاب كمنهم . لأن التقرير
المزعوم من مجمع النحوت الإسلامية
لا يتنفس تهمة محددة . وإبما
اختلاف في وجهات النظر بيمة وبين
المؤلف في كتابات نشرت من سنوات
ليست محلاً لاعتبارها قضية لمن بولة
عليها . أو مجالاً لكي يساق الكتاب
والمخبرون أمام جهات التحقيق .
ويقول نعت سيف الترويج بلتميل
حبس المهنم في إطار السلطة
التقديرية للمينة أو القضاء
فتدخل بعد ذلك مؤسسات دينية في
إصدار فتاوى حول آراء الكتاب
والمقربين . وتبدأ محاكم التفتيش في

الامر لمفتته وهو عاوى إلى الفصة
والإطعام في صفوف المسلمين
. وللت المحكمة أن هذه الافتراءات
جاءت مع محى بهاء الدين إلى
الوزارة . ولقت بالرد على صحيفة
الشعب في صحيفة الأهل . وكنت كل
القول مستمدة من الكتب المعتمدة من
الأزهر

قلت للدكتور الفني ماذا قل لك
رئيس محكمة شمل القاهرة أثناء
التحقيقات التي استمرت قرابة
الساعة ؟

قل لم بل شيئاً إلا في نهاية
التحقيق . مع السلامة . وانحد
قراره في اليوم التالي بالإنجيل لجلسه
١٩٩٧/٩/١٥ لندال المذكرات
وتدعيم أوجه ادفاع
وحول السيمبريسو المتفوسع
لإجراءات محاكمة الدكتور سيد
الغمنى قل في مصدر فضلى تبين أن
سلطات التحقيق تطبق روح القانون
الذي يفرق بين الكتابة بسوء قصد
بهود تحريض الرأى العام . وإشاعة
الفتن والاضطرابات .. والكتابة
بحسن نية التي تستهدف حرية الرأى
والتعبير والفد والإصلاح من وجهة
نظر الكتاب . وهي سلطات تقديرية
للمحكمة

أما الجرائم التي تقع في نطاق
اختصاص محكم أس الدولة المتخطفة
بالتكسمة والمشر فاهمها الكتب
الصغيرة عن تنظيمات أو هيئات غير
شرعية . أو التي تحض على إزراء
الأديان والأبياء ونصحامة وكذلك
العيب في حق ملك أو رئيس دولة
أجنبية . وإهانة رئيس الجمهورية .
أو مؤسسات الدولة الرسمية

عومته . لتقرير حرية الفكر والإيمان
والسكسر والسب . وهم بذلك
يصيحون : افتحوا أبواب الحفلات . وإن
ودعونا نلتقي بالفتساء كما نشاء . وإن
الاية التي يحتجون بها « من شاء
فليرمن ومن شاء فليخطر » . ليس لها
الاعتقاد . ومن يرى لفاية تفسيراً آخر
هو كلف . وعليه أن يطوى نفسه على
ما بها . أو ليرحل إلى مكان آخر . أما
إذا أصر على التصريح بما يرى . فهد
أطلق صيححت كقول تقرب أجله .
وكل رأى الذى مؤلث متسماً به

هو أن كلمت الشيخ العزال تمثل
تهديداً بالقتل فهو يقول اصمت
أو ارحل أو نقتل . وإن من عرض
نفسه لألفه الكلمة وصير الناس في
هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ
ولا فاعل صبيته

لقد كنت أرد على الفتوى التي
تبين القتل وتهدد بالخوف . وهي
نفس الفتوى التي أطلقها نجوم
التطرف والإرهاب في تلك الفترة . إلا
أن مجمع النحوت الإسلامية الآن
يبنى هذه الفتوى مهداة رسمياً .
ويحكم على مخالفيها بالتكفير والردة

أما العالم الفنى الذى يشيع تقارير
مجمع البحوث الإسلامية إلى أننى
شوائله بالتهمك والسخرية . فهو
بعد الصبور شاهين لأننى وصفته عامه
رجل بيوت المال الدين نهوا
لمسلمين . المعلوم أنه كان مستشاراً
ننك البيوت .. وكان الملافة الإيمانية
المطمنة للمؤمنين ليودعوا أموالهم
لدى الشركات التي كفى يعمل لديها .

وظل كذلك حتى بعد اكتشافها .
ويشرب الدكتور الفني مثلاً آخر
لغوله لقد دافعت عن الدكتور حسين
نخل بهاء الدين ونظام التحكيم في
مصر . فلتؤمنى الأزهر بالهجوم على
علمان بن علفن .

فهد كتيبت جريدة الشعب مقالاً في
لبرس سنة ١٩٩٥ تحت عنوان
« ماغ إلى شيخ الأزهر والفنى وعلماء
إسلام » . قلت فيه أنها كتلت
حول لائق الافتراءات الوزارة على علمن
بن علفن .. وإن الوزارة برأت في أحد
تنهيا المدسية اليهودى . ابن
جيا . واتهمت الطفيلة بالكلين
تقريب أهله من بنى أمية
اختصاصهم بروعيته حتى انتهى

سيد القمنى : أرفض الأسراف فى تقديس الصحابة



سيد القمنى

عدسة : محمود عارف

الظروف والأوضاع الخاصة فى مركزه بهيم وأمره من كمال الله سبحانه وتعالى الذى لا ريب فيه صاحب الرسائل منسجمة مع الظروف الموضوعية وغير متنافرة معها. ● حديث عن التاريخ الإسلامى . وحديث عن الأساطير القديمة بدأ وكذلك لأنه كثيراً ما يلقى الدين.

● أما أطالب باحترام النص الدينى وأطالب أيضاً بعدم الانتهازية فى التعامل معه، واحترام النص أن يتبنى إلا ما يخدم فيها سليماً وبعد ذلك أن يكون هناك أصحابه وتصريحات ليست من الدين ومنها من الانطلاق وبشرى أنها من الدين.

● ماذا تدعى الانتهازية فى التعامل مع النص؟

● أما تستخدم مصوص الدين فى حصرمات الشفعية، ومعاملاتنا التجارية، وفى قرارات الدولة السياسية، بل وفى الحروب

أما امتنع عن كل الوظائف والامتيازات التى جصصت أو أحرقت، إضافة لأمر خاص من ضلع وهو أمرى بالأمراض . وروايته نعت فى العدة كسر فى الزينة حرمة من شأنه فى النفس، والى من عثرى ليس كثيراً، وسقافى ما تقى لى من العز من أجل محسوس وليس من لطفى، وأما أنى أن محسوس نحتاج بعض التخصيصات كى يعيش الأوامر فى سجنه أفضل، وعلى باخلة أما لا أترجع من كلمة كتيبته، أرفع بالصحة والاعقل من أرائى وأذا تمت مطارشتى ومطارطة أحمالى بالقوة العنيفة فلا حول ولا قوة إلا بالله.

● أسطر المشاعر فوق أن حد الرسول عبد المطلب كان يسعى لرعاية وإقامة دولة وأن هذا ما دفع أولاده إلى مساندة الإسلام ليقترب من حالة الطغ.

● وضع طبيعى أن يهوى، الله الأساب لكى تدوم الرسالة النبوية وطبعية ومتوافقة مع

● صدر رئيس محكمة شمال القاهرة للأموال الوقتية فى ١٥ سبتمبر حكمه فى طلب مصادرة كتاب الباحث المعروف سيد القمنى «رب الزمان ودراسات أخرى»، وكان مجمع البحوث الإسلامية قد أعد تقريراً يدين الكتاب ويطلب المصادرة، وأحيل التقرير إلى رئاسة أمن الدولة العليا ثم المحكمة وكان «سيد القمنى» قد مثل أمام القاضى يوم الإثنين الماضى حيث تلى عليه القاضى الاتهامات الموجهة إلى الكتاب.

● كتاب «رب الزمان» هو الكتاب التاسع لمؤلفه، عن الكتاب كان الحديث مع المفكر والباحث الكبير سيد القمنى ●

حوار أجراه:

حلمي النيم

سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

الحديث الثالث

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.

● سيد القمنى : أريد أن أكون أحد الصور التى لا تتركها فى الذاكرة، وأريد أن أكون صورة تتركها فى الذاكرة.



الشيخ سامي الشعراوي للعلمانيين :

روحوا انشروا بعقيد عني !

✻ قال الشيخ سامي الشعراوي أمين عام مجمع البحوث الإسلامية إن ما حدث مع الدكتور سيد القمني قد يحدث مع غيره طالما يصطدم بأصول العقيدة الإسلامية الصحيحة . وردا على سؤال عن زيادة عدد المصادرات من كتب الفكر والادب والتي سجلت ١٩٦ مصادرة خلال العامين قال : ولو كانت ١٩٦ الفأ ، مادامت على غير الخط الذي نحن عليه - كعالمين فلن نتراجع عن مصادرتها مهما كانت الأسماء فوق أغلفتها . وتابع حديثه القاضيه كم ترتكب جرائم باسم الادب - إن هؤلاء من مدعى الادب يلوغون الادب ، وساقولها صريحة الهجوم هل الدين أصبح وسيلة للثراء الماخذ ونحن نفك كازهر في وجه هذه الظاهرة ولو كره العلمانيون .

مجموعتي وذئ

بحر بصم بعد النشر . وانزل في ذلك الحالة ان بعد وكذا ما ورد . فقد دون ان رار من الأهر لار في الأهر استند كل درجات التقاضي اعتمادا تعرض على الزاوت وجهة نظري . إذا استجاب لنا وعدت كتيبه واجاده إليها مستوفي بحيره

✻ من يخلص الكتب ... هل هم

المشايخ ؟
- ايها قوائم من المتخصصين . اساتذة بكل الجامعات المصرية كل من تخصصت بخلص . وهؤلاء يملكون منا ولا تشككا في تقرير بعد تقرير آخر حتى نطمئن قلوب .

✻ هل نطمعن في الإصدارات ؟

- انني نأتى إليها فقط طالع الرأي سواء من أعضائها أو الجهات المختصة .

✻ ما هي الجهات المختصة ؟

- دور النشر . الدار طبع . وأحيانا الحاكم أو القويون على بيهم

✻ هل نعتد سلطنته للكتب

المهاسية ؟

- كل كتاب يصل إليها نعرضه ونعتمد ونقول الرأي في يات إلى كتاب لم نوافق عد . وأنا ابرهن كل مشورات الادلة على عوار مكر ما جاء فيه . يسهوي أنهم يفترون على

الشيخ سامي الشعراوي
ثالث اقدمه في الأهر الشريف بعد الاسم الاكبر ووكيل المندوبة الإفرسية ورفض الاموال الا في درجته من الأهر . ثم هذه الادب والخدمة ويدهي انه سمعت من شئت يصاروف اسمنا إلى التي طواصيه من أعضائها أو نرسلها إليه الإفرسية أو امن الولة .

✻ وأراء الفتى التي تسلم هناك قرواوس ، الأولى الرافضة بخدم العرض على لجنة من متخصصين أو الرضى وفي الحالة الأخيرة لابد ان يعرض الكتاب وتقرير وضعه على امين عام الجميع لاتخاذ .

✻ هل توافقون عادة على قرارات

المصادرة ؟

- نحن لا نصحار واسما موسى بحجم النشر . والود من المرافقة الهاتية أن نتبع أي شهادت حول عدم المرافقة (حتى لا يتلاعب أحد بباتاج المجمع) . وأحيانا يتدخل الفتوى بطلوني الامم الاكبر ويرفض قرار اللجنة وحدث ذلك كثيرا وأحرارنا في «الصحة والياو» لصفتي صمعدو - نحن - كجميع - فلأ أن الصة والار مجمعة بمبادئ كثيرة وفرضنا بعدم نشرها . الشيخ الكبير قال لا مانع أن تنشر كتبه .

✻ والمتضرر من قرار المجمع ؟

يستبعد اعتمادا على أسا يمتلك الحقيقة الطقة . والطم يست به حقيقة واحدة وكذلك مفهوم العربية ليس فيه رأي واحد مطلق . أسا هذا مدعية بحد علنا ان سلمه بها هي فهو ، حسب ١٠ علمه الغيب ، ١٥ الأهرس من خالده .

✻ هناك احترام اسمي الدين .
- من صاحب حق خسانه نفسه فاس لا يخلو . ولذا هذه العنايا .

✻ لو اسبق قروا ماحدث في العصر الاسلامي لاكتشفوا اسنا لسا بعد : السور . بهم يدرسون رميا بين عصرنا وعصر فقي هو رمي الصلبة . وحين يعود إلى كشت اهرات والاحاد بعد ان الصلبة كانوا شرا سفا . محسن وسطون . يفتون ويشتلون وانسود اسنا اقدم فادرو على ان نمرنا اسنا الفصل معا كان رمي الصلبة محكم ما تراكم لدا . و . فام وسار . وكشف لم يكن في رصمهم .

✻ ابن واولاد . كتاب البوير بهاجون باسفرور وتصاريون الا ترى ان بك يصل في الهات . نون وصول افكارهم إلى اعدائهم .
✻ لاول مرة بعد سنك هذه الكتابات الشجاعة . هذا ليس فقيبا طبيا . لانا نكتب تحت التهديد بالفي والتكفير مما يعني ان هولاء . انك تقدمون عليهم بعداته عالية هذه الكوكبة من مكتري مصر محلول مجبول القيس وما يتعلق به من ثقافة ورجال ومن مسجون . الرأى الذي محطه دوله إلى مسجون . العلم الا . و . بعد بحدول . ولول مرة سمول كمتكرن لبر القيس أو بعد من رد الفعل إلى الفعل . وهذا مستوي من الساج
✻ كيف سواجه فصل ادأ ما حكم يوم ١٥ سيمر بمصادرة الك .
✻ اما سيميل صمغري الحنية والصنوية . ومن هذا المنطق سوف اتعامل مع القضية وإن تراجع عما كتبت وسأفهم عن أفكارى وفي كلى الاصول إلى القليل ان يسألني أحد في طبييت الدينية . ان من يفعل ذلك يحتاج إلى تركيز من الله سبحانه وتعالى . والاسلام لا يعرف مثل هذا التوكيد ولانا سواطين في دولة صلبة ولست افراد في دولة الفتنة الاسلاميه .

✻ وصمعا اما متشاك كن الامر في يد القضاء المصري . التزيي والعدال ولدى فقي ان القضاء سيمسك راس بطلي
✻ ماذا نكتب الآن ؟
✻ انبش من كتاب جديد بعنوان «التي موسى واخر ايام كل الصارة» . ويبلغ ١٢ صفحة . واعمل به مد سنة ١٩٨٦ ومعلم كتي الاسارى خرج على حاشته . فهو مشغوع في الامور . وسوف يعبر كثيرا من الضوابط التي تفرس في الجامعات في مناطق تاريخية ميمها كملت ملتبه وسعد ما مروده لامتأ .

التي تحدد مصائرنا . فحينئذ استنصار لشعور حسب الهوى وحسب الصلحة لتشهد على مواقف بالغة التناقض . وكان هذا حوال تاريخيا يستند لتقرير محكم جماعه واساسيه عادحة عبر فقيها . المسلمين ام القراء الصلبة التي ترفع الاسيرة في معدسايا وتضمره فقي ما تقدمه السور مجموعته كتاب التوير مثل كشتار صمد الشماوي ود نصر البوير والشيخ خليل عد الكريم وانا

✻ أنا ما اسرت اسئلة عظيمة . هولاء يقدمون القدس كما كان في واقعهم مرتبطا باساسة العقيدة . لايسرف في تقديم ما هو سطس ولا في تحريم ما هو غير صمرد لتصفه مساحه التحريم على انفس كل من سطر ويعد ويضج لبي استهتة بهذا للقيس . ودم . لمتنه واحال القيس الآخر .
✻ سامي صمعا هذه القراء التي تقدمها .

✻ لا اسبق على هذه الفرات مفاهيم معاصره كالاشراكية وعبرها . ولا اسبق حصا من سياتي التي اداجلي او سياتي الموصري القروسي لاستشهاد به على حاله معاصره الآن قد لا نقتض مجا لمتنه التي جاء سنسها الصم . وان تقرا الفروس الصلبة التي قدمت لها جيا القراء والصلبة . طبيا سنا ان بعهم ان الخلا جبريل كان طوال الوقت يبط على صاحب الفروس والسا . على تواصل مع الارض والملاكة تثن لشعور في صموف المسلمين . ومع ذلك بركن السمور لهد بل كاتم بروسون من اهر المنكر . وكا النسي (صلى الله عليه وسلم) برسل الجواسيس لاستطلاع العدو . يسمي المولع . إلى بأحد بالاسام ولا يكتفي بتقصير العليات والمصلحة والمساو بدلل ان فوات عروة احد مضمنا برسا الهيا اهر بطون ان عدم الاخذ بالاساس الموضوعية يذوي إلى مرام حمي لو كتبت صحافة الرسول المسلمين في أحد اعتمدوا على المدد السعوي واعملوا لوامر القلاء وتكررو سواقهم فعاتت بهم الهزيمة رغم ان رسول الله معهم .

✻ عاد ولفرد

✻ كانت هناك قراءات سابقة لتاريخ الاسلامي وللصعود كان هناك طه حسين والقفاو . و . هيكلا واحد امير بجرهم . . كيف تعهد هذه القراءات ؟
✻ والتاريخية . القراءات الوسطية أضرت بنا وكجعت خطواتنا عن الاسراع نصر تقيس مجتمع صني بضمير حرية كل الناس وكل الطوائف . هذه القراءات وقبعت ذاتها في سوقها وسطى . والامام الهوى في كسراع وسيلاد ادا لم نواكه منقول ونلقى صمير عاد وشود والهور الصمور .

✻ كيف ترى قراءة سيد قطب لقراءات ؟

✻ أنا متعذر من الكلام من سيد قطب . رغم انني اخذت به بعض الفروا . هو يفتي بنا في تكفير واحد اصادي لا يرى الآخر . بل

حوار صحيفة الأهالي مع المؤلف قبل صدور الحكم

د. سيد القمنى : منطق المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية

كانت السيارة تقطع الطريق إلى منزل المفكر والباحث في الأديان د. سيد القمنى وأنا أتذكر أكثر من سبعين عاماً على مصادرة العقل في مصر، من مصادرة على عبد الرازق وكتابه "الإسلام وأصول الحكم" ١٩٢٥، إلى "في الشعر الجاهلي" لطله حسين ١٩٢٦، وصولاً لتفريق نصر حامد أبو زيد عن زوجته د. ابتهاج يونس ١٩٩٥، مروراً باعتقال المفكرين ١٩٧٠-٢٠٠٢، أما المرحلة الساداتية فقد قال عنها الراحل لويس عوض في مقدمة كتابه "لمصر وللحرية": "في عهد الديكتاتورية الناصرية صادرت لى ديكتاتورية عبد الناصر خمسة مقالات واعتقلت خمس سنوات وفي عهد الديمقراطية لم تهتم الرجعية الساداتية بمقالاتي فصادرتني كلية!!

والآن نحن نقرب من اليوبيل الماسي لمصادرة العقل المصري على مر العصور .. هل تكون مصادرة "رب الزمان" آخر المصادرات؟

توقفت السيارة، منزل بسيط يعيش فيه الرجل وحيداً في صومعته بين الرمال التي تحمل رائحة الأهرام ورحيق السنين، ولا يؤنس في وحشته سوى كتبه .. بلا حراسة ولا سلاح إلا فكره .. وكم كنت وحدك يا بن أمي .. يا ابن أكثر من أب .. كم كنت وحدك .. الملح مر في حقول الآخرين والماء مالح..

صورة فرج فودة تظلل المكان، ترى ماذا يجري ولماذا وإلى أين؟؟..

طرحنا السؤال وانتظرنا الإجابة..

الصالح وعن ديننا وعن قواعده التشريعية لذلك قاموا بطلبون إعادة استنساخ ذلك النموذج، وإعادة إخراجهم مرة أخرى والتمسك به. وفي هذه الحالة هناك وعد من الله، إن تخضروا الله بنصركم، فنصر الله عند هذا الفريق هو فقط أن تتبع الشروط والسنن والنواهل بدءاً من المسوا، مروراً بالمسححة والجلباب القصير واللحية وربما انتهاء بطاعة أولى الأمر منا، هذا الاتجاه رأى أن المجتمع الإسلامي كله قد خرج على أصول الملة ومن هنا قام بحارب وبقتل ويكفر.. إلخ وفق منظومة: إننا لو تمكنا من إحياء الدولة الإسلامية

قال القمنى: الذي يجري واضح بين جلي ناصع.. إننا أمة أصبحنا في قاع ترانث الأمم ومن هنا اكتشفت المساحة الهائلة بيننا وبين الدول المتقدمة، ناهيك عن الظروف السيئة داخل المجتمع المصري نفسه.. أقصد بها الظروف الاقتصادية تحديداً.. إضافة إلى وجود دول معادية قوية مقتدرة تقف طول الوقت تتدخل وتتمنع وتفرض شروطها والذي دفع لنك الهزيمة الكبرى التي منبنا بها في ١٩٦٧ تلك التي دفعت للبحث عن حلول وعن خلاص، البعض رأى نفس الرؤى القديمة التي ترى ما هزمنا وماضعفنا إلا لأننا ابتعدنا عن طريق السلف

واضحة من تاريخهم الإسلامي لأؤكد ان الإصلاح ليس فقط مجرد اتباع السلف إنما هو أعمال العقل والحريات والأخذ بنسب العلم من أجل الانطلاق، كيف يمكن أن يحتسب هذا كلاما ضد الإسلام؟

صراع بين وجهتين

عندما أقول في واقعة أحد: إن عثمان بن عفان هرب من الميدان.. فهل كما جاء في صحيفة اتهام كتابي «رب الزمان» تطاولت على الخليفة عثمان؟ هل يريبنون مني أن يكون رايي في صف عثمان بن عفان أفضل من رأي الصحابة فيه؟! ما كتبتة هو مقالته الصحابة بشأن عثمان بن عفان لم أت بشيء من عندي.. هم يريبنون مني أن يكون رايي في عثمان أو غيره أفضل من رأي أصحابه فيه الذين أعطونا هذه الأخبار المعتمدة لدينا ولديهم وموجودة وتدرس في جامعات الأزهر وفي أصول الفقه وفي التاريخ الإسلامي وفي السير وفي الأخبار.. ومن ثم فإن مايجري هو اصطراع بين وجهتي نظر: وجهة نظر تبغي في النهاية القفز على كرسي السلطة وتلك هي وجهة النظر السلفية، لإقامة دولة الله على الأرض ولإببات أن إقامة دولة الله على الأرض تعني مجيء كل القوى السماوية لتأييد مصر امام هذا التطور العلمي الهائل وامام هذا الفرق الحضاري الهائل ونستخدم هذه القوى السماوية لتدمر لنا ذلك الآخر المتفوق سواء كان في أوروبا أو أمريكا أو إسرائيل وغيرها بدل من أن نبذل نحن الجهد لنصعد إلى مستواهم!

المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية

■ تحدثت عن مناخ الحريات كبدل لعدم نفي الآخر وزوال المصادرة كمنهج، كما أشرت أيضا للظروف الاقتصادية كعامل مهم ضد المصادرة، ما رايمك أنه في ظل ما تسمى بالمرحلة الليبرالية (١٩٥٢-٢٣) صوّر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشايخ على عبد الرزاق ١٩٢٥، وكتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين ١٩٢٦، وكذلك في ظل ظروف تنمية اقتصادية متقدمة إبان المرحلة الناصرية كانت هناك مصادرة للكتب والبشر خلف القضبان؟

- حدث هذا لأن منطق المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية. لأن هذه سمة في منظومتنا الفكرية أن من يصادر يتصور أنه يملك الحقيقة المطلقة وغيره مخطئ على الإطلاق بلا جدال.. نحن لا نطيق أن نرى المخالفه نحن لا نطيق أن يخرج أحد خارج حظيرتنا القبلية لأنه يصيب مخيفنا، دائما نحن نريد أن نفترض وجود قوى تعادينا وتريد هدم امتنا وتاريخنا وإسلامنا دون أن ننظر

الأولى مرة أخرى فإن الله سيتدخل مباشرة كما سبق وتدخل بالملأ الأعلى والملائكة لنصرة عباده في فجر الدولة الإسلامية والصحابة وصاحب الدعوة بشكل مباشر، هناك فرق آخرى ترى غير ذلك تماما وترى أن السبب الذي أدى بنا إلى ما نحن فيه هو غياب مناخ الحريات على كل المستويات، ومن جانبي رأيت أن أحد العوامل التي أدت إلى غياب مناخ الحريات ومن خلال كل التجارب الإنسانية نعلم أن العلم والكثوف والاختراعات والتقدم في تكون كسفية الأمم لا يمكن أن يولد أو ينمو أو يتزعر إلا في ظل مناخ من الحريات الكاملة.

الملأ السماوي والعقل

وضمن ما يقهر الحريات هي الرؤية القديمة التي هي ربما ليست من الإسلام إنما من مفاهيم تم التواضع عليها حتى صارت من المسملمات كما لو كانت هي الدين نفسه، ومن هنا عندما عدت قراءة التراث الإسلامي اكتشفت أننا نحن نغالي أحيانا في تقديس بعض الشخصيات، نحن نغالي ونسرف على أنفسنا بالذم مقابل ذلك المجتمع الإسلامي الأول المضيء الطاهر النقي الذي نصبره الله. هذه المبالغات كان لابد من محاولة تقديمها للناس بصورة سهلة في أعمال تصل إليهم في سهولة ويسر، تناقش هل نحن بكل هذا الحكم من التحييمات الذي وضعناه نخلص للإسلام وللأمة؟ أم نودى بها ونضربها ونقهر الناس بما لم يكن في الإسلام. لذلك بحثت عن سبل الحرية انطلاقا من سبل الحرية في ذلك الماثور، وذلك التراث، ففقت مثلا بقراءة تاريخ جزيرة العرب عشية الإسلام وإبان الإسلام في كتاب يسمى «حروب دولة الرسول» من جزئين، أردت فيه أن أقول للمسلمين إن الله يتدخل بالملأ الأعلى السماوي وبالملائكة هذا كان تقوية للمسلمين الأوائل وشدا من أزرهم بدليل أن النبي نفسه في واقعه مثل بدر كان قد اتخذ كل الاحتياطات التي يتخذها قائد عسكري الآن من الطراز الأول بغض النظر عن علاقة ذلك بالسماء.. أي أنه كان يدرس موقع المعركة.. يذهب إليها قبل أن يذهب الإعداد لاختيار مواقع أفضل، يرسل الجواسيس والعيون لتسقط الأخبار ولا ينتظر الملك جبريل لكي يأتيه بهذه الأخبار، يقاتل كما يقاتل الناس وكان هذا هو درس غزوة بدر الكبرى، ومن ثم ننقل المعركة درس غزوة أحد وكان.. فيه وعد للإمداد بالملائكة وكان ومع ذلك هزم المسلمون لأنهم لم يأخذوا بالأسباب الموضوعية ويعملوا العقل ويعملوا الفكر كي ينتصروا على أعدائهم عندما ركعوا أو استندوا إلى مجيء الملأ السماوي، بالضبط مثلما يفعلون اليوم (أن تنصروا الله ينصركم) وذلك عن طريق الجلباب والعقال والمسبحة كما لو كان هذا فقط هو المطلوب منا كي ينصرتنا الله. أنا أحاول أن اضع امام المسلمين رؤية

في داخلنا إلى الأسباب الداخلية الحقيقية التي أدت بنا إلى ما نحن فيه.

هم يقولون إن الاستعمار يترى بالاسلام وانه يخرع نظريات علمية ضد الإسلام وأن ما اكتشفه دارون ليس إلا من أجل هدم الإسلام وأن ما وضعه ماركس ليس إلا ضد الإسلام وكذلك فرويد وغيرهما كما لو كان العالم غير منشغل بشيء آخر إلا ضد الإسلام رغم أن الحقيقة وما حدث فعلا هو في الإجابة على السؤال: هل نحن استعمرنا فضعفنا أم أن ضعفنا هو الذي أدى إلى استعمارنا؟

الثقافة المصرية ليست الإسلام فقط

■ إن القضية قضية ثقافة وليست قضية حريات أو تنمية فحسب؟

- يا سيدي هذه الثقافة لن تجد مساحتها بمعناها الحقيقي، والقول إن الثقافة المصرية ليست الإسلام فقط.. لأن هناك أيضا خطأ ومشكلة بيننا وبين هؤلاء الذين يصنادروننا.. هم يظنون ويعتقدون أن بدء الثقافة المصرية ومنتهاه هو تلك اللحظة الزمكانية في أرض الحجاز عند الوحي أي لحظة بدء تواصل السماء مع الأرض في غار حراء وقبل ذلك لا توجد ثقافة ونحن نقول لا، نحن لنا ثقافة عربية وعظيمة وقديمة ونحن أول الحضارات ونحن دولة متكاملة ودولة مؤسسات قبل أن باتينا الفتح الإسلامي بثقافته، بالتالي أصبحت ثقافة الفتح الإسلامي جزءا من ثقافتنا ولكنها ليست كل الثقافة المصرية، وهنا أنا لا أتهم الثقافة المصرية أنها تصار على الآخر لنسب بسيط أن الثقافة المصرية القديمة كانت لا ترى إطلاقا حرجا في مساحة حرية المواطن الدينية وكان لأي مواطن الحق في أن يعتقد بما يشاء إبان الدولة الفرعونية الأولى وحتى مجيء المسيحية كان المصري القديم يعيش حرية دينية ومن هنا هم يتهمونني بأنني أدعو لتعدد الآلهة وأنا لا أدعو لذلك بل أحيلهم إلى تاريخ قديم جعل العقل المصري جزءا منه تلك الطمانينة التي جعلت الخاصية التي تميز مصر حينذاك أنها لا ترى الآخر معاديا مجرد الاختلاف في الرأي. إلا عند الاضرار بالوطن. وظلنا إلى ذلك حتى قبل قدوم الحركات الوهابية المسبوبة. ولذلك أقول إن منطق المصادرة ليس جزءا من العقلية المصرية أو الذهنية المصرية إلا ارتباطا بمفاهيم خاطئة أوردتها مفكرون مسلمون على أنها هي الإسلام.

عمارة وإهانة الأنبياء

■ قال د محمد عمارة في حديث مع إذاعة لندن في الأسبوع الماضي إن مشروع الفكر خارج الاجتهاد لأنه يطعن في صحيح التراث والعقائد

التي تجمع الأمة مما يستفز مشاعر المسلمين وأن هذا الاستفزاز يحدث في مناخ عالمي يتخذ من الإسلام عدوا له ما رأيك وهل «حضرتك مزودها شوية» في حديثكم عن الأنبياء، خاصة النبي يوسف أو فيما تسميه في كتابكم الحزب الهاشمي المشروع القرشي؟

هذه إحدى سمات الأخطاء المنهجية لذلك التيار الذي يرى في الآخر المختلف عدوا للإسلام. يا أخي أنا أرى أن كل دول العالم حتى المدممة منها لا ترى إلا مصالحها ولا تنربص لا بالإسلام ولا باليهودية والموقف الغربي من الإسلام هو نتيجة صورة قدمناها نحن عن الإسلام لهذه المؤسسات العالمية. نحن قدمنا صورة تشابه للإسلام عندما يقتل إنسانا بخالفنا الرأي عندما نصادر كنائيا بخالف الرأي، أما مسألة أنني أتعرض للأصول والثوابت فهذه مقولات جرت بها أقلام الفقهاء بمعنى أن الفقهاء هم الذين حيدوا بين الثوابت وبين نتجتها ومرة أخرى يؤكد أنهم رجال ونحن رجال، هذه ليست نظرية نهائية ومطلقة بدليل أن الخليفة عمر بن الخطاب قد اجتاز على الثوابت بمعنى أن من تلك الثوابت الفرائض ومن الفرائض فريضة فرضها الله على المسلمين وقالت الآيات فريضة من الله - سبهم المؤلفة قلوبهم الغناء عمر بن الخطاب مثلما ألقى ما كان معمولا به في زمن صاحب الدعوة عندما وقف على المنبر وقال:

- متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما واعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء أي أنه لم يكن قد مضى على وفاة الرسول حوالي عشر سنوات إلا وكان عمر قد رأى أن الواقع قد تغير إلى الحد الذي يتطلب منه كخليفة لرسول الله أن يتغير ويغير من فهم النصوص، إذن أنا لا أعترض الثوابت بل أنا أفهم أن الثوابت هي:

- (الإيمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه والقدر خيره وشره والعالم الآخر) هذا هو قانون الإيمان، أن نقوله ونؤمن به أو نرفضه ولا تؤمن به هذه أمور محلها القلب أنا لا أناقشها ولكني أناقش أموراً أخرى هي التي تتعلق بما نعيش... هي التي تتعلق بالعدل الاجتماعي هي التي تتعلق بكيف نستقوي أمام القوي، وكيف تواجه دولة هزمتنا أكثر من هزيمة ولا نطلب أكثر من ذلك ومناقشة الكوابح التي تكبح الحريات باسم الدين. ولكن الذي حدث هو أننا سحبنا القداسة من القرآن وأسبغناها على السنة ثم سحبناها من السنة وأسبغناها على الصحابة، ثم سحبناها من الصحابة وأسبغناها على الخلفاء الراشدين ثم سحبناها من الخلفاء وأسبغناها على الفقهاء الأربعة ثم سحبناها منهم وبنا للكرامة والسبناها لرجال الدين اليوم بدليل أن صحيفة الاتهام تتحدث عن أنني تعرضت لمشايع مسلمين معاصرين، عدت للكتاب فوجدتني لم أتعرض إلا للشيخ الغزالي

والشيخ عبد الصبور شاهين. فهل وصل الإسراف في التقديس إلى هذا الحد، وهل وصل الإسراف في التحريم وإغلاق كل النواهد على البحث والمناقشة إلى هذا الحد؟..

- أنا إسلامي بدعوني إلى رفض كل هذا والتعامل مع الإسلام البكر قبل أن تضاف إليه هذه المساحات الكبرى من التقديس وأنا أؤمن أنه لا قدسية في الإسلام إلا لله وحده ولا عصمة إلا لله وحده..

وأرى رداً على د. عمارة فيما يخص أن مشروع أن عبث المطلب كانت رغبته أن يكون ملكاً على الحجاز وعندما فشل جاء حفيده وعمل له هذه الدولة. هذا تسطيح للأمور. لأنه بذلك يستعدي علي جماهير الأمة. ويضعني في خانة المارق على الإسلام ويعطى فرصة لأي مافون أحق بقتلي كي يدخل الجنة، ومحمد عمارة هنا اغفل اغفلاً كاملاً أنني كتبت في مقدمة كتاب الحزب الهاشمي الطبقات الثانية والثالثة والرابعة ما يشرح الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والشعر الذي وجد وسجع الكهان بما يؤكد أن هذا كله يمهّد لمحج الدعوة فلما جاء النبي بدعوته فهموها لأنها جاءت في سياق طبيعي، ولكن أصحاب عمارة يريدون أن تأتي الأمور فجاء ومن هراغ بشكل معجز وملغز وهكذا تكون مقدسة، ولكنني أرى القدسية شيئاً آخر وأرى أن الله لا يرسل نبياً إلى الأرض إلا بعد أن يهيئ الواقع نفسه ليتفاعل معه فيصبح جزءاً من تسيجه المنطقي بدليل أن العرب في تلك الوقت كانوا يتوقعون ظهور نبي فهل هذا يخالف السنة القدسية لله أم أنه من كمال الله أنه يمهّد للواقع لمحج نبيه أما إيمانهم هم المبتاثريقي فهو لون من بقايا إيمانهم بالسحر، ولكن الله أكمل من ذلك.

التاريخ لا يعرف بني إسرائيل

■ أنا أسف مضطر أسأل مرة ثانية هل أسأت وخدشت قدسية بعض الأنبياء؟
احترم إلحاحك ولذا سوف أقرا لك من كتاب رب الزمان ما يتهمونني به ويقفون معه، وتحت عنوان: المصريون والإسرائيليون في التوراة وفي التاريخ وأنا في هذا أرى على المنظومة الصهيونية، يعني إلى هذا الحد لا يدركون أهمية ما تقول رداً على المنظومة الصهيونية لا لشيء إلا أنهم قد رأوا أنك قد تحدثت بشكل لا يرضيهم عن شخصية تراثية، وأنا في رب الزمان تكلمت عن تاريخ مصر في التوراة وفي التاريخ وحينما جاء الحديث عن إسرائيل وجبت أن هذا التاريخ المقدس يعطى إسرائيل حجماً هائلاً يجتمع على صدورنا ويعطيهم مبررات الوجود فقلت:

«خير خلف عن خير سلف فكان هم في المقدسات هم المقدسون عن الأمم الضالة جنهم البعيد هو إبراهيم الخليل، أبائهم اسحق ويعقوب الملقب

بإسرائيل وبنيه بني إسرائيل الأسباط المكرمون ومنهم يوسف الصبي الفاتك الجمال الذي توزر على خزانة المصريين وعلم خبراء الزراعة ومهندسيها في مصر كيف يواجهون قحط السنين.

نلك هي الغفرة التي اقامت الدنيا وأفعدتها وانهم من أجلها.. اليس هذا الكلام هو ما افاد به المقدس أما كون تقرير مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر يكتب من وجهه نظره أن هذا أسفاف وتهكم فهذا قول مردود علمه أن عفتكم وبطركم لا يرى إلا الأسفاف.

أسطورة الأديان !!

■ ولكن البعض يتهمك بأنك تذكر كلمة الأساطير كثيراً فيما تدرسه من تاريخ الأديان مما يضفي عليها الخرافة وعدم المشروعية؟
- هذه نفس التهمة التي وجهت للدكتور نصر حامد أبو زيد وتسيبت في الحكم بتفريقه عن زوجته د. ابتهاج يونس بتهمة الارتداد عن الإسلام وقد ردت عليها في مناقشاتي لحيثيات محكمة الاستئناف رداً ففهما، بمعنى أن كلمة «أسطورة» من سطر أي كتب أي سجل أي دون، وأنا لن الجا للاحتماء بهذه المعاني وعليهم أن يرجعوا إلى لسان العرب ليخرجوا منه بهذا لكن الذي درج بعد ذلك كان بمقارنة كلمة الأساطير الدارجة في اللغة بالدلالة التي قدمها القرآن الكريم حينما اتهموا الرسول بأنه يحدثهم عن أساطير الأولين، أي ما سجل الأولون ودونوا، لكن الدلالة بعد ذلك اكتسبت معنى الإحاديث الخرافية التي تتعارض مع الدعوة الإسلامية، التي هي دعوة التوحيد، الأمر الثاني أنا متخصص في علم الأساطير فمن الطبيعي أن يرد في كتاباتي الأساطير والحديث عنها لكن هذه الأساطير إطلاقاً لا أقصد بها الديانات السماوية بقدر ما أقصد بها ما كان يسمى بديانات قديمة مثل زيوس، يا أخي لماذا بغضبوني مني إن تعاملت مع الأساطير وناقشتها، القرآن الكريم نفسه تجادل مع تلك الحضارات القديمة وأساطيرها وتاريخها وتحدث عن الآلهة..

وتحدث عن الآلات والعزى وعن دود وعن سواع وعن مناة الثالثة الأخرى وعن الفرعون الذي آله نفسه، تكلم عن كل تلك الأساطير وغيرها وهذا الكلام غير ممنوع هذا كلام في العلم.

متفرغ في الوزارة ومتهم بالكفر!

■ د. سيد القمني هناك مجموعة تناقضات لا بد أن تحاول حل الفازها، التناقض الأول أنك محل احترام وتقدير الخط الثقافي الرسمي ووزارة الثقافة تفرغ بمقابل مادي لكي تنجز مشروعك الفكري وطرف آخر من الدولة سواء

ازدراء المسيحية في الشوارع!

وإذا اتهمت ظلماً بازدياء الألبان فسوء، اطالب فوراً وأولاً بمحاكمة كل من يفلون وراء رتل الكتب التي تزيرى اشقامنا في الوطن المؤمنين بالديانة المسيحية والتي تملأ ارضية الشوارع والمكتبات ، والتليفزيون المصري الذي يسمح للشيوخ الضعفاء لما يزيد على ثلاث سنوات وهو يجلس في المسجد وامام الجماهير والفاضي والداني وفي داخل كل بيت في ذلك الصندوق السحري ليسفه ويسخر ويضحك على عقائد المسيحيين في مصر، ولم يحاسبه احد ولم يتجرا احد على المطالبة بحاسبته ولكنني املك تلك الجرة . ناهيك عن اني انكر انكاراً مطلقاً اني قد ازيرت الألبان او تهكمت على النبي يوسف او غيره إطلاقاً . انا كتبت بعبارة بسيطة اجتنبها البعض نهكماً لانه لا يرى سوى ان يضعني في قصص الاتهام ويخرس صوتي.

واخيراً انني ارى ان تحويلي والكتاب للقضاء لمساعدتي واخذ اجوبيتي عن الاتهامات الموجهة لكي يؤيد المصاردة من عدمه هي خطوات حضارية محترمة ، وبغض النظر عن الحكم النهائي فانا احترم القضاء المصري ملائنا الأخير واشكر اصدقائي المحامين خليل عبد الكريم ، د. إبراهيم صالح ، يسري مرعي ، إبراهيم عبد الرحمن ، مصطفى حسان ، امير سالم ، مصطفى عويس ، محمد عبد العال ، اسامة شاكر، وسعيد عارف.

ونبقى لى كلمة أخيرة .. ان اكرر انني اسعى إلى التأكيد على العقل في الدين في كتابي رب الزمان ولست ضد الدين حتى لو استفز هذا مشاعر العاملين بشئون التقديس ووسطاء الدين المحترفين الذين لا يريدون إيصالها للناس والليل على ذلك أن فهمي هويدي كان قد رد على الكتاب في الأهرام وقال: إن هذا الكلام لا يقال على الملا لأن إشراك العامة في مثل هذه الأمور يثير الفتن إنهم يريدون فقط ان يوصلوا للناس ما يريدون أما غير ذلك وهو موجود في كتب الدين والأثر الإسلامي : فلا يريدون إيصاله للناس، وإنما نناقشه سوياً في جلسات ديوانية خاصة بينما لا لسبب إلا أن ما يريدون إيصاله للناس هو المطلوب تحقيقاً للمصالح وأخفاء الجوانب الأخرى لأنها تضر بالمصالح الحالية. هذه الانتهازية الشديدة في التعامل مع نصوص الدين بحيث تنفع استشهاده به في زمن الاشتراكية والانتفاخ والسلم والحرب مع إسرائيل وهكذا يظل الدين ممتهناً في حسابات نوى السلطان.

الأمر الشريف أو وزارة الداخلية في شكل شرطة للصناعات الفنية تنفذ تقرير للبحوث الإسلامية بالمصاردة ، ما قولك في ذلك؟

- بالنسبة للأجهزة التنفيذية فقد عاملتني شرطة المصنقات بشكل حضاري ، واكدوا انهم مجرد ادوات تنفيذية وليس من الضروري ان يكون ما فعلوه معي معبراً عن اعتناقهم لمذكرة الأزهر فهم لا مع ولا ضد .. ولكن رغم ذلك في سؤالك تكمن المشكلة، وهنا هذا المنهج الذي ادى بنا إلى حالة من "الشيزوفرينيا" الواضحة على كل المستويات وإليك مثال التعليم:

الطالب يدخل إلى حصة الفيزياء أو حصة البيولوجي فيدرس أن الخلية الأولى والسائل المنوي والنواة تكونت خلال ملايين السنين بكذا وتتفاعل كذا إلخ. يخرج من هذه الحصة يدخل إلى حصة التربية الإسلامية أو المسيحية ليقل له: إن الدنيا قد تكونت في ستة أيام ثم استوى الله على العرش كما في القرآن أو استراح في اليوم السابع كما في العهد القديم أو في المسيحية واليهودية، هذه الشيزوفرينيا تجاوزها العالم وذلك بأنه لم يجعل للدين هذه المساحة التي نعطيها له في حياتنا، نحن نحكم المقدس في كل شيء لدرجة عند اكتشاف أي مخترع جديد كنا نسال أنفسنا: هل ورد ذكره في القرآن أم لا؟ هل هو حلال أم حرام، وهنا نزيد من القول : إن العلم محايد ولا علاقة له بالدين

■ ولكن ماذا تقول إن تشملت أنت مؤمن أم ملحد؟ مسلم أم لا؟

- إن هذا السؤال لا محل له وارفرض الإجابة عنه لأن هذا السؤال يتعلق بما هو داخل الضمير والبيه .. ولو انني اجبت عليك باسني مسلم ما الذي يؤكد لك إن كنت صادقاً ام كاذباً .. ولذلك فالسؤال لا محل له لأنني اظن حسب حقوقى الدستورية وحقوقى المدينة أن العقيدة شيء يخص ضميرى وأنا ارفض ان اجيب على هذا السؤال المرفوض وهذا بالضبط ما طبق قواعده القادرية وكيل النائب العام محمد نور مع طه حسين لما قال هذا بحث علمي أما الإيمان فمحل القلب والرجل تبدو إجاباته أنه مؤمن ومسلم ، ولن انازل عن حقوقى وسوف اقاتل بفكرى وقلمى ووجنتى وحياتى دون جبن أو تنازل عن كافة هذه الحقوق وأعد إلا أكون علامة تراح في مثل هذه المصارك والا أكون نمونجاً للهروب وساقاقل من أجل كلمتى وحريتى.



مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان Legal Research and Resource Center For Human Rights

بيان

تقدم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر لمباحث أمن الدولة بتقرير ضد الفكر والباحث د. سيد القمني لمعايبت ومصادرة كتاب «رب الزمان» والذي صدرت محتوياته في سلسلة مقالات منذ خمس سنوات مضت وألقى التقرير بعدد من الاتهامات ضد الكاتب من ضمنها سفره من بعض علماء المسلمين والتي تنحصر تحديداً في مقالين يختلف فيهما الكاتب مع الشيخ محمد الغزالي د. عبد الصبور شاهين

والغريب في الأمر أنه هنأنا على ذلك التقرير الصادر من إحدى جهات الأزهر الشريف قامت مباحث أمن الدولة بهرض الأمر على نهاية أمن الدولة العليا والتي أخذت البلاغ بجدية وقيدته بالخطر رقم ١٠٧٥ حصر أمن دولة على لسنة ١٩٩٧ وأصدرت قرارها بمصادرة الكتاب من ناحية ومغسر المؤلف على محكمة شمال القاهرة لاستجواب كتبهم فيما ورد من اتهامات بتقرير الأزهر.

وبعض النظر عن الطعون القانونية والمستوى فيما تم مع الكاتب والكتاب من استجواب ومصادرة، حيث لا اختصاص للأزهر وحيث أن التقرير المزعوم لا يتجاوز كونه مجرد وجهة نظر لمرئىف الذي كتبه وحيث لا اختصاص لمحكمة شمال في التحقيق مع مؤلف الكتاب كتبهم، وحيث لا توجد تهمة محددة وحيث أن الاختلاف مع آخرين في مقالات كتبت منذ سنوات ليس محلاً لإعتباره قضية أمن دولة عليا. أو مجالا لكي يساق المفكرين والكتاب هكذا أمام جهات القضاء وبالطبع تمت سيف الترويج بإحتمال حبس ألهم في إطار السلطة التقديرية للنيابة أو القضاء نقول بغض النظر عن كل ما هو قانوني أو دستوري أو يتعلق بحقوق الإنسان والمواثيق الدولية فإننا سمعنا نهد من هذا النهج المتصل والذي يجري في مصر الآن، ذلك النهج الذي يترصد الكتاب والمفكرين والمبدعين في كل ما يلمكون فيه وفي كل إنتاجهم الثقافي ويطعن السلطة لمن لا يملكها - ومن باب «الذكاء السياسي» - لتدخل مؤسسات دسيسة بين ومؤسسات تعليمية، سواء في إصدار فتاوى أو آراء تكتب في مطور معدودات، لتقلب بعدها الدنيا وتبدأ معاداة التفتيش في الخروج من قبورها وتُحرق فيها الكتب وتطير رقاب الكتب!!

إن مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان يرى أن الأمن القومي الحقيقي لمصر يبدأ من احترام الدستور وإصلاح القوانين والقيل ذلك يكون بإحترام الحقوق والحريات العامة وكذا حقوق الأفراد من قبل جميع سلطات ومؤسسات الدولة إن احترام وتفعيل اليات الديمقراطية وحقوق الإنسان في المجتمع هي الضمانة الحقيقية والوحيدة لبناء مجتمع قوى قادر على مواجهة تحديات العصر، والاصرار على التطرف والتشدد وملاحقة الكتاب والمفكرين سواء من قبل الجماعات أو كتبة التقارير الذي يدعون أنهم المدافعين عن الإسلام أو حتى بعض المؤسسات الرسمية للدولة، إن ذلك لن يؤدي إلا إلى تفتيت الوطن وخلق مناخ ظلامي فيه تعميم على العقل والحريات. ونعتقد أن ذلك هو ما أرادت قوى معادية لمصر سواء في الداخل أو من الخارج، ونحن نعتقد أن ذلك لا يعتبر من أمن الدولة المصرية في شيء.



بيان بشأن معاصرة كتاب (رب الرمان)

القاهرة في / ٢٠ / ٨ / ١٩٩٧م

• يعرب مركز الكلمة لحقوق الإنسان عن عتبتي أمله لمعاصرة كتاب (رب الرمان) للمفكر الكبير الدكتور / سيد القمني المعروف بوجهاته المتشعبة بعد أن قامت شروطه المستطاع الفريد يوم السبب الموافق ١٦ / ٨ / ١٩٩٧ وبما على تقريره من الدولة اليونانية والتي أصدرت بقرارها لقرار من مجمع لحقوق الإنسان الإسلامية لتصبح لتصبح الأهر الشريف بحاضرة أهل الكتاب والركبات والأفلام الخاصة به وبم تقديم مؤلفه بهذه العرض للأفلام وأزيراً الإنسان ولهم أن الكتاب نفسه هذه الاتهامات حطية وتعميلاً وأوضح بأنه لا يمكن نشر ولاقتباسه لمر المؤلف من وحيد وأن نمسك الإحسان أيضاً كالمهمى بالنسبة للتحرير من شأنهم أو انفسهم من «سيد القمني» دورهم خطاً فال مركز يتابع بخلق بالسم بطر. وإب التوجه وبأدب من سرعة الإفراج عن كتاب (رب الرمان) وعدم التمس بعد واحد أو ملاحقته حتى لا يعود التي تعود الخلاصة ومحاكم القمني التي كانت تبطئ بالمفكرين وتعتصم بالمستعيرين وتعتصم أفلام المتفكرين .

• وأخيراً فال المركز يناشد جميع مؤسسات ودعاه المجتمع المدني وحصل معظما حقوق الإنسان بالتحسين مع المفكر / سيد القمني والوقوف إلى حواره في محبة التي يعرض لها الآن ، المركز الحضور بعد في جلسة ١٥ / ٩ / ١٩٩٧ أمام محكمة نبال القاهرة .

مدير محام المركز

ممدون حليمة

الحامد موعظة



ت / ٢١٨٥٤٤١

فاكس / ٩٨٠٩٧٧ / ٢٠٢

لعناية السيد الأستاذ/

نداء إلى ضمير الأمة

المثقفون المصريون والهيئات المدافعة عن حرية الفكر والتعبير والإبداع، الموقعون، على هذا النداء، وقد هاهم موقف مجمع البحوث الإسلامية إزاء كتاب الدكتور محمد عبد الحليم عبد الله، رب الزمان؛ وتصريحات قيادات المجمع عقب ذلك، يرون أن الهجمة الشرية التي تتابع حلقائها خلال العقود الماضية ضد الفكر الحر والرأى المستنير والاعتقاد بهاد العلمى، قد وصلت إلى أقصى درجاتها حيث يبدو التحقيق مع القمىة أة رب إلى محاكم تفتيش واضحة، الأمر الذى يهدد بالقضاء على ما تبقى فى حياتنا من عناصر الحرية والإبداع.

وإزاء هذا التصاعد الخطير يتوجه الموقعون أدناه إلى كافة المصريين أفراداً، مؤسسات، وهيئات، مؤكدين على ضرورة التضامن معاً، حفاظاً على حرية الإبداع والاعتقاد بهاد العلمى والفكرى، والعمل على حماية المثقفين، ودعم المفكرين والمبدعين والعلماء. كذلك يطالبون الجهاز التشريعى النهوض بمهامه الأساسية؛ لتدعيم المواد الدستورية التى تكفل حرية الفكر والإبداع والتعبير والاعتقاد بنصوص قانونية واضحة تنفى عن أية جهة - باستثناء السلطة القضاء - حق الإبلاغ أو التحقيق أو المصادرة ضد أى إنتاج الفنى والفكرى والعلمى.

إن الحملة التى يقودها التيار الطلامى فى الحياة السياسية والفكرية المصرية المعاصرة، والدعم الذى يتلقاه من جهات داخلية وخارجية بأشكال مختلفة تشير إلى أننا نسير على طريق لا يهدد حياة فرد هنا أو هناك فحسب، بل يحكم بالموت على مجمل إخواننا الحضارى الممتد والفاعل عبر التاريخ الإنسانى بأكمله. وما لم ننبه الآن لواجبنا الكبير، فسوف يكون الأوان قد فات إلى الأبد.

(١)
الموقعون

إ.د. حسابر عصفور	نبيل زكى	صبرى موسى	د. شيرين أبو النحأ	صلاح عانى
مكرم محمد أحمد	إ.د. صلاح فضل	إ.د. مختار السويفى	فتحى إسماعى	إبراهيم منصور
إ.د. فاطمة موسى	فاروق خورشيد	د. أمينة رشيد	سلوى بكر	ليلى عبدالفتاح
أحمد عبدالمعطى حجازى	إ.د. عبدالمعصم أنيس	عبدالعالى الباقورى	عماد العزال	محمد عبدالرحمن
إ.د. حسن حنفى	محمد لوح	د. طوفى حلال	شاهدة مفند	أسامة عرابى
رائت الميهى	عادل حموده	فتحية العسال	عبد الغفار شكر	رضا هلال
أفنية سرى	إ.د. أميرة مطر	حسن عبدالرازق	وجه وجه	فوزى الموارى
محمد عرفة	صنع الله إبراهيم	إ.د. عواطف عبدالرحمن	إبراهيم عبدالمجيد	راضية أحمد
إ.د. رضوى عاشور	د. رفعت السعيد	مراد منور	د. فاطمة البودى	هانى المحسى
محمود أمين العالم	إ.د. صلاح مرعى	سيد حجاب	عبدالمعز رمضان	طارق المرسى
د. حسين أحمد أمين	أبو المعاطى أبو السحا	عطيات الأسودى	كرم السحار	سمر إبراهيم
الهنان/ عمود مرسى	صلاح عيسى	إ.د. ماهر عسل	محمد الرفاعى	صبرى الفز
على أبو شادى	د. عزة الخميسى	عملة الروبى	أحمد هاشم الشريف	فاروق عطية
د. أحمد يونس	إ.د. حسام عيسى	عبدالله الطوحى	رضوان الكاشف	ابتهال سالم
أسامة أنور عكاشة	أمينة النقاش	صلاح السعدنى	سليمان صاص	جمال العربى
جمال الفيضانى	أحمد فؤاد نجم	د. هالة فؤاد	عبدالعالى الحماصسى	د. محمد سمير فياص
إ.د. عبدالمعز تلمة	إ.د. يحيى عزمى	حلمى شعراوى	رغوف عباد	أسامة تحليل
وحيد حامد	إبراهيم عيسى	د. محمد كامل القليوبى	محمد إبراهيم مبروك	بكر الجلاسى
د. سيد البحرأوى	إ.د. عاصم الدسوتى	د. عماد أبو غازى	هناء عطية	
إبراهيم أصلان	فريدة النقاش	عبدالفتاح رزق	د. هشام السلامونى	
	جمال بخت	محمد بقدادى	حسن بيومى	

ملحوظة: ولا تزال الترقيات عمال. وتجرى الاتصالات مع كبار الكفاء والمفكرين والمبدعين غير المتواضعين بالضرورة حالاً،
كسعيد الدين وهبة أو إله. عبد القادر اللط أو كامل وهبى أو إله. على الترامى. والفاطمة تردد طرأ فى كل لحظة

(١) قام بجهد الاتصالات وجمع التوقعات فيما رنى إلى عنمننا الدكتورة عزة الخميسى والدكتور أحمد
يونس فلهمما خالص التقدير.

إذغ الأستاذ الجليل الدكتور جابر لعصفور المحترم
 لله مني أطيب التحيات وبعد ..

قرأت النداء الموجه منكم ومنه نلتح المسئير من تستفكروه فيه
 بوقتكم إنطلاقاً من مواقف الأحرار والمجاهدين وعلى رأسهم الدكتور
 القنبي من رأيت أنه تشترككم رابطته الدباء والديباجية من خرمين
 غير أنه هذه الجمعيات الثقافية ترى أنه تطلع على الكتاب
 الذي أفنى به مجي (بحون إسلامية) لكي تكون المشاركة على
 علم على بعد الإخلاص على الكتاب الذي دفعكم إلى توجيه
 النداء وتطبيعهم إصاال الكتاب مع أيه ماضيه معرك الكونية
 وهم كثر من أو بواسط الدكتور الملمع الثقافي الكوني بالسفارة الكونية
 عبد الله عارف ليس إلى رابطته الدباء . أنه لننتصار للحرة
 الفكرية من واجبات كل منصف مصري أو غير مصري .
 ضمناً . تقبلوا مني أصدق التحيات .

عبد الله عارف البشير
 عضو رابطته الدباء الكونية

رب الزمان

أحدث صيحة للفكر الضال

مشحون بالاسفاف والتجريح

ولم يسلم منه الأنبياء ورجال الدين

نعرض هذه المرة لأحدث تقرير صدر من مجمع البحوث الإسلامية ضد مؤلف جديد يأتى فى سلسلة كتب الموضة الجديدة التى لم يجد أصحابها سبيلاً إلى الشهرة سوى الهجوم على الإسلام وشخص الرسول الكريم وأصحابه ورموز الإسلام فى العصر الحديث.

فقد تخلى هؤلاء عن كل مبدأ وكل قيمة وأمسكوا بمعول الهدم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله فتح نوره ولو كره الكافرون. وقد وضع هذا الكاتب الذى يدعى سيد القمنى مؤلفه تحت عنوان (رب الزمان).

وقد أثبت تقرير الأزهر أن الكتاب مشحون بالاسفاف والنقد والتجريح والذى لم يسلم منه بعض الأنبياء كسيدنا يوسف عليه السلام وأن الكاتب تهكم وسخر من شيخين جليلين هما المرحوم الشيخ محمد الغزالى والدكتور عبد الصبور شاهين ووصفهما بما لا يليق بل لم يفته أن يتهكم ببعض رجال القضاء بل والأمة الإسلامية.

ولهذا فقد طالب التقرير الصادر من الأزهر الشريف بعدم التصريح بطبع الكتاب وضرورة اتخاذ اللازم لمصادرته لما فيه من معلومات لا يقرها ديننا الحنيف ولا يستفيد منها القارئ.

الفراعنة والكعبة

وفي الصفحة (٦٦) تحت عنوان : هل بنى الفراعنة الكعبة ما نصه - قامت الثورة الكبرى في مصر ضد الملك وضد الكهنة ورجال الدين في نهاية الاسرة السادسة الفرعونية وهرب كهنة مدينة منف الى الجزيرة العربية حيث اكتفوا هناك بالكعبة (بنى مناف) او اهل منف بينما اطلق عليهم الفراعنة اسم (جرهم) اى مهجرى مصر وان نبى الله ابراهيم عندما ترك سريته (هاجر) مع رضيعها (اسماعيل) في جزيرة العرب ووجدت نفسها وسط اعراب لا تعرف لغتهم : لجأت الى قبائل جرهم المصرية وامكنها التفاهم معهم وكان بنو مناف او الجراهمة قد اقاموا في هذا المكان بيتا للعرب هو الكعبة على غرار كعبتهم المصرية التى تركوها في منف وتعرف حاليا بهرم ميدوم .. الى ان قال في الصفحة (٦٧) منذ بداية قيام الدولة المركزية : اى منذ حوالى خمسة الاف عام مضت وبذلك يؤكد في موضوعه انهم كانوا اساقفة عرب الجزيرة العربية عبر الانبياء الذين زاروا مصر وتعلموا منها التوحيد ثم علما يعلمونه في جزيرتهم : « ليس مما يثير الدهشة والاستغراب ويبحث في النفوس الاسى والحسرة ان ينسب هذا الكتيب الى انبياء الله الذين اصطفاهم الله واجتباهم ولوحى اليهم برسالاته انهم زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد ثم علما يعلمونه في جزيرتهم . وباسلوب التهكم والسخرية من العالم الاسلامي جاء في الصفحة رقم (٨٠) وهذه افه اخرى من افات منهجنا في التكفير ايت بنا الى ما نحن فيه في قاع العلم مع الجن والشياطين فالحديث نموذج امثل لمنهج تفكير جماهير امتنا العريضة الغليظة والعدد في الليمون كما تعلمون ، لكن المصيبة اعظم حيث ان ذلك ليس حديث العامة بل اصبح حديث الخاصة والانكى انه حديث كتبتا التراثية التى تملأ ارفاف المكتبة العربية ويوصف اصحابها بانهم علماء الامة ؟ وستجد في كل صفحة من تلك المصنفات شتى انواع العفاريث ورتيبهم وبياناتهم وصفاتهم ودورهم في بناء كل ألوان المعمار العظيم في الحضارات القديمة !!

لقد بلغ الاسفاف والتهكم والسخرية من المؤلف الى ان الامة الاسلامية وعلمائها وتراثها

وقد أكد التقرير بان الكتاب ملء بالتهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء وبالتراث الاسلامي وبالامة الاسلامية التى نسى مؤلف الكتاب بانها ، خير امة اخرجت للناس ، وبان هذا الكتاب فيه مايندى له الجبين من النيل بثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه - ذى النورين - الذى استحييت منه الملائكة .

بل ذهب المؤلف الى ابعد من هذا كله حين تحدث عن تعدد الالهة سماوية وارضية نكورا وإثانا . كما ان المؤلف اشاد بالثنين من المرتدين - خرج فودة ونصر حامد ابوزيد وفي ذات الوقت حمل حملة شعواء على الشيعيين الجليلين الشيخ محمد الخزاز وعبدالصبور شاهين ونسب اليهما ما من شأنه ان يحط من قدرهما ويمس شرفهما وقد دعم المؤلف كتيبه هذا بعدة مراجع في مقدمتها التوراة .. ولراء بعض العلماء من الفلاسفة ومفكرى الغرب ولم يستشهد في كتيبه هذا : باية واحدة او حديث نبوى شريف يرد بها على تلك المفترقات والاكاذيب .

فقد جاء في الصفحة رقم ٤١ تحت عنوان : الاسرائيليون يخرجون من مصر - عن قصة ملك سليمان قال بالحرف الواحد : فقد تعرضت لحشو واضافات على نطاق واسع على يد كلاب متأخر مشغوف بالمبالغة في وصف رخاء ملك سليمان .. وقد استطاعت هذه الرواية ان تحمل العالم المسيحي بل والاسلامي على الاعتقاد بان الملك سليمان كان من اشد الملوك عظمة وابهة لكن الحق انه اذا قيست منشاة سليمان بمنشآت تحتتمس الثالث او رمسيس الثاني فإن منشآت سليمان تبدو من التواقة .. الخ

ويؤكد تقرير الأزهر بان هذا يتنالا مع ما جاء في قول الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : « قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاهد من بعدى إنك انت الوهاب فسفرنا له الريح تجرى بامرره رخاء حيث اصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد هذا عطاوننا فامتن او امسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن ماب ، اى هذا الذى اعطيتك من الملك التام والسلطان الكامل كما سالتنا فاعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك : اى مهما فعلت فهو جائز .

الإسلامي إلى هذا الحد اليغيب المفقوت الذي لا يقره عقل ولا دين ولا تراهما نفس زكية حرة إبية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عثمان بن عفان

أما ما قاله المؤلف عن ثالث الخلفاء الراشدين سيدنا عثمان بن عفان فقد ورد في الصفحة رقم (١٠٩) تحت عنوان المحرضون الحقيقيون حول عثمان بن عفان رضي الله عنه ما نصه ، ومعلوم أن ثورة المصريين كانت بسبب اشتداد الولاة عليهم مع عامل آخر حيث نجد محرضين حقيقيين لا وهميين مثل محمد بن أبي حذيفة ومحمد ابن أبي بكر الصديق : الذين تركا المدينة وذهبا إلى مصر تحديدا ليحرضوا الناس على الثورة ثم انضم إليهم بعد ذلك عمار بن ياسر .. إلى أن قال في الصفحة (١١٠) ثم جاءت ثمة الأحداث عند جمع المصنف وأبناء صحف وأحراف أخرى مما أدى إلى معارضة الصحابي الجليل حبيب رسول الله (ابن مسعود) وتنديده بما يفعل عثمان بايأت الله حتى أمر عثمان بإخراجه من المسجد وضربه حتى كسرت أضلاعه ثم حدد إقامته بالمدينة .. إلى أن قال في نفس الصفحة .. بل نجد صهر عثمان «عبدالرحمن بن عوف» الذي سبق ورشح عثمان للخلافة وقد أصبح من المعارضين لعثمان وكان يحرض على قتله !! وهو أحد رجالات الهيئة التي رشحها عمر بن الخطاب للخلافة .

كما سبق أن جاء في الصفحة رقم (١٠٧) تحت عنوان : «وعم الرضاء» أن أبي تر الغفار : أخذ يطوف في عاصمة الدولة الثرية يندد بالأترياء متحديا بلسان الفقراء ثم أخذ يحتج على عثمان ويندد بأعطياته الضخمة لأهله من بيت المال وأعطياته الخشمة المعارضين لسياسته لينتهي أمره بالقنلى ليموت غريبا معدما وكان عمار ابن ياسر الذي أعلن احتجاجه على المنح : التي يأخذها تجار مكة الطلقاء ووقف إلى جوار أبي تر يدافع عن قضية الفقراء فأمر عثمان بنفيه بدوره لولا احتجاج الصحابة على عثمان بقولهم «أكلما غضبت على رجلا نفيته ولم يتم نفي عمار وفي موقف آخر : أعترض عمار على أخذ عثمان الجواهر القائمة من الأمصار وتحليلته بها لبناته ونسله فرد عثمان لتأخذ حاجتنا من هذا الفء وإن رغمت

أنوف القوام فقال عمار بن ياسر : أشهد الله أنني أول من أراهم فرد عليه عثمان بسب قبيح قائلا : أعلى يا ابن اعتكاء تجترىء ثم أمر الجند بضربه حتى غاب عن الوعي ولم يهدأ عمار بل حمل كتابا من بعض الصحابة يلوم عثمان ويعتله فشتته عثمان وضربه برجله فاصاب الصحابي الجليل العجوز بالفتق !!

وهكذا وبلا أنفي حياء من صحابي جليل مثل عثمان بن عفان ينسب إليه هذا المؤلف تلك الافتراءات التي هو منها برىء براءة الذئب من دم بن يعقوب .. ألم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

في شأن عثمان بن عفان : « غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ألم يعلم هذا المؤلف ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » .

قال نزلت في عشرة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبدالله بن مسعود ، وعن أنس رضي الله عنه قال « سعد النبي صلى الله عليه وسلم أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف الجبل فقال : أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق ونبيان » وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : في حديقة فلان والباب علينا مغلق إذا استفتح رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الله بن قيس : قم فافتح الباب وبشره بالجنة فقامت ففتحت الباب فإذا أنا بعمري بن الخطاب فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله ودخل فسلم وقعد ثم أغلقت الباب فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يئنك بعود في الأرض فاستفتح آخر فقال يا عبد الله بن قيس قم فافتح له الباب وبشره بالجنة فقامت ففتحت الباب فإذا أنا بعمري بن الخطاب فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله ودخل فسلم وقعد وأغلقت الباب فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يئنك بذلك العود في الأرض إذا استفتح الثالث الباب فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الله بن قيس : قم فافتح الباب له وبشره بالجنة على بلوى تكون : فقامت ففتحت الباب فإذا أنا بعثمان بن عفان فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

قال : « الله المستعان وعليه التكلان ثم دخل
فسلم وقعد ، أخرجه البخارى ومسلم والترمذى
واحمد .

الغزالي وشاهين

وينتقل المؤلف من سب صحابي جليل مثل
سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه الى سب
ولعن علماء اجلاء حيث جاء في الصفحة رقم
(١١١) تحت عنوان (محمد الغزالي وسقوط
الافئدة) .

ان الشيخ الغزالي كان رمز الهزيمة النكراء في
المنابر امام الدكتور فرج فوده وان الشيخ ذاته
هو من جاء الآن ليحكم على صغير رجل ميت
لادانة القتل وتبرئة القاتل الى ان قال : ان
الشيخ خرج عن حذره ليقول في صحيفة الشعب
عد ٧ سبتمبر ١٩٩٣ ان من يناقشون حد الردة
يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد
وتنس عقوبته لتقرير حرية الكفر والايمان
والسكر والنهب والسلب وهم بذلك يصيحون :
افتحوا ابواب الحانات ودعونا نلتقي بالنساء
وكما نشاء الى ان قال : ورغم قوله ان الدولة
مؤمنة فإنه يعود الى الغمز واللمز بقوله : ان
اصحاب هذه التصريحات عصيات قليلة
تستعين بالاستبداد السياسي لتفرض ضلالتها
مشيرا الى تحالف الدولة مع هذه العصيات
الكفور !!

الى ان قال في الصفحة رقم (١١٢) وهكذا
فالرجل قبل ان يملك على العباد ويحكم في
الرقاب يصدر قراراته بتكليم الافواه او النفي
والتشريد او القتل كما لو كنا نعيش في العزبة
التي ورثها عن ال الغزالي !!

يقول علماء مجمع البحوث الاسلامية الذي
يضم اكبر هيئة علمية اسلامية على مستوى
العالم : عجيبا اشد العجب ان يقال في الشيخ
الغزالي ما قيل من هذه الافتراءات التي تدمر
الحقد والكراهية وكأنه نسي او تناسى ان الشيخ
الغزالي كان من خيرة علماء الدعوة الى الله ولا
غرو فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول سألت
جبريل عن اهل العلم ؟ فقال : هم سرح امته في
الدنيا والاخرة طوبى لمن عرفهم واجرمهم ولطوى
لمن انكرهم ولبغضهم ؟!

اما ما قلته المؤلف عن الدكتور عبدالصبور
شاهين فهو شيء يندى له الجبين فقد جاء في

الصفحة رقم (١١٤) تحت عنوان النص بين
الازلية والتاريخية ما نصه .. هذا الموضوع
يلخص في رايتنا سر الازمة التي اثارها الشيخ
عبدالصبور شاهين اذاء اعمال المفكر (نصر ابو
زيد) حيث انطلق الشيخ شاهين من موقف
مالكوف يصير على فكرته الشخصية الثقافية
الثابتة الى ان قال : كما استخدمته منظومة رجال
الدين ذاتها لتأمين مصالحها الخاصة بإبقاء
النص معلق في الفناء غير مرتبط باى واقعة
تاريخية كانت سببا له لاسر مفهوم تماما استمر
عبر اربعة عشر قرنا مضت زرع فيها المسلمون
تحت كافة انواع القهر الطبقي والطغيان
السطوي الذي كانت تتغير مظاهره وتتفاوت
بتفاوت احوال المكان والزمان وعادة ايضا ما
كان يجد ذلك القهر المتفاوت سنده في النص
الذي يفسفه رجال الدين بسحب اى آية قرآنية
في سياقها النص وبتر صلتها بسبقها ولاصقتها
وهم بذلك يسمعون لانفسهم وحدهم بغض ذلك
التماسك الكفلي الذي يدافعون عنه الى اخر ما
قله المؤلف دفاعا عن (نصر ابوزيد) وتحاملا
على الشيخ شاهين الى ان جاء في الصفحة ١٤٧
ما نصه ، حيث تم رفض الاعمال التي قدمها
الدكتور ابوزيد والتي تصل الى ثلاثة عشر عملا
ولم تشفع له لنيل درجة الاستاذية اما الاكثر
تكليفا واثارة للفرع حقا (والكلام مازال
للمؤلف) هو ان يكون التبرير المدون لذلك
الرفض هو اتهام لرجل بالفكر بعد تزوير كلامه
وتحريفه عن موضعه وسياقه على نمط « لا
تقربوا الصلاة » . اضافة الى التلويح في التاويل
المتعسف دون الراى العلمى المفترض وحده
وهو ما فعله تقرير الشيخ عبدالصبور شاهين .
رجل بيوت لهف الاموال المشهور وبالطبع لم
يكن غريبا ان يكون كاتب تقرير بهذا السم
والشكل . رجل من المستفيدين المتاجرين
لخطبهم الديني وهو ما علمناه عنه يقينا في
علاقته باكثر من فضيحة لم يدارها ولم يندى لها
جبين فهو امر مفترض لدى اصحاب الخطب
الديني النفعي !! الى ان قال في الصفحة
(١٤٨) فالقضية اكبر الان من ترقية استاذ انها
منطق الارهاب والتكفير واضطهاد الفكر الاخر
واذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم :
فكيف به لو كان مسيحيا ؟ فيا ايها المسيحيون
المصريون طوبى لكم حقا وصدقا والحق القول
لكم ان مصر تناسس اليوم وفي هذا الجبل لقد

افتتحت قضية نصر الملحمة والله المستعان !!
يقول التقرير الصادر عن علماء مجمع
البحوث الإسلامية ردا على هذا الهراء ان الأسى
والأسف والحنن ليملا نفوسنا حين نطالع هذا
الكلام الخطير الذى فى استطاعته ان يشعل
الفتنة الطائفية فى مصر وأنا لنهمس فى اذن
المؤلف قائلين له اهكذا يكون الدفاع عن الباطل
ضد الحق : والنبل بهذا الأسلوب المشين من
عالم فذ له المكفة العلمية فى الدعوة الى الله !!

ذبح المفكرين بالاسلام

وبلغت المصيبة قمتها وزاد الطين بله ما جاء
فى الصفحة (١٤٩) تحت عنوان ذبح المفكرين
على الطريقة الاسلامية حيث قال المؤلف :
والقارئ لأعمال نصر أبوزيد يكتشف هم الرجل
فى إزالة ومنع الاستخدام النفعي والانتهازى
للملايين الى ان قال ... « ومن هنا استشعر
لولئك الخط الذى يمثله هذا الانسان فشنوا
عليه حملتهم التى قادها مستشار بيوت هبش
الاموال المعروف عبدالصبور شاهين لتدعم بعد
ذلك اسما كثيرة وردت بكشوف البركة لياخذ
التحالف الاسود مداه ليصل بالرجل الى المحكم
حيث يصدر ضده الحكم بتفريقه عن زوجته
بحجة انه اراد الاجتهاد فى قواعد المواريث
فانكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة والمفتى

الضمنى فى هذا الحكم ان الرجل مرتد عن
الاسلام ويصبح من حق اى مسلم مهووس ان
يذبحه وهو مطمئن الفؤاد قرير العين بالنظر الى
العلاقات الواضحة بين الاقطاب حيث الفتى
الشيخ الغزالى فى محكمة قتلة « فرج فوده » ،
باى اى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه
وبالمناصب منحت حكومتنا المباركة هذا الرجل
جائزة الدولة التقديرية .. الى ان قال المؤلف على
سبيل التهكم فى الصفحة رقم (١٥١) : ولاشك
لدينا ان السيد القاضى المبجل الذى أصدر
الحكم كان منساقا تماما مع القاعدة التشريعية
التي سوغت له ان يحكم بما حكم به فتحت يده
لبلى للجحيم يمكنه ان يفتحه ويستخدمه وقتما
شاء قد وضعته له حكومتنا الهراء كما ان
سيادته كائن منساقا تماما مع منغولته الدينية
والفكرية

وبعد هذا العرض لبعض الافتراءات
والأكاذيب التى ساقها المؤلف فى مؤلفه والتى
هى من الخطورة بمكان فإن الابارة العلمية
للبحوث والتأليف والترجمة تطلب الجهات
الأمنية المسئولة بعدم التصريح بطبع الكتاب
وضرورة اتخا الإجراءات اللازمة لمصادرة
الكتاب لما هو مدون فيه من معلومات لا يقرها
ديننا الحنيف ولا يستفيد منها القارئ بل
تشعل الفتنة بين طوائف المجتمع .
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اللواء الإسلامى *

صحيفة الحزب الوطنى أم الناطق الرسمى بلسان الإرهاب؟

قلنا ونقول وسنستمر فى القول: إنهم جميعاً فى خندق واحد، والدليل أن نقرأ صحيفة اللواء (الاختراق الإرهابى للحزب الوطنى) المنسوبة إلى الإسلام فنكتشف على الفور أنها أبداً لم تحاول مراجعة اتهام واحد من تقرير مجمع البحوث بمصادرة كتابى رب الزمان، ولم تفكر لحظة وهى تسوق تكفيرها وتحريضها ضد المؤلف أن تسأل نفسها: — هل ما ساقه المجمع صحيح أم لا؟ ومن هنا عليها أن تحمل تبعة هذه التبعية وذلك اللواء الأعمى للفكر الظلامى، وهو ما سنفعله الآن وحالاً.

وأول آية — تسوقها اللواء الإسلامى — كُفر، وتكفير، وتنفير، وإلقاء النعوت والألقاب دون أى شعور بالإثم، فالصحيفة تضع عنوان موضوعها بعدد ١١ سبتمبر ٩٧ كالاتى: أحدث صيحة للفكر الضال: رب الزمان مشحون بالاسفاف والتحريج ولم يسلم منه الأنبياء ورجال الدين". ثم تبدأ فى سرد الإدانات التى قدمها المجمع الأزهرى للكتاب و أولاهما بالذكر "أن المؤلف أشاد باثنين من المرتدين هما فرج فودة ونصر حامد أبو زيد"، هكذا وببساطة شديدة تم تكفير فرج فى مرسوم أزهرى ومجلة للحزب الوطنى الديمقراطى بعد موته، وأعتبر هو ونصر أبو زيد من المرتدين؟! وبالطبع تم ضمى للقائمة التى تضم فرج ونصر، وهو والله لشرف لو يعلمون عظيم . لكن من قال إنهم يعلمون؟!

التزوير المتأسلم

ولا تجد الصحيفة المتأسلمة أية غضاضة فى التضامن مع التقرير لتزوير الحقائق وتلفيق الاتهامات حتى لو كانت مبتدعة ابتداءً ومفتراه على الكتاب وصاحبه، ونموذجاً لذلك ما اتهمنى به عن كوني قد قلت "أن الفراعنة المهاجرين من منف إلى جزيرة العرب هم من حملوا اسم عبد مناف وأنهم هم بُناة الكعبة على غرار كعبة منف هرم ميدوم، وأن

المصريين أساتذة الدين لأنبياء الجزيرة حيث كان هؤلاء الأنبياء يأتون إلى مصر ويتعلمون منها أصول الديانة".

أبدأً لم نقل هذا وأبدأً لم نزع أن الفراعنة بنا كعبة مكة، فهذا كلام الدكتور (سيد كريم)، وبالمناسبة فإن الطبيب مصطفى محمود (أحد) المروجين لأفكار الدكتور كريم فى مسلسله التليفزيونى (العلم والإيمان)، وخصص لتلك الأفكار حلقة ضمن ما كان يسميه علم الأهرامات أو (البيramidولوجى) . وفى كتابنا وفى الصفحة الأولى من موضوع كتبناه لنرد على الدكتور سيد كريم ومزاعمه ص ٦٥ حيث أشرنا إلى أن هذا كلام سيد كريم فى مجلة الهلال الصادرة فى فبراير من عام ١٩٨٢؛ وأن موضوعنا بعنوان (هل بنى الفراعنة الكعبة: تصحيح مغالطات) هو رد سبق ونشرناه بالعدد الصادر فى ١٥/٣/١٩٨٨ من مجلة القاهرة .

هكذا تتم محاسبتنا على موضوع تم نشره منذ حوالى عشرة أعوام (!؟)، ثم الأنكى أن يقوم المجمع واللواء بلس هذا الاتهام بإسمى وطلب محاكمتى وعقابى على كلام يردده أحد أصدقائهم؟! فهل هكذا يكون الضمير؟ هل هى غفلة؟ لا يمكن مهما كان حسن الظن احتسابها غفلة لأنه يتعلق بمصير إنسان ومصير اتجاه فكرى كامل وكبح للحريات ومحاكمة الأفكار والآراء، لقد قصد المشايخ دس هذا الاتهام علينا لمزيد من تضيق الخناق حتى لو كان إفتراء وكذباً صريحاً وبهتاناً واضحاً كالذى أمامنا.

وفى اتهام أو تزوير آخر لا يمكن وصفه بالشرف تقول اللواء "جاء فى الصفحة رقم ٤١ من الكتاب .. عن قصة مُلك سليمان، قال بالحرف الواحد: فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر مشغوف بالمبالغات فى وصف رخاء مُلك سليمان .. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى بل والإسلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينآت ".

وهنا تكرر المحلة ويكرر التقرير دسه فلا يلتفت أبدأً إلى إشارتنا بالموضوع إلى أن هذا ليس كلامنا إنما شهادة مقتبسة وسط حديثنا بموضوع (المصريون والإسرائيليون فى

التوراة وفى التاريخ / منشور بالعدد الخامس والسادس بمجلة Jusoor / نيويورك / وأرجو ألا يندهش القارئ عندما يجد هذه الإشارة التى تشير لصاحب الكلام الأصلي تعلن أنه الكاتب الاسلامى المحسوب على التيار المتشدد (الدكتور أحمد شلبى)، وذلك فى كتابه (مقارنة الأديان / اليهودية / مكتبة النهضة المصرية / الطبعة الخامسة ١٩٧٨ / صفحة ٧٩)

وهكذا إذا جاء العيب من أهل العيب يكون مش عيب لكن إذا جاء منا يصبح مصيبة كبرى تستأهل التكفير ومصادرة رأى والكلمة وكل الممكن من حريات، رغم أنه بالحق ليس عيباً، ولم يترك سليمان مؤسس دولة إسرائيل الغاصبه فى التاريخ أى أثر بينما تقف منشآت الفراعين شامخة تثبت للعاملين أن سليمان ومنشأته حديث دينى ليس عليه أى دليل علمى. تؤمن به أو ترفضه، لكن لا يمكن احتسابه حقيقة على مستوى المنهج والتفكير العلمى، لأنه لا دليل عليه فى آثار المنطقة جميعاً .

من التزوير إلى التلفيق

المفترض أنه حين أنقدم إلى هيئة موقرة ومحترمة كالهيئة القضائية المصرية، ألا أقوم بعمليات تزوير وكذب متعمد فيما أقدمه من إدعاءات، لكن فى الحالة التى سنتحدث بشأنها الآن سنجدها لا تحتل أية معاذير، فلا هى غفلة، ولا هى غباء فى الفهم، ولا هى تفكير ظلامى معتوه فقط، لأنها لون من التزوير المقصود الفاضح الفصيح الواضح، وذلك فى اتهامنا بسب ولعن علماء أجلاء مثل الشيخ محمد الغزالى رحمة الله عليه، فيقدم التقدير، وتنقل عنه اللواء كلام الشيخ الغزالى الذى استحق ردنا عليه فى حينه، وهى أذ تفعل ذلك تكذب وتزور بالتضامن مع التقرير الأسود.

أما الكذب فهو فى قوله أننا هاجمنا الغزالى ميتاً، مع الأغفال الكامل أن كلامنا ضد الغزالى قد تم نشره والرجل بصحته وعافيته، بصحيفة الأهالى عدد يوم ١٩٩٣/٩/٢٢، وأن كلامنا كان رداً على كلام نشره بصحيفة الشعب المتأسلمة بتاريخ ٧ سبتمبر ٩٣.

وأما التزوير فهو أنه قام يقتبس كلام الشيخ وردنا عليه، لكنه وهو يفعل ذلك قام بإسقاط عبارات قالها الشيخ هى سبب ردنا عليه، أى أنه يعمد إلى التزويد على القضاء منصوراً أنه لن يقرأ ولن يدقق وسيصدر حكمه علينا دون روية وعدالة، فخاب فآلهم وطاشت حلومهم، أنظر التقرير واللواء يرصدان كلام الغزالى كالاتى: "إن من يناقشون حد

الردة يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته لتقرير حرية الكفر والايمان والسكر والنهب والسلب وهم بذلك يصيحون افتحوا الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء". وهنا يسقط التقرير — عن قصد لا علاقة له بضمير ولا صدق ولا عقيدة — بقية كلام الشيخ الغزالي الذى استحق ردنا عليه، إذ أن الشيخ أكمل بعد ذلك يقول: "وإن الآية التى يحتجون بها — من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر — ليس لها سوى تفسير أوحده هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به، ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد، ومن يرى للآية تفسيراً آخر فهو كافر فى دولة مؤمنة، وعليه أن يطو نفسه على ما بها، أو ليرحل إلى مكان آخر، أما إن أصر على التصريح بما يرى، فقد أطلق صيحات كفور تقرب أجله".

نعم أسقط التقرير وأسقطت اللواء — وكلاهما يتسربل بثياب الإسلام — تلك الفقرة القتالة، حتى يكون ردنا على الشيخ بدون مبرر حقيقى، وبدون ذنب جناه.

وبكل تمسح بالحق مع مسكنة مفتعلة يعقب التقرير وتنقل عنه اللواء "عجبنا أشد العجب أن يقال فى الشيخ الغزالي ما قيل من هذه الافتراءات التى تنم عن الحقد والكراهية:" والمعلوم أن كلام الغزالي وردنا عليه كان بسبب شهادة وفتوى الشيخ الغزالي فى محاكمة المجرمين الذين قتلوا الشهيد فرج فودة، وتبريره للجريمة وإدانته للقتيل وليس للقاتل.

أما اللواء الإسلامى، فقد رأت زيادة فى النكارة والمكارة وبانعدام الضمير المسلم لديها، واستخدامها لأردأ وأخس الوسائل لإلصاق التهم بالكتاب لإسكات أصواتهم، فقد دبجت من جانبها تعقيبات إليكم مثلاً منها.

تقول اللواء دون ذرة من حياء أو ضمير "مؤلف جديد [لاحظ جديد؟!] يأتي فى سلسلة كتب الموضة الجديدة التى لم يجد أصحابها سبيلاً إلى الشهرة سوى الهجوم على الإسلام وشخص الرسول الكريم وأصحابه ورموز الإسلام فى العصر الحديث. فقد تخلى هؤلاء عن كل مبدأ وكل قيمة وأمسكوا بمعول الهدم يريدون أن يطفئوا نور الله بأنواهم والله فتحنوره ولو كره الكافرون... وإن الكاتب تهكم وسخر من شيخين جليلين هما المرحوم الشيخ محمد الغزالي والدكتور عبد الصبور شاهين ووصفها بما لا يليق".

ورغم أن القاصى والدانى يعرف دور الشيخ شاهين فى هبش بيوت الأموال لأموال المسلمين، فإن المجلة تتطوع ربما لأنها هى وشاهين من رموز الحزب الوطنى وشركاء محفل واحد، فتقول: "أما ما قاله المؤلف عن الدكتور عبد الصبور شاهين فهو شئ يندى له الجبين" دون أن يندى جبين مجمع البحوث ولا اللواء الإسلامى من أفعال شاهين وتختتم مجلة اللواء عرضها بقولها دون أى تحرز أو تحفظ "وبعد هذا العرض لبعض الافتراءات والأكاذيب التى ساقها المؤلف فى مؤلفه، والتى هى من الخطورة بمكان، فإن الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة تطالب الجهات الأمنية المسئولة ... بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لمصادرة الكتاب".

ولا تعقيب، لأن العُقبى كانت لنا، أما العقاب على ذلك التزوير والتلفيق والأكاذيب فأظنه سيكون مهمة القضاء، لأننا لن نترك هؤلاء الكذبة الجهلة المكفرين لعباد الله يبرطعون فى مساحات الحريات وضمائر الناس دون نضال من أجل حكم قانونى آخر يكشف سوءاتهم وسيئاتهم للعالمين.

ونعد بالاستمرار فى البحث العلمى الرصين والواضح وغير الهباب دون وجل أو خوف، فنحن لا نخاف عمائم هؤلاء ولا اليونيفورم المشيخى لأنه ليس لدينا رهاب القداسة أمام ما هو غير مقدس، وهذا وعد لن نغفل عنه ولن نتوقف عن الاستمرار فى تنفيذه إلا عندما تصعد الروح إلى بارئها راضية مرضية.

أما الحزب الوطنى فىما للحزن الوطنى عليه وهلا حددت أيها الحزب موقعك وموقفك الواضح، وهلا اخترت بوضوح بين الإرهاب وبين الولاء للمؤسسات الدستورية للدولة المدنية؟

نماذج من تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا

مع المؤلف

تحقيق يوم ١١/٩/١٩٩٧

فتح المحضر الساعة ١٠,٢٥ ... نيابة أمن الدولة العليا

حيث تبين تواجد المتهم / سيد محمود القمنى

س: ما اسمك

ج: اسمى سيد محمود القمنى، السن ٥٠ العمل "متفرع للبحث العلمى بوزارة الثقافة، ومقيم بمساكن الرماية ، الهرم.

س: ما قولك فيما هو منسوب اليك من أنك متهم باستغلال الدين فى التمويه والتحليل بالكتابة لأنكار متطرفة بغرض إثارة الفتنة وتحقير وإزدراء الدين الإسلامى والإضرار بالوحدة الوطنية.

ج: اطلاقاً أنا أنكر هذا الاتهام تماماً.

س: كما انك متهم بالإخلال بطريقة الكتابة بمقام وهيبة وسلطة القاضى الذى حكم فى قضية نصر حامد أبو زيد وذلك بصدد تلك الدعوى.

ج: أيضاً أرفض هذه التهمة تماماً وأنكر أن ذلك هو المقصود مما كتبت.

س: ما العلاقة بينك وبين الكتاب المعنون بـ رب الزمان ودراسات أخرى.

ج: أنا مؤلف هذا الكتاب ومستول عن كل ما ورد فيه.

س: هل اشترك معك أحد فى تأليف ذلك الكتاب.

ج: أنا المؤلف الوحيد لذلك الكتاب ولم يشترك أحد معى فى تأليفه.

س: من الذى قام باختيار ذلك العنوان للكتاب.

ج: أنا الذى إخترت العنوان لأنه عنوان لدراسة داخل الكتاب فى الأساطير السومرية، ولا علاقة له بالأديان السماوية.

س: ما هو مضمون الموضوعات التى تضمنها ذلك الكتاب.

ج: يحتوى كتابى على ثلاثة أقسام، القسم الأول فيها بعنوان (إسرائيليات)، أرد فيه على المزاعم الصهيونية ضد بلادى ووطنى ودينى ومستقبل أولادى، والكتاب بين يدى عدالة هيئة النيابة لتؤكد بنفسها من ذلك، والقسم الثانى هو (معارك فكرية) اضطرت لخوضها إما دفاعاً عن الإسلام كما فى موضوع هل بنى الفراعنة الكعبة والعنوان الواضح يقول إنى أصحح كلاماً لغيرى، وفيها قمت بالدفاع عن وزير التعليم الدكتور بهاء الدين المسئول عن المؤسسة التى ترعى زهرة شباب مصر بعد أن اتهمته صحيفة الشعب المتأسلمة بأنه يزور على الخليفة عثمان فى المقررات الدراسية ويتهمة بما ليس فيه وانه قد حدث ذلك فى المناهج الدراسية تحديداً وبقية هذا القسم معارك علمية بحته.

أما القسم الثالث فهو بعنوان (مقالات ودراسات) كنت اناقش فيها موضوعات تشغل بال هذه الأمة.

س: متى قمت بتأليف ذلك الكتاب.

ج: هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات ودراسات نشرت على التتابع الزمنى منذ عام ١٩٨٩ حتى صدروه فى يناير ١٩٩٦.

س: ومتى تم نشر تلك المطبوعات.

ج: كان النشر يعقب التأليف.

س: ما هو اسم المطبعة التى قامت بطبع ذلك الكتاب وما هو اسم دار النشر التى قامت بالنشر.

ج: المطبعة كانت مطبعة عربية للطباعة والنشر، والناشر مكتبة مدهبولى الصغير.

س: ما هى عدد النسخ التى تم طبعها وتوزيعها من ذلك الكتاب.

- ج: هذا أمر يعلمه الناشر والعقد بيني وبين الناشر على ٥٠٠٠ نسخة.
- س: ما هي طبيعة عملك.
- ج: انا متفرغ للبحث العلمي تماماً ولا أعمل لظروف صحية قاسية واحصل على راتب تفرغ من وزارة الثقافة.
- س: هل سبق لك دراسة الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامى.
- ج: هذا جزء أساسى من دراستى، كما أرجو أن يؤخذ فى الحسبان بأننى متفرغ لهذه الدراسة على مدى ٢٥ سنة متصلة مما يجعلنى متخصصاً وبل من أشد المتخصصين.

ملحوظة

- أخذ د/ سيد نسخة من الكتاب لتسليمها للنياحة كوثيقة لأنه قام بإثبات بعض الملاحظات على هامش الكتاب رداً على تقرير الأزهر (تمت الملحوظة).
- س: هل قمت بمطالعة الكتاب موضوع القضية عقب طبعه ونشره؟
- ج: نعم اكتشفت أنه به بعض الأخطاء المطبعية والأسطر الناقصة أثناء الطباعة لكنها عموماً لا تؤثر على موضوعات الكتاب.
- س: هل وصلت أى من تلك الأخطاء المطبعية أو الأسطر الناقصة قدراً من الأهمية على أن تشير إليها أثناء التحقيق؟
- ج: لا أستطيع أن أتذكر الآن إلا عند طرح كل سؤال.
- س: وأين هي النسخ الأصلية للكتاب والتي قمت بتسليمها لدار النشر لطبعها؟
- ج: قمت بعد أحد المحامين بتسليم الأصول فى حافظة مستندات للمحكمة.
- س: ما قولك وقد ثبت من اطلاعنا على حافظة المستندات التى اشرت إليها وما ذكر ببعض الصحف لا يتضمن جميع الموضوعات التى اشتمل عليها الكتاب محل التحقيق؟

- ج: الأصول الناقصة مفقودة .
- س: ما هي الأصول التي سلمتها لدار النشر المتعاقد معها وما هي صفتها.
- ج: سلمت كل الأصول للناسر.
- س: لمن سلمتها
- ج: دار نشر محمد مديولى الصغير بالمهندسين.
- س: الم تستعيد منه تلك الأصول مرة أخرى عقب طبع الكتاب.
- ج: استعدتها ولم أدق في عددها حيث إنها قد نشرت.
- س: وأين يحتفظ بتلك الأصول الآن.
- ج: قلت إنها قد فقدت
- س: ما الذى قصدته مما كتبته فى صفحة (٧٩) من كتابك موضوع التحقيق من الإشارة الأخيرة إلى "أن شهادة واحد من هؤلاء (مشيراً للرجال) تعدل شهادة اثنين من عالمات الذرة وأنه مازالت المهندسة أو الطبيبة أو المحامية تساوى نصف بائع الملوخية أو أحد صبيان بائعى البطنية"؟
- ج: فى البداية أريد تسجيل بعض النقاط الهامة قبل الإجابة على السؤال، وهى
- (١) أنا لم أطلع حتى الآن على مذكرة الأزهر لأجهز دفاعي.^(١)
- (٢) تقرير الأزهر بمصادرة الكتاب وما جرى وما يجرى معى من تحقيقات هو إعتداء صارخ على حريتى وحقوقى المدنية والدستورية.
- (٣) وأن تقرير الأزهر وما يتبعه قد يؤدى بحياتى فى ظل مناخ يريد فيه صبى جهول أن يدخل الجنة. وهذا بحد ذاته جريمة تحريض على القتل.
- (٤) أيضاً لا أعرف هل من حقى أن أعرف من هو المبلغ الذى بلغ فى كتابى لأن الأزهر يقول إن المبلغ هو نيابة امن الدولة .

^(١) وبالمناسبة فشلت كل محاولاتي فى الحصول على التقرير حتى طباعة هذا الكتاب.

لهذه الأسباب أناشد هيئة النيابة الموقرة فى إعطائى فسحة للرد وأن تأخذ بالحسبان ما صرح به كاتب التقرير الشيخ عبد المعز الجزار الوكيل العام لمجمع البحوث صفحة ٤٦ مجلة المصور ٢٩/٨/١٩٩٦.

"أنا حققت خلال الثلاثة شهور الماضية ٥٠ ألف كتاب"، وهكذا نجد الرجل الذى قد فحص يوماً ٥٥٥ كتاب وأنه قرأ كتابى وكتب التقرير وفق هذه الحسابات فى دقيقتين وهو ما يلقي بظله على مدى القيمة الفقهية والعلمية، ناهيك عن المصادقية فى تقرير الأزهر، لقد بدأ فى هجوم غير موفق فحق عليه ردى الذى سأوضحه تفصيلاً.

وإن ما كتبه فى كتابى رأى أراه حقاً، وكنت أعتقد أنى لا أسأل فى دولتى المدنية عن رأى، ولكنى سأجيب رغم ذلك. إن ما يشغلنى إطلاقاً ليس الأزهر ولا التعامل مع الدين فى ذاته بقدر ما يشغلنى مصير هذا الوطن لهذا رأيت من واجبى بنص مواد الدستور التى ساوت بين المواطنين جميعاً فى الحقوق والواجبات. لذلك أردت التنبيه والإشارة إلى كل مجتهد لكى يتقدم بإجتهاده من أجل أن تأخذ المرأة المصرية حقها فى المجتمع المدنى بإجتهاد، ولنا فى ذلك رائد عظيم هو الخلفية عمر بن الخطاب الذى رأى وجوب إيقاف بعض الأحكام وإلغاء بعض الفرائض بعد مرور ما لايزيد عن عشر سنوات من رحيل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، ونحن قد مضى علينا أكثر من أربعة عشر قرناً وأنا أطلب إجتهد فى هذه الفترة الحرجة من تاريخنا، من أجل صالح البلاد والعباد.

س: ما قولك فى أن ماورد فى تلك الفقرة من صفحة ٧٩ من كتابك من تعريض بحكم الشريعة الإسلامية فى تقدير شهادة المرأة وذلك الحكم مما يعد تحقيراً وإزدراء للدين الإسلامى وتناقض مع الآية الكريمة "واستشهدوا شاهدين من رجالكم فإن لم يكن رجلين فرجل وإمرأتان مما ترضون من الشهداء" صدق الله العظيم الآية ٢٨٢ من سورة البقرة؟

ج: الدستور نفسه يقف ذات موقفى وأنا ما تبعت هذا الموقف إلا إيماناً بالدستور

وإخلاصاً له، وأما كلامي فله مدلول هو الدعوة إلى الاجتهاد وفتح أبوابه من أجل أن نعيش قوانين هذا الزمن، فهل تتم محاكمتي من قبل الدولة لأنني أدافع عن دستورها؟!!!

والقرآن الكريم يحوى قاعدة شبيهة بذلك، قد ألغى العمل بحكمها تطور ومدنية المجتمع، وهي آيات ملك اليمين وإمتلاك الرقيق، فهل نحاسب المجتمع كله على أنه قد خالف تلك القاعدة ورفضها؟

أنا رجل أؤمن بالمدينة ومدنية المجتمع لكي نلحق بركب الأمم المتقدمة.

س: ما قولك فيما ورد بالمادة الثانية من دستور جمهورية مصر العربية من أن الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع.

ج: أنا لم أشارك في وضع الدستور.

س: ما قولك فيما ورد بالفقرة الثانية من الصفحة ٨٠ وبصفحة ٨١ من كتابك من تعليق مما تضمنه مقال الأستاذ/ عزت السعدني من " أن الجن من أعوان سيدنا سليمان عليه السلام هم الذين بنوا وشيدوا دولة تدمر القديمة ومعابدها وحماماتها ومسارحها".

معلقاً على ذلك بقولك "هذه آفة أخرى من آفات منهجنا في التفكير أودت بنا إلى ما نحن فيه في قاع العالم من الجن والشياطين وان ذلك ترديد لحديث مأثورنا المفرط المبالغ فيه". وهو مما يعد تعريضاً بما ورد بالقرآن الكريم من أن الجن من أعوان سيدنا سليمان قد بنوا مملكته "حيث تنص الآيتان ١٢، ١١ من سورة سبأ"

(ولسليمان الريح غدوها شهراً ورواحها شهراً ... ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ فيه عن أمرنا نذقه عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ولسان الجواب وقذور راسيات).

ج: مرة أخرى أرى أن هذه مناقشة لأفكارى المفترض أنني حرّ في قولها حسب الدستور وموارده لكنني سأستمر في الإجابة تعاوناً مع هيئة النيابة الموقرة.

عندما يتحدث القرآن الكريم عن الجن والعفاريت والنبي سليمان (ص) نحن نصدق بمنطق الإيمان ونسلم بذلك، لكن ليس أبعد من ذلك. فلا تنسحب قدسية القرآن في رواية معينة على تاريخ إسرائيل، ولا ننسى أن سليمان النبي هو المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل، ثم أن حديثي لم يعترض على الآيات الكريمة، لكنني أعترض على تزييف التاريخ بمفاهيم دينية تنزع عن شعب تدمير العظيم جهده وما قدمه للحضارة وكنسبة للعفاريت السليمانية دون أن يكون ذلك في مقدستنا، والغرض من كلامي في هذا المقام تحديداً هو دعم موقف مؤسسات الدولة الرسمية المدنية التي تحارب الخرافة وانتشار التعاويذ والأحجية التي تتم وفق هذا المنطق، فأنا هنا أدافع عن مؤسسات الدولة المدنية وعن عقل مصر وعن تاريخ الأمة الذي يريدون له دوماً ألا يكون صنعنا ومن جهدنا ومن علمنا وينسبونه للعفاريت والجن وتحاكمني الدولة لذلك!؟

س: ما قولك فيما أوردته بالفقرة الأولى من ص ١١٣ من الكتاب محل التحقيق من طرح تساؤل "وهل يستحق أن نكون بشراً حقاً عندما نهلل لمسيحي يخرج عن دينه ليدخل الإسلام ونقتل مسلماً ليس لأنه خرج إلى دين آخر، بل فقط لأنه أراد أن ينتمى إلى بنى الإنسان فقرر لنفسه حرية الإرادة والتفكير" مما يعد استغلالاً للدين في إثارة الفتنة بين طائفتي الأمة وإزدراء لدين الإسلام.

ج: هذا كلام واضح جلي لا يحتاج شرحاً، وإنى لأعجب كيف أتهم بذلك وأنا عضو في كل الجمعيات التي تعمل على الوحدة الوطنية، وأعجب أكثر عندما اجدني متهماً باثارة الفتنة بين المسلم والمسيحي، بينما الكتب المكتوبة بالأقلام الأزهرية تملأ أرصفة مكتبات مصر بمؤلفات تزدرى الديانة المسيحية علنا بل وتكفر أصحابها، وأود أن أسترعى إهتمام النيابة الموقرة إلى أربع سنوات أو أكثر جلس فيها الشيخ محمد متولى الشعراوى حوالى أربع سنوات فى التليفزيون المصرى يُكفر المسيحية علنا ويسفه عقيدة إخواننا فى الوطن بينما كنت أقوم بعلاج ما يقول بين أبناء مصر فى ندوات ومؤتمرات يشهد لى بها تاريخي الموثق فى هذه الجمعيات وعليكم طلب تلك الوثائق فى محاضرات وندوات.

س: ما قولك فيما أوردته فى آخر الصفحة ١١٣ من كتابك محل التحقيق من القول "... فموت صاحب المبدأ بشرف يختلف تماماً عن موت جهول يطمع فى الخمر والحور، فليس نحن أيها الشيخ من يطلب الحانات والنساء". مما يعد إزدراء وتحقيراً للدين الإسلامى بالسخرية من وصف القرآن الكريم والأحاديث النبوية للجنة وما فيها من حور عين وحظ للمؤمنين فيها (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من غسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم). صدق الله العظيم الآية ١٥ من سورة محمد؟

ج: أنا لم أكن أرد على الآيات التى أوردتها النيابة الآن، لكنى كنت أرد على الشيخ محمد الغزالي فهناك فرق بين محمد الغزالي والإسلام، وكنت أرد على الغزالي عندما هدد فى صحيفة الشعب بقتل من يحاول مجرد محاولة أو يناقش مجرد مناقشة مسألة الردة فقال "إن من يناقشون حد الردة يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الإرتداد وتقضى عقوبته لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والنهب والسلب هم بذلك يصيحون افتحوا أبواب الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء وأن الآية التى يحتمون بها من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ليس لها سوى تفسير حقيقى أوحد هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد ومن يرى للآية تفسيراً آخر فهو كافر فى دولة مؤمنة وعليه أن يطوى نفسه على مابها أو ليرحل إلى مكان آخر، أما أن اصر على التصريح بما يرى فقد اطلق صيحات كفور تقرّب أجله"

ولما كنت فى ذلك الوقت أناقش ما حدث للدكتور/ فرج فودة وما جرى فى محاكمة القتلة وكيف أفتى هذا الشيخ حينها بحق أى مسلم فى إقامة الحد وبالتالي عندما كتب ما كتب فى صحيفة الشعب رأيت أنه يقصدنى ، فقامت بالرد، ولو كان يقصد أى شخص آخر لقمعت بالرد، فهذا تهديد بالقتل فى صحيفة علنية. وهذا بحد ذاته جريمة كانت تستوجب المحاكمة والعقاب، أما قولى أن موت صاحب المبدأ بشرف يختلف تماماً عن موت جهول يطمع فى الخمر والحور فهو يعنى أننا نحب الوطن ونحب الله مجردين لهذا الحب فلا

أبغى جنة ولا أخشى ناراً لكن أعمل المبادئ بشرف.

س: ما قولك فيما أوردته بالفقرة الأخيرة من الصفحة ١٤٨ من الكتاب محل التحقيق من أن "القضية أكبر الآن من ترقية أستاذ إنها منطق الارهاب والتكفير واضطهاد للفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم فكيف لو كان مسيحياً؟ فيا أيها المسيحيون المصريون طوبى لكم وصدقاً مما يعد استغلالاً للدين بقصد إثارة الفتنة والإضرار بالوحدة الوطنية بين طائفتي الأمة؟

ج: هذا سؤال سبق وأجبت على مثله وأود إيضاح واستكمال إجابة السؤال السابق فقد سهوت عن ذكر موضع وتاريخ نشر كلام الشيخ الغزالي وقد نشر كلامه في صحيفة الشعب المتأسلمة عدد ١٩٩٣/٩/٧ كما أنه واضح لكل لبيب أقصد بالصبي الجاهل أى أحد من أولئك الذين يرعون أمن الوطن ويقتلون الأبرياء من رجال الشرطة والمدنيين الأبرياء أكدتها في صفحة ١١٣ من الكتاب عندما قلت "إن من عرض على نفسه أمانة الكلمة ومصير الناس في هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ ولا قنابل صبيته" وأرى الآن أنى قلت رأيي فيما كتب والرد عليه سواء كنت مصيباً أو مخطئاً فأنا لا أعرف القانون كأهله، لذلك أصر على التمسك بحقنى الدستوري فى القول وأن الرد على الفكر يكون مكانه فى ساحات الجامعات أو الندوات أو فى الصحف وليس أمام نيابة أمن الدولة ، كما أننى فى هذه الحالة أمام ظهور اتهامات جديدة لدى النيابة لم يسبق لى الأطلاع عليها فى صحيفة المحكمة الموجزة لتقرير الأزهر.

وقد قدمت وأنا مستعد للإجابة على اتهامات التقرير الأزهرى فقط. ووفق محريات التحقيق الآن فإنى أقول إن هناك شركاء متضامين وهم من نشر لى هذه المقالات المختلفة من رؤساء تحرير ومدراء تحرير.

س: هل تطلب إشراكهم فى الاتهام؟

ج: ما دامت النيابة مصرة على توجيهها فلنوسع الموضوع وليكن ما يكون

س: "ما قولك فيما أوردته بالصفحة رقم ١٥١ من الكتاب محل التحقيق من القول بأن "أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثة اتخذت موقفها من اجتهاد د. نصر أبو زيد فى مسألة الموارث، حيث يتم تحكيم الدين فى رقاب

العباد، بينما النص الدينى قابل لتعدد الفهم حوله بتعدد القراءات واختلاف الثقافات. وهو بدوره ما يبنى على اعتبار تلك النصوص نصوصاً جامدة ثابتة لا تقبل المناقشة، وملحق بذلك نتائج هى أن أية محاولة لتحديثها أو تأويلها أو حتى مجرد فهمها، يعنى الكفران المبين". وذلك مما يعد تحقيراً وازدراء للدين الإسلامى بالتعرض لنصوص القرآن الكريم المتعلقة بالمواريث والتهكم عليها والإدعاء بأنها قابلة لتعدد الفهم حولها وهو ما يتعارض مع نصوص القرآن الكريم "يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين" صدق الله العظيم — الآية " سورة النساء". كما ورد فى عقب الآيات التى تحدد المواريث فى صدر سورة النساء وما نصه "تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعصى الله ورسوله ويتعدى حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين" صدق الله العظيم — الآياتان ١٣، ١٤ من سورة النساء؟

ج: أسجل أولاً أن هذا الاتهام يتعلق بالنية وبالضمير ومطلوب منى الإفصاح عن مكنون ضميرى فى مثل هذا التحقيق، لأن سؤال النيابة أنا فهمت منه أنه يشكك فى عقيدتى خاصة ما يتعلق بأية المواريث. وردى أن ما جاء فى الآيات إيمان محله القلب أما البحث العلمى فله قوانين أخرى ولا يعنى أن هذا ينفى ذلك. ويمكن الرجوع فى هذا الكتاب كمثال إلى الاهداء الذى دونته فى صدر هذا الكتاب يرجو مصرياً مسلماً متديناً يحب الله ويحب مصر أيضاً إسلام ضد التكفير والتفجير. ثم أن الكلام المذكور يتحدث عن أن النص الدينى نفسه قابل لتعدد الفهم حوله، وأنا هنا أقول اسلاماً فى إسلام، عملاً بنص حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف، وهو حديث صحيح. كذلك قال الامام على أن القرآن الكريم لا ينطق بلسان ولكن ينطق به الرجال، مما يعنى ما قلته بالضبط، وما قلته هو أن الإسلام هو دين العقل والحراك وضد الثبات والجمود ويمكن الرجوع بالتفاصيل داخل الكتاب التى تدافع عن الأمة الإسلامية ضد أعداءها الذين يتربصون بها، فالرد على الصهيونى شامير يعنى الوقوف مع الوطن ضد مزاعم الصهاينة. بالدين والتاريخ ...

إلى آخره.

س: ما قولك فيما أوردته بالصفحة رقم ٢٢٠ من القول بأن "وهكذا يؤسس موروثينا لتبخيص المرأة (فقد خلقت من ضلع أعوج وناقصة عقل ودين وشهادتها نصف شهادة الرجل وميراثها نصف ميراث الرجل وليس لها من الطلاق شيء ولو كنت امرأة أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) مما يعد إضراراً بالسلام الاجتماعي وتحقيراً وازدراء للدين الإسلامي بالإدعاء بأنه قد أبخس المرأة حقها في المجتمع؟

ج: الموروث اصطلاح يعنى ما ورثته الأمة عبر تاريخها الطويل ولا يعنى الإسلام فقط، فهناك موروثاً فرعونياً وموروثاً قبطياً وموروثات إسرائيلية دخلت كتبنا الإسلامية واجتهادات أضيفت ليست من الدين، ومنظومة متكاملة من الفهم الشعبي للدين الموروث هو كل هذا، وعندما أقول ما قلته بشأن الموروث فأنى كنت أعرض عرضاً تقريرياً علمياً لصورة المرأة فى أذهان الناس من خلال هذا المفهوم أما كونى بما أكتب قد أصبت السلام الاجتماعى بالضرر فإنى أعتقد غير ذلك تماماً، بالعكس ما كتبه من أجل سلام اجتماعى حقيقى ولا يحوز القول بأنه تحقير للدين لأننى لم أقل الدين إنما قلت الموروث.

س: ما قولك وقد أردفت الموروث بكلمة الموروث فى الفقرة المشار إليها فى الصفحة ٢٢٠ عبارات وأصول بعضها مضمون والآخر نص بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية فى مجال شهادة المرأة والرجل وميراث كل منهما وعلاقة المرأة بزوجها؟

ج: أولاً أنا لم أورد نصوصاً إنما صغت مجمل موقف المأثور من المرأة وضمنها مفاهيم دينية لم أعترض عليها إنما قدمتها كتقرير، وهناك أيضاً عبارات ليست من الدين لكنها من المأثور.

س: ما قولك فيما أوردته فى الكتاب عن قضية الدكتور / نصر حامد أبو زيد أنها أحيلت إلى دائرة أخرى هى الدائرة التى أصدرت الحكم؟
وممن علمت بهذا التقرير؟

ج: هذا التقرير لما حدث وليس تقريراً من جانبى. وقد علمت به من الدكتور نصر

حامد أبو زيد نفسه ومن المحامين ومن المتابعة الدقيقة التي نشرت أولاً بأول فى صحيفة يومية (الأهرام) الناطقة بلسان الدولة.

س: ومن أى مصدر علمت بهذا التقرير؟

ج: لأن ما علمته أنه قد يتم نقل القضية من دائرة إلى دائرة أخرى دون ابداء أسباب بعينها.

س: وهل علمت بشكل رسمى نقلها إلى دائرة أخرى وما الأسباب.

ج: أحببت فى السؤال السابق وأنا أعلم بحكم متابعة كثير من القضايا الهامة أن القضية قد تنتقل من دائرة إلى دائرة أخرى دون ابداء أسباب ربما لاجازة الدائرة أو مرض القاضى وأنا لم أكن أحد الأطراف حتى يأتى خطاب رسمى بذلك.

س: قلت أن حكم نصر أبو زيد جاء من قاضى مقتنياً نظرية دينية معينة.

ج: الكلام لا ينال من أحد، فقط علينا أن ندقق فى معانى كلام كتبه عالم مدقق مثلى، فعندما أقول ضمير القاضى وعقيدته فالمعلوم أن ضمير القاضى هو القانون وأن عقيدته هى دينه وعندما أقول منظومته الفكرية والدينية فالمعلوم أن نظومة أى قاضى الفكرية هى العمل بنصوص القانون أما المنظومة الدينية فهى معلومة.

س: قلت فى كتابك إن القاضى الذى أصدر حكم أبوزيد قاضى متشدد فى الدين. فما قولك؟

ج: إن أى إنسان يطلع على الحيثيات التى قدمها السيد القاضى يعلم أنه من المنشدين فى أمور الدين، اضافة إلى انى اؤكد احترامى الكامل للقضاء المصرى ونزاهته التاريخية وإنى أكتب وأنا واثق من عدالة هذا القضاء.

س: قلت فى كتابك فى نهاية الصفحة من أنه "لكن هذا كله لا يعنى تبرئة السيد القاضى المبجل من الخطأ فحل من لا يخطأ، أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد د. نصر أبو زيد فى مسألة المواريث والخطر هنا أن القاضى المبجل قد أصدر حكمه بناء على فهمه هو لما كتبه نصر ابو زيد" وهذا مما يعد إخلالاً بهيية ونظام القاضى الذى حكم فى تلك القضية

عقب صدور الحكم فيها.

ج: من يقول أن هناك بشر لا يخطئ فإنه قد جعل مع الله إلهاً آخر، أما الأمر الثانى فقد أكدت فى ذات الصفحة أنى اعلم هيئة القضاء ومؤسساته وسقت تقديرى سلفاً وقلت ما يعنى أن قضايا الفكر ليس ككل القضايا فهى ليست كالسرقة أو القتل أدلتها ثابتة واضحة لا يختلف عليها اثنان، أما قضايا الفكر فهى قابلة للاختلاف لذلك يكون حكم القاضى أو غيره مبنياً فيها على فهمه هو لما قرأه.

س: ما قولك فيما ورد بمجمع البحوث الإسلامية من أنه بفحص الكتاب موضوع التحقيق تبين أنه يحتوى على أخبار وأساطير تتعلق بتعدد الآلهة ومشحون بالتعدي والتجريح للنبي يوسف عليه السلام والتنديد بالتراث الإسلامى وانتهى التقرير إلى رأى بوجوب الكتاب عن النشر والتداول؟

ج: ردى على هذا أن القرآن الكريم نفسه قد تفاعل وتجادل مع الأساطير الالهية القديمة ونحن نعرفها كعلم معلوم يدرس فى كل الجامعات اضافة إلى أن التليفزيون المصرى قدم مسلسل عن آلهة اليونان فى مسلسل هيراقليس ولم تتم محاكمة وزير الاعلام.

كما إنى لم أخرج النبى يوسف إنما كنت أرد على مزاعم التوراة ضد وطنى وأمتى، ولم آتى بفرية ضد النبى يوسف، فأنا لست مشغولاً بمهاجمة الأنبياء وانما مشغول بالدفاع عن وطنى ضد الاستعمار الصهيونى فى المنطقة.

أما بالنسبة للخليفة عثمان بن عفان فان ما كتبه كان دفاعاً عن وزير التربية ووزارة التربية أيضاً المسئولة عن زهرة شباب مصر ولم أتى بشئ من عندى وأتحدى كاتب التقرير أن يأتى بجملته واحدة افتريتها من عنديأتى على الخليفة عثمان ثم أن رأى فى الخليفة عثمان لن يكون أفضل من رأى الصحابة فيه وهو ما سجلته، وموجود لدى الآن المصادر التى اعتمدت عليها أن شاءت النيابة يمكن اطلاعها عليها.

ولا قدسية فى الإسلام إلا لله وحده أما عن الهجوم على مشايخ الأزهر فإنى أكرر أنهم بشر غير مقدسين ولم تأت بهم القدسية من الزى لأننى أستطيع أن

ارتديه غداً، كما أنهم لا يتلقون وحى فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف من زمان.

كما أن قدسيتهم لا تستمد من حديثهم في شئون الدين فإنى محترف في شئون الدين قضيت فيه عمرى من أجل هذا الغرض، ومع ذلك فأنا شخص ليس مقدساً بدليل أخذى من محراب علمى وبهدلتى فى المحاكم. وأن ما أكتبه من أجل هذا الوطن، ومن هنا أقول إن اسلامى لا يجعلنى أعتز بطهارة ولا قدسية إلا لله، كذلك ليس فى صحيح الإسلام أزهر، فالأزهر مؤسسة لا تعطى أبنائها قدسية لأنها من إنشاء الاستعمار الفاطمى بينما أنا مع همى بالوطن يشغلنى المجمع العلمى الذى تركه نابليون فى مصر هذا هو حب الوطن، ولا مجال هنا للرد بالقول أن الفاطميين كانوا مسلمين ونابليون وغير ذلك لأن الموافقة على استعمار أنه اسلامى هو خيانة وطنية عظمى، وعلينا بهذا المنطق الأعوج أن نقبل مثلاً احتلال ايران لمصر؟!

أما بالنسبة للقضاء فإنى أعلن بصوت عال وضميرى يؤمن بما يقول إنى أثق فى عدالة القضاء المصرى والنيابة فى مصر وأهيب بالنيابة أن تتذكر معى حادثة الدكتور طه حسين الذى لا يُذكر إلا ويذكر معه وكيل النيابة الذى كتب اسمه فى تاريخ مصر بحروف من نور الأستاذ محمد نور.

س: هل أصدرت أبحاث أو مؤلفات أخرى.

ج: نعم عندي عشرة مؤلفات وهى الموجز الفلسفى ومشكلات فلسفية، وازوريس وعقيدة فى مصر القديمة، والحزب الهاشمى، والنبي ابراهيم، والاسطورة والتراث، وحروب دولة الرسول، وقصة الخلق، واسرائيل التوراة والتاريخ والتضليل.

س: هل تم نشر تلك المؤلفات؟

ج: نعم بالكامل جميعها فى مصر ما عدا كتابين نشروا فى قبرص لمؤسسة سورية للنشر، وهما قصة الخلق وكتاب اسرائيل.

س: ما هو عدد النسخ التى طبعت لكل من الكتب التى نشرتها؟

ج: تختلف ما بين كتاب وآخر. كتاب الحزب الهاشمي طبعة واحدة من خمسة آلاف نسخة وأعداد نشره مدبولي الصغير بموجب عقده خمسة آلاف نسخة أخرى وعدة طبعات بينهما. بينما كتاب أوزوريس طبعة دار الفكر طبعة واحدة من خمسة آلاف نسخة وطبع مدبولي الصغير حروب دولة الرسول الجزء الثاني حسب العقد ٥ آلاف نسخة، ولم يطبع في قبرص من كتاب قصة الخلق واسرائيل سوى ألف نسخة لكل منهم.

س: هل سبق مصادرة أى من الكتب السابقة والتحقيق معك؟

ج: بدأت نشر كتيبى عام ١٩٨٨ ولم يصادر لى كتاب.

اتهامات النيابة

س: انت متهم باستغلال الدين بالترويج والتخريف بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد اثارة الفتنة وتحقير وازدراء الدين الاسلامى والاضرار بالوحدة الوطنية.

ج: أنا أنكر ذلك تماماً ناهيك عن كون الفكر لا يوصف بأنه ارهاب أو غير ارهاب فأنا أقول كلمتى وأعلنها واضحة وهناك من يردنى اذا أخطأت، فأنا ربما أطمع فيما أكتب فى نصيب الآخرين، فإن رأى من هو أعلم منى غير قولى ، ونشر ذلك فى الصحف المنشورة فساكون حسب المبدأ الفقهي قد حصلت على نصيب الأجر الواحد.

س: أنت متهم بالاخلال بطريقة الكتابة لهيية ومقام القاضى الذى حكم فى قضية نصر حامد أبو زيد وذلك فى صدد تلك الدعوى.

ج: هذا أمر تعدد فيه الأفهام حول ما كتبت، وما كتبتة أبداً لم يقصد ذلك المعنى مطلقاً وأكرر وأزيد احترامى للقضاء المصرى.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: نعم - أريد تقديم نسخة من كتاب رب الزمان ودراسات أخرى التى أحضرتها معى واستعملتها أثناء سؤالى فى التحقيقات وفيها تدوين وملحوظات تتعلق بردودى على الاتهامات المنسوبة لى.

ملحوظة من النيابة

— قدم المائل أماننا نسخ من كتاب رب الزمان ودراسات أخرى مدون بها بعض التعليقات بالمداد الأسود.

وقرر أنه هو الذى قام بتحريرها بخط يده رداً على الاتهامات المنسوبة له وتأشير عليها بالنظر والارفاق لارفاقها

ملحوظة من النيابة

— طلب المحامون الحاضرون مع المتهم أنهم يتمسكون باخلاء سبيل المتهم من سراى النيابة بنهاية هذا التحقيق بأية ضمانات تراها حيث إنه معلوم الاسم والعنوان ولا يخشى منه على عدم الحضور فى أية تحقيقات أخرى كما أنه لا يخشى منه التأثير على أية صورة من صور التحقيقات.

ودفع المحامون الحاضرون مع المتهم بعدم جدية الأوراق المرسلة من مباحث أمن الدولة ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر واعتبارها أقوال مرسله تصلح للمداولات الفقهية والفكرية دون القانونية أو القضائية.

كما دفعوا أيضاً بعدم اختصاص جهة الأزهر بالنظر فى المطبوعات سواء الفكرية أو الثقافية أو الفنية المطروحة فى الأسواق لا طبقاً لقانون الأزهر ولا طبقاً لقانون المطبوعات كما أنه لا يجرى النص على اختصاص الأزهر سواء فى قانون الاجراءات الجنائية أو قانون العقوبات المصرى.

كما دفعوا أيضاً بعدم دستورية دور مجمع البحوث فى أن ينصب من نفسه رقيباً على الفكر والضمير مما يجعلنا نرى أن مجمع البحوث بالأزهر الشريف يسعى بذلك إلى تعطيل مواد الدستور المصرى والعمل على إثارة الفرقة والبلبلة بين المواطنين طبقاً للنصوص الدستورية فى ذلك.

كما دفعوا بعدم دستورية وقانونية مصادرة الكتب من الأسواق خاصة فى ظل دستور ٧١ والتعديلات التى طرأت على قانون المطبوعات.

وقرروا أن تقدم هذا البلد وأمن الدولة لا يكون إلا على أساس من حرية الفكر والتعبير. كما دفعوا ببطالان إجراءات التحقيق لاتخاذها من جهة غير متخصصة وهي نيابة أمن الدولة لعدم دستورية قرار وزير العدل بإنشاء هذه النيابة لتعارضه مع نص المادة ١٦٧ من الدستور.

كما دفعوا بانعدام نصوص المواد محل الاتهام فى هذه القضية لتعارضها مع نص المادتين ١٩، ١٨ من العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادرة عن الأمم المتحدة والذي صدقت عليه مصر بموجب القرار الجمهورى رقم ٨١/٥٣٦ وتم نشره بالجريدة الرسمية فى ابريل سنة ١٩٨٢ وتعتبر ناسخاً لنص المادتين موضوع الاتهام حيث إن قانون العقوبات صادر ١٩٣٧ وتعارض مع المادتين ٤٧/٤٩ من الدستور المصرى.

أقل المحضر عقب اثبات ما تقدم

وقررنا الآتى :

يخلى سبيل المتهم سيد محمود القمنى بضمان جواز سفره من سراى النيابة.

۱- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۲- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۳- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۴- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۵- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۶- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۷- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۸- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۹- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:
 ۱۰- در این مقاله از اصطلاحات علمی و فنی که در این مقاله به کار رفته است، به شرح زیر توضیح داده می شود:

حكم القضاء

[illegible][illegible][illegible][illegible]

الصحة العامة - وإزالة البؤر التي تنقل المرض
باعتبارها من أهم الوسائل التي يمكن من خلالها
الوقاية من الأمراض المعدية. فالتدخل في البيئة
لإزالة البؤر التي تنقل المرض هو أحد الوسائل
التي يمكن من خلالها الوقاية من الأمراض المعدية.
وإن من أهم الوسائل التي يمكن من خلالها
الوقاية من الأمراض المعدية هي التدخل في
البيئة لإزالة البؤر التي تنقل المرض. فالتدخل
في البيئة لإزالة البؤر التي تنقل المرض هو أحد
الوسائل التي يمكن من خلالها الوقاية من الأمراض
المعدية. وإن من أهم الوسائل التي يمكن من خلالها
الوقاية من الأمراض المعدية هي التدخل في البيئة
لإزالة البؤر التي تنقل المرض.

نص حثيات حكم القضاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محكمة شمال القاهرة الابتدائية.

إنه فى يوم الاثنين - الموافق ١٥/٩/١٩٩٧ بسراى المحكمة

نحن / سلامة سليم رئيس المحكمة

بعد الإطلاع على قرار النيابة العامة الصادر بتاريخ ١٣/٨/١٩٩٧ بضبط كتاب "رب الزمان ودراسات أخرى" للؤلف (سيد محمود القمنى) وبعد الاطلاع على الكتاب المذكور.

وبعد الاطلاع على تقرير "مجمع البحوث الإسلامية - الإدارة العامة للبحوث" التأليف والترجمة المرفق.

وبعد الاطلاع على التحقيقات التى أجرتها النيابة العامة مع المؤلف المذكور وبعد سماع أقوال المؤلف "سيد محمود القمنى".

وحيث إن النيابة العامة قد طبّت تأييد قرارها الصادر منها بضبط الكتاب المبين بعاليه استناد النص المادة ١٩٨ من قانون العقوبات وقالت فى سبيل تبرير ذلك إن المؤلف اقترح الجريمة المؤتممة بالمادة ٩٨/من قانون العقوبات وذلك لترويجه وتحبيذه بالكتاب لأفكار متطرفة بقصد تحقير وازدراء أحد الأديان السماوية وقد استندت النيابة العامة فى ذلك لما جاء بتقرير مجمع البحوث الإسلامية الإدارة العامة للبحوث "التأليف والترجمة" المرفق والذى يتحصل فى أن هذا الكتاب قد تضمن التهكم والسخرية والاستهانة بالعلماء، وبالتراث الإسلامى وبالأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس إذ استند فيما تضمنت الصفحة ٣٢ إلى التواة وما جاء بها عن إبراهيم ولديه إسماعيل وإسحاق ولده يعقوب ثم أبناء يعقوب من الأسباط وتعدد الآلهة فى زمانهم ثم استطرده أيضاً فى سرد وقائع أخرى فى الصفحات من ٣٢ إلى ٤١ مستنداً إلى رواية التواة، وجاء بالصفحة ٦٦ من الكتاب أن الفراغة هم بناء الكعبة.

وبالصفحة ٦٧ أن الأنبياء زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد ثم عادوا يعلمونه فى بلادهم، وجاء بالصفحة ٧٧ أن التوحيد ليس هو المجد الوحيد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته، وذكر بالصفحة ٨٠ فضة عن (زنوبيا والجن) معرضاً بذلك بملك النبى سليمان

عليه السلام، وفي الصفحة ٨٤ ذكر أن أمركون الإله (مردوك) أحد الأصنام المعبودة في العراق على عهد سيدنا إبراهيم ضمن الأصنام التي حطمها نبي الله إبراهيم هو ما يحتاج إلى إثبات بالبحث الطويل، وذكر بالصفحتين ١٠٧، ١٠٩ لبعض الوقائع التي نسبها إلى خليفة المسلمين، عثمان بن عفان. رضى الله عنه لا تليق به وذكر بالصفحات ١١١، ١١٢، ١١٥ ما يمثل تعريضاً بعالمين جليلين من علماء المسلمين هما الشيخ (محمد الغزالي) رحمه الله، واللواء أبو العزايم.

وذكر في صفحتي ١٤١-١٤٩ تعريضاً بشيخ آخر من علماء المسلمين الأجلاء هو الشيخ (عبد الصبور شاهين) ، ثم تعرض في صفحتي ١٤٧، ١٤٨ إلى قضية الدكتور (نصر أبو زيد) وموقف الشيخ عبد الصبور شاهين منها، ثم تطرق في صفحة ١٥١ إلى السخرية بالقضاء، وفي صفحة ١٥٤ نسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما لم يقله وهو أنه حرم ما كان حلالاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من متعتي النساء والحج. وانتهى التقرير بطلب مصادرة نسخ الكتاب سالف الذكر وعدم التصريح بطبعه.

وحيث إنه لما كان ما تقدم وكان ما ثبت لنا من مطالعة نسخة الكتاب المعروف علينا والمعنونة (رب الزمان ودراسات أخرى) للمؤلف (سيد محمود القمني) أن ما تضمنه الكتاب المعروف في صفحات من ٣٢ إلى ٤٢ في شأن سيدنا إبراهيم وولديه. إسماعيل وإسحاق وولده يعقوب والأسباط عليهم جميعاً الصلاة والسلام فهو سرد لقصصهم كما جاءت في التوراة من وجهة نظر المؤلف ولغته هو.....

والتوراة كتاب منشور متداول وهو مصدر الديانة اليهودية وهي ديانة سماوية يقرها المسلمون ويؤمنون بها رسالة من عند الله تعالى . كما يؤمنون بالتوراة كتاباً من كتب الله الذين أمروا بالإيمان بها - بصرف عما النظر وقع بها من تحريف - إذا أن إيماننا بها يقوم باعتبار أصلها الصحيح المنزل من عند رب العالمين.

وبالتالي فإن استناد المؤلف إلى مثل هذا الكتاب في نقده لفيلم سينمائي عرضه على النظارة المصريين المخرج السينمائي "يوسف شاهين" مستخدماً من لغة التوراة في الرد على ما يعتقد المؤلف أنه مغالطة للتوراة في ذلك الفيلم محل النقد مقيداً نفسه بما وصفته التوراة

للأنبياء سواء بإضافة ألقاب إلى أسمائهم أو ماوقع منهم من أحداث طبقاً لما ذكر بالتوراة مدعياً أن ذلك يمثل الدراسة العلمية للتوراة.

فإن ذلك فى مجال البحث العلمى لايمثل أى تعدى على حرمة هؤلاء الأنبياء طالما أنه لم يقم بعرض أو ذكر أى وصف أو لقب أكثر مما جاء بالتوراه وراثاً ذلك إلى مصدره وهو التوراه دون تقديس ذلك على نحو يحمل على الاعتقاد بصحته بما يضحى ذلك مجرد نقل فكرى عن مصدر مسموح بنشره وتداوله، لاسيما وأن المؤلف جنح إلى سرد وقائع تاريخية على أن الأديان لم تشرلها فى كتبها ووقائع دينية لم تشر كتب التاريخ لها أو الحفائر التاريخية وذلك على نحو يمثل محاولة لوصل وقائع التاريخ بالوقائع الدينية ومسمياتها عندما عرض الحقبة التى عاشها نبي الله "يوسف" عليه السلام بمسمياتها الدينية فى التوراة والربط بينها وبين مسمياتها من الفراعين والوقائع كما عرضتها كتب التاريخ والحفائر. وهى محاولة لاغبار عليها ولا مساس فيها بالإسلام - وأما ما جاء بالصفحة ٦٦ تحت عنوان "هل بنى الفراعنة الكعبة" فإن ذلك لا يمثل تقريراً من المؤلف وذلك لأن - ما جاء بالكتاب فى هذا الخصوص مجرد استنكار من المؤلف لمقال كتبه آخر يدعى (د. سيد كريم) نشر بمجلة الهلال وقد تضمن الكتاب المعروض تصحيحاً لمفهوم هذا المقال مبيناً بعض متناقضات من وجهة نظر المؤلف منكرراً على كاتب المقال ما انتهى إليه من استنتاج أى أن ما جاء بتلك الصفحة يضحى تصحيحاً لمفهوم خاطئ وليس تقريراً لخطأ يمثل إساءة إلى الإسلام كما أن ما جاء بالصفحة ذاتها عن زيارة أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وشعيب وموسى إلى مصر ومعرفتهم بعقيدة التوحيد وإيمان المصريين له وباليث والحيساب والآخرة وخلود الروح إنما جاء فى سبيل عرضه لمقالة د. سيد كريم ولم يدل المؤلف بدلوه فى هذا الشأن مكتفياً بذكر ما ورد بمقال د. سيد كريم فقط.

وبالتالى فإن ذلك لايعدو أن يكون مجرد عرض لبعض الأفكار التى تقال فى هذا المجال مع بيان مصدرها وآياً كانت وجهة النظر فيها فهى لا تعيب المؤلف طالما ذكر مصدرها...

وعما جاء بصفحة ٧٧ من الكتاب عن مقولة إن "التوحيد لا يكون من الضرورى هو المجد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته" فإن ذلك لا يمثل مساساً بالدين الإسلامى

الحنيف لأن فكرة التوحيد في مصر القديمة كما هو معروف - أيا ماكان شأنه أو وصفه فلم يكن هو التوحيد الخالص لوجه الله على النحو الذي بعث به أنبياء الله صلى الله عليهم جميعاً وإنما كان توحيداً مشوباً فبعث الله الأنبياء من أجل تصحيح مفاهيمه ووضع خلقه على طريق الإيمان الصحيح والتوحيد لوجهه - بمعنى أن التوحيد لدى مصر القديمة لا يرقى في درجة التقديس مطلقاً وإنما هو من الأمور القابلة للدراسة والمناقشة والنفي والإثبات وإن التعرض له على نحو ما جاء بعبارات المؤلف لا يمثل مساساً بالعقيدة الإسلامية الغراء أو بمجد مصر الثابت أصلاً بعراق حضارتها.

وفي خصوص ما جاء بالصفحة ٨٠ عن مدينة تسمى (زنوبيا) فقد جاءت مجرد رواية ينقلها المؤلف عن آخر يدعى (عزت السعدني) فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هناك من المؤلفات ما تحدثت عن عالم الجن وقدراته.

ومن هنا نرى أن نسب بعضها إلى علماء مسلمين لا ينال منهم لاينال لأن ماورد بالكتاب المعروض في هذا الشأن لا يعدو أن يكون في مقام الدعوة من المؤلف لطرح مثل هذا الفكر الذي قد يقدسه البعض إلى الفكر العلمي المنهجي الحديث وهو أمر محمود ومطلوب في توجيهات ثقافتنا ولا يمكن حمله على أنه سخرية كما ذهب تقرير مجمع البحوث المرفق.

- وما جاء بالصفحة ٨٤ عن القول بأن (مردوك) أحد آلهة العراق القديمة كان ضمن الأصنام التي حطمها سيدنا إبراهيم من عدمه فليس فيما ذكره المؤلف ثمة إنكار للواقعة التي أخبر عنها القرآن بأن سيدنا إبراهيم قد كسر الأصنام ولكن عبارة المؤلف تدور حول معنى استفهامي. هل (مردوك) هذا كان ضمن ما حطمه سيدنا إبراهيم من الأصنام من عدمه وهو أمر لم يقطع به القرآن ولم يُشير إليه وأضاف المؤلف أن إثبات ذلك يحتاج إلى بحث قد يستغرق عمراً.

وبالتالي فلا غضاضة على ما ذكره المؤلف في هذا الشأن لاسيما وأنه بما ذكره بمؤلفه جاء نقلا عن مقال الأستاذ (عزت السعدني) سالف الإشارة إليه وعرضه بصيغة

استفهامية استنكارية لم نرَمن ورائها سوى قصد تنقيته المعتقدات الدينية من بعض الأمور الغير ثابتة يقينا وورد تقريرها بالمؤلفات جزافاً دون أن تستند إلى وقائع حقيقية ثابتة في الدين أو التاريخ وبالتالي فليس في ذلك مساساً بالعقيدة مطلقاً.

- وفي خصوص ما جاء بالصفحات ١٠٧، ١٠٩، ١١٠ عن قصة (عثمان بن عفان) رضى الله عنه فإنها مجرد نقل من كتب شأنها في دراسة وعرض تاريخ الإسلام والمسلمين ولم يأت المؤلف بجديد في هذا الشأن.

ولنشير إلى بعض تلك المؤلفات القديمة التي تمثل تراثاً راسخاً في ضمير هذه الأمة المسلمة ومنها.

١- كتاب البداية والنهاية لشيخ الإسلام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير - وفي هذا المقام يراجع من صفحة ١٩٠ إلى ٢٥١ من الجزء السابع ضمن المجلد الرابع بطبعة دار الغد العربي.

٢- كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد تحقيق الأساتذة د. حمزة النشترتي وعبد الحفيظ فرغلي، وعبد الحميد مصطفى يراجع ص ٦٢٣ من المجلد الثاني عدد ٢١ توزيع الأهرام.

٣- تاريخ الإسلام للذهبي إصدار دار الغد العربي المجلد الثاني ص ١٢٣ وما بعدها.

٤- كتاب زعماء الإسلام د. حسن إبراهيم إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب - الأعمال الدينية طبعة ١٩٩٧ ص ٤٠١ وما بعدها. وبالتالي يضحى ما ذكره المؤلف في هذا الشأن مجرد سرد لوقائع سبقه إليها كثير من المؤلفين منذ زمن سحيق ويقوم عليها التراث في التاريخ الإسلامى وتمتّع باحترام وتقدير كبار العلماء والمفكرين

- وبخصوص ما جاء بالصفحات ١١١، ١١٢، ١١٨ بشأن نقد بعض مواقف الشيخ محمد الغزالي "رحمه الله" واللواء عصام الدين ماضى أبو الغزائم فإن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها إلا أن ذلك فيما نرى لا يعدو أن يكون نقداً مباحاً في نطاق المناظرات التي تجرى بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين كما يحكيه

تاريخ النقد والمناظرات الفكرية إذ أن وقوف المتناظرين في هذا الشأن في مصاف الشخصيات العامة يجعل من شدة لهجة النقد خارج نطاق الخطأ في هذا المجال ..

– وبخصوص ما جاء بالصفحات ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، في مجال الحديث عن قضية الدكتور "نصر أبو زيد" وموقف الشيخ "عبد الصبور شاهين" منها فإن ذلك لا يعدو أن يكون مناظرة بين رأى المؤلف ورأى الشيخ عبد الصبور شاهين وكلاهما ينطق في مجال مقاله بوجهة نظره ومنع أيهما ومصادرة كلمته يمثل حجراً على فكره وهو ما تتأذى منه الإنسانية إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلي عن الصواب دائماً وهو أمر محمود ولا يمكن القول بأن في مثل تلك المناظرة النقدية تعريض بأحد.

– أما بخصوص ما ذكره المؤلف بصفحة ١٤٩ عن الشيخ "عبد الصبور شاهين" بأنه مستشار بيوت هبش الأموال فإنه – أياما كان وجه النظر فيه فلا يمكن وصفه بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف في جملته وإنما يضحى ذلك بأعنف الأوصاف ما يمكن أن يتضرر منه صاحب الشأن الذى له أن يلجأ إلى القضاء بالطرق المقررة قانوناً في هذا الشأن ليحصل على ما قد يرى الادعاء به من حقوق قبل المسئول إن كان لتضرره وجه – وليتناضل الطرفان في ذلك الأمر إثباتاً ونفيّاً وصولاً إلى وجه الحق لكنه لا يمثل ضرراً عاماً يستوجب الحجر على فكر المؤلف في هذا الخصوص.

– وفي خصوص ما تناولته الصفحة ١٥١ عن نقد المؤلف للحكم الصادر في قضية الدكتور "نصر أبو زيد" فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائى بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرمة الحكم أو حججه أو ما يشير إلى معنى التهكم منه.

– وبخصوص ما جاء بالكتاب عن آلهة من الذكور والإناث فإنه مجرد ذكر لتاريخ أمم سابقة على البعث النبوى الشريف بل وربما سابقة على البعث الإبراهيمى الحنيف وكانت تلك الأمم لديها المعتقدات. ومن ثم فإنه لا ضير مما جاء بالكتاب في هذا الشأن طالما أنه لا يستند إلا لمجرد العرض التاريخي لأساطير الأمم القديمة..

– وفي خصوص ما جاء بالصفحة ١٥٤ عما نسب إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" رضى الله عنه من تحريمه ما كان حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما متعة

النساء والتمتع بهن أثناء الحج. فإنه وإن كنا لم نعثر لهذا القول على أصل فيما قام بين أيدينا من كتب التراث إلا أن ورود ذلك القول في معرض الاستدلال على أن من عظماء المسلمين من خالف أحكام الشرع الحنيف فإنه يضحى استدلالاً بباطل على باطل لمخالفة هذا الاستدلال لما هو ثابت بالقرآن والإجماع وهو ما يصير معه ظاهر الانعدام ويضحى بذلك . - كما نرى - من قبيل الخطأ في الاستدلال على مدلول الباحث ولا يؤدي إلى فساد الفكر في جملته بما لا يستأهل مصادرته لمجرد خطأ ظاهر البطلان في الاستدلال.

وحيث إنه ومن حاصل ما تقدم تبين أن تقرير مجمع البحوث الإسلامية إنما كتب بدوافع نبيلة قوامها الغيرة على الدين الإسلامي الحنيف بيد أن الأمر دار في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية كذلك فإن الكاتب إذ توجه إلى تأليف مؤلفه فقد توجه إلى ذلك بدوافع نبيلة قوامها الرغبة في البحث العلمي واستجلاء الحقيقة الدينية الخالصة ... وإذ كان الأمر في النهاية قد جعل الخلاصة الاجتهادية لتقرير مجمع البحوث الإسلامية تتعارض مع الخلاصة الاجتهادية لصاحب المؤلف المطبوع فإن هذا التعارض لا سبيل لرفعه بأن تنفى أحد الخلاصتين الخلاصة الأخرى أو تصادرها لما في ذلك من تعارض مع أحكام الدستور الذي نصت المادة ٤٧ منه على أن حرية الرأي مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون والنقد الذاتي والنقد البناء ضمانا لسلامة البناء الوطني - كما نصت المادة ٤٩ من الدستور على أن تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك - وبالتالي فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمي الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كي تتجلى الحقائق وتصفو العقول في سبيل فهم حقائق وقيم ديننا الإسلامي الحنيف -

ملحوظة من المؤلف :

* مع خالص تقديرنا واحترامنا للقاضي النبيل المستنير، فإن هذا الموضوع قد كسبته من الذاكرة إبان تواجدي بمستشفى القلب فلم أدون مراجعه، لكن مراجعه لدينا وهي في تفسير الإمام الرازي للآية: "فمن تمتع بالعمرة إلى الحج.. سورة البقرة" وأيضا في تفسيره للآية "فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن/ سورة النساء".

هذا بالإضافة إلى أنه وإن صح أن مؤلف الكتاب قد أخطأ في شيء مما كتب فإن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر ويشترط للعقاب بمقتضى نص المادة ٩٨ / من قانون العقوبات أن يكون الجاني قد تعدى على الدين أى أنه امتنعه أو ارتكب ما من شأنه المساس بكرامته أو انتهاك حرمة والحط من قدره والإزدراء به وأن يكون قد قصد ذلك وتعمده. ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق مؤلف الكتاب فلا جريمة ولا عقاب ..

وحيث إنه متى كان ما تقدم فإننا نرى أنه لا تشريب على الكتاب المعروف فيما تضمنه على النحو سالف البيان في حملته بما يضحى الأمر الصادر بضبطه في غير محله .
فلهذه الأسباب

قررنا إلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب "رب الزمان ودراسات أخرى" لمؤلفه الأستاذ "سيد محمد القمنى" والإفراج عن هذا الكتاب وما سبق ضبطه من أدوات طبعه.
صدر هذا القرار وتلى علنا بسرأى المحكمة في يوم الإثنين الموافق ١٥/٩/١٩٩٧م.

رئيس المحكمة



۱- در مجلس استیضاح ۲- در مجلس ۳- در مجلس استیضاح ۴- در مجلس ۵- در مجلس استیضاح ۶- در مجلس ۷- در مجلس استیضاح ۸- در مجلس ۹- در مجلس استیضاح ۱۰- در مجلس	۱- در مجلس استیضاح ۲- در مجلس ۳- در مجلس استیضاح ۴- در مجلس ۵- در مجلس استیضاح ۶- در مجلس ۷- در مجلس استیضاح ۸- در مجلس ۹- در مجلس استیضاح ۱۰- در مجلس	۱- در مجلس استیضاح ۲- در مجلس ۳- در مجلس استیضاح ۴- در مجلس ۵- در مجلس استیضاح ۶- در مجلس ۷- در مجلس استیضاح ۸- در مجلس ۹- در مجلس استیضاح ۱۰- در مجلس	۱- در مجلس استیضاح ۲- در مجلس ۳- در مجلس استیضاح ۴- در مجلس ۵- در مجلس استیضاح ۶- در مجلس ۷- در مجلس استیضاح ۸- در مجلس ۹- در مجلس استیضاح ۱۰- در مجلس
---	---	---	---

اندر این صورت، اگر فرض کنیم که در هر یک از این دو کشور، ۱۰۰ نفر از افراد بومی و ۱۰۰ نفر از افراد مهاجر در یک شرکت کار می‌کنند، می‌توانیم به این نتیجه برسیم که در هر یک از این دو کشور، ۱۰۰ نفر از افراد بومی و ۱۰۰ نفر از افراد مهاجر در یک شرکت کار می‌کنند.

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد

المصادرة مخالفة للدستور وقتل للفكر والاجتهاد

درس جولة أولبرايت

1. *Journal of the American Medical Association*, 1997; 277: 1039-1043.

۱- در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۲- نویسنده در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۳- در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۴- نویسنده در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۵- در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۶- نویسنده در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۷- در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۸- نویسنده در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۹- در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.
 ۱۰- نویسنده در این کتاب به بررسی و تحلیل سبک زندگی و فرهنگ مردم ایران پرداخته شده است.

1000

[illegible][illegible]

١٠٠
١٠١
١٠٢
١٠٣
١٠٤
١٠٥
١٠٦
١٠٧
١٠٨
١٠٩
١١٠
١١١
١١٢
١١٣
١١٤
١١٥
١١٦
١١٧
١١٨
١١٩
١٢٠
١٢١
١٢٢
١٢٣
١٢٤
١٢٥
١٢٦
١٢٧
١٢٨
١٢٩
١٣٠
١٣١
١٣٢
١٣٣
١٣٤
١٣٥
١٣٦
١٣٧
١٣٨
١٣٩
١٤٠
١٤١
١٤٢
١٤٣
١٤٤
١٤٥
١٤٦
١٤٧
١٤٨
١٤٩
١٥٠
١٥١
١٥٢
١٥٣
١٥٤
١٥٥
١٥٦
١٥٧
١٥٨
١٥٩
١٦٠
١٦١
١٦٢
١٦٣
١٦٤
١٦٥
١٦٦
١٦٧
١٦٨
١٦٩
١٧٠
١٧١
١٧٢
١٧٣
١٧٤
١٧٥
١٧٦
١٧٧
١٧٨
١٧٩
١٨٠
١٨١
١٨٢
١٨٣
١٨٤
١٨٥
١٨٦
١٨٧
١٨٨
١٨٩
١٩٠
١٩١
١٩٢
١٩٣
١٩٤
١٩٥
١٩٦
١٩٧
١٩٨
١٩٩
٢٠٠
٢٠١
٢٠٢
٢٠٣
٢٠٤
٢٠٥
٢٠٦
٢٠٧
٢٠٨
٢٠٩
٢١٠
٢١١
٢١٢
٢١٣
٢١٤
٢١٥
٢١٦
٢١٧
٢١٨
٢١٩
٢٢٠
٢٢١
٢٢٢
٢٢٣
٢٢٤
٢٢٥
٢٢٦
٢٢٧
٢٢٨
٢٢٩
٢٣٠
٢٣١
٢٣٢
٢٣٣
٢٣٤
٢٣٥
٢٣٦
٢٣٧
٢٣٨
٢٣٩
٢٤٠
٢٤١
٢٤٢
٢٤٣
٢٤٤
٢٤٥
٢٤٦
٢٤٧
٢٤٨
٢٤٩
٢٥٠
٢٥١
٢٥٢
٢٥٣
٢٥٤
٢٥٥
٢٥٦
٢٥٧
٢٥٨
٢٥٩
٢٦٠
٢٦١
٢٦٢
٢٦٣
٢٦٤
٢٦٥
٢٦٦
٢٦٧
٢٦٨
٢٦٩
٢٧٠
٢٧١
٢٧٢
٢٧٣
٢٧٤
٢٧٥
٢٧٦
٢٧٧
٢٧٨
٢٧٩
٢٨٠
٢٨١
٢٨٢
٢٨٣
٢٨٤
٢٨٥
٢٨٦
٢٨٧
٢٨٨
٢٨٩
٢٩٠
٢٩١
٢٩٢
٢٩٣
٢٩٤
٢٩٥
٢٩٦
٢٩٧
٢٩٨
٢٩٩
٣٠٠
٣٠١
٣٠٢
٣٠٣
٣٠٤
٣٠٥
٣٠٦
٣٠٧
٣٠٨
٣٠٩
٣١٠
٣١١
٣١٢
٣١٣
٣١٤
٣١٥
٣١٦
٣١٧
٣١٨
٣١٩
٣٢٠
٣٢١
٣٢٢
٣٢٣
٣٢٤
٣٢٥
٣٢٦
٣٢٧
٣٢٨
٣٢٩
٣٣٠
٣٣١
٣٣٢
٣٣٣
٣٣٤
٣٣٥
٣٣٦
٣٣٧
٣٣٨
٣٣٩
٣٤٠
٣٤١
٣٤٢
٣٤٣
٣٤٤
٣٤٥
٣٤٦
٣٤٧
٣٤٨
٣٤٩
٣٥٠
٣٥١
٣٥٢
٣٥٣
٣٥٤
٣٥٥
٣٥٦
٣٥٧
٣٥٨
٣٥٩
٣٦٠
٣٦١
٣٦٢
٣٦٣
٣٦٤
٣٦٥
٣٦٦
٣٦٧
٣٦٨
٣٦٩
٣٧٠
٣٧١
٣٧٢
٣٧٣
٣٧٤
٣٧٥
٣٧٦
٣٧٧
٣٧٨
٣٧٩
٣٨٠
٣٨١
٣٨٢
٣٨٣
٣٨٤
٣٨٥
٣٨٦
٣٨٧
٣٨٨
٣٨٩
٣٩٠
٣٩١
٣٩٢
٣٩٣
٣٩٤
٣٩٥
٣٩٦
٣٩٧
٣٩٨
٣٩٩
٤٠٠
٤٠١
٤٠٢
٤٠٣
٤٠٤
٤٠٥
٤٠٦
٤٠٧
٤٠٨
٤٠٩
٤١٠
٤١١
٤١٢
٤١٣
٤١٤
٤١٥
٤١٦
٤١٧
٤١٨
٤١٩
٤٢٠
٤٢١
٤٢٢
٤٢٣
٤٢٤
٤٢٥
٤٢٦
٤٢٧
٤٢٨
٤٢٩
٤٣٠
٤٣١
٤٣٢
٤٣٣
٤٣٤
٤٣٥
٤٣٦
٤٣٧
٤٣٨
٤٣٩
٤٤٠
٤٤١
٤٤٢
٤٤٣
٤٤٤
٤٤٥
٤٤٦
٤٤٧
٤٤٨
٤٤٩
٤٥٠
٤٥١
٤٥٢
٤٥٣
٤٥٤
٤٥٥
٤٥٦
٤٥٧
٤٥٨
٤٥٩
٤٦٠
٤٦١
٤٦٢
٤٦٣
٤٦٤
٤٦٥
٤٦٦
٤٦٧
٤٦٨
٤٦٩
٤٧٠
٤٧١
٤٧٢
٤٧٣
٤٧٤
٤٧٥
٤٧٦
٤٧٧
٤٧٨
٤٧٩
٤٨٠
٤٨١
٤٨٢
٤٨٣
٤٨٤
٤٨٥
٤٨٦
٤٨٧
٤٨٨
٤٨٩
٤٩٠
٤٩١
٤٩٢
٤٩٣
٤٩٤
٤٩٥
٤٩٦
٤٩٧
٤٩٨
٤٩٩
٥٠٠
٥٠١
٥٠٢
٥٠٣
٥٠٤
٥٠٥
٥٠٦
٥٠٧
٥٠٨
٥٠٩
٥١٠
٥١١
٥١٢
٥١٣
٥١٤
٥١٥
٥١٦
٥١٧
٥١٨
٥١٩
٥٢٠
٥٢١
٥٢٢
٥٢٣
٥٢٤
٥٢٥
٥٢٦
٥٢٧
٥٢٨
٥٢٩
٥٣٠
٥٣١
٥٣٢
٥٣٣
٥٣٤
٥٣٥
٥٣٦
٥٣٧
٥٣٨
٥٣٩
٥٤٠
٥٤١
٥٤٢
٥٤٣
٥٤٤
٥٤٥
٥٤٦
٥٤٧
٥٤٨
٥٤٩
٥٥٠
٥٥١
٥٥٢
٥٥٣
٥٥٤
٥٥٥
٥٥٦
٥٥٧
٥٥٨
٥٥٩
٥٦٠
٥٦١
٥٦٢
٥٦٣
٥٦٤
٥٦٥
٥٦٦
٥٦٧
٥٦٨
٥٦٩
٥٧٠
٥٧١
٥٧٢
٥٧٣
٥٧٤
٥٧٥
٥٧٦
٥٧٧
٥٧٨
٥٧٩
٥٨٠
٥٨١
٥٨٢
٥٨٣
٥٨٤
٥٨٥
٥٨٦
٥٨٧
٥٨٨
٥٨٩
٥٩٠
٥٩١
٥٩٢
٥٩٣
٥٩٤
٥٩٥
٥٩٦
٥٩٧
٥٩٨
٥٩٩
٦٠٠
٦٠١
٦٠٢
٦٠٣
٦٠٤
٦٠٥
٦٠٦
٦٠٧
٦٠٨
٦٠٩
٦١٠
٦١١

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠

[illegible]

تحت إشراف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، تم إنشاء مركز الدراسات والبحوث في اللغة العربية في جامعة القاهرة، وذلك بهدف تعزيز البحث العلمي في اللغة العربية وتطويرها.

اسم و پنهان مولا نجفی القضاة
اسم و صریح و القضاة

بدعو الحزب القومي
الحبيب محمد بن عبد الوهاب

[illegible]

لے انتظار فراز علامہ

— 10 —

449

$\alpha = \frac{1}{\beta}$

انصر كل يوم صحتك في مصر والوطن العربي

مواجهة بين حزب الوفد والحكومة حول
قضية الاسرى المصريين فى فلسطين
التي منحها اسرائيل
الرئيس السادات التي لا يعرفها أحد

لجنة بين المصارف والحكومة

المسألة الأولى : إذا كان $\frac{a}{b} = \frac{c}{d}$ ، فإذن $\frac{a}{c} = \frac{b}{d}$.

تقدیر سرور و حبیب العوضہ البرامکی الدولی

نص الحكم التاريخي للقاضي

سلامة سليم :

افتحوا النوافذ لفهم ديننا!

محكمة شمال القاهرة الابتدائية

إنه في يوم الاثنين الموافق ١٩٩٧/٩/١٥ بسرأى المحكمة

نحن سلامة سليم رئيس المحكمة

بعد الاطلاع على قرار النيابة العامة الصادر بتاريخ ١٩٩٧/٨/١٣ بضميمة كتاب . رب

الرملى ودراستات اخرى . للمؤلف (سيد محمود القمني)

وبعد الاطلاع على الكتفب المذكور

وبعد الاطلاع على تقرير ، مجمع البحوث الإسلامية ، لإدارة العامة للمبحوث ، التأليف

والترجمة . المرفق

سلامة . جاء بالصفحة ٧٧ أن التوحيد ليس هو الحمد الوحيد الذي يجب أن تكون مصر قد اعتنقته وذكر بالصفحة ٨ قصة من (زنبوبيا والجن) معرضاً بذلك معك الذي سلمين عليه السلام . وفي الصفحة ٨١ ذكر أن أس كون الإله (مربوك) أحد الأصنام المصودة في العراق على عهد سعدنا إبراهيم ضمن الأصنام التي حطمتها سي الله براهيم هو ما يحتاج إلى إثبات بالحيث الطويل . وذكر بالصفحتين ١٠٧ - ١٠٩ لمبحث الواقع التي كتبها إلى خليفة المسلمين . علم بن ظن - رضي الله عنه - لا تليق به . وذكر بالصفحات ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ما يقل تعرضها بعقلان جليلين من علماء المسلمين هما الشيخ (محمد الخراي) رحمه الله . والفواء أبو العزائم . وذكر في صفحتي ١٤١ - ١٤٩ تعرضها بفتح آخر من علماء المسلمين الأجله هو الشيخ (عبدالصبور شاهين) . ثم تعرض لـ (عبدالصبور شاهين) . في قضية الدكتور (نصر إبراهيم) وموقف الشيخ عبدالصبور شاهين منها . ثم تعرض في صفحة ١٥١ إلى السيرة بالفناء . وفي صفحة ١٥٤ نسب إلى أبي المؤمنين عمر بن الخطاب مقام يله وهو أنه حرم مكافن حلالاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكافن النساء والرجال وأنشأ التقرير بطلب معسرة نسخ الكتاب سلف الذكر وعدم التصريح بضميمة

وبعد الاطلاع على الملاحظات التي أجزها النيابة العامة مع المؤلف المرفق وبعد سماع أقوال المؤلف سيد محمود القمني . وحيث إن النيابة العامة قد طلبت تأييد قرارها الصادر منها بضغط الكتفب الجيب معليه استنداً إلى المادة ١٩٨ من قانون العقوبات . وقالت في سبيل تبرير ذلك أن المؤلف اقترف الجريمة المؤهلة بالقتل ١/٩٨ من قانون العقوبات وذلك لتروجه وتحيزه بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد تحطيم وإزراء أحد الأديان السماوية وقد استندت النيابة العامة في ذلك لما جاء بتقرير مجمع البحوث الإسلامية الإدارة العامة للصحة المعنوية . التأليف والترجمة . المرفق والذي يحصل في أن هذا الكتفب قد تضمن التهم والفسرية والاستهانة بالعلماء وبالقراء الإسلامي وبالإساءة التي هي غير أنه أخرجت للناس إذ استند فيما كتبته الصفحة ٣٢ إلى الثورة ومجاهد بها من إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وولده يعقوب ثم أبناء يعقوب من الأسباط ولحمده الآية في زمانهم ثم استند أيضاً في سره ولفظ أخرى في الصفحات من ٣٣ إلى ٤١ استنداً إلى رواية الثورة . وجاء بالصفحة ٦٦ من الكتفب أن الفاعلة هم أبناء القمية . وبالصفحة ٩٧ أن الأبناء زناً مصر وتطعموا فيها التوحيد ثم علوا يعلمون في



الشيخ الخراي



يوسف شامير

القمية من الزى لأنى استطيع أن ارتديه خدأ . كما أنهم لا يتكلمون وحيث فقد زلعت الأقدام وجفت الصف من زلن .

كما أن قسيتهم لا تستند من حديثهم في شكل الدين . فإنى محترف طقوس الدين . قسيت فيه عمرى من أجل هذا الخرف . ومع ذلك فانا شخص

ليس بليس . يدبل أخذى من محراب علمى وبهدلنى في المحاكم . وإن ما كتبه من أجل هذا الوطن . وس هنا القول أن إسلامى لا يجعلنى اعترف بظاهرة ولا قديمة إلا لله . كذلك ليس في صحيح الإسلام أهر . فالأهر مؤسسة لا تعنى إيماءة قديمة لأهنا من إنشاء

الاستعمار الفاطمى . سيما أنا مع هم بالوطن ينطقى المجمع العلمى الدى لركه بتليين في مصر هذا هو حد الوطن . ولا سهل هنا الرد من أن الفاطميين كانوا مسلمين وتاليين وغير ذلك لأن الموافقة على استعمار لانه إسلامى هو خيانة وطنية عظمى وعلينا بهذا المنطق الاموج أن نأفل ملا احتلال إيران مصر .

أما بالنسبة للفناء فأس اعن بصوت على وضعى يؤمن بما يكون لنى القى ن عدالة القضاء المصرى والىاية في مصر . وأهيب بكتبة أن تتذكر ملى حادثة التحقيق مع طه حسين الذى لا يذكر إلا وذكر معه وكيل النيابة الذى كتب اسمه في تاريخ مصر بحروف من مور الأستاذ محمد مور

تقاسمت النيابة :

س أنت منهم يستغلل الدين بالثرويع والتخريف بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد إثارة الفتنة وتحطيم وإزراء الدين الإسلامى والإضرار بالوحدة الوطنية .

ج . أنا أفكر ذلك شملأ .. تأييد من كون الفكر لا يوصف بأنه إرهاب أو غير إرهاب . فانا القول علمى وأعلمنا وأنصبة . وهناك من يردنى إدا لأخطات . فانا ربما أطيع فيما كتب في نصيب الأجرين . فإن رأى من هو أعم منى فاع قول . ودون ذلك الصف المتطورة أى خطأ . فسأكون حسب الجدا الطقى الذى حصلت على نصيب الأجر الواحد .

أفل المحضر وأقرا الأنى يفلى سبيل الختم سيد محمود على القمنى بضممان جواز سفره من سرأى النيابة .

كرم جبر

وحيث إنه لا كان ما تقدم وكان ما دلت لنا من منظمة نسخة الكتاب المعروض علينا والمنعوتة «رب الزمان ودراسات أخرى» للمؤلف ، سيد محمود القسبي ، أن ما تضمنه الكتاب المعروض في صفحات من ٣٢ إلى ٤٢ في شأن سيدنا إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وولده يعقوب والإسباط عليهم جميعاً الصلاة والسلام فهو سره للصحف كما جاءت في التوراة من وجهة نظر المؤلف وبذلك هو .

والتوراة كتاب منشور ومتداول وهو مصدر الديانة اليهودية ، وهي دينه سنوياً بارها الصلحون ويؤمنون بها رسالاً من عند الله تعالى كما يؤمنون بالتوراة ككتاب من كتب الله الذين أمروا بالإيمان بها - يعرف النفاذ عما وقع بها من تحريف - إذ أن إيمانها بها اليوم باعتبار أصلها الصحيح المثل من عند رب العالمين

وبالتالي فإن استنسخ المؤلف إلى مثل هذا الكتاب في نقده لقيام سيئسلي عرضه على النظرة المصرية المخرج السنيناني ، يوسف شامخ ، مستخدماً من لغة التوراة في الرد على ما يعتقد المؤلف أنه مخالفة للتوراة في ذلك الفيلم محل النقد مطبقاً بحسه بما وصفه التوراة للأنياب سواء بإضافة الطب إلى اسمائهم أو ما وقع منهم من أحداث طبقاً لما ذكره بالتوراة مدعياً أن ذلك يمثل الدراسة العلمية للتوراة

فإن ذلك في مجال البحث العلمي لا يمثل أي نوع على حرمه هؤلاء الأنبياء طلالاً أنه لم يلم بعرضه أو نكر أي وصف أو لقب أكثر من هاء مكتورة واداد ذلك إلى مصدره وهو التوراة من تفسير لذلك على نحو يجعل على الاعتقاد بصحته بما يسمي ذلك مجرد نقل لغوي من مصدر مسجوح بشره وتداوله ، لا سيما أن المؤلف جنى إلى سره وفتح تاريخية على أن الأديان لم تشر لها في كتبها وولفت بنية لم تشر كتب التاريخ لها أو الحقائق

التاريخية ، وذلك على نحو يمثل محاولة لوصف وفتح التاريخ بالوقائع الدينية ومسميتها عندما عرض الحقيقة التي عاينها نبي الله (يوسف) عليه السلام بمسميتها الدينية في التوراة والربط بينها وبين مسميتها من الفراعنة والوقائع كما عرضها كتب التاريخ وحفظه ، وهي محاولة لا نبار عليها

ولا سيما فيها بالإسلام من المؤلف . وذلك لأن ما جاء بالكتاب في هذا الخصوص مجرد استنساخ من المؤلف لمل كتيبه الأريدي (د. سيد كريم) نشر بمجلة الهلال ، وقد تضمن الكتاب المعروض تصحيحاً لمفهوم هذا المثل مبيناً بعض متناقضاته من وجهة نظر المؤلف متكرراً على كاتب المثل

ما انتهى إليه من استنتاج أي أن ملجاء بطله الصفحة بعض تصحيحاً لمفهوم خاطيء وليس تقريراً لخطأ يمثل إسامة إلى الإسلام ، كما أن ما جاء بالصفحة ذاتها من زيارة أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وهشيب وموسى إلى مصر ومعارفهم بعقيدة التوحيد وإيمان المصريين به

والبعث والصلب والآخرة وخلود الروح ، إنما جاء في سبيل عرضه لخلق د. سيد كريم . ولم يدل المؤلف بطلوه في هذا الشأن مكتفياً بذكر ما ورد بطل د. سيد كريم فقط

وبالتالي فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد عرض لبعض الأفكار التي نقل في هذا المجال مع بيان مصورها وأيا كانت وجهة النظر فيها فهي لا تعيب المؤلف طلالاً لغير مصورها .

وما جاء بصفحة ٧٧ من الكتاب عن طولة أن التوحيد لا يكون من الضروري هو المجد الذي يجب أن تكون مصر قد اكتشفته فإن ذلك لا يمثل مساساً بالدين الإسلامي الصحيح لأن فكرة التوحيد في مصر القديمة كما هو معروف - أيا كان شأنه أو وصفه - فلم يكن هو التوحيد الطقوس لوجه الله على النحو الذي بحث به أنبياء الله صل الله عليهم جميعاً . وإنما كان توحيداً مشوباً بدمت

الله الأنبياء من أجل تصحيح ما فهمه ووضح خلقه على طريق الإيمان الصحيح والتوحيد الطقوس لوجهه - بمعنى أن التوحيد لدى مصر القديمة لا يرقى إلى درجة التقديس مطلقاً . وإنما هو من الأمور القليلة للدراسة والتعاشف والمعى والإدراك وأن العرض له على نحو ملجاء بمعارف المؤلف لا يمثل مساساً بالعقيدة الإسلامية العراء أو بمجد مصر الذاتية أصلاً بعراقلة حيلتها

وفي خصوص ملجاء بالصفحة ٨٠ عن مدينة لسي (زونوبيا) لقد جاءت سره رواية يتفادها المؤلف من الأريدي (عزت السنطسي) فإن أحدا لا يستطيع أن يتكرر أن هناك من المؤلفات ما تحدث عن عالم الجن وهزاره

ومن هنا نرى أن نسب بعضها إلى علماء مسلمين لا يمثل مهم لأن ما ورد بالكتاب المعروض في هذا الشأن لا يعدو أن يكون في ملجاء الدعوة من المؤلف لطرح مثل هذا الفكر الذي قد يلجسه البعض إلى الفكر العلمي المنهجي الحديث وهو أمر محمود

ومطلوب في توجيهات لفلان ولا يمكن عمله على أنه صفرية كما ذهب لقرير جميع البحوث المرفقة وما جاء بالصفحة ٨١ من القول بأن (مريدك) أحد الهة العراق القديمة كان ضمن الأصنام التي حملها سيدنا إبراهيم من عمه هليس فيما ذكره المؤلف لمة إنكار الواقعة التي أخبر عنها القراء بأن سيدنا إبراهيم ذكر الأصنام . وليس عبارة المؤلف تدور حول معنى استكفاهي . بل (مريدك) هذا كان ضمن ما حملها سيدنا إبراهيم من الأصنام من عمه . وهو أمر لم يقطع به القرآن ولم يشر إليه وأصاب المؤلف أن إثبات ذلك يحتاج إلى بحث قد يستغرق عمراً . وبالتالى فلا غضاضة على ما ذكره المؤلف في هذا الشأن لاسيما أن ما يروى بطولاه جاء نقلاً عن طفل الاستد ، عزت السنطسي ، سلف الإشارة إليه وعرضه بصيغة استكفاهية استكفاهية لم ير من روايتها سور قصد تنقية المعتقدات الدينية من بعض الأمور غير الدقيقة وفيما ورد تقريرها بالمؤلفات جازاً دون أن تستند إلى وفتح حقيقية لثقت في الدين أو التاريخ وبالتالى فليس في ذلك مساس بالعقيدة مطلقاً

وفي خصوص ملجاء بالصفحة ١٠٧ - ١٠٩ . ١١٠ عن قصة [عطيل بن عيل] رضي الله عنه فإنها مجرد نقل من كتب لها شأنها في دراسة وعرض تاريخ الإسلام والمسلمين . ولم يأت المؤلف بجموده في هذا الشأن ولنشر إلى بعض تلك المؤلفات القديمة التي نقل نزالاً راسفاً في ضحى هذه الآلة المسندة وكفا

١ - كتب الديانة والبصحة لتسليح الإسلام عند الدين أبي الفداء إسماعيل أس صر من طر - ١٠١ هذا المقام تراجع من صفحة ١٩٠ إلى ١٤١ من الجزء السابع فبس الحمد الرابع عشرة صفحة دار الفع العربي

٢ - مكتب الطبقات الكبرى لحمد بن سعد تحقيق الأستاذ د. حمزة المبريني وعبدالمعطي فرغل



وعبد الحميد مصطفى . يراجع ص ٦٢٢ من المجلد الثاني عدد ٢١ فؤاد الأهرام .
٣ - فؤاد الإسلام للذهبي - إصدار دار الفكر العربي - المجلد الثاني - ص ١٢٢ ومبعضها .
٤ - كتاب رضاء الإسلام د . حسن إبراهيم إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب - الأعمال الدينية طبعة ١٩٩٧ ص ٤٠١ ومبعضها . وبفضل بعض ما ذكره المؤلف في هذا الشأن مجرد سرد لوقائع سجله إليها كثير من المؤلفين منذ زمن مسبق ويقوم عليها القراء في الفريخ الإسلامي وتتمتع باحترام وتقدير كبار العلماء والمفكرين .

- وبخصوص مجاله بالفصلحات ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ببيان نقد بعض مؤلفات الشيخ محمد الخازن رحمه الله ، والقواء عصام الدين ماضي ابو العزائم فإن ذلك لا يندى نطاق المناظرة العلمية وإن اقتصرت لهجتها إلا أن ذلك ليس يرى لا يبدو أن يكون نقداً مبدعاً في نطاق المناظرات التي تجري بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين كما يحكيه تاريخ النقد والمناظرات الفكرية إذ أن أروق المفكرين في هذا الشأن في مصنف الشخصيات العامة يتجمل من عدة لهجة النقد خرج بخلق الخطأ في هذا المجال

- وبخصوص مجاله بالفصلحات ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، في مجال الحديث عن قضية الدكتور نصر أبو زيد ، ومؤلف الشيخ ، عبد الصبور شاهين ، منها فإن ذلك لا يبدو أن يكون منافية بين رأى المؤلف ورأى الشيخ عبد الصبور شاهين . وعلاهما يسلق في مجال ملقه بوجهة نظره ومع أيهما ومصداقه كلمته يمثل حجراً على فخره . وهو ما تتدأ منه الانسلفية إذ أنه المناظرات النقدية برمي الفكر وينجز عن الصواب دائماً وهو امر محمود ولا يمكن القول بأن في مثل تلك المناظرة النقدية فخرها بأحد .

- أما بخصوص ما ذكره المؤلف بصفحة ١٤٩ من

الشيخ - عبد الصبور شاهين ، بأنه مستطير بيوت جيش الأموال فإنه - إما كانت وجهة النظر فيه فلا يمكن وسطه بأنه فكر منحرف يستوجب المصداقة للمؤلف في جعلته . وإنما يقضي ذلك بأعنف الأوصاف فمعين أن يلخص منه صاحب الشأن الذي له أن يلجأ إلى القضاء بالطريق المقررة قانوناً في هذا الشأن ليحصل على ما قد يرى الإدعاء به من حقوق قبل المسئول إن كان لشخصه وجه ويستأخذ الطرفان في ذلك الأمر إيجاباً ونقياً وصولاً إلى وجه الحق لكنه لا يقلق شراً عما يستوجب الحجر على فكر المؤلف في هذا الخصوص

- وفي خصوص ما تناولته الصفحة ١٥١ من نقد المؤلف للمعلم الصغير . وفي قضية الدكتور نصر أبو زيد ، فإن ذلك لا يبدو أن يكون مجرد تحقيق على حكم قضائي بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرية الحكم أو هجونه أو ما يشير إلى معنى التهم منه

- وبخصوص ما جاء بالعقبة عن الله من الذكر والاثنا . فإنه مجرد ذكر لتاريخ أهم مسابقة على المسحت الإنشوي الشريف . بل وربما مسابقة على المسحت الإبراهيمي الشريف وكنت تلك الأمم لديها تلك المستطعات . ومن ثم فإنه لا خير مما جاء بالكتاب في هذا الشأن قلنا أنه لا يستند إلا لغير العرض التاريخي لأصحاب الأمم القديمة

- وفي خصوص ما جاء بالفصلحة ١٥٤ عما نسب إلى الخليفة . نصر بن الخياط . رضى الله عنه من تحريمه مأكلاً حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ملحة النساء والمنع بين النساء الحج . فإنه وإن كما لم نعتق لهذا القول على أصل فيما غام بين أيدينا من كتب التراث إلا أن ورود ذلك القول في معرض الاستدلال على أن من عصاه المسلمين من خالف أحكام الشرع الحديث فإنه يصحى استدلالاً ببطلان على بطلان تخلفه هذا الاستدلال لما هو ثابت للقرآن والإجماع وهو

ما يصح معه ظاهر الاندفاع ويقضي بذلك - كما نرى - من قبيل الخطأ في الاستدلال على مدلول البليغ ولا يردى إلى فساد الفكر في جعلته ما يستطال مصفرته لغيره خطأ ظاهر النطال في الاستدلال

وحيث إنه ومن حاصل ما تقدم تبين أن تقرير مجمع المحوث الإسلامية إما كتب بمواقع بيته قوامها الغيرة على الدين الإسلامي الحنيف بين أن الأمر دار في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية كذلك فإن الكتاب إذ توجه إلى تأليف مؤلفه فقد توجه إلى ذلك بمواقع سببه قوامها الرغبة في المنحط العلمي واستحالة الحقيقة الدينية الحقيقية . وإذا كان الأمر في النهاية قد جعل الخلاصة الاجتهادية لتقرير مجمع المحوث الإسلامية تتعرض مع الخلاصة الاجتهادية لصاحب المؤلف المطروح . فإن هذا الموضوع لا سبيل لرفعه من شئى إحدى الخلاصتين الخاصة الأخرى أو تصغيره لما في ذلك من معرض

مع أحكام الدستور الذي نصت المادة ٤٧ منه على أن حرية الرأى مكفولة بولق إنسان التمتع ع رأيه ويشره بخلق أو القتل أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التمتع مع حدود القانون والمعادى والمقت البناء صمماً لسلامة البناء الوطنى - كما نصت المادة ٤٩ من الدستور على أن تكل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمى والإبداع العلمى والفنى والثقافى وتوزيع وسائل التشجيع

اللازمة لتحقيق ذلك . وبالنظر إلى سبيل رفع هذا التمتع هو الحوار العلمى الرصين والاحترام على كل طرف وفتح جميع موائد الفكر على تسليق الطلق ولصغر القول في سبيل فهم مطلق وقدم ديمنا الإسلامى السديد - دعا للإضافة إلى .ء وإن صح أن مؤلف الكتاب قد لخطأ في شئ ما كتب فإن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتضمن الخطأ المصحوب نية التصدى غير الخى وبالنظر للعقبة بمقتضى نص المادة ٢٨ من قانون العقوبات أن يكون الجنائى قد تعدى على الدين أى أنه امتنع أو ارتكب ما من شأنه المساس بكرامته أو انتهاك حرمة الخط من غيره والإضرار به وإن يكون قد قصد ذلك وتعمده . ولما كان فيه من ذلك لم يتوافر في حق مؤلف الكتاب فلا جريمة ولا خطب .

وحيث إنه متى كان ما تقدم فإننا نرى أنه لا تقرب على الكتاب المعروض فيما تضمنه على النحو سالف البيان في جعلته بما يقضى الأمر الصغر بوجهته في غير محله .

لهذه الأسباب
أرئنا إلقاء الأمر الصغير بشيئة كتاب . راب الزمان ومواسات أخرى . مؤلفه الأستاذ . سيد محمود الضفى . والإفراج من هذا الكتاب ومسبق ضبطه من موات طبعه صدر هذا القرار وثلى علنا بمرأى المحكمة في يوم الاثنين الموافق ١٥/٩/١٩٩٧ م .

(توقيع رئيس المحكمة)



- لا حول الله .. الراجل صاندروا دماغه كلها !!..

رغم اتهام الأزهر له بمهاجمة سيدنا يوسف وسيدنا عثمان وشاهين!

القضاء ما كتبه سيد القمى لا يستحق المصادرة

محمد البعراوى

رغم اتهام الأزهر له بمهاجمة سيدنا يوسف وسيدنا عثمان وشاهين!

القضاء: ما كتبه سيد القمى لا يستحق المصادرة

الأكبر روعة من حكم محكمة شمال القاهرة بإلغاء أمر ضبط كتاب «رب الزمان» تغيب الدكتور سيد القمى والإخراج عن الكتاب وما سبق ضبطه من أدوات طبعة، هو أسباب هذا الحكم، والتي تولى شأن الفكر العلمى المنهجي، والمناظرة التقنية ولأن اشقت لهجتها.

كانت نية أمن الدولة العليا قد استندت في أمر ضبط الكتاب والتحقيق مع مؤلفه إلى تقرير مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الذى جاء فيه أن الكتاب تضمن التهمك والسخرية والأستهانة بالعلماء، والتراث الإسلامى والآلة الإسلامية.

ولدت المحكمة التى ترأسها المستشار سلامة سليم بنه نيت لها من مطالعة الكتاب أن ما تضمنه في شأن سيدنا إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وإله يعقوب والأسباط عليهم جميعاً الصلاة والسلام هو سرد القصص كما جاءت في التوراة من وجهة نظر المروق ولغته هو... والتوراة كتاب منشور ومتداول وهو مصدر الديانة اليهودية التى تؤمن بها كما تؤمن بالتوراة. يعرف المنظر عما وقع بها من تحريف. إذ أن إيماننا بها يقوم باعتبار أصلها الصحيح.. وما جاء في الكتاب لا يمثل أى قصد على حرمة هؤلاء الأنبياء، سواء أنه لا يتم بعرض أو ذكر أى وصف أو لقب أكثر مما جاء بالتوراة... وأما ما جاء بالكتاب بعنوان «هل بنى

القراعة لكمية» فإن ذلك لا يمثل تحريراً من المؤلف وإنما مجرد استنكار منه لمقال كتبه الدكتور سيد كريم في مجلة «الهلال» وتضمن الكتاب تصحيحاً لمفهوم العقال.. وما قاله المؤلف من «أن التوحيد لا يكون من الضمور» هو العبد الذى يجب أن تكون محسراً قد اكتشفه، لا يمثل سباً بالاسلام.

واكتبت أسباب الحكم أن ما كتبه المؤلف عن عثمان بن عفان كان مجرد نقل عن كتب لها شأنها في دراسة وعرض تاريخ الإسلام والمسلمين مثل «البداءة والنهاية» لنسب الإمام عبدالنير بن عمر بن كثير والحقائق الكبرى، لأن سعد وتاريخ الإسلام الذهبى أما ما جاء في الكتاب بشأن نقد بعض مواقف الشيخ محمد الفراهي وللواء عصام الدين ماضي أبو العزائم فإن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة التقنية ولأن اشقت لهجتها ولا يعتبر أن مصنفات الشخصيات العامة يجعل من شأنه لهجة يكون نقداً مباشراً إذ أن وقوف المتأخرين في النقد خارج نطاق الخطأ.. وكذلك الرأي بخصوص ما جاء في الكتاب عن الشيخ عبد الصبور شاهين.

هذان كليهما ينطبق بوجهه نظرهم وسمي بهما، ومحسناً من الإنسانية إذ أنه بالساعات السبعية يرتقى الفكر وينجلي عن المصواب ويختصمون ما تكروه. القمى عن شاهين بأنه مستشار بيوت هيثم الأموال

فإنه أيا ما كان وجه النظر فيه فلا يمكن وصفه بأنه مكر متحرف يستوجب المصادرة وإنما يضمن ذلك بانغاف الأوصاف ما يمكن أن يتضمن منه صاحب الشأن الذي له أن يلجأ إلى القضاء لكأن لا يمثل ضرراً عاماً يستوجب العجز على نكر المؤلف.

وحيث نقد المؤلف الحكم في قضية د. محسراً أبو زيد فإن ذلك لا يعني أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائي بوجهه نظر المؤلف دون المساس بحرية الحكم أو حيته أو ما يشير إلى معنى التهمك منه.

وبخصوص ما جاء في الكتاب عن آية من الذكر والآيات فإنه مجرد ذكر لتاريخ أهم سادات وانتبهت أسباب الحكم إلى القول بأنه إذا كانت الخلاصة الاجتهادية لتقرير مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر تتعارض مع الخلاصة الاجتهادية للمؤلف فإن هذا التعارض لا سبيل لرفعه بل تنفي إحدى الخلاصتين الخلاصة الأخرى أو تعارضها لما في ذلك من تعارض مع أحكام الدستور الذي يكفل حرية الرأي والتعبير والتمتع العلمى والإبداع الأدبى والفنى والفكرى. وبالتالي فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمى والاجتهاد من كل طرف ورفع جميع نزاعات الفكر كى تنجلي الحقائق.

reporting

Judge defies Al Azhar over book ban

Liberals see verdict as a clear message to Islamists



Cairo Times

IT WAS A significant slap in the face to the conservative religious lobby. On 13 September, a court in Cairo's central district threw out a case prepared by High State Security prosecutors at the behest of the Islamic Research Academy to ban a book by Said Al Qimany. The book, one of 195 that Azhar has slated for banning, had already been removed from bookstore shelves by the police.

Judge Sa'ed Salama wasn't having any of it. He refuted all 19 objections raised in an Azhar report which accused Qimany of variously insulting caliphs, prophets and major Islamic scholars living and dead in his book *Rabb Al Zaman* (God of Time). Not so, said Sa'ama in his summing up. Qimany didn't ridicule Abraham and his sons Isaac and Joseph, he simply retold the traditional

story and gave his opinion on it. He didn't mock the third caliph عثمان, he simply repeated what a number of historians have said before.

According to Salama, Qimany's assertion that monotheism was not the only great discovery of pre-Islamic Egypt is welcome. His criticism of the late Sheikh Muhammad Abul Ghazali was legitimate, public debate, and his accusation that Abdel Sabour Shaheen—a preacher who led the campaign against Cairo University professor Nabil Al Zuhayr in an Islamic investment house—transmitted a syncretic, hybridized, as deviant thought that demands confiscation. The judge called for opening the outlet of thought so that truths manifest themselves and minds become free. Even if the author has made mistakes, it's one thing to say he's wrong and another to say he did it willfully, he said.

Qimany thinks the verdict is of historic significance as the first such ruling to uphold "the constitution as opposed to Islamic Sharia." This is a warning to all those who want to go beyond constitutional limits via religion. It says to Al Azhar: "stop where you are," he says.

Salama was perhaps sympathetic to Qimany's cause. He could have banned the book according

to article 196 of the penal code concerning "disdain for one of the monotheistic religions," but instead leaned on articles 48 and 49 of the constitution which guarantee freedom of scientific research and cultural and literary innovation.

In light of this, it doesn't necessarily follow that he other books that the Academy has marked for banning have been let off the hook. Qimany himself says he has heard of no other copies of his works are the next to be banned, willingly removed the book or Al Azhar's advice before the ruling, and there's little reason to believe they won't do the same again. Raed Ibrahim, an official of the Arts Police claimed that the Islamic Research Academy reserves its right to say if a book is legitimate or not, and that police act on that report. State security prosecutors raised the slander suit against Qimany "to obtain an order confiscating the book," he said, although it had already been confiscated on the orders of state security.

The Islamic Research Academy is headed by Nabil Sharara. His father is none other than Sheikh Metwally Sharara, probably the most influential religious figure in Egypt, if not the whole Arab world. Televangelist Sharara, bestselling author Mustafa Mahmoud and Abdel Sabour Shaheen form the core of the amorphous religious lobby ranged against a loud group of liberals who call for religion to be completely removed from public life to make way for a new democratic Egypt. In the absence of Farag Foda—assassinated in 1992 after another Azhar committee branded his writings heretical—Qimany has been the loudest and most provocative of this liberal intelligentsia. □

Who'll play Dodi and Di?

Cairo Times



AND NOW, THE film. Top director Khan Beshara has announced he is working on a script for the first Arabic Diana film, which should go into production early next year. Diana fever in Egypt won't be over for a long time yet it seems.

"I am writing, collecting material from England and working out my approach to the subject. I'm still in the kitchen, as it were, so I don't know how the food will turn out yet," Beshara says, though he does promise "original emotion."

Speculation has been rife in the media over who should play the former Princess of Wales. According to the entertainment weekly *Akhbar Al Nougum* it's between Youssra—regarded as Egypt's classiest actress—Jihan Nasr, 70s star Nagla Fathi and Sherpen Rida. "The biggest problem here is the different looks of Egyptian actresses and Diana," the paper wrote in

beauty.

Another director, the less well-known Atef Salem, also says he's planning a Diana film. Rumor has it it will feature veteran sex-symbol Omar Sharif as Dodi Al Fayed, Diana's Egyptian lover. Sharif is over 60—but age here is rarely a bar to casting a star in a role generations his younger. Adel Ibrahim—fate now lined with crows' feet—has played crumblers (twenty and thirtysomethings in recent years. Those in the industry who don't have a problem with this are touting a "dream ticket"—Youssra and Sharif together as the star-crossed lovers. They have been a winning formula opposite each other in TV ads for Cleopatra Ceramica floor tiles this year, successfully oozing *millionaire*.

It's not just film. Six books have already hit the streets about the life of Diana (three of them reprints of Arabic versions of the biographies that have rocked the British royal family since 1992). You don't have



بعد الحكم بالغاء مصادرة كتاب :

حصانة الشيخ عبدالصبور

قرا رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية الأستاذ سلامة سليم كتاب « رب الزمان ودراسات أخرى » للمؤلف (سيد محمود القمى) بصفته قاضيا ، وأصدر حكما برفض مصادرة الكتاب ، وبالتالى نجا المؤلف من المحرقة التى كان ان ينصبها له بعض السادة الأفاضل في مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر . ويتضمن الحكم الذى صدر يوم الاثنين الماضى دراسة وأهمية للأجزاء التى اعترض مجمع البحوث عليها واعتبرها صك تكفير الرجل أو كاد ان يفعل .

ومصادرة الكتب ومطاردة الفكر في مصر ظاهرة شديدة الغرابة . أولاً لتناقضها الشديد مع تأريخنا المصرى الحافل بالازدهار الثقافى وثانياً لحصرها الذى تتقدم فيه البلاد نحو حضارة القرن الواحد والعشرين بلغات واسعة وحطوات متتالية بعد عملية الإصلاح الاقتصادى الجذرية التى شهدتها مصر خلال الخمس عشرة سنة الماضية والمشروعات العملاقة التى تيشتر بحيز كبير

ويختار الإنسان في تفسير ما يجرى وخاصة حينما يكتشف من قراءة حثيثة حكم المحكمة في قضية كالتى تعرض لها للحكم قد مد في ساحة مدملة ما ذهبت إليه جماعة التكفير وبساطة منطق الحثيثة هي سر قوتها العجيبة . ولا تخرج تلك القوة بأية حال عن قوة فهم صحيح ومستنير لمقاصد الشريعة والتفرقة بين ما هو من عمل العلف الإنسانى وما كتابى وقوعه و الخطأ . وبين التمزيل الذى لا يأتية الحاصل من بين يديه ولا من خلفه

على أية حال الحثيثة كاملة منشورة على صفحات



سيد القمى



عبد الصبور شامير

■ على موجة الرأي العام ■

رأس العمود

إشارة إلى التطبيع السياسي والاقتصادي والذي كان بدا بين هذه الدول وبين إسرائيل ثم توقف منذ عدة أشهر فقط .

وطبعاً السيدة أولبرايت لا ترى مبرراً لوقف نمو العلاقات بين إسرائيل وبين دول الخليج . ولكنها لا تستطيع أن تفكر أو تدعي عدم المعرفة بشأن أسباب توقف الاتصالات وعزوف دول الخليج فيما عدا قطر عن حضور المؤتمر الاقتصادي الذي تشترك فيه إسرائيل والمعروف أن نتفניהو هو الذي أوقف الاتصالات مع دول الخليج نتيجة اتتهاجه سياسة خاطئة . فقد بدا له أن يستطيع بكل ما حظه سلطه في حزب العمل من حطوات متوازية لإلزام السلام . ومن ثم العلاقات الطبيعية بين دول المنطقة . فقرر أن يتمسك بالعلاقات الطبيعية ويضرب عرض الحائط بالالتزامات إسرائيل نحو السلام في إشارة واضحة إلى أنه قرر أن يضحك على العرب . أو أن يضربهم بالتمتع على حد سواء .

إن الحقيقة الناعسة أن نتفניהو لا يريد السلام . ومخاطبة الشعب الإسرائيلي في هذا الأمر أصبحت ضرورة لا مفر منها . وخاصة أن نتفניהو لا يعرف عملية السلام فحسب بل يشجع المتطرفين اليهود على طرد السفكر العرب وإلزام القدس في القدس الشريفه وغيرها . وبلف ليتفرج وينتظر انفجار الموقف كما يحدث الآن في منطقة

رأس العمود ■

عدد من الشخصيات الإسرائيلية ذات الوزن السياسي والاجتماعي نصحوا وزيرة الخارجية الأمريكية السيدة أولبرايت بأن تمارس ضغطاً على رئيس الوزراء الإسرائيلي نتفניהو الذي عطل عملية السلام . ولا يزال يمارس ضغوطاً شديدة من أجل تدمير كل فرص السلام المتاحة .

رئيس الدولة العبرية وأرملة رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل رابين وابنة موسى دايان وزير الدفاع الأسبق والشخصية الشعبية في إسرائيل من بين الذين عبروا عن رأيهم بوضوح ودون تردد في رئيس الوزراء نتفניהو وهكذا انضم صوت إسرائيل لا بأس به إلى الأصوات العربية والدولية التي قررت منذ وقت مبكر أن نتفניהو عطل عملية السلام . وأن سياسته لا يمكن أن تسفر عن إقرار سلام خلافاً لمصالح الشعب الإسرائيلي والواضح من استعراض المواقف والحلفاء أن السيد نتفניהو اجتهد بشدة لسد كل سبل السلام وتدمير كافة فرصه .

وفي اجتماعها مع وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجي استعرضت أولبرايت الموقف . وهي تحت دول الخليج على حضور مؤتمر الدوحة الاقتصادي بصرف النظر عن التقدم المطلوب في مسيرة السلام وشددت أولبرايت على ضرورة قيام دول مجلس التعاون الخليجي برفع الحواجز القائمة بينها وبين إسرائيل في

روزاليوسف . وبإمكان من يقرأها أن يكتشف بنفسه إلى أي حد ذهبت جماعة التكفير إلى لوى النص والحيلة وتحويل الكلمات إلى محرفة يساق إليها صاحب الكتاب ومؤلفه .

وإن أتوقف طويلاً عند هذه النقطة التي تبدو لمرط بساطتها هي المنطق الصحيح الواضح الذي لا يحتاج إلى تدقيق للفهم ولا إلى تمعن للتحليل . ويصبح السؤال عن الدافع الحقيقي الذي دفع جماعة مجمع البحوث ، إلى الذهاب إلى ما ذهبت إليه وأهملته المحكمة .

وإذا لم يكن لدى جماعة مجمع البحوث دافع واضح ، ولا تقبلوا الدفاع عن الإسلام . فإن الشك سوف يخيّم على قدرة هؤلاء القوم على اللهم الصحيح للنصوص التي تم تداولها كتراث على مر العصور . ومصلاحيّتهم للدراسة النقدية التي لا تعبر عن وجهة نظر صليبيها إلا فيما يتعلق باستنتاجاته . أما النصوص في حد ذاتها فهي ملك للتراث والتاريخ . وإلا فهل العلوم الإنسانية السلام .. وسوف تعتبر دراسة المذاهب الفلسفية كترا . ودراسة حضارات الأمم القديمة والكتابة فيها

رجساً من عمل الشيطان ولست أظن جماعة التكفير لا تعرف ما تفعله . بل هي تعرف . ولست أظنهم لا يدركون مقاصد الكلام ومرامييه الحقيقية . بل هم يدركون . ويبقى الاحتمال الأول هو الأرجح وهو توافر دافع في النفوس لارتكاب تلك الأفعال التي لا تنتج إلا أثراً واحداً وهو المساهمة في تفويض الحركة الثقافية المصرية بإرهاب المغتربين ودفعهم إلى التزائم الحذر حتى لا يقعوا فريسة المحرقة التي يهيئها مجمع البحوث المنجتم لإفانتها

ولسوف يكون من الشواهد التي سندرسها الأجيال المقبلة - إن كانت هناك ثقافة سبقي - مسالة مصدرة كتب لغفر إسلامي لأنه انتقد مولانا الشيع عبد الصبور شاهين في موقف يتعلق بسلوك في الحياة العامة فوصله بأنه « مستنار بيوت عبث الأموال » سيتوقف الباحثون ليتناولوا بالدراسة والبحث عن أسباب العصمة التي تمتع بها الشيخ عبد الصبور شاهين في نظر مجمع



حصانة الشيخ عبد الصبور

البحوث الإسلامية الإدارة العامة للبحوث ، القائف والترجمة . لاحظ الاسم الطويل ، والتابع للشيخ الأزهر . فاما في الواقع فالشيخ كان بالفعل مستشاراً لشركات توظيف الأموال ، وتلك معلومة متداولة وشائعة شيوخاً عاملاً بين الناس واما أنها « بيوت هبش الأموال » فهي فعلاً كذلك ولا يزال الضحايا يفتنون ويتوجهون من المقلب السلخن الذي شربوه والذي سقاهم إياه كل من روج لهذه الشركات ومن بينهم الشيخ عبد الصبور شاهين .

وقد سبق أن دفع الشيخ عبد الصبور شاهين المعروف بالذكور عبد الصبور شاهين عن نفسه تهمة فتح باب تكفيره . نصر حامد أبو زيد ، وانكر ذلك كلية ، ولكن إنكاره ودفعه لهذا الاتهام المنسوب إليه لم يسقط أداه عنه هذه التهمة في نظر الملقين المصريين والعرب الذين هلك ما حدث للرجل المفكر استناد الجامعة في القاهرة - مصر ام الدنيا ودرة الثقافة العربية ومفصل كل الحكويين ومنارة الاستنارة في العالم العربي والعالم الإسلامي

ما هي إذن اسباب عصمة الشيخ عبد الصبور ، وهل من وظيفة مجمع البحوث أن يمنع نقد الشيخ شاهين أم أنها محاولة لو اصابته لفتح العصمة لكل المشايخ ، ولأكنت حكهم في مصب المحارق لكل مارق من وجهة نظرهم وحسب تصميحاتهم التي ألبت حكم المحكمة أنها لا تقوى في وجه الملقن البسيط جداً من فرط سلامته ووضوحه .

واعتاد أن الجماعة تنفذ برامج ، الجماعة ، الذي اعاق برامجها ، و مرة الملقين المصريين ، الذين يلقون لها بالمرصاد أو كالمعلقة في الزور .

وقد فشلت جماعة الإخوان المسلمين المنحلة في تكوين رأس جسر لها يعبر بها إلى الحكم ، وفي كل مرة يحذلها الملقون ويتصدون لمخططاتها

ولم يفلح الجناح المسترعى السري للجماعة في خلخلة راس المجتمع لحكم هؤلاء القوم الذين يستترون بالدين ، لأن المجتمع بغيرته السليمة ، وفي مجموعته يدرك أن السيطرة باسم الدين لا يمكن التخلص منها أو الفكك من أسرها ، لأن نقدها أو مقلومتها ستعثر بخروجها على الدين ويساق الناقدون والمعتضون إلى المحرقة .

ولم تنجح عملية الإختراق الاقتصادي تحت ستار ما يسمى بشركات توظيف الأموال التي توحيشت بعض الوقت مستغلة الأزمة الاقتصادية وانشغال الدولة في إصلاح هيكلها المالي والاقتصادي .. وانهارت امبراطورية توظيف الأموال التي خلقت مجموعة من الملتفنين والمستفيدين الذين مالوا إلى الفلار المتناسم بما أنفق عليهم من أموال وأغنى عليهم من ميزات وعطايا . وانهارت شركات توظيف الأموال وبانت عمليات النصب ومدى فساد من قاموا عليها ومآهية تصرفاتهم في أموال الضحايا ، تلك التصرفات التي يندى لها الجبين .

فعاداً حدث بعد انهيار شركات توظيف الأموال وفشل الإختراق الاقتصادي للدولة وحصولها في مرافقتها الحيوية .

اتجهت ميليشيات إرهابية مسلحة تابعة للثوار المتناسم وخارجة من نفس العيادة إلى إطلاق النار وترويع العمدة وسقوط الضحايا في معركة شرسة دارت رحاها بين جهاز الأمن الوطني وبين شرادم تلك الجماعات المدفوعة لتدمير البنية الاقتصادية المصرية .

ولاحظ أن عملية محاولة التدمير جاءت في اعقاب فشل عملية الاستيلاء .

وبالقطع فإن فلسفة الجماعة وقيادتها لاحظوا أن الملقين المصريين كانوا دائماً في طليعة من يكشف مخططاتهم ويهددها بالخطاب الواعي مع الرأي العام فعاداً يفعلون .

لا يبدل إذن عن ضرب الملقين وإرهاب رموز الحركة الفكرية ومحاصرة الفن والفنانين ولا تقل

والرج سيعص الأجرة الحكومية في هذا السياق مسألة مفهومه تماماً ، فالعديد من القيادات الوسيطة في أجهزة الدولة تجد نفسها مضطرة إلى السير في ركاب هؤلاء لأسباب عديدة ليس ألقها

أهمية أنهم بالفعل نجحوا في تجنيد عدد منهم وفي مراكز حيوية كما أن قيادات أخرى تجد نفسها في حرج من مواجهة - مزعومة - مع الدين ، والواقع أن الدين لا علاقة له بهذا الموضوع ، وإنما المجابهة تكون ما بين فكر متخلف ومتطرف وبين فكر راجع ومستنير . وما بين القوى الشرعية الوطنية وبين قوى تدح النكس باسم الدين للسيطرة على مقدرات الأمور دون برامج واضحة للمستقبل

والقيادات الوسيطة التي تمسك العصا من منصفها هي أخطر ما يمكن في هذا الموضوع ، ونجسيد الموقفين الذين يعملون مع الجمهور لخدمة أهداف الجماعة المتناسمة هو طعن للدولة في ظهرها وفي مقتل ، لأن بسطاء الناس يتصورون أنه مدام مولفو الدولة يروجون لفكر هذه الجماعة فهي إد - أي الدولة - موافقة عليه ويميلون بإتقائ إليه وينخرطون فيه

والأخطر في هذه اللعبة العموان الضخم للأزهر الشريف وما له من هيبة ومكانة في نفوس المواطنين . ولعل الأزهر خلال تاريخه الطويل لم يتعرض للمحنة التي يمر بها الآن مع جماعه المتأسلمين الذين يرون أن العصمة للشيخ عبد الصبور مع احترامنا الكفل لشخصه

إن استخدام « مجمع البحوث الإسلامية » للتصدي للفكر والثقافة والوصاية عليها وفرض الرقابة على عقول الناس مسألة لا يمكن أن تجد لها طريقاً طويلاً في مصر التي تكاد تعبر إلى القرن الواحد والعشرين .

إن الإسلام الذي أعزه الله على مدى نحو خمسة عشر قرناً من الزمان ، ومرت عليه المحن تلو المحن ، ليس في حاجة إلى وصاية من مشايخ توظيف الأموال وسادتهم أو صبيانهم . فقد اكتشف المستور وسقطت حصانة الشيخ عبد الصبور ■

محمود التهامي

موضوع الغلاف

رغم دعم نيابة أمن الدولة لتقرير
مجمع البحوث الإسلامية :

صفحة لمشايخ التطرف !

■ الشيخ الجزار لا يطبق قوانين الأزهر ويحكم بمزاجه الخاص ! ■ لماذا اختفى مجمع
البحوث الإسلامية أثناء الإرهاب وظهر بعد انحساره لمطاردة المثقفين !

كرم جبر



الشيخ سيد طنطاوي

هناك ما هو أسوأ من الموت . الحياة . وهناك ما هو أسوأ من الحياة . الخروج من الجنة . وهناك ما هو أسوأ من الاتنين معا .. الذين يملكون صكوك المعابة والجنة . يسمونها من أحموا ويمنعونها عن أرادوا وأسوأ من كل ذلك أن تستخدم تلك الصكوك في تصفيه الحسابات ضد منقفي الوطن وإرهابهم بغيران التكفير والردة . واتهامهم بإزدراء الأديان والأنبياء . والهجوم على الخلفاء الراشدين . وتناول علماء المسلمين بالسخرية والتكتم و.. لو . لم يصدر المستشار سلامة سليم رئيس محكمته شمال القاهرة الابتدائية حكمه التاريخي يوم الاثنين الماضي بإبطال مفعول قبلة التكفير التي رماها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في وجه ١٩٦ كاتباً ومنهجا لتطابرت شظايا كثيرة . فلتقت الرؤوس . وغصت بام الوطن وسلامته وطمانينته

المصاهرة والتكفير لاصور كعبة . المتنوعات مصروفة . كما يقول - واحدة مشفحة . - لو . واحد بيوس واحدة . هذا بقنسية لسيما . اما بقنسية للكتب والمقالات لغير ضرب ملكا بعبد الصبور شامخ والشيخ الغزالي وقل . ممنوع أن يتعرض كاتب إليه شخصيه حتى ولو كانت تحية كاريوكا . حتى لو قل تحية كذا وكذا . القول له اسف لن ينشر . وقد تكون هي عند الله افضل مني ومنك . والشيخ . على هذا النحو . لا يشرب بالمقون الأزهر فقط مرض الحفاظ ولكنه يفرض وصايته على المجتمع . ويدس انفه فيما لا يعنيه . وكما تنصرون ان همه الأكبر سيبحصر في تجديد اللغة الإسلامية . وليس

الطباعه .. واستقر رأيه على مصادرة ١٩٦ كتاباً فقط . ويرى انه رغم بساطة بالمقارنة . والشيخ الجزار لا يطبق القواعد التي تضعها قانون الأزهر بشأن دور مجمع البحوث الإسلامية . وإنما يطبق مسائل مزاجيه خاصة به . وتختلف من شيخ لشيخ . ومن عصر لآخر . قانون الأزهر الصادر سنة ٦١ يقول ان دور المجمع هو . تجديد اللغة الإسلامية وتجريدها من الغواريب والذلل والتصويب السيلسي والذهبي . وتجديتها في جوهرها الاصيل الشفيع وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى . وفي كل بيئة . وعمل تلمعة الدعوة إلى الله بالمشقة والموعظة الحسنة .

اما الشيخ عبدالحمن . فيشير سيد

حدث ذلك رغم ان تقارير مجمع البحوث الإسلامية تضمنت لخطاه لغوية واستنتاجات مطلوبة . ونسبت للمؤلفين عبارات لم يطقوا بها . بل كانوا أحياناً يقولون عصبها . والسبب وراء ذلك إما نقص الخبرة والكتابة وانعدام الحيدة العلمية من يقومون بها . أو إغفال الفهم والاحتكام للمراجع الأساسية . أو لتقصية المسلمات والاهواء الشخصية . لتصورها . مثلا . ان جميع البحوث الإسلامية قدم خلال الشهور الثلاثة الأخيرة شخص ٥٠ ألف كتاب حسيما قل الشيخ عبدالحمن الجزار الأمين العلم المساعد لمجمع البحوث الإسلامية لجهة الصور . أي أكثر من ٥٥٠ كتاباً كل يوم . بسرعة تفوق سرعة مكثيفات

ولكن لأن . لو . فلتج عمل الطهيطن . والعمل يقله منه .. وجوب التثويه إلى ان الفتنة ملائت مستمرة . وبها موارباً . يعنى فتمه من جديد من اول فرصة . اثبت حكم محكمة شمال القاهرة الابتدائية ان تقارير مجمع البحوث الإسلامية مجرد آراء . تقبل الصواب والخطا . ولذلك لا يجب التعامل معها على انها صكوك إدانة دافعة . لتحررك بموجبها قوات شرعية المصنفات الفنية لتصدر الكتب وتختلف أصوات الطباعه .. وشوق الختم . الذي مازال بريندا . إلى سيرة امن الدولة العليا . ان جو مشحون بهلقل والتوتر والعصبية والعداء .. واتهميله نفسياً لمواجهة عطف الدنيا وويلات الاخرة .

س. ما العلاقة بينك وبين الكتاب المعنويين ، رب الزمان وبراسات اخرى .
 ج. اما مؤلف هذا الكتاب ومسئول عن كل ما ورد فيه
 س. متى لفت بتأليف ذلك الكتاب ؟
 ج. هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات ودراسات نشرت على الفتح الرسمي منذ عام ١٩٨٩ حتى صدوره في يناير ١٩٩٦
 س. ما الذي لصدته عما كنته في صفحة (٧٩) من كتاب موضوع التحقيق من الإشارة إلى ان شهادة واحد من هؤلاء (شعرا للرحال) تعمل شهادته اثنين من عائلت الذرة . وانه مؤازرات المهذبة او الضميمة او المخامية تنسوي نصف ملتح المزججة او احد صديري بانتي الماضية .
 ج. في البداية اردت تسجيل بعض النقاط الهامة قبل الإجابة عن السؤال

وهي
 ١- اما لم اطلع حتى الآن على مدققة الامر لأبعد دافعي
 ٢- تقرير الامر مصدرة الخلف وما جرى وما يجري مني من تحقيقات هو اعضاء صرخ على حريتي وحقوق

ان تخيل السيناريو إذا حدث العكس مصفرة . تكلم . استجواب . تحقيق . استئذنية . ولتح المزار لاستقبال ١٩٩٦ كليا آخرين إلى مشهد جملتي ماسوي على غرار نهاية فيلم « سبارتاكوس » والضماليا مطلقون على صلب من الأعدة المنتظمة على جلمبي طريق ثرابي
 قبل ينشئ شيخ الأزهر المستشير الدكتور سيد طنطوي تلك الهدنة المؤقتة التي اتاحها حكم المستشير سلامة سليم لتطهير مجمع المحو الإسلامية من هوة التفرقة والردة وتصليبة الحسانات تغيراً للأغراض والأهواء الشخصية . ويعدد المجمع إلى صورته الرائعة مدافعا عن الجوهر الاصيل للإسلام ومحاربا للشعب السيلبي والذهبي . ويعدد معاده صلح بين الأزهر والمخلفين الذين كانوا دائما في زقاق واحد .
 إننا مفكر . منشئ . ملخص . لتحققات نيلبة ام الدولة العليا مع سيد القمي . ومشرق بعض الحكم الصادر عن محكمة شمال القاهرة الاستاذية كمشهدات دامة للحرب بين الأزهر والمخلفين

ولا يمكن - ايها - ان تفصل ذلك عن اشتمال حروب الحسية في المحاكم سنة ٩٥ . حتى وصل عددا إلى ٥٤ قضية . في توثيق مباحث بعد تكون الإرهاب واستخافه بفعل الطريبات الأمنية الموجهة . وشهدت المحاكم عمداً أسود لجبرة الكتاب والصمطين والمخلفين وتزويجهم وإرهابهم وقهدهم بالخطر والارتداد والتفريق عن زوجاتهم . حتى صدر قانون تنظيم دعاوى الحسية عن طريق النيابة العامة الذي لولف الحرب الثانية ضد المخلفين
 اما الحرب الثالثة فقد بدأت في لوائح العام الحال بقيادة مجمع البحوث الإسلامية . وهي أكثر الحروب خطورة ولعنا بالخطر لأنها تعتمد توريث مؤسسات الدولة في العداء ضد المخلفين واستبدالهم هؤلاء المخلفون الذين يطاردهم مجمع البحوث الإسلامية الآن على عدد كبير منهم في صدارة الصفوف التي تصدت للإرهاب والقومته وتمتدته . لم يذاعوا على رؤوسهم من الرصاصات الطائشة والطمعنة العفيرة في الوقت الذي احتفى فيه الجزائر وشعراوى وغيرهما ، والزعموا الصمت الجميل

مع حماية تزدى حياة دينية نصحية لربوكا وبعد الصبور شاهين .. ومن يخرج عن ذلك فالويل له
 إننا لا يمكن ان تفصل ذلك عن اختفاء المريب لجميع البحوث الإسلامية طوال السنوات الماضية . خصوصاً في الفترات التي اشتد فيها عود الإرهاب وقويت شوكله لم يصدر بيان واحد ولا كلمة واحدة عن المجمع ولا الشيخ ولا الذين معه لم تحرك قلوبهم لقتل الأبرياء بالصلب في ملهى وادى النيل . ولا في محطة انوبيس شبرا . ولم يفكر أحدهم في إرسال برقية عزاء لأسرة الطفلة شيماء الأمر الذهاب إلى المحاكم التي ظلمت شهداتهم منازل القسوى الشداء والعربية التي كل يلتمها المخطفون في ثوب ديمي لدرجة ان رئيس محكمة امن الدولة العليا في قضية التفكير والهجرة . كان ان يصدر أمراً بضغط واحتجاز شيخ الأزهر في ذلك الوقت للمشور لسان المحمجة والإدلاء بشهادته . إلا ان القاصي تراجع عن ذلك حفاظاً على صور الأزهر التاريخي ومكانته في نفوس الناس



محمد العز الجزار



هشام سرايا



عبدالمصور شاهين



سامي الشمراري

الدمية والدستورية
 ٣ - وان تقرير الامر وما ينتمه قد يورى بغيثي في ظل مداح يريد فيه صبي حيول ان يذبح اجمه وهذا سعد داته جوية تحريض على القتل اعرف من هو المبلغ الذي دفع في كتي لا الازهر يقول ان المبلغ هو ميلمه امر الدولة
 لهذه الاسلاف اشند هيئة لميلمة التوقرة في عطى فسحة للرد
 س. ما هو لك في ان ماورد في تد اطرة من صفحة (٧٩) من كتاب من مغريض حققة الشريعة الإسلامية في تقرير شهادة غراء مع بعد تخفير واردره للدين الإسلامي ويتخلص مع

تحقيق يوم ١٩٩٧/٩/١١
 المخضر الساعة ١٠.٥ صباحاً ميلية ام الدولة العليا
 د سيد محمود القمي ٥٠ سنة .
 س. ما هو لك فيما هو مسوب اليك من انك منهم مستغفال الذين في التوبة والتجنس بالفتنة لأفكار متطرفة معرضة إقارة الضعة وتطهير وازدراء الدين الإسلامي والإصرار بالوحدة الوطنية
 ج. إطلاقاً اما انكر هذا الإتهام تشأنا س كما انك منهم بالاحلال مطريق الكتانة مطمف وهيمية وسطعة القاصي اندي حكم في قضية مصر حسد ابو زيد . وداد حسد تلك الدعوى ج ايضاً ارضع هذه الشهة نمانا وانكر ان ذلك هو المقصود معا كتنت

مع كل التقدير لشيخ الأزهر السليق حد الحق على جد الحق الذي تدارك موافقه السابقة وأصدر بياناً غاضباً في ايامه الأخيرة اثنى فيه بفرنراد الارميين وسحق عن جبين مؤسسة الامر العربية نظامها واستخافها من المحاكمة
 كس من الممكن ان تكون هذه الفترة اسود ايد مخلفين . لو لم تحمل العناية الإلهية قضية مصادرة كتاب رب ارمين . لسيد القمي إلى استبدال سلامة سليم رئيس محكمة القاهرة لامتدانية الذي كتب شهادة جديدة لنقصاء المصري مخروف من دهم
 وبكر لان . لو . تلفح عمن لتيفظار والعياد بالله منه فعليما



سيد القمي

صفحة شياخ التطرف :

الآية الكريمة : ﴿ واستقيموا وجوهكم عند ربكم فكل من رجاكم فإن لم يكونا رجليّن أربعا ومن ارتدنا من ثلثون من الشهداء ﴾
، صلى الله عليه وسلم ، الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

ج : المستور خلفه يلق ذات موقفه وأنا ما تبعت هذا الموقف إلا إيماناً بالمستور . وإخلاصاً له . وأنا كلامي الله مدلول هو الدعوة إلى الاجتهاد وفتح أبوابه من أجل أن يعيش قوانين هذا الزمان

والقرآن الكريم يحوي قاعدة شديدة بذلك . قد ألقى العمل بحكمها تصور وسدنية المجتمع . وهي آيات ملك أمين وأستاذ الرقيق . فهو محاسب المجتمع كله على أنه قد خالف تلك القاعدة ورغبها

أنا رجل أومن بالمدنية وعديده المجتمع لكي تتحقق بمركب الأمم المتعددة

س : ما قولك فيما ورد باللغة الثانية من دستور جمهورية مصر العربية من أن الإسلام دين الدولة وسيدى الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع ؟

ج : أنا لم أظفر في وضع الدستور وعدا عمل مؤسسات

س : ما قولك فيما ورد باللغة الثانية من الصفحة (٨٠) ومصحف (٨١) من كتابه من تعليق على ما تضمنه مقال الأستاذ / عزت السعدني من أن الحق من أعوان سيدنا سليمان - عليه السلام - هم الذين سوا وتشيدوا دولة مصر القديمة ومعدنها وحمايتها وسيرها

معلقاً على ذلك ما . هذه الآية أخرى من أفاء مهبنا في التفكير بوقت بما إلى ما نحن فيه في قاع العالم مع الجن والقيسين . وأن ذلك يزيد لحديث ما تورنا الفطرية الخبيثة فيه . وهو ما يعد تعريضاً بما ورد بالقرآن الكريم من أن الجن من أعوان سيدنا سليمان قد بنوا مملكة . حيث خضع الأيتان ١١٠١٠٠ سورة سبأ .

مرة أخرى ترى أن هذه مناقشة لا تقضي بالمعاريث والذين سليمان - عليه السلام - من نصيفه بمنطق الإيهان وتسلم بذلك . لكن ليس أبعد من ذلك فلا تنسب قصبة القرآن في رواية معينة على كل تاريخ إسرائيل . ولا تنسى أن سليمان النبي هو المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل . لم أن حديثي

بمعرض على الآيات الكريمة . فانا لا أستطيع ذلك لمدافعي القصبة الخاصة . لكني أعارض على تزيف



.. والمحروس راخر .. يطلع أبين من في عصر ..

س : ما قولك فيما ورد بمعجم الصحوف الإسلامية من أنه بفحص القفا موضوع لتحقيق تثير انه يحتوى على أخبار وأصاير تتعلق بمعهد الآلهة ومنصور مقددى والتفريع تدمر يوسف - عليه السلام - والدمرد عفرات الإسلام واسم القفرز إلى رى بحسب النصف من العشر والتداول ؟

ج : ردى على هذا أن القرآن الكريم نصبه على التأمل ومحاذا مع الأساطير الإلهية القديمة . وسر خرفها علم معلوم يدور في الحامضات إضافة إلى أن التفريغ من الحصرى قدم مصطلحاً إلى كلمة اليوناني في مسلسل مفرز ولم يتم معاملة رمز الإله

كما أنى لم أخرج اسمي يوسف إما كنت أزد على مراعاة التوراة ضد وطنى وأمنى ولم أت غربة ضد القنى يوسف . فاب سمب مشمولاً مملوكة الأبياء . وإبما شمولاً بدفاع عن وطنى ضد الاستعمار الصهيونى في المنطقة

أما فلسفة الخليفة عثمان بن عفان فإن ما كتبه كش دافعا عن وزير الغربية . ووزارة التزبية أيضاً المستولة عن زهرة قليب مصر . ولم أت بطرى من عدوى . وأنمدى قليب الظفرين أن ياقى بجلة واحدة أفريقيا من عديدي على الخليفة عثمان . لم أن راقى في الخليفة عثمان أن يحكى أفضل من رأى الصمصاء فيه وهو ما سلفته . وموجود لدى الآن الصمصاء التي اعتمدت عليها إن شاعت المدينة يمضى إطلاعها عليها

ولا فصيحة في الإسلام إلا لاله وحده . أما عن الهجوم على شقيق الأبرار فإنى أكثر أنهم بشر هم مقدسين ولم تاتهم

وهذا بعد دانه جريمة كانت تستوجب العقوبة والعقاب . أما قول أن موت صاحب المدا شرف يحتفل تعلقاً عن موت جنود يسمع في الضمور والصور فهو يحكى إما سحب الوطى وسحب الله محروين لهذا الحد لا ألقى حدة ولا أحضى نأراً أن أعمل المصدى بشرى

س : ما قولك فيما أوردته بالصفحة رقم (٢٢٠) من القول ما . وهذا يؤسس مؤروته لتأسيس المراء وقد خلقت من خلق أعوج وباحصة على ودين . وشهدتها سحب شهوة الرجل وميراثها نصف ميراث الرجل . ولما أت من الطلاق شيء ولو كنت امرأة أهدأ أن يسعد لغير الله لأمر المرأة أن يسمه (نزوجها) . مما يعد إصراراً بفلسم الإجماعى وتحفيزاً وأزديراء للمدير الإسلامى بالادعاء بأنه قد أبحس المراء جعلها في المجتمع .

ج : الحورث اصطلاح يعنى ما وردته الأمة عبر تاريخها الطويل . ولا يعنى الإسلام فقط . فهناك مؤرث فرعونى . وموروث قبلى . وموروثات إسرائيلية دخلت كتبتا الإسلامية . واجتبهادات أصبحت ليس من الدين . ومملوكة ملكة من الفهم الشعبي للمدير والموروث هو كل هذا عندما أقول ما قلته بشأن الحورث لأنى كنت أعرض عرساً لتقريراً علمياً لصورة المرأة في الأزمان النفس اليوم من خلال هذا المفهوم . أما كونى بما أكتب أصمت الإسلام الإجماعى بالخبر لأنى اعتقد غير ذلك تماماً . فالمصطفى ما كتبه من أجل سلام إجماعى حقيقى . ولا يجوز الظفر بأنه تحفيز للذين لأنى ألق الدين . إما قلت الحوروث

الفرخ بفاهيم دينية فنزح عن شعب تدمر العظيم جهده . وما قدمه للمصاهرة ونسبه للمعاريث الصليبية دون أن يكون ذلك في مصلحته . والغرض من كلامي في هذا المقام تمديداً هو دعم مؤلف مؤسسات الدولة الرسمية المدنية التي تحارب الخرافة والتمسك بالعلوم والأهوية التي قدم وفق هذا المحيط فانا هنا أذاع عن مؤسسات الدولة المدنية . وعن عقل مصر وعن تاريخ الأمة الذي يريدون له دوماً . ألا يكون من صممتا ومن جهندا ومن علمنا وبمسيرته للمعاريث واليس

س : ما قولك فيما أوردته في آخر الصفحة (١١٢) من كتابه محل التحقيق من القول . لموت صاحب المبدأ شرف يختلف تعلقاً عن موت جهول يسمع في الضمور والصور . فليس نحن أيها الشيخ من يطلب الصفاة والتمضاء .. مما يعد إزديراء وتحفيز للذين الإسلامى بالسفيرة من وصف القرآن الكريم والأصفيث النبوية الفجئة . وما فيها من حور عين وحلة لنولمئن فيها ؟

ج : أنا لم أكن أت على الآيات التي أوردتها النبوة الآن . لكنى كنت أزد على الشيخ محمد الطزالي عندما حدد في صحيفة الشعب بقتل من يحول مجرة مملوكة . أو ينقل مجرة مناقشة مسألة الردة . أقال ولما كنت في ذلك الوقت أنقضى ما حدث للملكوت / فرج لودة . وما جرى في محكمة الفتنة . وكيف ألقى هذا الشيخ حينها بحق أى مسلم في إقامة الحد . وبالقائل عندما كتب ما كتب في صحيفة الشعب رايت أنه يصطفى . فقلت بقره . ولو كان يصدق أى شخص آخر لقت بقره . فهذا تمديد بالقتل في صحيفة عتية .

دوا مش للكتابة

قاض مستنير

خالد عصفور

■ شعرت بسعادة غامرة عندما فرغت من قراءة الحكم الذي أصدره القاضي سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية حول كتاب «رب الزمان» للكاتب سيد القمني، في صبيحة يوم الاثنين الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) لسنة ١٩٩٧ ميلادية والثالث عشر من جمادى الأولى لسنة ١٤١٨ هجرية. فالحكم بعيد إلى الأمان ذكرى الأحكام الجلية الدالة على استنارة القضاء المصري، ويذكر بآلة قضاة من صف عبد العزيز فهمي وعبد الرزاق السنهوري وعبد الحميد بدوي وسيد مصلني، فيخلف عن الوعي بعض ما أصابه من خدمة الحكم الشهير في قضية الفكر نصر أبو زيد، ذلك الحكم الذي سيطر مناقضا، في تأخير الكثيرون، لقيم الاستنارة وحرية الفكر وسماحة الإسلام ونوائين الدولة المدنية العصرية، بل التقاليد العقلانية التي أرساها القضاء المصري نفسه طوال تاريخه المجيد، دفاعا عن الديمقراطية وتأكيدا لحرية الفكر والإبداع وإشاعة لمبادئ الاستنارة وعلى أسسها مبادئ التعددية والمغايرة وحق الاختلاف.

والمسارقة الأولى الدالة في هذا الحكم أن بعض مبررات تقديم مؤلف كتاب «رب الزمان» إلى المحاكمة، ومن ثم أساس من أسس إقامة الدعوى التي رفضها القاضي، كانت مستندة إلى موقف المؤلف سيد القمني من تداعيات قضية نصر أبو زيد التي لعبت فيها أهواء التخصص أكبر الأدوار، ابتداء من سقطة لجنة الترفيعات الجاءية التي تداركت أمرها، وانتهاء بتقديم نصر أبو زيد نفسه إلى القضاء، الأمر الذي انتهت بحكم محكمة انقص الشهير الذي رمى نصر أبو زيد بالكفر والإلحاد بل الردة عن الإسلام، وقبل دعوى التفرقة بينه وزوجه، فدفعه إلى المنفى الاختياري بعيدا عن بلاد العرب التي تعالظ فيها شأن دعاة القمع الأصولي من سدة التسحيب والتطرف. ولا يزال هذا المفكر العقلاني المستنير يعيش في منفى الاختياري، لم يشجعه على العودة إلى وطنه وجامعته وكلية وقسمه وزملائه وتلامذته الذين يعرفون قدره صدور حكم محكمة أخرى بإيقاف تنفيذ الحكم الجائر لحكمة النقض بالتفريق بينه وزوجه، فالحكم الجائر نفسه لا يزال مشرعا كالقمع الذي تبرهن بمفكر الاستنارة ومبدعها صباح مساء. وفي موازاة تداعيات قضية نصر أبو زيد، واستجابة نينا، كتب سيد القمني، وهو داعية آخر من دعاة العقلانية والاعتزالية المعاصرة مثل نصر أبو زيد مقالاته المتقدمة عن «النس بين الأزلية والتاريخية» وكشف الخدع فيما جاء به الخطاب الديني من بدع و«ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية» وغيرها من المقالات التي نشرها في صحيفة «الأهالي» ومجلتي «أدب ونقد»

وروزاليوسف، وغيرها من مجلات وصحف القاهرة في الفترة من أواخر ١٩٩٣ إلى ما بعد منتصف ١٩٩٥. إبرارا للقيمة الأصلية لإنجاز نصر أبو زيد في الاعتزال الإسلامي المعاصر، ودفاعا عن حقه في الاجتهاد ومن ثم التأويل العقلاني للنصوص والأحداث والمواقف، وكشفا عما تحت الأفتنة التي تسنر رواها من تريصوا باجتهاداته وكانت مقالات سيد القمني إحدى الإضاءات الموجعة التي لم ينس تأثيرها خصوم العقلانية التي جمعت ما بين نصر أبو زيد وسيد القمني، وهم الخصوم الذين يلجأون إلى تكفير غيرهم من المخالفين، فانتظروا إلى أن جمع سيد القمني مقالاته التي أثارت حفيظتهم في كتابه «رب الزمان» الذي صغر عن دهر مدبولي الصغير في القاهرة في العام الماضي، وانضموا إلى الثار، وبادروا بالهجوم القمني بواسطة مجمع البحوث الإسلامية، حيث الإدارة العامة للبحوث والترجمة التي تزعم لنفسها حق مراقبة إنتاج المفكرين وسلطة التفتيش على صماوهم.

وأجبت هذه الإدارة تقريراً تكفيرا عن كتاب سيد القمني، مطالبة بمصادرته وتجريم تداوله، وطلبت من النيابة العامة تحريك الدعوى الجنائية ضد المؤلف استنادا إلى نص المادة ١٩٨ من قانون العقوبات المصري، وهي المادة التي تؤم كل من يروج بالكتابة أو يجذ أفكارا متطرفة بقصد تحقير وأزراء أحد الأديان السماوية. وقد أكد تقرير الإدارة العامة للبحوث والترجمة في مجمع البحوث الإسلامية التابع لشيخ الأزهر أن كتاب سيد القمني يتضمن ما يبرر تكفير صاحبه الذي تعدد التهم والسفوية والاستهانة بالعلماء وبالتراث الإسلامي وبالأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس. ولا يخفى على كل ذي عينين فاحصتين لكتاب سيد القمني أو حتى لدعوى مجمع البحوث أن المقصود بالاستهانة بالعلماء في الكتاب هو العبارات التي تحدثت عن أمثال الشيخ عبد الصبور شاهين الذي تصفه مقالة «كشف الخدع فيما جاء به الخطاب الديني من بدع» بأنه «رجل بيوت لهف الأموال المشهور» الذي يرتبط «بأكثر من فضيحة لم يداريها ولم يند لها جبينه» (كذا في ص ١٤٧ من الكتاب) وتصفه مقالة «ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية» بأنه «مستشار بيوت هبش الأموال». وتلك عبارات لا تختلف كثيرا في حديثها التهكمية عن عبارات مقاربة ضمنتها بعض مقالات كتاب «رب الزمان» من مثل مقالة «محمد الغزالي وسقوط الأفتنة» أو مقالة «يا أبا العزائم نظرة».

وانصو أن هذه العبارات، التي لم يتربد صاحبها في نقد الحكم الذي أصدرته محكمة النقض على نصر أبو زيد، كانت الشراسة التي أهابت دوافع الانتقام القمني لدى ممثلي التيار المعادي لتيار الاستنارة العقلانية التي ينسب إليها فكر سيد القمني، فخاصصوا كتابه خصومة التكفير أمام القضاء بضمرة من الدعوى التي تضمنت دعوى السفوية بالقضاء نفسه في قضية نصر أبو زيد، وذلك في محاولة دالة للتأثير على القاضي الذي ينظر في الدعوى واستمالاته إلى موقف المدعين، خصوصا فيما نهبوا إليه من اتهام سيد القمني بالتعريض بعلمين جليلين من علماء المسلمين هما الشيخ

محمد الغزالي رحمه الله واللواء أبو العزايم، جنباً إلى جنب التعريض «بشيخ آخر من علماء المسلمين الأجلاء هو الشيخ عبد الصبور شاهين». ولكن استنارة القاضي سلامة سليم، وحرصه على تحقيق العدل، وبقائه إلى المضايقة التي انطوت عليها الدعوى، دفعت به إلى تمحيص كل دعوى، وعرضها على ميزان العقل، واختبار سلامتها في ضوء نصوص كتاب سيد القمني الذي قرأه القاضي قراءة العلماء الأجلاء، فانتهى إلى تنفيذ الدعوى ورفضها واحدة إثر واحدة. ولذلك نص في حكمه على أن ما تناولته إحدى صفحات الكتاب من نقد للحكم الصادر في قضية الدكتور نصر أبو زيد «لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائي بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرية الحكم أو حجتيه أو ما يشير إلى معنى الحكم منه».

ويتوقف القاضي، في حيثيات حكمه، إلى ما ورد في كتاب القمني من نقد لبعض مواقف الشيخ محمد الغزالي واللواء عصام الدين ماضي أبو العزايم، فيؤكد «أن ذلك لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وأن اشتدت لهجتها، مما يراه القاضي غير خارج على حدود النقد المباح «في نطاق المناظرات التي تجري بين كبار العلماء والفكرين، كما يحكيه تاريخ النقد والمناظرات الفكرية. إذ أن وقوف المتناظرين في هذا الشأن في مصاف الشخصيات العامة يجعل من شدة لهجة النقد خارج نطاق الخطأ. أما ما جاء بكتاب القمني في مجال الحديث عن قضية نصر أبو زيد وعوقف عبد الصبور شاهين منها فإن ذلك «لا يعدو أن يكون مناظرة بين رأي المؤلف ورأي الشيخ عبد الصبور شاهين، وكلاهما ينطق في مجال مثاله بوجهة نظره ومنع أيهما ومصاندة كلمته يمثل حجراً على فكره. وهو ما تتأذى منه الإنسانية، إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلي عن الصواب دائماً، وهو أمر محمود، ولا يمكن القول بأنه في مثل تلك المناظرة النقدية تعريض بأحد».

هكذا يكشف القاضي سليم سلامة عن استنارته الأصيلة بتأكيد ما تتأذى منه الإنسانية، حين يقوم فريق من الناس أو هيئة من الهيئات أو سلطة من السلطات بالصبر على حق الاختلاف، أو المطالبة بتحرير كتب المجددين، ويصل القاضي هذا التأكيد بلوازمه العقلانية، مبرزاً أهمية المناظرات «النقدية» التي يرقى بها الفكر، وتتجلى بها الجوانب المتعددة من الحقيقة الواحدة، ومن ثم يتميز العقل المنطلق على نفسه والمنفصل في عصره المتحول عن العقل الذي ينفذ على غيره ويستجيب إلى تقييدات العالم من حوله. ولعل في استخدام القاضي صفة «النقدية» «لازمة لآلة المناظرات، ما يبرز، إلى جانب إيمانه بأهمية الحوار بين العقول، المعنى الفلسفي للوعي النقدي الذي يضع كل شيء موضع المدح والمذم، ولا يتقبل الأفكار على عواهنها.

وليس من الغريب، في الموقف الفكري الذي تنبني به حيثيات الحكم على هذا النحو، أن يتوقف القاضي المستنير على ما جاء في كتاب التمسني من وصف الشيخ عبد الصبور شاهين «بأنه مستشار بيوت

هيش الاموال» فيرى أن هذا الوصف، أيا ما كان وجه النظر فيه، لا يمكن وصفه «بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف في جعلته». وبين القاضي عن رأيه القانوني في مثل هذا الوصف بأنه يدخل في باب «اعنف الأوصاف» التي يمكن «أن يتضرر منه صاحب الشأن الذي له أن يلجأ إلى القضاء بالطرق المقررة قانوناً في هذا الشأن، ليحصل على ما قد يرى الإدعاء به من حقوق قبل المسئول إن كان لتضرره وجه». وليناضل الطرفان في ذلك الأمر إثباتات ونفياً وصولاً إلى وجه الحق فيها يقول القاضي، أما الوصف العنيف نفسه فإنه في كتاب القمني لا يمثل ضرراً عاماً يستوجب الحجر على فكر المؤلف فيما يؤكد.

وانطلاقاً من احترام حرية الرأي وحق الإنسان في الاجتهاد العاير، وإيماناً بروح الدستور المصري الذي كان ثمة لنضال الأمة المصرية في سعيها إلى الاستقلال ومطالبتها بحرية المواطن الفكرية والإبداعية، فإن القاضي سلامة سليم يستلهم، في حيثيات حكمه، الروح الليبرالية التي انطوى عليها دستور ١٩٢٣. ويبرز من الدستور المصري المعمول به، حالياً، دلالة المادة السابعة والأربعين التي تنص على أن حرية الرأي مكفولة، ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير، في حدود القانون والنقد الذاتي والمفاد البناء ضمناً لسلامة القضاء الوطني كما يبرز المادة التاسعة والأربعين من الدستور نفسه التي تنص على ما تكفله الدولة للمواطنين من حرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والشفافي وتوليس وسائل التشجيع اللازمة لذلك.

ويرى القاضي في هاتين المادتين من الدستور الحالي الإطار المرجعي الذي يحدد دلالة المادة الثامنة والتسعين من قانون العقوبات المصري الخاصة بتأنيب الاعتداء على دين من الأديان السماوية. ويرد القاضي الدلالات العامة لبائدي الدستور على المعنى المحدود للمادة الثامنة والتسعين في قانون العقوبات، فينتهي إلى أن منطوقها العقابي لا ينطبق إلا على حالة توافر قصد اضرار الأديان وتعمد التحقير من شأنها، ولا ينطبق بحال من الأحوال على مواقف الاجتهاد في الفهم أو الاختلاف في التأويل حتى لو انتهى الأمر إلى الخطأ، فالخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر. الخطأ الأول هو الحق الذي يترتب على حق الاجتهاد، والثاني هو النقيض الذي يلزم عن إنكار الأديان. ومن هذا المنظور العقلائي، ينتهي القاضي إلى أن ما ورد في كتاب سيد القمني يدخل في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية التي تنطلق من دوافع نبيلة، قوامها الرغبة في البحث العلمي واستحلال الحقيقة الدينية الخالصة. شأن ما ورد في كتاب سيد القمني من ذلك شأن ما ورد في تقرير مجمع البحوث من رؤى واجتهادات شخصية وعلمية لكاتب التقرير أو كاتبه، فهي رؤى واجتهادات يراها القاضي مكتوبة بدافع الغيرة على الدين

الإسلامي الحنيف، ذلك على رغم اختلافه وإياها في كل دعوى من دعاويها

ويؤكد القاضي أن تعارض ما ورد في تقرير مجمع البحوث مع ما جاء في كتاب سيد القمني إنما هو تعارض الرؤى والاجتهادات، حتى في تناقضها الذي لا يفارق الصفة النسبية لكل اجتهاد إنساني أو تأويل بشري، الأمر الذي يترتب عليه أنه لا يحق لواحد من أطراف الاجتهاد البشري أن يدعي لنفسه الصواب المطلق، ويحكم على غيره بالخطأ المطلق المقترن بالكفر في مجالات الفهم الديني. ولذلك فإن التعارض بين الأطراف لا سبيل إلى رفعه شأن تنفي كل رؤية نقيضها، أو إصدار كل اجتهاد ما يخالفه، فالنفي والمصادرة والحجر والتكفير أفعال تتنافض وأحكام الدستور. وتفضي على الحرية اللازمة لازدهار البحث العلمي، بل الواجبة لاستجلاء الحقائق الدينية التي لا يكف العقل الإنساني عن تأملها. إن السبيل الوحيد لدفع التعارض، فيما يختم به القاضي حيثيات حكمه، هو الصواب العلمي الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح نوافذ الفكر كي تتجلى الحقائق وتصفر العقول في سبيل فهم حقائق وقيم ديننا الإسلامي الحنيف.

وما يستخلصه القاضي من ذلك كله هو أن ما ورد في كتاب سيد القمني من آراء خلافية إنما يدخل في باب الاجتهادات التي تحركها دوافع البحث العلمي النبيلة، وأنه لو صح أن مؤلف الكتاب قد

أخطأ في شيء فالأمر لا يخرج عن حق الخطأ المقبول الذي يلزم عن حق الاجتهاد. وما له معنى كاشف، في هذا الاحتراز أن القاضي لم يخطأ واحداً قط في كتاب القمني، ولم يقبل إعاء واحداً من كل الادعاءات التي تضمنها تقرير مجمع البحوث الإسلامية. لمغزى احترازه لا يختلف عن تأكيد حق الاجتهاد الحر الذي يكفله الدستور، من حيث الذاتية المضمنة في الحكم الذي يزس لإيقاف محاولات الاستعانة بالقضاء لضرب القيم الأساسية للمجتمع المدني الذي يفترض أن يصونه القضاء ويحمي الحقوق المدنية لأفراده.

وأية ذلك النتيجة الأخيرة التي توصل إليها في حيثيات الحكم التي تفضي إلى الجزم بأنه لا جريمة تستدعي قرار النيابة العامة الصادر بتاريخ الثالث عشر من آب (أغسطس) ١٩٩٧، والقاضي بضبط الكتاب وتلخيص صاحبه إلى المحاكمة. ولا عقاب على الكتاب الذي طالب بتجريمه مجمع البحوث الإسلامي. أما المنطوق النهائي للحكم الذي حمله القاضي، ومهره بتوقيعه في كل صفحة من حيثياته، فيقضي بإلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب «رب الزمان» لمؤلفه الأستاذ سيد محمود القمني والإفراج عن الكتاب وما سبق ضبطه من أدوات طبعه.

ويصدر هذا القرار، وتلي علناً، بسراي المحكمة الابتدائية في العباسية، في يوم الإثنين الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) الذي أضاعته أنوار عقل قاضي مستنير.

هوامش للكتابة

النظرة العقلانية الرجة

جابر عصفور

«المراپطة، الذي هو شد للقلوب والعقول في مواجهة أعداء الدين. ويمضي الشيخ في حاجة تعميقية، أمرية، تؤكد الاستراتيجية بالأخر والنظرة العدائية إلى منجزاته الثقافية، تعميقاً لدوافع النفور من المغاير عموماً، والتوجس من المختلف جملة وتفصيلاً، الأمر الذي يؤدي إلى الانغلاق باسم الحفاظ على الهوية، والتربص بالمتختلف المغاير أو بالأخر الأجنبي نتيجة نوع من أنواع التأويل المتعصب للنصوص الدينية.

هذا النوع من التأويل لا يواجهه سوى النظرة العقلانية الرجة التي انبني عليها الحكم القضائي الذي أصدره المستشار سلامة سليم رئيس محكمة القاهرة الابتدائية. أولاً، من حيث هي نظرة اتاحت للقاضي أن يدافع عن مبدأ أساسي من مبادئ الدولة المدنية، هو مبدأ حرية الفكر المقرونة بحق الاختلاف الذي يفتني بالحوار، انطلاقاً من أفق التسامح الذي يعني التسليم بنسبية المعرفة، والإيمان بأنه ما من أحد يحكم الحقيقة أو يمتلكها كاملة، أو يستطيع القول الفصل فيها أو التحدث المطلق باسمها. وثانياً، من حيث هي نظرة إنسانية لا تميز بين الأجناس والأمم إلا بما تنتجه من معرفة إنسانية ترتقي بالإنسان، وذلك في تأكيدها أنه لا شيء أولى بتحقيق التقدم من البحث عن أسرار معارفه في كل مكان، والاستعانة على اتقانها بما قاله الغير أو توصل إليه، سواء كان ذلك الغير مشاركاً في الملة أو غير مشارك، متفقاً أو غير متفق في الهوية القومية أو الثقافية، ذلك لأن الآلة التي تصبح بها معارف التقدم وتزدهر في العقل - أو بالعقل - لا يعتبر فيها العرف أو الجنس أو اللغة أو الدين أو السياسة، وإنما حكم التقدم الإنساني الذي لا ينفصل عن الالتزام بالتفكير العلمي.

وغني عن البيان أن هذه النظرة العقلانية تجد ما تستند إليه في مبادئ الإسلام السمحة، لأنها لا تتناقض وأفقها الرحب الذي يؤكد معاني الحوار، ويحترم المخالفة في الاجتهاد والمغايرة في التأويل، فيطالب بالبرهان الذي هو علامة الصائقين، ويحث على المجادلة بالتي هي أحسن، بحثاً عن كلمة سواء: سداها العقل الذي يستنبط بالاجتهاد ما يقوى به البرهان، ولحمتها النقل الذي لا يحجر على المغايرة التي يؤكد ما معنى الآية الثامنة والأربعين من سورة المائدة: «... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...». وما أكده تعاقب التاريخ الإسلامي الذي تتناساء، عادة، أن الازدهار الحضاري العربي ظل محافظاً على إيقاع تقدمه في ارتباطه برحابة الأفق العقلاني الإنساني، أعني بالتأويلات البنينة التي دفعت الإنسان إلى عمارة الكون واكتشاف أركان المعمورة الفاضلة والحوار مع الآخر المختلف في الملة والجنس والمكان والزمان، طلباً للمعارف التي يستكمل بها الخلف ما سبق به السلف. وقد انتطح الخط الصاعد لهذا الازدهار حين انقطعت النظرة العقلانية، وغاض فيضها الإنساني، فاستبدل الفكر البنيي الاتباع بالاجتهاد، والنقل بالبرهان، وحل الإجماع الأصولي محل الاختلاف الخلقي، وغلب

■ من المفيد أن نمضي في تأمل دلالات الحكم القضائي الذي أصدره المستشار سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة حول كتاب «وب الزمان» للكاتب سيد القمني. وذلك قبل أن ينداح تأثير الحكم في سياقات القمع التي نعيشها، والتي تفرضها المجموعات الموازية لسلطة الدولة والمناقضة لها، سعياً إلى الاستيلاء على السلطة السياسية وراء أفتة الدين وباسم تأويلاته المتطرفة. وأحسب أن مثل هذا الحكم القضائي الذي سعى إلى مواجهة التطرف والتعصب، وقصد إلى استئصال دوافع القمع الفكري في التعامل مع المنقذين، لا بد أن تواجهه نقائضه بما يقلل من احتمالات تأثيره، ويخلص من امتداد معناه وانتشار دلالاته.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقوم إرهابيان يدعي أحدهما الجنون باغتيال مجموعة من السائحين، بعد ثلاثة أيام فحسب من صدور الحكم، وقبل احتمال الفرحة به. وأن يقوم هذان الإرهابيان بحرق السائحين الأبرياء في الحافلة التي كانت تقلهم، أمام المتحف المصري بميدان التحرير في قلب القاهرة، تأكيداً لحضور القمع الاعتقادي، وإعلاناً لاستمرار العنف الذي يخفي وراء أفتة الدين. ولا أتصور المسافة بعيدة جداً بين ممارسة هذا النوع من العنف وارتفاع أصوات دعاة التعصب من المكلمين الذين يسمعون إلى تجريم حرية الفكر ومصادرة حق الاجتهاد. وهي أصوات أدت إلى استرجاع الصياغات القديمة عن الفوز الفكري، لكن بعد إفراغها من أصولية مضمونها القومي، وشحنها بأصولية اعتقادية أجداً، لا تفارق المدار المطلق لآليات التخييل التي تسمى إلى تزيف الوعي والتضييق عليه.

ومثال ذلك ما نطقت به خواطر بعض المشايخ المرموقين في القاهرة، في صحيفة من أهم صحفها اليومية، في صبيحة السادس والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) الماضي، حيث قرأنا تفسيراً جديداً لكلمة «الرباطة في الآية الستين من سورة الأنفال التي تقول «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» ترهبون به عدو الله وعدوكم...». وهو تفسير يرد دلالة الكلمة إلى ضرورة تأكيد التشدد المعاصر لمواجهة ما يراه الشيخ غزواً فكرياً، يتدخل به الغرب في ثقافة الأمة العربية بما يبعدها عن موروثاتها الدينية. وسيلة الغرب في ذلك القصة والمسرحية والكتاب ومناهج التعليم ونظم الاقتصاد وغير ذلك من بدع الثقافة الحديثة المفضية إلى الضلالة التي تستحق المحاربة، تأكيداً لمعنى

الصوت الواحد للتعبص على تباهن الأصوات المتعددة للتسامح، فانطلق الوعي الجمعي على نفسه، واقترب الاتباع بالتمعية، وشهد التاريخ العربي هزائمه المتلاحقة منذ أن اغتال العقل الذي كان قوته الدافعة ومثارته التي تشع بعق الاختلاف.

وتأكيداً لحق الاختلاف الذي تدعمه النظرة العقلانية، وتضمن أفقه المدني بالقدر الذي تحمي مدأره الإنساني، تبرز حيثيات الحكم في قضية كتاب «رب الزمان» أهمية الحوار في نطاق المناظرات التي تجري بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين، وعلى رأسها المناظرة في موضوعات وقضايا التاويلات الدينية، من حيث هي نوع من الاجتهاد البشري الذي لا يعرف القداسة، ولا ينبغي أن يؤم بها، أو حتى يفرض التصديق القسري على بقية الأطراف المتناظرة، فالجواب شاسع بين الاجتهاد البشري في التأويل والنص الديني الذي هو موضوع التأويل. ويعني ذلك التمييز بين الدين في ذاته والفكر الديني الذي يجتهد في فهم نصومه أو تأويلها، وبين النصوص الدينية والمؤسسات أو المجامع التي لا تملك ما يزيد على حق الأفراد المجتهدين في التأويل، حسب قدرات البشر المتباينة والحكومة في النهاية بالشروط الانساني الذي لا يفارق الإطار النسبي للمعرفة البشرية التي يثريها الحوار، والتي لا تصل، قط، إلى كمالها الذي نظل متطلعة إليه دون أن نقال سوى البعض منه.

ويعرض القاضي في هذا المدار المقترح، مدافعا عن حرية الفكر التي تقضي بأن يجتهد كل مثقف في مجاله، ويعبر عن نتيجة اجتهاده من دون قمع أو حجر على فكره، ففي القمع والحجر ما يمسار على إنسانية الإنسان من حيث هو كائن يتميز على غيره بالعقل الذي من طبعه البحث عن المغايرة، وتأكيد قيم المخالفة التي يتأصل بها معنى الإنسانية. وفي اقتراح رفض القاضي للحجر على الأفكار بعبارة «ما تتأذى منه الإنسانية» تأكيد لرحابة نظريته العقلانية وإيمانه بحوار المناظرات النقدية سبيلا إلى ارتقاء الفكر الانساني الذي لا يعرف شروء التعصب بكل الوانه.

والتفكير العلمي هو الوجه الأخر من الحوار العقلاني في المدار المقترح الذي تجسد به حيثيات حكم القاضي، الأمر الذي يظهر في تنفيذ الدعوى التي ادعت بها الادارة العامة للبيوت والتأليف والترجمة في مجمع البحوث الإسلامية. إذ يلت الانتباه في هذه الحيثيات صفات الاستحسان والتقدير والتعاطف التي يقترب بها «مجال البحث العلمي» أو «الفكر العلمي المنهجي الحديث». وهي صفات إيجابية تبرز دلالة ما يقوله القاضي من أن التحقيق التاريخي في مجال البحث العلمي في تاريخ الانبياء «لا يمثل أي تعدي (هكذا في أصل الصفحة الثانية من الحكم وهو من سهو النسخ فيما يبدو) على حرمة هؤلاء الانبياء». وغير بعيد عن ذلك استحسان محاولة وصل «وقائع التاريخ بالوقائع الدينية ومسمياتها» في كتاب القمني والحكم عليها

بأنها «محاولة لا غبار عليها ولا مساس فيها بالإسلام». وهو الاستحسان الذي نفى به القاضي دعوى التكفير الزائفة التي حاول بها مجمع البحوث مصادرة عبارات سيد القمني التي تقول إن التوحيد ليس هو المجد الذي يجب أن تكون مصير قد اكتشفت، فالقاضي يتولى الدفاع عن الفنى التاريخي السليم للعبارة، مؤكدا أن فكرة التوحيد في مصر القديمة فكرة معروفة بين الدارسين والمؤرخين، وأن النص عليها لا يتعارض مع معنى التوحيد الخالص، على النحو الذي بحث به انبياء الله صلى الله عليهم جميعا. ولذلك ففكرة التوحيد الفرعونية في ذاتها لا ترقى إلى درجة التقديس مطلقا، لأنها من الأمور القابلة للدراسة والمناقشة والسعي والآيات ويترتب على ذلك تقدير القاضي للبطرة العلمية إلى الخرافات الشعبية، ومن ثم الاختلاف الدال مع تقرير مجمع البحوث الذي يأخذ على المؤلف سحرته من عالم الحس ومن العلماء الذين كذبوا عن أوهام ذلك العالم ويعلق القاضي ذلك في عباراته الكاشفة عن تعاطفه مع الدعوة إلى هجر «هذا الفكر الذي قد يقدسه البعض» والذي يؤدي إلى إشاعة الزعزعات، ويسهم في ترسيخ الجهالة التي هي عقبة كاداء في طريق «الفكر العلمي المنهجي الحديث». وهو الفكر الذي تصف الحيثية الثالثة من حكم القاضي بأنه «أمر محمود ومطلوب في توجهات ثقافتنا». وأتصور أن هذه التوجهات التي تقتبس إليها حيثيات الحكم بأكثر من معنى هي نفسها التي أملت على القاضي في الحيثية الرابعة من الحكم، النص على «قصد تنقية المعتقدات الدينية من بعض الأمور غير القابلة يقينا» من كل ما يرد في المؤلفات جزافا «دون أن يستند إلى وقائع حقيقية ثابتة في الدين أو التاريخ». وإذا كان التفكير العلمي الذي يسمار إليه القاضي يعني تقدير الاستدلال، ومن ثم الاعتداد بالدور الذي يقوم به العقل في عمليات الاستنباط والبرهان، فإن الانحياز إلى هذا التفكير لا يعني الموافقة على كل نتائجه، وإنما الانحياز إلى الوعي النقدي الذي يطالب بالبرهان في كل الأحوال، ويفحص الدليل في كل استدلال، ويناقش الأسانيد وسلاسل الإسناد في كل مقال، من منطلق التسامح الذي يفترض حسن الظن في كل اجتهاد، ولا يسارع بالروية أو التشكيك في المقاصد. ولذلك تبرز الحيثية الحادية عشرة من الحكم اختلاف القاضي مع ما نسيه سيد القمني إلى الخليفة عمر بن الخطاب من قيامه بتحريم ما كان حلالا على عهد الرسول من متعة النساء والمتعة بهن أثناء الحج ويعلم القاضي أنه لم يعثر لهذا القول على أصل فيما قام بين يديه من كتب التراث، ويضيف موضحا أن ورود ذلك القول في معرض الاستدلال على أن من عظماء المسلمين من خالف أحكام الشرع الخفيف إنما هو نوع من الاستدلال بباطل على باطل لمخالفة ما هو ثابت بالقرآن والاجماع، الأمر الذي يصير معه القول

ظاهر الانعدام . ولكن القاضي يستدرك على ذلك بما يضع اختلاف مع اجتهاد سيد القمني في إطاره الصحيح. وفي دائرة التسامح والتسليم بحسن النوايا وببالة المقصد في الاجتهادات العلمية والاستدلالات العقلية، فيؤكد أن الخطأ في الاستدلال على مدلول الباحث في أمر من الأمور لا يؤدي إلى فساد فكر الباحث في جعلته، ولا يستأهل مصادرة هذا الفكر لمجرد خطأ البطلان في الاستدلال.

والواقع أن النظرة العقلانية الرحبة للقاضي هي التي دفعت به إلى التسوية بين اجتهادات سيد القمني في كتابه «رب الزمان» واجتهادات مشايخ مجمع البحوث الإسلامية، أي التسوية بين مفكر لا حول له ولا قوة ولا سلطة، ولا تأثير سوى تأثير الكتابة، وأولئك الذين يفتسبون إلى سلطة الأزهر الدينية وهو ما هو، وينطقون عنه بأكثر من معنى، ويفرضون على غيرهم اجتهاداتهم البشرية باسم تلك السلطة التي أعطتهم حق رقابة غيرهم والتفتيش على ثمرات اجتهاداتهم. وبالقدر الذي تنفض به النظرة العقلانية للقاضي الهالة التخيلية لهذه السلطة، وتنفي عنها قداستها المزعومة، ضمناً أو صراحة، فإنها تقيم التسوية الفكرية بين اجتهادات الداطقين باسمها واجتهادات سيد القمني. ولذلك يوازن القاضي بين دعاوى المدعين واجتهادات المدعى عليه، ويزن الاختلافات بين الطرفين بميزان العقل النقدي الذي يؤكد حرية البحث حتى في أمور الفكر الديني، وينفي القداسة عن الذين يرون في أنفسهم سلطة دينية تعلق على غيرهم، بل ينفي مبدأ السلطة الدينية نفسها في دوائر اجتهاد الباحثين والمفكرين، رافعا شعارات التسامح التي تفترض حسن النوايا وببالة المقصد في كل طرف من أطراف الاجتهاد.

وحين يصل القاضي إلى النتيجة النهائية التي تفضي إليها حيثيات الحكم، كما تفصي المقدمات إلى نتائجها المنطقية في الاستدلال، فإنه يؤكد بأكثر من معنى التقاليد المدنية للقضاء المصري الذي يعجز بما كتبه محمد نور رنيس نهاية مصر الذي جعله التحقيق في قضية كتاب «في الشعر الجاهلي» لـ له حسين في الثلاثين من آذار (مارس) ١٩٢٧، رافعا بالنظرة العقلانية نفسها دعاوى التقرير الذي أعده مشايخ الأزهر، معتمدا على نصوص دستور ١٩٢٣ التي اهتدي بها بقي منها في الدستور الحالي الحكم في قضية كتاب «رب الزمان».

وفي الوقت نفسه، يؤكد هذا الحكم بأكثر من معنى التقاليد العقلانية للاستتارة العربية من منظور الفكر الديني، أعني المنظور الذي وجد نقطة من نقاطه المضنية في أفكار الإمام محمد عبده، خصوصاً حين ذهب الإمام إلى أن الإسلام هدم بناء السلطة الدينية وحما أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم، وأن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً لا مهيماً ولا مسيطراً، ولم يجعل لأحد من أهله سلطة أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السموات. وتلك أفكار تنفض التسلط باسم سماحة الإسلام، وتحول دون محاكمة المفكرين بدعاوى الحسبة وما أشبه، مؤكدة أن الاسلام لم يدع لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، ابتداء من فقهاء السلف وانتهاء بمشايخ مجمع البحوث الإسلامية، فليس لمسلم مهما ادعى من الانقلاب واحتل من المراكز على مسلم مهما عري من الانقلاب وابتعد عن المناصب إلا حق النصيحة والإرشاد والمجادلة بالتي هي أحسن.

مجمع لتجديد الثقافة، لا لمصادرة الكتب!

أحمد عبدالمعطي مجازي

لم يسعدني في الشهور الأخيرة نيا كما اسعدني نيا الحكم الذي نطق به المستشار سلامة سليم رئيس محكمة شمال القاهرة الابتدائية بالإفراج عن كتاب "درب الزمان" ودراسات أخرى، للدكتور سيد القمني، وتجربة مؤلفه مما نسبته له مجمع البحوث الإسلامية.

لقد رد لنا هذا الحكم العادل ثقتنا في حرية التفكير في مصر، وهي حق من حقوقنا، لأنها حق من حقوق الإنسان التي لا نستطيع التفریط فيها راضين أو حتى مرغمين، إلا إذا كانت الأمانة التي حملنا الله أياها قد أرهقتنا، وهي عقولنا، أي مسئوليتنا عن حياتنا وعن مصائرنا كبشر أحرار، فقررنا أن نخرج من استأبقتنا ونعود الفهقرى إلى حيث كنا وحوشا ضواري وبهائم سوانم.

ولست أظن أن انسانا داق نعمة العقل والحرية يقدر ولو مكرها أن يتخلى عن عقله وحرية، ويعود بهيمة مسخرة، لهذا يدافع المصريون جميعا، لا المثقفون وحدهم، عن حرية التفكير.

وهل تتجزأ الحرية؟ وهل يتجزأ العقل؟ هل يكون أحرارا مع غيرنا من الأمم فقاوم الغزاة الأجانب، ونحن في الوقت ذاته مستعبدون في علاقتنا بعضنا ببعض، نقبل حكم الطغاة، ويتخذ بعضنا بعضا سخرى؟

وهل يستحق حكم الدستور من رضى بأن يكون تابعا لأجنبي؟ وهل يستحق أن يعيش في وطن حر من تنازل عن الديمقراطية ورضى بحكم المستبدين؟

وإذا كنا قد سبقنا غيرنا إلى الحضارة، وملأنا منازل الدنيا ومنازل الآخرة أغاني وصلوات، وأفكارا وأشعارا، وإذا كنا قد روضنا النهر، ونقشنا الرمل، وأبنا الهمج، ورددنا الصليبين، وهزمتنا القنار، وأجلينا الترك والفرنسيين والإنجليز، وضحيما بكل نفوس وغال حتى قرنا في النهاية بالاستقلال والدستور. فهل ننكسر على عقابنا لنعيش في العصور الحديثة بفكر متحجر وعقل سجين؟

فيم إذن كان نضالنا الطويل من أجل الحرية: لنجعلها مجرد شعار، ام لنمارسها ممارسة، ونمشي في هداها، ونتقدم على وقعها في السياسة والمجتمع والتفكير والإبداع؟

بل إن الحرية لا مكان لها إلا العقل والضمير. فإذا اعتنقنا حرية عقولنا وضمائرنا وتمثلناها في كل مانقول ونفعل، فنحن أحرار ولو حاصرنا الغزاة وتكاثرت علينا الطغاة.

وانتم تحذرون عن المقيسات، والناس جميعا يتحدثون عن المقيسات، ونحن أيضا، لكن حاجتنا للمقيس لا ينبغي أن تعطل حاجتنا للتفكير. بل التفكير أجدر بأن يسبق، لأنه وسيلتنا لمعرفة ماجرى الناس على تقيسة، والتمييز بين ما فيه من حق وما فيه من باطل. ورحم الله أبا العلاء القائل:

يرتجى الناس أن يقوم إمام

ناطق في الكعبة الخرساء

كتب الظن، لا أمام سوى العقل،

مشيرا في صيحه والمساء

أنما هذه المذاهب أسباب

لجذب الدنيا إلى الرؤساء

كأذى قام بجمع الزنج بالبحيرة،

والقرطى بالأحساء

فهل تجدون أيها السادة الموقرون فرقا بين الذي قام بجمع الزنج في البصرة - على بن محمد الذي ادعى العموة وقاد ثورة الزنج في القرن التاسع الميلادي - ورفيقه القرطبي أبي سعيد الجنابي الذي دار على الخلافة العباسية وأبنا إمارة اشترائية على الشواطئ الغربية للخليج العربي - أقول هل تجدون فرقا بين هذين الخارجين وبين عمر عبد الرحمن مثلا، أو سفاح الخاتكة، بل نحن نستطيع أن نتعاطف مع ثوار البصرة والأحساء الذين استنجد بهم بنو العباس، فحملوا السيوف دفاعا عن حلقهم في الحياة الكريمة، ولا نقارنهم بمن ينيحون الأطفال والشيوخ والنساء، ويغالبون المغكرين والأتباء والغفانين ورجال الأمن والإقباط والسياح الأجانب.

أما إذا كان العقل والضمير مستعبدين فلا حرية ولو أرفع لها الف علم ولهج بها الف نشيد.

من هنا أن نبدأ كما كان يقول خالد محمد خالد، أي من حقنا الثابت في حرية التفكير والتعبير. فإذا أعطانا الدستور باليمن لكل لنا حقوقنا المشروعة، لم ظهرت هذه الجهة التي يقال لها مجمع البحوث الإسلامية فسلطنا ما أعطانا الدستور بالشمال، قلنا لها أو له: لا يا خسارة المجمع الموقر. إن أجدادنا وأبائنا وأخوتنا وأبائنا لم يناضلوا إلا من الأوامر ليأتي أعضاءك في آخر الزمان فيهدموا بجرة فلم ما شيدناه بالدماء.

هذا هو بالضبط ما جاء في الحكم الذي نطق به المستشار سلامة سليم، أو هو جوهره الذي أعلن به أن القانون لا يمكن أن يناقض الدستور، كما أن الدستور لا يمكن أن يناقض العقل، لأن العقل لا يناقض مع الحق أو الحكمة أو الفضيلة، بل هو أياها

فإذا قال لنا أعضاء المجمع الموقر: نحن لا نصائر حربلهم إلا دفاعا عن مقدساتنا، قلنا لهم: أيها السادة نحن أيضا حربصون مثلكم على المقيسات التي نعتقد أنها لا تتناقض مع العلم أو مع الحقيقة، فلماذا نحن من التمييز بين ما يستمد قداسته من اقتناعنا بمنطقه وإيماننا بجوهره، وما يستمد هذه القداسة من الوهم والخوب والتقليد والعادة، كما هي حال الأولاد التي يتعبد لها البدائيون. فضلا عن أمر آخر لا يخفى على أمتاكم من الأتباء، وهو ضرورة التمييز بين قداسة بقية بربكة من الغرض والمصلحة الشخصية، وقدااسة مزعومة تتخذ مطية لركوب السلطة أو جدد الدنيا

وإذا كنا نستطيع أن نفهم الخلط بين الدين والسياسة في العصور الماضية، لأن الدين كان بؤلة من لا بؤلة لهم، فنحن لانفهم ذلك اليوم، ولا نرى أن الدولة قد أشتات جميعكم الموقر لتصابروا حرية الفكر بحجة الدفاع عن المقتضيات، وألا فالدولة الوطنية التي قامت لتحمي حقوق المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وتحقق مصالحهم في الحياة الدنيا، تهتم بنفسها بنفسها، وتدعى باليس من قبلها إذا زعمت أنها مسئولة عن هؤلاء المواطنين يوم الحساب.

غير أن جميع البحوث الإسلامية يدعي لنفسه هذا الحق، ويمارس وظيفة تختلف اختلافا بعيدا، بل تتناقض كل التناقض مع ما جاء في قرار انشائه.

لقد أنشئ المجمع عام ١٩٦١ «لتجديد الثقافة الإسلامية، وتجريبها من الشوائب، وأثار التعصب السياسي والمذهبي، وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى، وفي كل بيئة، وحمل تبعة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة».

وأنا أريد أن يطالع القارئ هذه العبارات مرة أخرى، ويضع خطوطا تحت كلمة «التجديد» وتحت كلمة «التعصب»، وتحت كلمة «الجوهر الأصيل الخالص»، وتحت كلمة «العلم»، وتحت كلمة «الحكمة والموعظة الحسنة»، ثم يتأمل من ذلك ليعبر فيما يقوم به المجمع بالفعل.

لقد صار المجمع خلال الشهور الثلاثة الماضية كما تكرت مجلة «روز اليوسف» مائة وستة وتسعين كتابا، وفي الأعلام والمسلسلات والمسرحيات التي طلب رأيها، لم يرزح أعضاء المجمع اسماءهم إلا على القلعات والسفائق العارية التي يتحدث عنها أحد أعضاء المجمع بلغة سوقية لا أظن أنها تليق بمرام فاضل. أو بعدد المجموعات، فيقولونها «واحدة مشلحة، أو «واحد مبوس واحد».

فهي تكون هذه الأعمال المجيدة التي يقوم بها المجمع تجديدا، وبعدا عن التعصب، ودعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة!

لا يستطيع أحد أن يعترض على حق المجمع في أداء الرأي، وتصويب الخطأ، والرد على ما ينشر، وإنهليلق على مبادئ نشر المصادرة ليست رأيا، وليست تصويبا، وليست ردا، وليست تعصفا وإنما هي حيلة العاجز، وهي اعتراف مؤسف بأن الثقافة الإسلامية التي يحصل أعضاء المجمع على مرئياتهم ومفاهيمهم بطرق تجديدها وتقليدها من آثار التعصب، لا تثبت بعد، ولا تحرق على الدخول في مفاخرة، ولا تستغنى عن شريطة ديمية تفرض على الناس الصمت، وتخولهم من التفكير الحر، فإن انصاعوا، وألا فالويل والويل وعظام الأمور.

والحقيقة أن الثقافة الإسلامية ليست هي العاجزة عن الدخول في الحوار والمناقشة، وإنما القائمون عليها هم المصرة، وهم الذين الرامون في خدمة أنفسهم أكثر من رغبة في خدمة الإسلام، لأنهم يرون المتطرفين المتأجرين بالدين يعملون على المعترين

ويكفرون المجتمع ويرفعون على الدولة السلاح، فيعتنون من هذا المقام، وربما طلبوا رضا الدولة فهبطوا إلى قرار البعثة حتى لا يسمع لهم صوت، وربما أصابهم الخوف من المتطرفين فربادوا المتأربين، وصعدوا إلى جواب الجواب.

ولقد عاشت الثقافة الإسلامية أربعة عشر قرنا دورا لنجا إلى مصابرة الرأي، إلا في حوادث نادرة اثبتت فيها المصادرة أنها جريمة لا تغد، حتى لو كانت تعبيرا عن موقف علاني وانحياز له، كما فعل المأمون مع ابن حنبل في محبة خلق القرآن، فانهمر المأمون وانحصر ابن حنبل وكذلك حتى كانت المصادرة اسمارا لموقف سلفي مناهض للخلق والاجتهاد، كما فعل المصور ثالث ملوك الموحدين مع الفيلسوف ابن رشد في الإمداد، فقد تقلعت العالم كله على ابن رشد، وذهب المصور في النسيان.

ولقد اختلفت المذاهب في الإسلام، وتعددت الفرق، وظهر الشكك والجهل والملاحون، وسخر ابن الراوندي من المقتضيات، وتعزل ابن توماس في «المشركين والمشلحات»، فلم يضر كل ذلك الإسلام شيئا، بل كان التعدد ثغنى، والتشكك في العقيدة سبيلا إلى تحصينها وتدعيمها بالتفسيرات النكية، والتاويلات الخلافة والإسلام الذي تعاشير مع المسيحيين واليهود والمجوس والصابئين لم يضيق بالخلاف، ولم يضطهد المضالين إلا حين توقفت الحضارة الإسلامية عن التجديد والتطور، تماما كما حدث في الغرب المسيحي، فمحاكم التفتيش لم تظهر إلا في عصور الانحطاط وهي مع جبروتها الرهيب، ووحشيته التي تقنعر منها الأبدان، لم تستطع أن توقف النهضة أو تقضي على حرية التفكير والإبداع.

من هنا أتمنى لجميع البحوث الإسلامية أن تراجع نفسه، ويستعيد وظيفته الحقيقية، وهي أن يكون هيئة علمية تجدد الثقافة الإسلامية، وتلقيها من آثار التعصب والانحطاط وترد على الرأي بالرأي، وتدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وألا فليغير مجمع البحوث الإسلامية اسمه ليصبح محكمة بقميش، أو لجنة لمصادرة الكتب، أو فرعا من فروع شرطة الآداب فإذا لم يبارح المجمع نفسه لمراجعة نفسه، فعلى الدولة أن تقوم بواجبها، وتضطر على احترام القرار الذي صدر بإنشائه، وألا فتحن أمام تناقضات عجيبة.

مجمع البحوث الإسلامية مؤسسة تابعة للدولة، ووزارة الثقافة مؤسسة تابعة للدولة. الوزارة تصدر الكتب وتنظم المهرجانات وتعرض المسرحيات، والمجمع يصادر وينتظب، وزير التعليم يمدد القباب، ونظائر المدارس التابعة له يعرضونه فرضا وزر الصحة يجمع الختان في مستشفيات الدولة، وأئمة المساجد يؤجلون الناس عليه.

هل يكون الحكم الذي يطق به المستشار سلامة سليم في قضية الدكتور سيد القمني بداية لصنوة قومية، تنتصر فيها على محاكم التفتيش، وتستعيد خلقنا في الحرية؟

الإفراج عن كتاب "رب الزمان"

بيان صحفي

تلقي مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان بارتياح بالغ القرار الذي إصدارته محكمة شمال القاهرة لأبدائية صباح اليوم ١٩٩٧/٩/١٥ بإلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب "رب الزمان" لمؤلفه الدكتور سيد محمود القمى، والإفراج عن نسخ لكتاب وماسبق ضبطه من ادوات طبعه فى الثالث عشر من اغسطس ١٩٩٧ وكانت النيابة العامة قد اتخذت إجراءاتها بضبط الكتاب بناء على طلب مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر بدعوى أن الكتاب يحتوى أخبار واساطير تروج لتعدد الالهة السماوية والأرضية كما يتضمن مساس وتجريحا ببعض الأنبياء وبالصحابى الجليل عثمان بن عفان، فضلا عن تناوله لبعض علماء المسلمين بأنوصاف لاتليق بهم وتنديده بالتراث الإسلامى.


وقد رأت النيابة العامة فى ضوء هذا التقرير أن المؤلف قد اقترف الجريمة المؤثمة بالمادة ٩٨/ومن قابور العقوبات بترويجها وتحبيذه بالكتابة لأفكار متطرفة بقصد تحقير وإزدراء أحد الأديان السماوية.

ويسجل المركز اعتزازه بحيثيات الحكم الذى إصدارته محكمة شمال القاهرة وانتصرت فيه حرية الفكر والبحث لعلمى حيث أكدت المحكمة على أن المؤلف كان مدفوعا بدوافع نبيلة قوامها الرغبة فى البحث العلمى واستجلاء الحقيقة الدينية الخالصة، وإذا كانت خلاصة اجتهاداته تتعارض مع ماخلص إليه تقرير مجمع لبحوث الإسلامية المنطلق من الغيرة على الدين الإسلامى، فإن هذا التعارض حسبما أكدت المحكمة لايجوز رفعه بنفى أو مصادرة ماخلص إليه هذا رأى أو الرأى المخالف له باعتبار أن مثل هذا النفى أو المصادرة يتعارض مع أحكام المادتين ٤٧ ٤٩ من الدستور اللتين كفلتا حرية الرأى والتعبير وحرية البحث العلمى والابداع الأدبى والفنى والثقافى.

وأكدت المحكمة على أن معالجة مثل هذه لتعارضات فى الاجتهادات الفكرية تكون بالحوار العلمى لرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كى تنجلي الحقائق وتصفو العقول فى سبيل فهم حقائق وقيم الدين الإسلامى الحنيف

والمعروف أن مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان كان قد تبنى الدفاع في قضية كتاب د. سيد القمنى وأعرب عن انزعاجه الشديد لتوسع مجمع البحوث الإسلامية في فرض دوره الرقابى ووصايته الدينية دون سند من الدستور والقانون على المشتغلين في حقل الفكر والبحث والإبداع.

ويدعو المركز في هذا الصدد القائمين على مجمع البحوث الإسلامية الالتزام بأحكام قانون الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ولائحته التنفيذية التى قصرت دور المجمع فى تتبع ماينتشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث للانتفاخ بما فيها من رأى صحيح وأن تقتصر مواجته للآراء والابحاث التى يرى المجمع أنها مخالفة للإسلام عند حدود مانصت عليه اللائحة بالتصحيح والرد وليس عن طريق المصادرة.

مع تحياتى

٩٨/٩/١٤

المصديق الدكتور
المستصحب له د. المحقق
سيد القمى
مع تيمناي اميرسلم

القضاء المصري يتصدى لمصادرة حرية الفكر والرأى فى حكم تاريخى

فى سابقة تاريخية تستحق الاحتفاء بها يسجل القضاء المصرى العظيم بسطور من نور إنتصاراً يضاف إلى رصيده الطويل فى حماية للحقوق والحريات فى مصر. ويعلن للقاصى والدانى مستنداً للقيم الإنسانية العظيمة والدستور المصرى والقانونى، أنه لا مصادرة للفكر وحرية التعبير عن الرأى ويرى فى مصادرة المقال الذى يرد فيه د. سيد القمنى على د. عبد الصبور شاهين «يمثل حجراً على الفكر وهو ما تتناذى منه الإنسانية إذ أنه بالمناظرات النقدية يرقى الفكر وينجلي عن الصواب دائماً». كما يرى فيما كتبه د. سيد القمنى عن الشيخ عبد الصبور شاهين بأنه «سنتشار بيوت تمتش الأسوال. بأن ذلك «أيا ما كان وجهة النظر فيه فلا يمكن وصفه بأنه فكر منحرف يستوجب المصادرة للمؤلف فى جملته»، «ولا يمثل ضرراً عاماً يستوجب الحجر على فكر المؤلف».

كما وأن نقد بعض مواقف الشيخ محمد الغزالى واللواء عصام أبو العرايم «لا يتعدى نطاق المناظرة النقدية وإن اشتدت لهجتها إلا أن ذلك فيما نرى لا يعدو أن يكون نقداً مباحاً فى نطاق المناظرات التى تجرى بين كبار العلماء والفقهاء والمفكرين».

كذلك قد جاء حكم القضاء العظيم فى العديد من جواده دفاعاً عن حرية الفكر العلمى بل أهميته وضرورته فى حياتنا وذلك لاستجلاء الحقيقة وإعمالاً للعقل لأن المعروف فى الشاب على ما ورد، البعض عن عالم الجن وقدراته إنما هو «فى مقام الدعوة من المؤلف لطرح مثل هذا الفكر الذى يقده البعض إلى الفكر العلمى المنهجي الحديث وهو أمر محمود ومطلوب فى توجهات ثقافتنا ولا يمكن حمله على أنه سخرية كما ذهب تقرير مجمع البحوث». «ولم نر من ورائها سوى قصد تنقيح المعتقدات الدينية من بعض الأمور الغير ثابتة يقيناً وورد تقريره بالمؤلفات جزافاً دون أن تستند إلى وقائع حقيقية ثابتة فى الدين أو التاريخ وبالتالي فليس فى ذلك مساساً بالعقيدة مطلقاً».

وفى سابقة قضائية تعلن المحكمة بخصوص نقد المؤلف للحكم الصادر فى قضية الدكتور نصر أبو زيد «فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تعليق على حكم قضائى بوجهة نظر المؤلف دون المساس بحرمة الحكم أو حجيت أو ما يشير إلى معنى التهمك منه».

وبخصوص ما ورد فى كتاب المؤلف «رب الزمان» ونسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه من تحريمه ما كان حالاً على عهد الرسول «ص» يقول حكم المحكمة «ولأن كنا لم نعثر لهذا القول على أصل فيما قام بين أيدينا من كتب التراث.... من قبيل الخطأ فى الاستدلال على مدلول



الباحث ولا يؤدي إلى فساد الفكر في جعلته بما لا يستأهل مصادره مجرد خطأ ظاهر البطلان في الاستدلال.

وفي شأن تقرير مجمع البحوث الإسلامية فقد قدر الحكم أن نوافعه نبيلة قوامها الغيرة على الدين الإسلامي الحنيف «بيد أن الأمر دار في حدود الرؤى والاجتهادات الشخصية والعلمية». وإذا اختلفت وجهة النظر الاجتهادية لمجمع البحوث مع وجهة نظر صاحب المؤلف المطبوع «فإن هذا التعارض لا سبيل لرفعه بأن تنفي أحد الخلاصتين الخلاصة الأخرى أو تصادرها لما في ذلك من تعارض مع أحكام الدستور الذي نصت المادة ٤٧ منه على أن حرية الرأي مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون والنقد الذاتي، والنقد البناء ضمان لسلامة البناء الوطني، كما نصت المادة ٤٩ من الدستور على أن تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك - وبالتالي فإن سبيل رفع هذا التعارض هو الحوار العلمي الرصين والاجتهاد من كل طرف وفتح جميع نوافذ الفكر كي تتجلى الحقائق وتصفو العقول في سبيل فهم حقائق وقيم ديننا الإسلامي الحنيف».

ولهذه الأسباب جاء الحكم التاريخي الذي أصدره السيد المستشار سلامة سليم رئيس المحكمة بمحكمة شمال القاهرة الابتدائية في يوم الاثنين الموافق ١٩٩٧/٩/١٥.

ومن جانبنا نرى أنه لا إضافة تضاف إلى هذا الحكم القضائي العظيم الذي أكد به قضاء مصر، إستنارته وقوفه إلى جانب حرية الفكر والتعبير وحرية البحث العلمي ودفاعه عن حقوق وحرية الأفراد سواء الواردة بالدستور المصري أو الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان.

إن ذلك الحكم إن يعد صفة للحملة التي يقودها التيار الجهول في الحياة السياسية والفكرية المصرية المعاصرة، فإنه - الحكم - يمثل منهجاً نستهدى به في مستقبل حياتنا الفكرية والثقافية وهو نداء لكل أجهزة الدولة ومؤسساتها بعدم الوقوع في براثن حملات وأفكار القوى الظلامية.

إنها دعوة دعوة للمشرع والسلطة معاً لتنقية نظامنا القانوني وحياتنا الثقافية والإعلامية من حالة الخرافة ومن معاداة حرية البحث العلمي وحرية الفكر والتعبير.

مدير المركز
أمير سالم
المحامى
١٩٩٧/٩/١٥

بالتاكس تحية سورية للقمي

عرفنا الدكتور سيد القمني من على صفحات «أخبار الأدب» وعرفته جيداً الآلات التي تصور نسخاً عديدة عن مقالاته فيتوازعها المثقفون والمستثمرون هنا في سورية... عرفناه جريئاً، وأعباً، رافضاً للتفوق الفكري والأهم فاضحاً للكثير من المنتفعين والمشوهين لصورة الإسلام، كبعض أصحاب البرامج التلفزيونية المعروفة وسواهم كثير. لسنا بصدد دفاع أو رد للآراء... إنما نحن بصدد قضية أكبر تمس وجودنا في ذاتها لأن الفكر رديف الوجود وتقييده يعنى ببساطة اللاوجود...

والمضحك أننا ندعو إلى تحرير العربي من الشعوب الأخرى ونحن.. أخوته - لاملك أدنى احترام لحريته الذاتية في الاعتقاد مثلاً وهي أسسط صور الحرية أو ننشدق بأنا مهد الحضارات ونحن كمثلك كلاب مسعورة نلاحق الحضارة لننهش لحمها ونحولها إلى مزق ثم ندخلها إلى ثلاجة التاريخ وندعى بأن لها عروقا تنبض...

إنني أتأذى من سورية لأقول للدكتور القمني لست وحدك وأقول هذا لأن الدكتور سيد ليس هنا حالة، إنما هو نقطة على مفترق طريق بين شرعية حرية التعبير والإبداع والاعتقاد، وبين الفهر الفكري من قبل جماعات معينة أغلبيتها يمسح الجهل والتزنية... وإن كان على هذا الإرهاب الفكري أن يكون قضية نصر أبو زيد أخرى فليس على كل المثقفين العرب سوى أن يغفروا رؤوسهم بالنراب صارخين واحضارته!

أمين عرسان - دمشق - سوريا

فاكس وهاتف
مكتب 5787142



الأخ الاستاذ الدكتور سيد القمنى

المحترم

التمنّى القلبية للانتصار الرائع لحرية
الفكر ولجمهوركم الجريئة في تأسيس
معرفة علمية وملتزمة.

التحيات والاحترام منى ومن هط من
السودانيين المستنيرين الذى يحبونك ويفخرونك
بمثل موقفك من الحرية عموماً.

نتمنى لكم دوام الصحة والعافية وبقية
العقل وثبات الغوداد .
كثير مودى وتقديرى

مخلص

حيدر ابراهيم على

من المصريين في المنبر

مونتريال في ١٠ سبتمبر ١٩٩٧

الشيخ العزيز الفاضل الاستاذ الدكتور سيد القمني

تحية واحترام وتقدير أجمع.

مه أعياد القلب فونتي أنفسنا جميعاً بصدور الحكم العادل برزقنا صادرة
كتابكم رب الزمان. لقد رفض القضاة العادل صادرة العدل المحرم وأيد هرتي الفكر الراسخ.
فونتي لكم ولنا جميعاً ربنا الله فيكم وأكده أشاكنم مه انقيته منه الحمد هه
البالغ والذره هه الظلام يا ابيه مر الباهر ، مر الحب والدعاء مر الاغارة والعطاء
مر اسم الحضارة مر النبل والهم مر الكفنية والجامع مر الحب والقيم مر الانس
والبيوم والغد مر الهدى والطيب مر الحليمه والاقبال مر ولهمنا للوئام والتعايش
السلم بيه الادبانه فهدوك لمركلا رةلثة العربية بهذا الحكم العادل يا ابيه مر
الباهر يا دكتور القمني.

لقد كنا نتابع مه أرحم المرمر محاملة قدما الظلام صادرة العدل المحرم
رقدنا كانت معكم رضاءات العناية الالهية انه تفهمكم ففهم الله هه البالكي
نالي الزمان والله يفتلكم ويرعاكم ويكفل كل اعيانكم بالبنح دائماً ابداً .

- ٤ -

وأخيراً وليس آخراً أكرر لسيادتكم تمسنتي القلبية بكملة العدالة والله يعلمكم
 بعنايته ويرعاكم برعايته ويكثر من أشتائكم ويعطكم الصحة والعافية والعراة الطويل شكراً
 المستور من أجل حريته الرضى والفكر وهدمه الرضاء ومن أجل رضى والده له العبد
 وتفضلوا سيادتكم بقبول خاتمة الامة مع رشككم واعزازي وتقديرى
 الخ

سليم نجيب

د. سليم نجيب
 دكتوراة في الفقه والعلوم السياسية
 القاضى بمجلسه مدته بال (كثرة)

FROM : N. EL SAADAWI / S. HETATA

PHONE NO. : 202+2022279

Sep. 20 1997 11:53AM P

Dr. Nawal El Saadawi
Office : 25 Murad Street - 12211 Giza - Egypt
Home : 19 Maubad K. - 1st Street, Building
no. 1, Shoubra Garden - 11241 Cairo - Egypt
Tel : 202-2022279
Tel 202 6738350

د. نوال السعداوي
مكتب: ٢٥ شارع مراد الجيزة ١٢٢١١ مصر
د. ١٩ شارع معهد ناصر عمارة رقم ١ حدائق شبرا ١١٢٤١ القاهرة - مصر
تليفون ٢٠٢-٢٠٢٢٢٧٩
البريد: ٢٠٢-٥٧٣٨٣٥٠

Date

٢٠ سبتمبر ١٩٩٧ تاريخ

عزيزتي بستان سعيدة
تبارك وتعالى
سرت كثيرا تدار القطار نبيهم كآبة وألمه
ردام الشفيع مع الفداء وتذرية
نزال السعداوي

٢٠٠٠٠٧٩

٢٠٣٥٠٠١

نأسف إلى السيد (المنه) تم ٢٨٦٧٨٧٦

القسم الثاني

رب الزمان

ودراسات أخرى

إهداء

صديقي :

أحمد صبرى إبراهيم أغا

كُنْتُ متشدداً فى أمور الدين ، وكثيراً ما كُنْتُ تعترض على منهجى فى تجديد قراءة التراث ، وتتوقع لما أكتب هزيمة منكورة ، لكنك رحلت قبل أن ترى المنهج يصبح مدرسة ، ولو كنت حياً لفرحت من قلبك ، فأنا أعرف الناس بك ، أعرف كيف كنت تحب الله والزهور وأفلام الكارتون ، والنهى وسيدى (أبو العباس) والروايات الكلاسيكية ، أعرف كيف كنت تحب طين مصر وشم النسيم ورياح الخماسين والحديقة اليابانية ، والمتحف المصرى وأم كلثوم وصديقنا التشكىلى (توران) البوذى ، كذلك (بيكار) .

برحمتك أيها الإنسان رحل صديقى الطفل الرائع ، الأبيض الناصع ، الذى آمن بالله صدقاً فأحب الأرض والناس ، وعاش من أجل الناس ، طبق الأصل : مصرى حقيقى ممن كنا نعرفهم أيام زمان .

كنت تكره منظر الدماء حتى لو كانت ذهباً حلالاً ، وتفرح من قلبك عندما ترى عاشقين ، وتحزن بعمق لخبر عن كارثة أصابت بشراً على الشاطئ الآخر من بحر الظلمات ، ثم كنت تنصت بكل جوارحك لمحدثك رغم أنك كنت تخالفه حتى النخاع ، ولم ترد على من لا يعلم إساءته ، لأنك كنت أعلم بقيمة الإنسان .

أخى يا إنسان : اسمح لى أن أقرب منك بهذا الكتاب كتبت نصفه وأنا بمستشفى القلب بين الموت والحياة أحاول به التماس الدفء بالتماس مع ذكراك حتى آتيك أنيساً ورفيقاً .

سعيد

مقدمة

الطبعة الأولى

قارئى ..

أيها الصديق الرائع ..

بك أمتلىء وأشعر صادقاً أنى كثير وقوى .

لقد قدّر زماننا أن يفرزنا، فنحن فرز حراك واقع تلك الأيام، لذلك كان حتمياً أن نلتقى هذه الحقبة تحديداً، وهو الفرز المطمئن الذى يدفع إلى التفاؤل، رغم الفرز غير المطمئن على الجانب الآخر، لذلك أؤكد لك أنك وراء استمرار هذا المشروع، وبك، وبأصدقائنا - أنا وأنت - من المهومين بقضايا الأمة والحاضر والمستقبل، الذين يتابعون معك ومعى خطواتنا الثابتة الوثيقة، أقول: بكم جميعاً يستمر العمل على دأبه دؤبياً.

أصدقائك رفاق تلك العصور، يلتقون بى فى كل موطن، فى الندوة، فى الشارع، فى عواصم عربية متعددة، كثيراً ماتحدثنا، واستمعت بالشغف ذاته لما يطرحونه، لكنهم كانوا جميعاً يحملون لى سؤالك: أين كتاب النبی موسى؟ وماذا تم بشأنه؟ بعدما انصرمت سبع سنوات على الإعلان عن بدء البحث فيه، ولما يظهر بعد؟

نعم أيها الصديق، لقد طالت الشقة، لكنى أصدقك القول: إن العمل لم يتوقف فيه لحظة، إلا عندما سقط الجسد سريعاً منهوك القلب، ورغم الظروف الصحية التى تلابسنى دون رحمة، فقد عدت إلى النبی موسى متابعاً العمل لأوفيك وعداً تواعدناه، ومع تلك المصارحة، يجب إحاطتك علماً أن هناك عدداً من المشاكل لم تحل بعد، ويحتاج كشف آلياتها واكتشاف حلولها بعض الوقت، وبعض الصبر من جانبك.

ومن هنا - وكى أحافظ على حرارة التواصل بينى وبينك - فقد ارتأيت أن أواصل بكتابين، أولهما هو الجزء الثانى من (حروب دولة الرسول)، والكتاب الذى تحمله بين يديك الآن ويحمل عنوان (رب الزمان).

(رب الزمان) هو عنوان لواحدة من الدراسات التى تضمها دفئا هذا العمل، حيث يحتوى كتابنا هذا على أقسام ثلاثة: القسم الأول منها مجموعة دراسات يمكن أن تحمل جميعاً عنوان (إسرائيليات)، لتعاملها مع المنظومة الإسرائيلية وثقافتها وخطابها المطن، أما القسم الثانى

فيعضم بعض المعارك الفكرية، ارتأيت أن أجعلها متاحة لك من باب التوثيق ليس إلا، حيث انتهيت مؤخراً إلى قرار بعد الدخول في ذلك النوع من المعارك الذي يثيره أصحاب الأندلوجة السلفية، مستفيدين في ذلك مما أذى رفاقاً لنا كبار، فاكتمال المشروع أو المحاولة المستمرة في الإضافة إليه، هدف يجب ألا يضيع في صراعات قد تقبر الأمر كله.

ومادمنا بصدد التوثيق، فقد غامرنا بنشر بعض الدراسات الأولى الابتدائية هنا، وهي من محاولاتنا المبكرة التي لاشك تحمل سمات الحالة الأولية، ونماذج لها دراسة (منذ فجر التاريخ والحج فريضة ديلية)، ودراسة (رب الزمان)، وغيرهما.

ثم قسم ثالث يضم مقالات ودراسات تتصفر مع منهجنا وخطواتنا التي ارتسمناها وتوافقنا عليها منذ البدء.

وغنى عن التلويح، أن بعض ما سنقرأه هنا قد سبق نشره في دوريات عربية متباينة، وبعضه الآخر لم يسبق نشره، وقد كتبته إيان تواجدى في جناح القلب بمستشفى الهرم، واعتمدت في معلوماته على ذاكرتى وحدها، لذلك لن تجد لمثل تلك النماذج هوامش أو مراجع مدونة.

أضع هذا الحشد بين يديك أيها الصديق، من أجل مزيد من القلاحم بيننا، راجياً أن أكون قد عوضتك عن انتظارك - ظهور كتاب (النبي موسى) - بوقت مشحون بالقضايا التي يثيرها هذا الكتاب.

سيد القمى

إِسْرَائِيلِيَّات

الرد على خطاب شامير في مدريد

يعطينا هنا أن نؤكد، أن كلمة (شامير) التي ألقاها على المؤتمرين بمدريد في ١٠/٣١/١٩٩١، تشكل نموذجاً لا شك - مثالياً تماماً للخطاب الصهيوني عامة بمنطقه ومحاوره الأساسية، فرغم الظروف التي القيت فيها كلمة إسرائيل، في ظل ضعف عربي عام وشامل، مهما سار العريان متبخترين، وتحت مظلة من السيطرة الأمريكية شبه الكاملة، ومع الاقتدار الإسرائيلي المتفوق على كافة المستويات، والذي لا يجادل فيه إلا مكابر، فإن كلمة شامير كانت على ذات الخط، وذات الدرجة، وذات القدر، الذي كان الخطاب الصهيوني يراعيه دوماً، ودون أن يحيد عنه أنملة. فراعته الكلمة بشكل نكس وليس جديداً، أنها تلقى في ظرف عالمي، يتحدث عن نظام جديد، يزعم للدنيا أنه يسعى لإرساء قواعد السلام والأمن والمحبة على الكوكب الأرضي. وإن شاء فرض ذلك فرضاً، وبخاصة في أشد مناطق العالم سخونة، حتى لو ثوى الجمر مؤقتاً تحت رماد ظاهري، تصنعه أنظمة تابعة. كما لم يغب عن بال الخطاب أنه يتحدث إلى العالم كله، وأمام كل الشبكات الإعلامية الدولية. فوضع بحسبانه مشاعر الجماهير العريضة على تنوعها واختلاف توجهاتها، فجاءت صياغة الخطاب واضحة باعتبارها أنها كما لو كانت تخاطب كل فرد على حدة. ومن ثم فإننا نفترض أن الخطاب قد أحاط تماماً بكل الأغراض المطلوبة منه، واستخدم كل المكنات من أساليب متاحة تتناسب مع المقام، وعمد إلى كل طرق الإقناع وعرض قضيته كاملة تامة شاملة مانعة، بهدف كسب أكبر تأييد جماهيري ممكن، حيث أنه حاصل سلفاً على تأييد النظام الجديد بزعمارة الولايات المتحدة الأمريكية، واتباعها الأوروبيين. وعليه، فإننا سنتعامل مع كلمة شامير في مدريد كمعبر صادق عن الخطاب الصهيوني، وسنحاول قراءة طبيعة هذا الخطاب ومكوناته وأغراضه ومناهجه، بعرض سريع قدر ما تسمح به المساحة المتاحة لعرض تلك القراءة.

والمدقق في الخطاب يمكنه أن يلاحظه وهو يتحرك على عدة محاور، تم ربطها ببعضها في منظومة شديدة الجودة، ثم تركيبها معاً بتقنية ومهارة عالية، فكان المحاور الأساسي للحركة جيدة وذاهبا. ومركز الحركة، هو التركيز على الاستجابة النفسية للجماهير، فقدم

(*) نشر بتاريخ ٢٢/١٢/١٩٩١ و ٣٠/١٢/١٩٩١، بصحيفة مصر الفتاة.

افتراضه المسبق لهذه الجماهير بأنه يخاطب كل واحد منهم كشخص متحضر، بلغ من الحضارة قمته، وهذا وحده لون من تملق المستمع لكن بحيث يترك في نفسه أثرا مطلوباً. هو أن الخطاب يتعامل معه بكل احترام، لأنه شخص متحضر حتى لو لم يكن المستمع يستحق هذا الاحترام، أو يحوز تلك الدرجة الحضارية. لكنها على أية حال الطريقة المثلى لجعل المستمع يتجاوب مع كم الاحترام وكم الحضارة المفترض فيه! وهكذا فقد سلم الخطاب للمستمع أنه رجل متحضر، مسالم، ينفّر من الحروب، يريد الرفاة لجميع الأمم وكل الشعوب، بلا استثناء، يرفض التعصب بكافة أشكاله، وينفّر من الاضطهاد على أسس عرقية أو دينية، بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة.

وبإيجاز، فالخطاب يفترض في المتلقي ليبرالية ملائكية، ومن هنا كان الكمب الأول المطلوب، على المستوى السيكولوجي، هو أن يقول للمتلقى أنت متحضر، ولهذا نحن نحترمك ونثق في حكمك على ما سنقول، حتى لو كان هذا المتلقي وغداً أمريكياً، استمتع يوماً بحرق الأطفال في ملجأ العامرية في بغداد، وتعامل مع أضرار طائرته وقابله وضحاياه، بحسبانها من ألعاب (الآتاري) التليفزيونية. هذا ما كان عن المحور الأساسي (التأثير النفسى) فى طبيعة الخطاب الإسرائيلي، واستثماره أدوات منهجية، أهمها المعانى النظرية البحتة للتحضر، بغض النظر عن كون هذه المعانى حقيقة فعلية أم لا. (وهو ما يذكرنا برئيس دولة عربية يجد غاية لذته فى السخرية من مستمعيه، ومن سلوك أبناء شعبه!).

أما المحور الثانى، الذى ترتبط حركته بحركة المحور الأول، فهو الذى يركز على الجانب الحقوقى ١. وهو لا شك أهم أعمدة للتعامل بين المتحضرين، ويتم فيه تأكيد الحقوق التاريخية الثابتة لليهود فى أرض فلسطين منذ آلاف السنين. وهنا يتداخل المحور الثالث على نفس الميكانيك، لينقل الأمر الحقوقى المسلم به حضارياً إلى اليد الإلهية، منتقلاً بذلك إلى المحور الدينى، فتلك الحقوق قرارات إلهية، وهبة سماوية، واختيار أحكم الحاكمين الذى فضلهم على العالمين (١٢) وهو القرار الذى يؤمن به إلى جانب اليهود، العالم المسيحى الغربى كله، وذلك باحتساب التوراة صاحبة ذلك القرار الحقوقى القدسى، بعهديه (القديم أو التوراة، والعهد الجديد أو الاناجيل) مع البصمة التأكيديّة، والقول التوثيقى على الناموس التوراتى، بلسان المسيح (ما جلست لانقض الناموس. ما جلست لأنقض. بل جلست لأكمل) وهنا، وبسرعة يتم إدخال المحورين الحقوقى والتاريخى، مع المحور الإيمانى الدينى على ميكانيك الحركة الصحورية الأساسية (النفعمانى) لتتشابك الحلقات التى تؤدى إلى راحة ضمير المؤمن المسيحى الغربى تماماً. والمتحضر جداً، إزاء مساهمته بالموافقة على تأمين حياة هؤلاء المؤمنين،

لتحقيق كلمة الله الصادقة الثابتة، مع ما يفترض في المستمع المتحضر من رغبة في إثبات تحضره، بنأمين كل الحقوق، لكل العقائد والديانات، مهما اختلف معها.

ضمير العالم

ولإحداث الأثر المطلوب من المحور الأساسى (النفسانى) فقد ترك الرجل أثرا طيبا فعلا؛ فكان رفيق الحاشية، عف اللسان، وديع كالحملان، يمد يده إلى جيرانه يستجديهم الصداقة والآمان، رغم أنه الأقدر والأقوى. لكنه من جانب آخر قام يردد (أن الموضوع ليس موضوع فرض، أنه موضوع وجودنا ذاته) فأى لون من التنازل يعطى دمار شعب إسرائيل المسالم (!) وإزالته من الوجود. وذلك فى ضوء المقارنة التى قدمها لتعداد شعب إسرائيل (٤ ملايين)، مع من حولهم من عناة القتل المتعطشين للدماء، وعددهم (١٧٠ مليون عربى) مع ضائلة مساحة أرض إسرائيل التى تستدعى الشفقة (٢٧ ألف كم)، وسط محيط عربى شرس يبلغ (٢٤ مليون كم). والحجة على المستوى النفسى، مع تغييب الحقائق الأخرى، تبدو غاية فى الوجاهة. يبدو فيها شعب إسرائيل بطلا للخير يدافع عن وجوده وسط غابة من الشر، مما يستدعى مشاعر الأشملزاز من العرب الذين يستأسدون على الدولة الوديعا!

وقد عمد الخطاب - بذلك - إلى استحضار مشاعر أخرى تمتزج مع مشاعر الإشملاز، عندما نذكر أن كل عدوان عربى على إسرائيل تم دحره فتمتزج مع المشاعر الأولى مشاعر الاحتقار أيضا مع الاستهانة والاستخفاف، من شأن أجلاف البوادي، الذين يتحينون فرصة لا يجيدون حتى صنعها والوصول إليها. رغم ذلك فالرجل يمد يده إلى جيرانه أمام كل العالم ويشرح ماوقع على شعبه من مظالم، وذلك فى قوله: (ولأسف فإن الزعماء العرب الذين كنا نود مصادقتهم، رفضوا الدولة اليهودية فى المنطقة، وادعوا أن أرض إسرائيل هى جزء من الأرض العربية.. وانطلاقا من تحدى الشرعية الدولية، فقد حاولت الدول العربية احتلال وهدم الدولة اليهودية).

وهكذا يختفى الفلسطينيون تماما ويصبح العرب - بلا سبب مفهوم أو واضح - يريدون تدمير إسرائيل المسالمة، التى تسعى لصداقتهم وحسن جيرانهم، لذلك أصبحت المسألة ليست مسألة أرض، إنما مسألة وجود شعب إسرائيل، وسط الحشد العربى الشرير! ومن ثم عمد الخطاب مباشرة إلى الضغط على ضمير العالم، بمأساة الشعب اليهودى، الذى لاقى صنوف الاضطهاد. وأنه قد آن الأوان كى يصحو ضمير العالم، ليرد لهذا الشعب أبسط الحقوق، وهى الأمن. بل ويطلب من اليهود الصفع والمغفرة، (ألستا عالما يدعى التحضر؟) ومن هنا أخذ يوجه حديثه إلى كل فرد فى هذا العالم الخاطيء ويقول: (لقد تمت ملاحقة اليهود عبر التاريخ فى كل القارات تقريبا.. وتعرض اليهود للاضطهاد والتعذيب والنهب. وشهد هذا القرن

خطة إبادة نفذت على أيدي النظام النازي، وهذه الكارثة والإبادة الجماعية المنقطعة النظير، والتي قصت على ثلث شعبنا، تمت في واقع الأمر، وأمكن تنفيذها، لأن أحدا لم يدافع عنا، فقد كنا بلا وطن، ولكن هذه الكارثة هي التي جعلت المجتمع الدولي يعترف بمطالبنا، القائمة على حقنا في أرض إسرائيل) وهنا تجدنا مضطرين إلى تأجيل تناول المحورين (التاريخي والديني) لنحاول أن نفهم الآن: كيف أمكن للمذابح النازية ضد اليهود، أن تؤدي إلى اعتراف العالم بحق إسرائيل في فلسطين، وقيام الدولة الصهيونية على أرضها؟ ونلاحظ أن الخطاب- بعد تهينة المستمع نفسيا وعاطفيا- مع إشعال جذوة الضمير الحضاري وعقدة الذنب- ينتقل فورا إلى إعلان أنه رغم ظلم العالم لليهود، فليس لأحد حق الإدعاء بقيام دولة إسرائيل، لأن ضحايا اليهود أيام النازي كانوا الثمن المدفوع سلفا، فقدموا أنفسهم قربانا على مذبح قيام الدولة. هذا بالطبع حق اليهود التاريخي الديني المعلوم في تلك الأرض، وكل ما في الأمر أن العالم ربما نسي تلك الحقيقة بعد طول اغتراب اليهود عن فلسطين، وما حدث من النازي كان فقط عامل الإنعاش للضمير العالمي الخاطيء.

الخطاب الصهيوني بذلك يعمد إلى لون فاضح من التزوير والتلفيق، فرغم أن المذنب هو النازي، فهو لا يذكر أبدا أنه ليس من المقبول حضاريا وحقوقيا وإنسانيا أن يدفع الفلسطينيون وزر الجريمة النازية، والمعلوم أنه في فلسطين تحديداً، وعندما وقع اضطهاد على اليهود كان بداية من جانب الرومان الذين دمروا الهيكل الثاني. وشتتوا اليهود في بقاع الدنيا، لأسباب تاريخية معروفة. أما الاضطهاد الثاني فقد جاء على يد الصليبيين، عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩، وقاموا بحرق اليهود داخل معابدهم، مما أدى إلى هروبهم الجماعي من فلسطين، وهو ما وضع في مقطه لسانية بخطاب شامير عندما قال (إن اليهود كانوا موجودين باستمرار في فلسطين باستثناء فترة المملكة الصليبية القصيرة) لكنه بالطبع لم يذكر السبب، كما لم يذكر أن سبب تواجدهم بعد ذلك في فلسطين، كان نتيجة سماح صلاح الدين لهم بالعودة بعد استعادة العرب لها من يد الصليبيين.

أما إشارة الخطاب إلى أن كل شعوب العالم قد اضطهدت اليهود الذين عاشوا بين ظهرائهم، فهو أمر يستحق الدهشة والتساؤل؟! لماذا تجمع شعوب مختلفة المواطن، متباينة العشارب والعقائد، على كراهية مواطنين مثلهم، ولكن من ملة اليهود؟! هذه فزورة لا يحلها إلا السيد شامير.

العلاج النفسي

واللافت للنظر هو تركيز الخطاب الصهيوني الدائم، على الجريمة الهتلرية ضد اليهود، ففي كل (حدوث) وفي أي مناسبة (وبدون مناسبة) يتكرر ذكر المنبحة النازية لليهود التي

لكنست بطابع ديني. بحيث لا يذكر هتلر، إلا وتذكر كراهته للدين اليهودي وأتباعه. وأنه ماذبح هؤلاء إلا لكونهم يهودا! حتى نسي العالم أن ضحايا النازية من غير اليهود قد بلغ ستين مليون إنسان، وأن الضحايا المدنيين فقط وصل عددهم إلى ثلاثة ملايين بولوني، وستة ملايين سلافي، وضاع ذكرهم وسط الضجيج والصخب الصهيوني، والندب والعويل على شهداء البشاعة البشرية من اليهود، والذين اتخذ موتهم طابعا قدسيا، كما لو كانت ضحايا هتلر من اليهود فقط! وأنهم فقط أصحاب حق في القداصة، وأصحاب حق في جلد ضمير الدنيا بالسياط، ووسيلة لكسب التأييد المادي والمعنوي. وإذا كانت هذه الجريمة كما يقول خطاب شامير سبب صحوة الضمير العالمي لإقامة دولة إسرائيل، فلا شك أن الخطاب العربي الفاشل، كان وراء خمود ذات الضمير أمام زيادة وتشريد الفلسطينيين! إضافة إلى العوامل الأخرى المتعددة، البعيدة عن موضوعنا هنا بشأن طبيعة الخطاب الصهيوني. لكنها على أية حال توضح لنا لماذا لم تقم دولة إسرائيل على أشلاء المانيا المهزومة، وقامت في فلسطين؟

ثم يعمد الخطاب الصهيوني مرة أخرى إلى تشغيل المحور السيكلوجي، فبعد أن يعدد خطايا العالم في حق شعب الرب المختار! ويضع الضمير العالمي في حالة أرق، وشعور حاد بالذنب والخطيئة، فإنه يسارع متبرعا بتقديم العلاج النفسي والبلمس الشافي لذلك الضمير المعذب، حتى يكون الجميع ممتلئين وشاكرين. فيربط الخطاب بين الاضطهاد النازي وبين الاشرار العرب الذين يكيدون للدولة الوليدة، ليضع النازي والعرب داخل إطار واحد، فيمتزج الشر العربي بالشر النازي، ويصبح العالم مسئولا تمام المسؤولية إزاء الشروع في الجريمة الجديدة، وأن يمنعها قبل أن تقع، وعلى الإنسانية أن تقوم بواجبها إزاء ما يمكن حدوثه، وهو ما يلقي صده مع العقيدة المسيحية التي تقبل بفكرة الضحية، مقابل الفداء والخلاص. أو بالنص الإنجيلي الذي يضع مشروعية رفع الخطيئة (بدون دم وسفك دم لا تحصل مغفرة).

والضحية موجودة والحمد لله، وعلى الفلسطينيين أن يقدموا الفداء لخطايا للعالم، ويرفعوا الإصر عن ضميره اليقظ، لأن المسيح نفسه، وهو الإله، قد تمت تضحيته على الصليب من أجل راحة ضمير البشرية ورفع الخطيئة عن بني آدم، فهل الفلسطينيون أحسن من الله؟

وهكذا تجد البشرية الغربية المتحضرة المعذبة، التواقعة إلى التكفير عن ذنوبها. لكن بعيدا عن جلدائها. خروفا يذبح بدلا منها، لتعود لتلك النفس راحتها، واتزانها وتماسكها، وهو ما أجاد الخطاب الصهيوني صناعته على الدوام، وباقتدار. ومن ثم تبرز إلى جوار طبيعة الخطاب التي تستهدف الجانب النفسي، مع استثمار المعاني النظرية لمفهوم التضحية، التي لا بد أن تنفر من الاضطهاد بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة، طبيعة أخرى تستثمر البعد الديني. فاليهود لم يضطهدوا إلا لأنهم يهود، ويصبح من المنطقي ألا يطلبوا التعويض ممن اضطهدوهم بأرض في أوروبا، لسبب ديني بسيط معلوم، هو أن أوروبا ليست أرض اليهود، أو كما قال موسى

ديان لصحيفة لوموند في ٥/١٠/٧١ (بما أننا نملك التوراة، وأنا شعب التوراة، فلا بد أن نملك أيضا أرض التوراة) .

وتتم المغالطة الكبرى بالخلط السريع للأوراق، ولا يبقى مكان في العالم يصلح لليهود، ومن حق اليهود، وترضى به النفس الأوروبية المعذبة دون أن تخسر أرضها، سوى الوطن اليهودي الذي سلبه الفلسطينيون والأمر مشروع قدسيا بقرار إلهي بالكتاب المقدس المصدق وتلك إرادة الله الذي لا راد لقضائه.

التزوير في الخطاب

والوقوف مع الترتيمة المعذبة لليهود حول الجريمة النازية، يكشف لنا بعدا آخر بالخطاب الصهيوني، وهي وقفة للتذكير بمجموعة حقائق، تساعد على حل اللغز الذي طرحه السيد شامير، في قوله أن المذبحة الهتلرية، كانت السبب الحقيقي وراء قيام دولة إسرائيل!!

ربما مازلنا نذكر ما حدث في بغداد مع بدء الهجرة اليهودية المنظمة إلى إسرائيل، بتخطيط وإشراف الصهاينة، عندما تردد يهود العراق في قيد أسمائهم بكشوف الهجرة، فلجأت العصابات الصهيونية المسلحة إلى إلقاء القنابل على مراكز التجمع اليهودي لإشعارهم أنهم في خطر، لدفعهم للهجرة إلى إسرائيل. وهو الحدث الذي تزامن مع حالات أخرى شبيهة في مواقع أخرى من العالم. كما تزامن مع بداية النشاط الفطلي للصهيونية العالمية. وكان أخطر تلك الأساليب هو ما حدث في ألمانيا النازية، في قضية إنجمان المعروفة. وما كشفت عنه د. حنا أرندت في كتابها (إنجمان في القدس)، وأوردت به مجموعة وثائق تثبت وجود تعاون وثيق بين السلطات النازية، وبين المؤسسة الصهيونية في فلسطين، وأن من بنود ذلك التعاون، أنه كان بإمكان أي يهودي ألماني أن يهاجر إلى إسرائيل، شريطة أن يحول أمواله إلى بضائع ألمانية. وقد قدم إنجمان مساحات من الأرض للصهاينة، كمسكرات تجمع لليهود ولتهجيرهم بالإكراه إلى فلسطين.

أما ما حدث لليهود تلك المسكرات، فهو البشاعات التي كشفت عنها قضية كاستلر، الذي باع يهود تلك المسكرات للنازي، بالتعاون مع إنجمان، وهي من القضايا التي هزت إسرائيل، وكشفت أن زعماء الصهاينة وقياداتهم، قاموا بتجهيز أغنياء اليهود إلى فلسطين للحصول على الأموال، إضافة للعناصر الفعالة كالطماء والشباب، بينما تركت في المسكرات بقية اليهود من عناصر غير مرغوب فيها، وهو من تمت إياقتهم على يد النازي، بطم القيادات الصهيونية وتعاونها، لكسب العطف والتأييد العالمي، وهو ما أدى بعد ذلك وبالفعل، إلى قيام دولة إسرائيل.

وبموجب الاتفاق، قام إنجمان بتأمين قطار خاص لحمل المهاجرين من النخبة المختارة الممتازة، ورافقهم بعض النازيين إلى الحدود لضمان سلامتهم، وقد قال كاستنر أن عددهم كان ١٦٨٤ شخصا غادروا إلى إسرائيل، مقابل ٤٧٦,٠٠٠ تمت التصحية بهم في المجزرة، وهو الأمر الذي يفسر لنا تأكيد شامير على أن تلك المجزرة، كانت السبب وراء قيام إسرائيل.

وقد شهد على تلك المؤامرة الكبرى أحد القتلا الذين تمكنوا من الفرار من معسكر (أوشيتز)، هو (رودلف فريا)، وذلك في جريدة لندن ديلي هيرالد، عام ١٩٦١، بقوله (نعم أنا يهودي، لكنني أتهم قادة اليهود بأنهم أبشع ممارسي الحروب، فتللك المجموعة كانت على علم مسبق بما سيحدث لإخوانهم في غرف الغاز النازية، ومن بينهم كاستنر رئيس مجلس يهود هنغاريا، وقد استقل عدد كبير من يهود هنغاريا الفقراء قطارات النقل طائعين دون مقاومة، لأنهم كانوا قد أخذوا تطمينات من القادة الصهاينة أنهم في طريقهم إلى الحرية، بينما كانوا يساقون إلى الإعدام). أما جريدة صوت الشعب الإسرائيلية فقد قالت في عام ١٩٥٥ (إن كل أولئك الأشخاص، الذين نهب الألمان أقرباءهم في هنغاريا، يطمون الآن ويوضح، أن قيادات الصهاينة هي التي دبرت الجريمة مع النازي).

ولما فاحت الفضيحة، وقدم كاستنر للمحاكمة في إسرائيل بضغط الرأي العام لكشف الحقائق، عقيبت صحيفة يديعوت أحرونوت في ١٩٥٥ بقولها: (إنه إن تم تقديم كاستنر للمحاكمة فإن الدولة برمتها ستتهار، سياسيا ووطنيا، نتيجة ما ستكشف عنه تلك المحاكمة)، ولم يمض قليل على بدء المحاكمة، حتى سقط كاستنر صريعا رميا بالرصاص من مجهول، وكشف بعد ذلك أن قاتله هو اكشتاين العميل السري في جهاز الموساد.

وكان السؤال هل من المعقول أن تقدم القيادة الصهيونية هذا العدد الهائل من اليهود للذبح؟ يجد إجابته أولا في قيام الدولة، وثانيا شهادات منها شهادة (موشى شوايفر) مساعد كاستنر الذي قال بهدوء نعم كان يهود هنغاريا عددا كبيرا، لكنهم للأسف لم يكونوا يتمتعون بأى أيديولوجية يهودية.

أما قائد الهاجاناه (فايغل بولكس): فقد التقى بانجمان في جروبي القاهرة، وأبدى رضاه التام عن سير التعاون اليهودي مع النازي كما هو مرسوم له (انظر مجموعة وثائق التعاون النازي الصهيوني كالتون، استراليا).

لكن السؤال الأكثر منطقية هو إذا كانت الجريمة النازية قد حدثت بالفعل، فلماذا تطوع النازي وسمح للنخبة اليهودية بالهجرة؟ والسؤال وجيه، لكن الوقائع تقول ما يفيدنا بإجابة مقنعة، فلعلنا نذكر أن منظمة الأورجون اليهودية في فلسطين، قد قامت بإعلان الحرب رسميا ضد حكومة الانتداب البريطانية عام ١٩٤٤. ونظمت نشاطات إرهابية متتالية ضد القوات

البريطانية في فلسطين، وهو ما جاء في سقطة أخرى بخطاب السيد شامير في مدريد، في قوله: (لقد قامت الدولة اليهودية وتكونت، لأن الطائفة اليهودية الصغيرة بفلسطين أيام الانتداب، ثارت على الاحتلال الإمبريالي) ١٩ وسقطة السيد شامير هنا فاضحة، ففي الوقت المفترض فيه، أن اليهود يحاربون الألمان، وأنهم ضحية المجازر النازية، كان اليهود في فلسطين يقومون بشايطات إرهابية ضد بريطانيا (١١٩) الأمر واضح تماما، تؤيده العلاقات غير الخفية التي قامت بين عصابة (شيترن) اليهودية بفلسطين، وبين إيطاليا الفاشية، وشنت بموجبها عددا من الهجمات الإرهابية على البريطانيين بفلسطين، أما مناحيم بيغن زعيم عصابة الأورجون، فقد وصل لفلسطين كجندى في الجيش البولوني لمقاتلة النازية، ثم فر من الجندية، ونظم عصابته لقتال البريطانيين وقتل الفلسطينيين.

وهكذا تمت الخطة الصهيونية على ثلاثة محاور: محور يهود أوروبا، ومهمته قتل النازية لكسب تأييد الحلفاء، ومحور ألمانيا للخلص من نفايات يهودية لا تؤمن باليهودية وحقوقها التاريخية، ليتم بها كسب عطف العالم والضغط على ضميره، في أشد الظروف العالمية توترا. ومحور ثالث كان فيه صهاينة فلسطين يقدمون للنازي خدماتهم الجليلة، ويقاثلون بريطانيا لصالح دول المحور، تنفيذًا للاتفاق غير المعلن.

وهكذا تنكشف لنا أهم جوانب طبيعة الخطاب الصهيوني، وهو التزوير الفاضح، وتهديد ضمير العالم دوما بدم اليهود للمسفوك، لأنه إذا كان (بدون دم وسفك دم لا تحصل مغفرة)، فإن ناموس الصهيونية قد أكد (أنه بدون دم وسفك دم لا تقوم لإسرائيل دولة).

الدين والعنصر

وقد كان مناط احتجاج الخطاب الصهيوني في مدريد، هو أن (الزعماء العرب الذين كنا نود أن نصادقهم رفضوا الدولة اليهودية في المنطقة، وادعوا أن أرض إسرائيل هي جزء من الأرض العربية). وهذا تحتشد مجموعة من المغالطات والتلفيقات، فالخطاب لا يذكر الأرض باسمها التاريخي الصادق (فلسطين)، إنما يشير إليها بوصفها (أرض إسرائيل)، هو ما يستدعي مجموعة تداعيات تاريخية، مع مداخلات تلفيقية تربط تلك الأرض بشعب واحد فقط، عاش مع مجموعة شعوب أخرى على تلك الأرض على مر العصور التاريخية، لكن بحيث يبدو أنه لم يكن هناك سوى شعب واحد هو الشعب الإسرائيلي.

والخلط مقصود، وينطلق من خلط أساسي في مفهوم الخطاب الصهيوني وأدلوخته، ما بين مفهوم العرق أو الجنس، وبين مفهوم الدين، بحيث يتداخلان ويصبح العرق دينا، والدين عرقا. كما يسمح بتداخل آخر مع التراث الديني للمسيحيين، بإجراء التطابق في الخطاب

بمهارة علاقات التطابق الدائرى فى علم المنطق، أو أنظمة التكافؤ الرياضية. فالخطاب يتحدث عن رفض العرب (للدولة اليهودية)، وادعائهم أن (أرض إسرائيل) عربية فتتطابق هنا الدائرة الكلية لمفهوم (الدين اليهودى)، وتتكافأ مع الدائرة الكلية (لأرض فلسطين). لكن بعد حذف (فلسطين) ووضع (إسرائيل)، لتصبح فلسطين إسرائيل، ويصبح شعبها الوحيد هو الشعب الإسرائيلى، والدين الوحيد الذى تواجد فيها على مر العصور، هو الدين اليهودى وحده دون بقية الأديان.

والمغالطة الثانية تتضح فى إشارته إلى من ناصبوا الدولة الإسرائيلية العدا. هم (الزعماء العرب). المسألة هنا طموحات من الزعامات، مع غزل رقيق للشعوب العربية، فنحن أصدقاء كشعبيين، وأهل، وبنو عمومة. المشكلة فقط فى طموحات الزعماء للتوسع.

. أما المغالطة الثالثة فهى إجراء المطابقة السريعة بين مفهوم الدين اليهودى، وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلى، الذى عاش كقبيلة ضمن عدد كبير من الشعوب الأخرى - التى ذكرتها التوراة - فى فلسطين، مثل الكنعانيين (الفلسطينيين)، والحيتيين، والعمونيين والأدوميين، والموابيين، والفرزيين، واليبوسيين... إلى آخر القائمة المعروفة. ثم تجرى المطابقة الدائرية مرة أخرى بين اليهودية كدين بعد أن أصبحت جنسا، وبين يهود اليوم المتناثرين بين جنسيات العالم على تفرقها، بحيث يظهر هذا الثبات غير المؤتلف كما لو كان جنسا واحدا، وعرقا بذاته، لمجرد أنهم يدينون بدين واحد هو اليهودى، بحيث تنطلى الأكذوبة الكبرى على جماهير الدنيا، تأسيسا على مدخل منطقى سافر التزوير، وعلى أساس دينى عقائدى، ينهض على أسس أسطورية، خلقت تنابعا عرقيا عنصريا بالكتاب المقدس لشعب إسرائيل القديم، بحيث يبدو يهود اليوم كما لو كانوا ينحدرون عن الآباء التوراتيين الأوائل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وربما ساهم فى ابتلاع البعض لتلك القرية، خاصة المتدينين، هو انعزال أصحاب الديانة اليهودية عن غيرهم فى كل المواطن التى عاشوا فيها، بحيث بدوا كما لو كانوا محافظين تماما على نقاء البذرة الإبراهيمية منذ ألوف السنين فى أصلاهم الطاهرة، وهو افتراض يقوم على التسليم بلون خارق من العفاف الجنسي المنقطع النظير، وهو ما لا تنطق به سيرة بنات اليهود، لا اليوم، ولا حتى فى العصور التوراتية منذ البدء.. وباعتراف الكتاب المقدس ذاته.

وينظرة سريعة عجل على إصحاحات الكتاب المقدس يمكنك أن تجده يموج بالصخب الجنسي. ونموذجاً لذلك ما جاء به مع الرجل الأول فى تاريخهم، البطرك إبراهيم، الذى حكى الكتاب عنه.

فانحدر إبرام إلى مصر... وقال لساراي امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر..

قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك، وتحيا نفسى من أجلك... فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إبراهيم خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال - سفر التكوين ٢١،.

وهكذا نجد البداية لا تبشر بخير، مع هذا الادعاء بالنقاء الجنسى على مر العصور. ولنا هنا فى مقام الدفاع عن نبى جليل، لكن المتابع للأسفار يجد النبى (إرميا) ينوح على تفشى الزنا بين بنات مملكتى يهوذا وإسرائيل، ويقول: «هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل، انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء، وزنت هناك... ولم تخف الخائنة يهوذا أختها... ولم تخف الخائنة يهوذا أختها، بل مضت وزنت هى أيضا، سفر إرميا ٣٠،». وصهلوا كل واحد على امرأة صاحبة.. إرميا ٥٠، بل أن الرب يهوه أخذ ينادى نساء شعبه المختار «ارفع ذيلك على وجهك فيرى خزيك، فمسكك وصهيلك، ورذالة زناك على الأكمام، فى الحقل رأيت مكرهاك، ويل لك أورشليم، لا تطهرين حتى متى؟ إرميا ١٣،». ثم ينادى مملكة يهوذا «زנית على اسمك وسكبت زناك على كل عابر... وصنعت لنفسك مرتفعات موشاه وزנית عليها.. وصنعت لنفسك صور ذكور وزנית بها... وفرجت رجلتك لكل عابر، وأكثر زناك، وزנית مع جيرانك بنى مصر الغلاظ اللحم الذين منيهم كمنى الحمير، وزدت فى زناك لإغاضتى... وأسلمتك إمرام مبغضاتك بنات الفلسطينيين، اللاتى يخجلن من طريقك الرذيلة، اعطيت كل محبيك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك، وصار فيك عكس عادة النساء فى زناك، إذ لم يزن وراءك، بل أنت تعطين أجرة، ولا أجرة تعطى لك، فصرت بالعكس - سفر حزقيال ١٦،.

وهذا قليل من كثير. وربما كان شيق بنات صهيون، الذى كان يدفعهن إلى الصهيل عند الوصال (بتعبير الكتاب المقدس)، وإلى صناعة ذكور صناعية لمزيد من الإشباع، ودفع الأجور للرجال، وهو الذى دفع دولة إسرائيل الحالية، إلى وضع قانون لا يعتبر الفرد بموجبه يهوديا، إلا إذا كانت أمه يهودية، ومن ثم أصبح النسب اليهودى للأمم لا للأب. ولو طبقنا ذلك القانون على (داود) مؤسس المملكة التوراتية القديمة، وعلى ولده (سليمان) أشهر ملوكهم، فسجد الأول حفيد لامرأة تدعى (راعوث) لم تكن من بنى إسرائيل جنسا ولا تدين باليهودية. بل كانت موابية، أما سليمان فقد رزق به أبوه (داود) من امرأة حيثية، لا يهودية ولا إسرائيلية، وطبقا للقانون، فإن كليهما ليس يهوديا ولا إسرائيليا، وإنما فلسطينيان، لأن الأمهات فلسطينيات.

الجانب الحقوى

أما المغالطة الكبرى فى كلمة السيد شامير فكانت فى قوله إن الزعم بأن أرض إسرائيل أرض عربية مجرد ادعاء، فينتقل الخطاب إلى المحور التاريخى، أو (الحقوى الدينى

التاريخى معا)، ليقول دون أن يرف له جفن: «إننا الشعب الوحيد الذى ظل على أرض إسرائيل بدون توقف لمدة أربعة آلاف عام متصلة... ونحن الشعب الوحيد الذى كانت أورشليم عاصمته، ونحن الشعب الوحيد الذى توجد أماكنه المقدسة فقط فى أرض إسرائيل». ورغم ما فى مقولة الأربع آلاف سنة من مغالطة تاريخية صارخة، ولا تمت للأمانة بصلة، ولأننا هنا فى مقام قراءة طبيعة الخطاب وليس الرد بالوثائق، فإن الخطاب يريد أن يقول للجماهير ببساطة: إن بنى إسرائيل (متطابقا معهم يهود اليوم) كانوا أصحاب أرض فلسطين من أقدم العصور التاريخية.

وما دام الرجل يتحدث كمؤمن صادق الإيمان، حريص على عقيدته ومحارم دينه. صادق العلاقة بتوراته إلى الحد الذى دفعه إلى ترك المؤتمرين فى مدريد، ليقضى عطلة السبت متهجداً مع بنى جلته، فلا مشاحة فى أن اختبار صدق الخطاب بالمطابقة مع الكتاب المقدس، يمكن أن يضع طبيعة ذلك الخطاب على محك المصادقية من عدمها.

وبالعودة إلى الكتاب المقدس نجده يحكى لنا أن إبراهيم أرومة اليهود، وأول رجل ذا شأن فى تاريخهم، لم يكن فلسطينياً، إنما جاء فلسطين غريباً من بلد بعيد يدعى (أور الكلدانيين) فى رحلة استغرقت خمسة عشر عاماً. وعندما وصل فلسطين مع عائلته الصغيرة، يقول - الكتاب المقدس - «كان الكنعانيون حينئذ فى الأرض - سفر التكوين ١٢»، وأن إبراهيم قد هبط ضيفاً على ملك مدينة جرار المدعو أبيمالك، ويصف المقدس تلك الأرض بأنها «أرض الفلسطينيين - تكوين ٢١»، وأن أبيمالك كان «ملك الفلسطينيين - تكوين ٢٦»، وعندما قتل أبناء يعقوب حفيد إبراهيم بعض الفلسطينيين بعد حالة زنى مع شقيقاتهم، قتل لهم يعقوب المعروف باسم إسرائيل «كدرتماني بتكريبهما إياي عند سكان الأرض الكنعانيين.. وأنا نفر قليل - تكوين ٣٤»، وعليه لو سلمنا للرجل الحريص على محارم دينه يوم سبته - بأن الآباء التوراتيين الأوائل كانوا فى فلسطين منذ أربعة آلاف عام، فإن مقدسه يؤكد أنهم دخلوها ضيوفاً قليلي العدد على أهلها الكنعانيين (الفلسطينيين) بل كانت، فلسطين عندما وصلوها ممالك ذات حضارة ونظام اجتماعى وسياسى، أما مهجر الأب الأول إبراهيم، وموطنه الأصلي، فقد اثبتنا أنه لا يقع ضمن المنطقة بكاملها وعلى الاطلاق، وإنما يقع فى جبال أرارات بآرمينيا، وذلك فى كتابنا (البنى إبراهيم والتاريخ المجهول) وقدمنا بسبيل ذلك مجموعة من القرائن والبراهين، التى ستظل صانقة حتى تجد من يرد عليها ويدحضها، بأدلة أقوى، وقرائن تثقل كفتها، وحتى الآن لم يحدث ذلك، ولا نظنه بحدوث فى المستقبل المنظور.

يهود فلسطين

وإعمالاً لما قلناه، فإن طبيعة الخطاب الصهيونى كما هو واضح جلى، طبيعة قبلية، لا ترى

قبيلة غير قبيلتها، ولا تراثا مقبولا غير تراثها، ولا ديناً صحيحاً غير دينها، ولا صدقاً إلا في توراتها، وكأن تراث الآخرين غير موجود، لشعوب عديدة عاشت في فلسطين، كان لها مقومات الشعب والعنصر والدين والحضارة والنظام الاجتماعي والسياسي، قبل قيام مملكة داود بأكثر من ألفى عام.

ولمجرد التذكرة، ومنعاً للإطالة، يكفي أن نذكر أن الملك (داود) المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل التوراتية، حوالي ١٠٠٠ قبل الميلاد، أقام دولته مستفيداً من توازن القوى بين القوتين العظميين حينذاك (مصر والفراندين)، فكان جيشاً من أهل الأرض الفلسطينية، وأقام لونا من الائتلاف ووحدة القبائل في وحدة سياسية، وصهر الممالك الصغيرة معاً، بل كان حراس (داود) أيضاً من الفلسطينيين، كذلك قائد جيشه، وسواء هو أو ابنه (سليمان)، فقد أقاما الدولة على أساس تعدد القوميات، ولم تقم أبداً كدولة ذات جنس واحد ودين واحد، والكتاب المقدس شاهد بذلك، وحتى لو أغفلنا كل ما سبق، وسملنا للخطاب الصهيوني بالصدق التام، فإن مسألة جمع روس وألمان وبلغار وأمريكان وأحباش.. إلخ من مواطنهم، للإقامة في فلسطين بالحق للتاريخي، لمجرد أنهم يهود، يجعل الأمر مزحة بشعة، ستظل وصمة، وربما بصقة في جبين هذا العصر إلى ما يشاء الله، لأنه بمقارنة شديدة البساطة، نجد أن الحقوق التاريخية للهنود الأحمر في أمريكا، أوضح من إدعاءات الخطاب الصهيوني في فلسطين لأن الهنود لم يكونوا أول من استوطن أمريكا منذ فجر التاريخ، بل كانوا الشعب الوحيد فيها.

إن طبيعة الخطاب الصهيوني إذن، تعتمد على عدد هائل من المغالطات والتمزيقات، التي تبدو في ظاهرها صادقة الحقوقية (مع الخلط لمفهوم العنصر بمفهوم العقيدة)، وحتى لا يتيح للخطاب الفرصة لمقارنة يهود اليوم بأبناء العصر التوراتي، فإنه يقفز فوراً إلى تأكيد «أننا الشعب الوحيد الذي ظل على أرض إسرائيل بدون توقف نحو أربعة آلاف عام»، لتستمر المطابقة بين مفهوم الدين والعنصر، لدعم محور الحق التاريخي، ليظهر الأمر كما لو أن اليهود فقط هم من عاشوا في فلسطين على مر العصور، أو على الأقل الجماعة الأكثر عدداً، لكن السائح اليهودي بنيامين الطلطي الذي زار القدس عام ١١٧٠ ميلادية، سجل أنه لم يجد في فلسطين بكاملها سوى ١٤٤٠ يهودياً! كما لم يعثر اليهودي (ناحوم جبروندي) في زيارته لفلسطين عام ١٢٥٧ إلا على عائلتين يهوديتين. أما الأطراف فعلاً أنه حتى هذا القرن نجد الشهادة في خطاب شامير تقول: «لقد قامت الطائفة اليهودية الصغيرة - ولاحظ الصغيرة - التي كانت تقيم بفلسطين تحت الانتداب، بالثورة على الاستعمار الإمبريالي».

شالوم

وأمام عدسات الإعلام العالمي في مدريد، لم ينس الرجل الشهم أن يبدى مرومته وأسفه

وأساء على الفلسطينيين المشردين، بينما قنابله الجهنمية تلك مخيماتهم في لبنان، حيث قال بكل تراحم وحنان: «إنه لا يوجد يهودى واحد فى هذا الزمان، يستطيع أن يكون غير مبال بمعاناة الفلسطينيين»، هذا رغم سرده لبشاعات العرب مدمجة ببشاعات النازى ضد اليهود، لكنه رأى من واجبه كرجل متحضر أن يعلن ذلك الأسى والحزن مع ندائه لجيرانه البرابرة حتى يظهروا كسبب فيما حدث للفلسطينيين: «أظهروا استعدادكم لقبول إسرائيل، إن التخاطب أفضل بكثير من سفك الدماء، فالحروب لن تحل قضية فى منطقتنا، لكنها تسببت فى المآسى والمعاناة والقتل والكرهية». وهكذا فطبيعة الخطاب تشهد العالم: أن العرب يشردون الفلسطينين بحروبهم، لأنهم يريدون قتلنا لمجرد أننا متدينون، إنهم يريدون أن يقتلوا رجلا يقول: ربي الله.

الخطاب مستمر- كما هو واضح- فى التركيز على المحور النفسى والمشاعر الدينية المسيحية الأوروبية، التى تشهد بالحقوق التاريخية على أساس الشهادة المقدسة بالتوراة، هذا بالطبع مع صورة العربى المعلومه لدى الرجل الأوروبى، منذ تزيف تاريخ الاندلس، والحروب الصليبية، حتى صورة العربى الخليجى فى حانات ومواخير أوروبا.

ومرة أخرى نعود للكتاب المقدس لنرى مدى المصادقية فى الخطاب، وإلى أى حد يتطابق مع المقدس، ومع ما يحدث بالفعل بل بالقول، مسaire للخطاب المتدين الحريص على محارم الدين، والحريص فى الوقت ذاته على إقناع عقل العالم وضميره بحقوقه التاريخية.

يقول الرب (يهوه) فى شريعته، مفصحا عن طبيعته وهويته، التى لا تلتقى بحال مع طبيعة الخطاب الصهيونى، قدر ما تلتقى مع ما يحدث بالفعل: «الرب رجل حرب- سفر الخروج ١٥»، لذلك كانت شريعة هذا المحارب السماوى تأمر عبده الانقياء بالأسلوب الأمثل للتعامل مع شعوب المنطقة، ومن تلك الشرائع إليك المقاطع اللطيفة الآتية:

- احرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار- سفر العدد ١٣.
- اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة- سفر العدد ٣١.
- احرقوا حتى بنيتهم وبناتهم بالنار- سفر التثنية ١٢.

أما الخطة المثلى فى أوامر الرب، فهى أن يبدأ شعبه بدعوة الشعوب الأخرى إلى السلام والصلح، أو بالنص:

«حين تقترب من مدينة، استدعها للصلح. فإن أجابتك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك لتسخير، ويستعد لك، وأن لم تسالمك بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كلها غنيمة تغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إليك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التى ليست مدن هؤلاء الأمم هنا- تثنية ٢٠: هذا عن المدن البعيدة، أما المدن القريبة: فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف،

وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها . تجمع أمتعتها إلى وسطها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها .
تثنية ١٣ .

أما المدن الفلسطينية فلها شأن آخر، إذ يأمر يهوه قائلا: «أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا، فلا تستبق منها نسمة ما - تثنية ٢٠ .

ومن هنا، وبمطابقة المقدس، فهو يتطابق تماما مع الفعل الصهيوني، لكنه لا يطابق للخطاب بحال. لكن الفعل بمطابقة المقدس إنما يصبح فعلا مقدسا ويصبح من تلك المقدسات تدمير سور وصيدا ومذابح صبرا وشاتيلا وقبية وكفر قاسم ودير ياسين، ومجازر منظمة الأورجون البيجنية، وسفاحي الوحدة ١٠١ التابعة لأريل شارون، فالأمر مقدس، لذلك هو نبيل وسامي، وباسم رسالة إسرائيل التوراتية يتم التعامل مع عرب اليوم، كما تم التعامل مع الكتعانيين بالأمس فقط تغيرت لغة الخطاب أما الفعل فمقدس، والمقدس خير وأبقى .

العصر السعيد

ثم يختم شامير خطابه وهو يتسم سعيدا، استطلاعا للعصر السعيد الآتى، عصر الأمان والسلام لكل الشعوب، الذى تنبأ به أشعيا وردد شامير نبوءته وهو يقول «فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل، ولا ترفع أمة على أمة سيفا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد - أشعيا ٢ .

هذا فقط ما ذكره الرجل من كتابه المقدس، ليتطابق مع خطاب السلام، كى يبرز التطابق فى الخطاب مع العنصر المقدس مع الحق التاريخي، إتباعا لكتاب يأمر بالسلام وينبئ بالسلام، فأشعيا النبى يتحدث عن اليوم الذى سيتم فيه صهر السيوف لتحول إلى محاريث ومناجل، ولا تكون هناك حرب بين الأمم إنما تعاون و سلام وإنتاج ورفاهية، لكن فى أى مقام قال أشعيا نبوءته؟ الخطاب يصمت، وهنا فقط يذكر النبوءة مزروعة من سياقها، ليقيم مقدساته للعالم وهى تدعو للسلام، ويحيث يكون الرجل مستمرا على الدرب، ومكررا لدعوة أبطال العهد القديم من أجل السلام .

ومن المستحب فى هذا المقام أن نقاسى برغبة شامير فى استدعاء نبوءة إشعيا فنجدها تتحدث عن يوم يثبت فيه دين يهوه وحده فى قمة جبل صهيون «وتجرى إليه كل الأمم - إشعيا ٢، لكن ذلك لن يكون قبل أن يحدث الآتى لبلدان المنطقة:

(لسوريا): هو ذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة رجم - إشعيا ١٧ .

(لمصر): فى ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود، وتكون أرض يهودا رعبا لمصر - اشعيا ١٧، ١٩ .

(لجزيرة العرب) بلاد العرب .. من أمام السيوف قد هربوا، يفنى كل مجد قي دار .. لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم - اشعيا ٢١ .

(للبنان) وحى من وجهة صور .. ولولى ياسفن ترشيش لأنها خربت .. ولؤلوا ياسكان الساحل .. ورب الجنود قضى به ليدنس كبرياء كل مجد .. أرضك كالليل يا بنت ترشيش .. أيتها

العنراء المتهتكة بنت سيدون.. ولبنان ليس كافيا للايقاد وحيوانه ليس كافيا للمحرقة - اشعيا ٤٠، ٢٣ .

(للعراق) انزلى واجلسى على التراب أيتها العذراء ابنة بابل، اجلسى على الأرض بلا كرمى يا ابنة الكلدانيين، لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفة.. تنكشف عورتك وترى معاريك.. اجلسى صامعة وادخلى فى الظلام يا ابنة الكادانيين لأنك لا تعودين تدعين سيده الممالك - اشعيا ٤٧ . والآن:

ترى هل حقق الخطاب الصهيونى القديم أغراضه، بفعل أصحاب الخطاب الصهيونى الجديد؟ سؤال لا يجيب عليه إلا الزعماء العرب المؤتمرين فى مدريد.. يحملون بنبوءة إشعيا بالعصر السعيد.

الدين والتطبيع فى فيلم المهاجر

بينما كنت أجرى جراحة القلب بأمريكا، بدأ عرض فيلم المهاجر، وبدأت أيضا التدايعات حوله. ووصلنى بعض ما كتب حول الفيلم، وفاتنى الكثير، وتابعت القضية حتى انجلى الأمر وتمكنت من مشاهدة الفيلم بعد إعادة عرضه وأثرت التريث قليلا حتى تهدأ العاصفة لتفسح مكانا للعقل. وإيان متابعتى لما تكتبه الصحف السيارة والمجلات، طالعت عدداً من وجهات النظر بعضها كان يهاجم بحجة أن الفيلم عمد إلى تشويه الشخصية المصرية والتاريخ المصرى لصالح الصهانية! والبعض الآخر كان يهاجم، لأن الفيلم فى رأيه كان دعوة صريحة للتطبيع مع دولة إسرائيل، هذا ناهيك عن المهاجم الأساسى الذى وقف مؤسسيا وراء فرد رفع دعوى ضد الفيلم. باعتباره يجسد شخصية النبى يوسف، وسط أحداث وحوار لا يليق بشخصية النبى. وتأسيسا على هذا الموقف، تأسس موقف آخر على النقيض تماما، وقف إلى جوار المخرج والفيلم بدون تحفظ، منطلقا من حق الفنان فى طرح ما يراه دون أية قيود، وتم إيان ذلك خلط كثير من الأوراق المتناقضة، بحجة أن المسألة هى مستقبل الثقافة فى مصر، وأن المبدعين والمثقفين قد أصبحوا فى مواجهة تيار سلفى شديد الجمود والنصيّة.

تلفيق لا يليق

وبداية لا يمكن هنا بالطبع أن نلقى بالا إلى الاتجاه الذى أدان الفيلم لمجرد أنه يشخص الأنبياء. كما يجب فى هذا الإطار أن نتجاهل أيضا وتاما ردود المخرج وحواريه ومؤيديه، الذين أخذوا يؤكدون أن الفيلم لم يقصد تصوير قصة النبى يوسف كما وردت فى القرآن الكريم، إنما دارت أحداث الفيلم على نحو مشابه لقصة ذلك النبى. لتتخذ من عبرة القصة نموذجا وقدة ومثلا أعلى للشباب، للثبات أمام المغريات الدنيوية والشهوات البهيمية كما ورد فى صحيفة الدفاع. وتجاهلنا هنا لتلك الردود يعمد إلى المصادقية بعيداً عن لعب كل من الطرفين لكسب القضية القانونية وقضية الرأى العام بأى أوراق ممكنة حتى لو كانت فاقدة للمصادقية.

ومن ثم سيكون من التلفيق غير اللائق بل ومن الغباء، ألا نرى فى الفيلم قصة الأب الإسرائيلى التوراتى (يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم) التى قدمت بوضوح شديد، مع بعض التحوير الطفيف هنا وهناك لتلافى ما يمكن حدوثه من عواقب إزاء المفاهيم السائدة، وتلافى ما قد يطرأ من مسالة قانونية لإيجاد عدد من المخارج الممكنة عندما تبدأ ردود الفعل. ومن نماذج ذلك تقديم عدد إخوة بطل الفيلم (رام)، المفترض أنهم الأسباط إخوة يوسف فى عدد مخالف لما قدمته التوراة، أو مثل تحوير موقف إلقاء يوسف فى بئر (جب) إلى إلقائه فى الحجرة السفلية لسفينة مصرية لكن فتحة الغرفة كانت موحية تماما بالبئر أو الجب، هذا إضافة إلى مخالفة السيناريو والقصة للخاتمة التوراتية، فتتم عودة بطل الفيلم من مصر إلى بلاده البدوية رغم موت بطل القصة التوراتية وتحنيطه ودفنه فى مصر على الطريقة المصرية، حتى يمكن بذلك إيجاد المخرج بالقول: إن الأمر مجرد رؤية فنية تجسد رحلة المخرج وهجرته إلى أمريكا ثم عودته إلى بلاده، وأن الأمر فقط كان استلهاما لبعض المواقف النبوية إزاء المغزيات الدنيوية.

وربما جاز للمشتغلين بالنقد الفنى أن يضغوا لنا مصادرة فى شكل مقدمة ثابتة لا تقبل نقاشا، وهى أنه لا يجوز التعامل مع الفيلم إلا بالمعايير الفنية وحدها، فالفيلم فيلم وليس بحثا تاريخيا، أو عملا فقهيا، لكن الحال هنا سيختلف تماما مع فيلم المهاجر لعدد من الأسباب الواضحة والمهمة التى لا يمكن تجاوزها لصالح الموقف الفنى وحده حيث اشتبك الفيلم مع عدد من المسائل شديدة الحساسية وتداخل معها إلى الحد الذى لا يسمح بالوقوف عند أدوات النقد الفنى وحده ومعاييره فى التعامل مع الفيلم وقد جاء اشتباك الفيلم مع غير الفنى على ثلاثة مستويات.

صدمة الذاكرة

المستوى الأول هو مستوى الحالى - الآنى - الراهن.. حيث بدأ التطبيع العربى مع الدولة الإسرائيلية يسير حثيثا مع متغيرات كبرى بالمنطقة، (اختيار قصة يوسف بن يعقوب) تحديدا فى هذا الوقت، وبالصورة التى عولج بها، تحمل أكثر من علامة استفهام حول مقاصد الفيلم الذى تلامس مع ما يريد، فى نقاط التقاء كاشفة واضحة، فى أكثر من لحظة وأكثر من ترميزة.

فالعجز الجنسى لقائد الجند المصرى يكشف فى وجهه الآخر عن القول المأثور بحاجز نفسى، إضافة إلى أنه يعبر عن عجز القوة والقدرة إزاء الشاب المهاجر القوى المليح وعلاقته بالزوجة الشابة. ثم كانت زراعة الصحراء بوضع يد المصرى فى يد المهاجر الغربى التى

نشئ ببساطة بنصيحة واضحة: لنضع ايدينا مع بعضها.. نزهدهم وننتج ونخضر الصحارى. وهو الأمر الذى لا يمر دون التأكيد عليه فى الحوار، فهذا المزارع المصرى (أوزير) يتعاون مع (رام) المهاجر فى زراعة الصحراء، وعندما يتقدم (رام) ليشكره يجيبه المصرى، كلنا محتاجين لبعض،؟! أو فى نص آخر بالحوار ينصح بالغرض المفصح فى استهجان (رام/ يوسف) للمصريين الذين لم يقبلوه مواطنًا رغم طول إقامته بينهم ويلقى باستنكاره هذا مفصحا عن إجابة السؤال: كيف لا نقبل إسرائيليين بعد جيرتها لنا زمنا؟.

على أية حال هذا مستوى من مستويات الاشتباك مع الراهن، يوعز بأنه ربما تأسس بشكل نكى وخبيث على نص ديلى، بحيث يفصح (يوسف شاهين) بقصد أو بدون قصد مدى التناقض الذى يقع فيه (القومى العربى) مع نفسه عندما يؤمن بعقائد تسلم بهذه القصة التى تسفه المصريين تماما وتاريخهم لصالح الإسرائيليين، وتجعل من الإسرائيليين الحكمة كلها وللطهارة كلها والعفة كلها وتجعل من المصريين رموزاً للحق والشهوانية والذنيوية الفجة.

إن الفيلم يضع العقل العربى أمام تناقضه، فهو يؤمن بأديان تدين تاريخ المنطقة القديم لصالح التاريخ الإسرائيلى بينما يرفع شعارات النضال والتحرير من النهر إلى البحر!! إن الفيلم يصنع هنا ما يمكن تسميته (صدمة الذاكرة) أو صدمة الإيمان لأولئك الذين لم يحاولوا حتى الآن فك الاشتباك بين الدينى والقومى. وإذا كانوا يرفضون التطبيع بظاهر وعيهم فإنهم يؤسسون القومى لديهم على الدينى، والدينى أشد تطبيعا وطراوة مع بنى إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين.

ولا أحد يكابر أن المأثور الإسلامى كمثال كان دوماً إلى جانب الإسرائيلى ضد كل حضارات المنطقة فكان مع يوسف بن يعقوب وموسى بن عمران وبقية بنى إسرائيل ضد مصر وحضارتها وشعبها وحكامها، وكان مع شاول/ طالوت أول ملك إسرائيلى، ومع داود مؤسس الدولة الإسرائيلى، ضد جالوت/ جوليأت البطل الفلسطينى الذى مات وهو يدافع عن أرضه ضد الاحتلال الإسرائيلى الاستيطانى لبلاده. وكان مع أبيهم إبراهيم أرومة القبيلة العبرية ضد العراق القديم وحضارته ممثلاً فى شخص ملكها النمرود. وكان مع البدر العبران جميعاً ممثلين فى جدهم الأسطورى سام بن نوح ضد كل حضارات المنطقة ممثلة فى حام بن نوح وأبنائه كنعان الفلسطينى ومصرام المصرى ونمرود العراقى.

حضارة موت

إن الوسيلة التى استخدمها الفيلم كانت شديدة الذكاء، لكن الغرض والهدف كان إلى جانب إجابة واحدة فقط على السؤال الذى يحتمل إجابات أخرى كثيرة. ومن ثم كان للفيلم يتسامل:

إذا كان هذا هو ما نؤمن به فلماذا نتناقض معه؟... لماذا بصريح العبارة لا نطبع إن؟ غافلا عن إجابة أخرى أصبر عليها كاتب هذا المقال دوماً تتمثل في ضرورة فك الاشتباك بين الدينى والقومى إذا أردنا الاتساق مع أنفسنا ومع قضيتنا ومع آمالنا الوطنية والقومية.

وهكذا كانت التلميحات والترميزات الواضحة مدعاة للوقوف مع تلميحات أخرى يمكن أن يرى فيها المشاهد العربى بخاصة المصرى فى الظرف الراهن لونا من تصفيه الإنسان المصرى صاحب الحضارة التى شاخت فى - فيلم شاهين - وأخذت فى التهاوى إزاء العبرانى الطموح المتوثب للمعرفة والعلم. وعليه جاء الفيلم بتركيزه على القول: إن حضارة المصريين قد تم (تكهينها) وأن مصر قد حبست علومها داخل الجدران المسحورة للمعابد، وتحولت من حضارة حياة إلى حضارة موت، لا تهتم إلا بالتحنيط وبما بعد الموت. وكانت مشاهد (حرق الزرع) تصويراً لشعب أنعم الله عليه بالنهر والخصب، لكنه كان شعباً همجياً، يحرق آلاف الأفدنة فى صراعاته، بينما رام العبرانى يكرس حياته ليزرع سنبلة فى الصحراء (؟) أما تركيز الفيلم على الأقسام وإبداعهم أمانة لدى رام، فكان رمية أخرى موجعة للمصرى القزم إزاء العبرانى الأمين، هذا ناهيك عن الرمز الواضح فى تحويل النهر نحو الصحراء لزراعتها، وكيف أمكن لرام بذلك للفرع الضئيل أن يزرع الصحراء.

وكان على شاهين أن يدرك أن المشاهد العادى لا يعلم أن القزم كان محبباً فى بيوتات الأرستقراطية المصرية، وكانت تلك البيوتات تستجلبهم من أفريقيا للخدمة البيتية والترويح الفكاهى، حتى جعل المصريون للأقسام إلهاً هو الإله القزم (بس) - ونعم كانت الطوم داخل المعابد، ونعم اهتم المصرى بالتحنيط وبالموت اهتماماً عظيماً، وكان يمكن أن يمر ذلك بهدوء، باعتباره تصويراً للحياة المصرية فى الزمن القديم، لكن أن يتم ذلك داخل إطار قصة إسرائيلية تتحدث عن تفوق الإسرائيلى الطموح فى قصتها الأصلية أو فى الفيلم فهو أمر آخر لا يمكن معه افتراض حسن النوايا!

ومن ثم يلقي الفيلم برؤيته (التطبيعية) فى عمق التاريخ وفى أصول الدين ليجذرهما، فيركن بدهاء إلى القصة الدينية للتوراتية التى وزرت يوسف خزانة المصريين، ويقدم لنا (رام) مكتشفاً لأسلوب تخزين الحبوب فى سنوات الجفاف التى استبدلها بحرق المحاصيل، ليذهب إلى ما هو أبعد من التطبيق. أنه يلمح إلى إدارة المنطقة بالعقل الإسرائيلى المتوثب المتفوق! عندما يسلم قائد الجند لرام جنوده وبلاده وأرضه ليكون أميناً على خزانها ومستثمراً لها وراعياً!

مرة أخرى نعود إلى أسباب التعامل مع الفيلم على مستويات غير المستوى الفنى وحده، فى اشتباك الفيلم على مستوى ثان مع الدينى والإيمانى، وعندما فعل ذلك خرج من دائرة

الفنى وحده، حيث جعل مرجعيته ملكية عامة لجماهير المؤمنين فى الأديان الشرق أوسطية الكبرى الثلاثة، فشخص يوسف بن يعقوب مقدس فى اليهودية باعتباره أحد آباء القبيلة الإسرائيلية الأوائل، وهو مقدس فى المسيحية لذات السبب بحسبان المسيح بدوره من ذات النسل الإسرائيلى المبارك. ثم هو مقدس فى الإسلام لذات السبب، ثم لسبب آخر هو أنه أضاف ليوسف صفة النبوة، وهى ليست ملكية عامة فقط، بل ملكية مقدسة، ومن ثم فقد خرج الفيلم من دائرة الفنى ليخوض فى الدينى، فوضع نفسه فى موقع التعامل معه على هذا الأساس. ليس هذا فقط. بل أن الفيلم اختار لنفسه رؤية دينية دون أخرى، فحدد لنفسه بذلك موقفاً من الروايات الدينية حول يوسف، وهو ما يضعه أمام مسئولية اختياره.

رواية التوراة

والواضح تماماً أن المخرج حتى لا يقع فى مأزق المحاكمات الإسلامية، فقد ركن إلى الرواية التوراتية حول الأب يوسف، بدليل إيراد المنمنمات وتفصيل لم يذكرها القرآن إطلاقاً، وإنما ذكرت تفصيلاً فى التوراة، وذلك مثل قصة رئيس الشرطة (فوطيفار) الذى اشتري يوسف الموصوف بجمال فاتن، والحب الشديد من (فوطيفار) ليوسف الصبى، ومن ثم لجأت التوراة لتطويع فوطيفار ووصفه بأنه كان خصى فرعون، وهو ما لم يذكره القرآن الكريم إطلاقاً.

وكم كان بإمكان السيد شاهين أن يتلافى كل ما حدث فى المحاكم، لوطلع على المشاهدين بتقرير واضح يقول: «هذه قصة يوسف بن يعقوب، أحد الآباء الإسرائيليين الأوائل وعلاقته بمصر». كما جاءت بالتوراة، ولا علاقة للفيلم بقصة يوسف النبى التى وردت بالقرآن الكريم، لكن المخرج ورط نفسه، إن كان قاصداً الإثارة التى حدثت، أم غير قاصد، بوضعه لافتة إعلانية فى مقدمة فيلمه باللغة العربية تؤكد أنه لا علاقة للفيلم بالنبى يوسف، وتحتها مباشرة لوحة أخرى باللغة الفرنسية تؤكد أن هذه القصة قصة البطرك يوسف.

ويبدو أن المخرج قد أراد أن يوصل للمشاهد، أن تلك قصة الأب يوسف، لكن بشكل غير مباشر، ولأن أغلب المشاهدين مسلمون بالضرورة، فقد عمد إلى خلط بعض المفاهيم الإسلامية بالرواية التوراتية، مما أثار عليه المتأسلمون وأوجبروا محاسبته، وهو بسبيل ذلك أوقع نفسه فى أكثر من ورطة وأكثر من خطأ حقيقى. فبينما قد اختار الرواية التوراتية، نجده يضع على لسان بطل قصته عبارات تعبر عن مفاهيم وعقائد إسلامية، لا علاقة لها بالمفاهيم التوراتية ولا عقائدها. وذلك مثل قول رام المعبر عن الإيمان بإله واحد أحد هو رب العالمين، وهذه سقطة لا تليق بمخرج يراه البعض أهم مخرجينا وكان عليه أن يلجأ فى ذلك للمتخصصين كى يعلم، فالمعلوم لدارس التوراة بالمنهج العلمى أن التوراة زمن البطارقة

الأوئل: إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق، وولد إسحاق يعقوب، ثم أبناء يعقوب الأسباط الأثنى عشر وضمنهم يوسف، نتحدث عن زمان كانت فيه القبيلة العبرية لم تترق بعد إلى مفهوم للتوحيد الإسلامى الذى ساقه شاهين على لسان بطله رام، حيث كان التقديس والعبادة توجه إلى (إلوهيم) أى الآلهة، وهو اسم الجمع للفظ الجلالة السامى المفرد (إيل) أى الإله. ومن هذه الآلهة ما وردت باسمائها فى سفر التكوين التوراتى، مثل: إيل صبأوت، وإيل يراه، وإيل شداى، والإله القدير، وأدوناي، وغيرها، كما تمثل كبار الآلهة لإبراهيم فى ثلاثة أشخاص، ثم جاء بعد ذلك إله آخر زمن موسى هو الإله (يهوه) الذى لم ينف الآلهة الأخرى بل أوجب على الإسرائيليين تقديسه وحده دونهم، وكان الخطاب الموصى فى التوراة يقول ليهوه: «من ملك بين الآلهة يا رب، ١؟».

وربما لم يقصد شاهين تلبس الرواية للتوراتية، بمفاهيم إسلامية، إنما التمس عليه الأمر، مع التطور المتأخر للمفاهيم الدينية اليهودية، زمن الأنبياء المتأخرين حزقيال ولفنيل وإرميا، حيث بدأ هؤلاء يلحون نحو توحيد يهوه وحده وتنزيهه، فظن شاهين أن الأمر كان كذلك منذ البدء. ومثال آخر على الالتباسات التى وقع فيها السيد شاهين، قوله على لسان رام بطل الفيلم، بما يشى بإيمان يوسف بن يعقوب بعالم آخر تخذ فيه الأرواح، وأن الجسد الذى يعتمد للمصريين إلى تحنيطه ليس أبداً قيمة فى مسألة الخلود، وهنا خلط ما بعده خلط، وخبط ما بعده خبط لأن الإسرائيليين الأوئل منذ فجر تاريخهم وحتى القرون الأولى للميلاد، لم يعتقدوا إطلاقاً فى خلود للروح فى عالم آخر، وإن الشعب الأوحى فى ذلك للزمان الذى ابتدع فكرة الخلود من بعد الموت، والبعث والحساب أمام موازين العدالة الإلهية، هو الشعب المصرى وحده مطلقاً ودون شريك، لذلك عمدوا إلى تحنيط الأجساد حتى تجد فيها الروح سماتها المادية عند البعث، فتعود وتلبس جسدها المحنط استعداداً للحساب الأخرى، وهو ما ركز عليه الفيلم واعتبره حطة فى المصريين!! وقد مرت تلك الفكرة بأطوار عدة شرحناها فى كتابنا (أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة) ولم يدخل عليها أى تطور بعد نهاية العصور الفرعونية.

ولما جاءت المسيحية وأخذت بعقيدة الخلود، استبدلت فقط رب الخلود المصرى (أوزيريس) ببسوس المسيح، ثم جاء الإسلام فأقر عقيدة الخلود، ولم يخرج عن التصور المصرى للبعث والحساب، فقال بضرورة عودة الروح لتلبس بالجسد، وكان الفارق هو أن المصرى القديم اهتم بتحنيط الجسد لتجد الروح قسماتها فيه، بينما اعتبر الإسلام أن فناء الجسد ليس مشكلة بعد تطور مفهوم الألوهية إلى إله كلى القدرة، حيث يصبح بإمكانه الكلى أن يحيى تلك العظام الرميم مرة أخرى، وهو اعتقاد سبق تطويره والقول به فى الزمن السابق للإسلام بجزيرة العرب، وهو ما تفصح عنه أشعار الجاهليين حول الخلود والحشر.

أما التوراة فلم تقل أبداً ببعت أو حساب ثم خلود زمن البطارقة، زمن يوسف، ولا بعد ذلك بقرون طويلة تصل إلى الألف عام، حتى زمن أنبياء التجديد عند انهيار مملكتهم. وقد ظهر الاعتقاد في عالم آخر آنذاك بتأثير العقائد المصرية والفارسية في فلسطين في العصر الهلنستي الروماني، المعروف بعصر الآلام، حيث بحث اليهود عن تعريض وسلوان في عالم آخر، ومن هنا يظهر مدى فساد الحوار في فيلم السيد شاهين.

ورواية جوزيفيوس

وعليه فقد التبست كل تلك المتدخلات على السيد شاهين، فخلط وخبط خبطاً عشوائياً. ليوقع نفسه والآخرين في مأزق كان في غنى عنه لو درس الأمر بشكل أفضل، المهم أنه ساق الأمر كله في ثوب تاريخي أسهمت فيه الكاميرا والديكورات بعامل الإبهار، لتعيش جواً مصرياً فرعونياً على مدى زمن الفيلم. هذا بينما التاريخ كعلم لا يعرف في وثائقه المدونة ولا في حفائره الأركيولوجية، على الإطلاق، شخصاً باسم يوسف، ولا جماعة باسم الأسباط ولا صديقاً للإله باسم إبراهيم، ولا نبياً باسم موسى، ولا عظيماً باسم داود، ولا حكيماً حاز شهرة فلكية ملك على مملكة أسطورية باسم سليمان. فكل تلك الأسماء الإسرائيلية لا يعرفها التاريخ كعلم، فقط حكاهما لنا كتاب مقدس باسم التوراة في كتاب العهد القديم، وأمن بها المسيحيون من بعد اليهود عبر كتاب مقدس آخر هو العهد الجديد، ثم علمناها إيماناً عبر الكتاب المقدس الأخير القرآن الكريم.

لكن ذلك لم يفت في أعضاء المؤرخين، خاصة من أرادوا أن يجدوا لبني إسرائيل موطئ قدم في التاريخ، وقد بدأت تلك المحاولات مبكراً على يد المؤرخ اليهودي يوسف بن متى المعروف باسم (جوزيفيوس)، الذي ألقى بتاريخ القبيلة البدوية الإسرائيلية في عمق أعرق تاريخ المنطقة، تاريخ الشعب المصري، وهي الرواية التي ركن إليها السيد شاهين واختارها دون روايات أخرى ومحاولات اجتهادية تاريخية أخرى، حاولت البحث التاريخي وراء المأثور الإسرائيلي، وهو الاختيار الذي يجب أن يتحمل مسؤوليته لتتم بموجبه محاكمة ما ساقه، ليس على المستوى الفني وحده، لكن أيضاً على المستوى التاريخي.

وحتى نضع بيد القارئ أصول المسألة، نقف وقفة نحيطه معها علماً أن (جوزيفيوس) كتب عدة مؤلفات تتعلق بتاريخ الإسرائيليين، منها كتاب باسم (ضد أبيون)، وكان أبيون هذا مؤرخاً يكره اليهود كراهية شديدة، ووصفهم بكل ما هو خسيس، وأفاد أنهم دخلوا مصر عبيداً جوعى ثم طردوا منها، بعد أن تفشت بينهم الأوبئة الناشئة عن عدم النظافة والعلاقات الجنسية غير السوية، ولم يتعلموا أى شيء متحضر من المصريين، مما أدى لطردهم خشية نقضى الداء في البلاد.

وهنا قام اليهودى (جوزيفيوس) يرد على (آبيون) ليقول: إن بنى جلدته دخلوا مصر ملوكاً لا عبيداً، وأنهم من عرفهم التاريخ باسم الهكسوس، وأنه استقى ذلك الخبر من المؤرخ المصرى (مانيتون) الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، وأنه بعد الثورة التى قام بها (أحمس) ضد الهكسوس، أخذ منهم عدداً كبيراً من الأسرى، عاشوا عبيداً فى مصر بعد ذلك حتى زمن الفرعون (آمنوفيس / أمنحتب الثالث) وولده (إخناتون). حيث قام هؤلاء العبيد بثورة ضد الفرعون (آمنوفيس) هربوا على إثرها من البلاد، وهو الهروب الذى سجلته التوراة فى سفر الخروج وقد اتضح لنا اعتماد يوسف شاهين على تلك الرواية من إشارته فى فيلمه إلى دخول (يوسف بن يعقوب/ رام) إلى مصر زمن الفرعون (آمنوفيس / أمنحتب) وهذا قول (جوزيفيوس) اليهودى وقد تمعد أن يظهر خلف الفرعون (آمنوفيس) شخصاً يشبه إلى حد بعيد ولى عهده إخناتون، وجعله يتصرف بطراوة جعلته يظهر فى حالة ميوعة أو تخلف ألفت فى روع البعض آنذلك مزيداً من تشويه المصريين، لكن شاهين كان يريد القول إن ذلك الشخص تحديداً هو (إخناتون)، لأن تلك كانت صفاته الناتجة عن مرضه العضال، إن شاهين كان طول الوقت يريد التأكيد على وجهة نظر تاريخية بعينها، هى وجهة نظر (جوزيفيوس).

ولكن الأكثر أهمية هنا، هو أن شاهين وهو يأخذ برواية اليهودى (جوزيفيوس) وحدها، ويستبعد ما عداها، وقع فى أكثر من خطأ حتى فى فهم ما قال (جوزيفيوس) حيث أن (جوزيفيوس) جعل دخول اليهود مصر مع يوسف هو دخول الهكسوس، زمن فرعون باسم (توتيمايوس)، وأن طردهم من مصر تم زمن الفرعون (أمنوفيس / أحمس)، وأن من بقى منهم أسيراً بمصر تم استبعاده حتى خرج زمن الفرعون (أمنحتب الثالث) وولده (إخناتون) ولم يفهم السيد شاهين أن هناك فارقا زميناً طويلاً بين الدخول والخروج، وأن الدخول عند (جوزيفيوس) جاء فى زمن قديم، وأن قصة الدخول إلى مصر كانت قصة يوسف، أما الخروج فهو قصة موسى زمن أمنحتب وولده (إخناتون) فيما يزعم (جوزيفيوس)، وكان موسى حفيداً بعيداً للسلطان لاوى شقيق يوسف بعد زمن بعيد من الدخول.

وهكذا خلط شاهين بين أول القصة وآخرها، وخلط بين يوسف وموسى، وبين الفرعون (توتيمايوس) وبين الفرعون (أمنحتب) وولده (إخناتون) وكان الأولى به ما دام قد قرر أن يخوض غمار التاريخ ويتبنى وجهة نظر دون أخرى، أن يجهد نفسه فى المعرفة، أو يرجع لنزوى الاختصاص، كما يفعل الفيلم الأوروبى والأمريكى عند التعرض لمسائل من هذا النوع، لكن السيد شاهين احتسب ما لديه من معارف كافية للتعرض لمثل هذا الأمر الكبير، فطرح ما تصوره حلولاً لاشكاليات عميقة أدت به إلى أخطاء عظيمة، فلم يصل إلى مواقف صحيحة،

لا على مستوى الدينى، ولا على المستوى التاريخى، بل إنه حتى لم يوفق على عرض وجهات النظر التى انحاز إليها عرضاً أميناً كما حدث فى تناوله لتاريخ (جوزيفيوس) .

أحبوا إسرائيل !

وأثناء ذلك عن السيد شاهين أن يضيف للقصة الدينية ملمحاً تاريخياً تصور أنه يرفع من شأن جماهير الشعب المصرى فصور ديانة الإله آمون، وقد أصبحت ديانة دولة متجبرة ظالمة، وأن إرهابات الثورة الشعبية ضد الفرعون والحكومة قد بدأت، وأن الشعب المصرى قد آمن بديانة التوحيد الآتونية، فقام بثورة جماهيرية ضد الحكومة وضد الإله آمون لصالح آتون الواحد، وقدم قمة العمل فى مشهد مبهر لجماهير الشعب وهى تكسر تمثال آمون العملاق، متصوراً بذلك أنه يمنح جماهير المصريين مزية معرفة الإله الأوجد .

وبما أننا نعلم أن اخناتون هو صاحب ديانة التوحيد الآتونية، فالمعنى أنه كان يتأمر على أبيه أمنحتب الثالث مع الجماهير الموحدة، وهكذا يتحول المصريون نحو التوحيد بتولى اخناتون للحكم بعد نجاح الثورة الآتونية ويتحول نظام الحكم المصرى من العداء للعبرانيين ممثلين فى رام، إلى أحبة وأشقاء فى حب الله الواحد، فهذا موحد، وهذا موحد، والشعب مرحد، فلماذا لا يكون هناك توحيد؟ وفى مشهد مؤثر ينزل الفرعون اخناتون عن عرشه ليحى رام وهو عائد إلى أهله بحب شديد، ويزجيه عبارات المودة والتقدير. والمغزى مفهوم والهدف واضح، حيث خالف السيد شاهين كان ما تعارف عليه علم التاريخ لصالح الراهن التطبيعى ؟ ولعب فيه لصالح الهدف المرتجى، ليلتقى الموحدان بالوجد والإيمان، إخناتون ويوسف، ليلقى بظله على الحاضر، ووجدوا الله وصلوا على النبى، وأحبوا بعضهم بعضاً، ويا موحدى العالم اتحدوا، فبعضكم مسلم موحد، وبعضكم يهودى موحد، وكل من له نبى يصلى عليه .

المصريون والإسرائيليون فى التوراة وفى التاريخ

من استهلاك الوقت أن نتحدث عن مصر فى التاريخ، والكلام بشأنها من نوافل القول، فشانها معلوم وأنشر من أى حديث، حتى أصبح من فساد الرأى أن يؤرخ باحث لأى علم من العلوم دون الرجوع إلى أصول تلك العلوم فى مصر القديمة، هذا فى مجال العلوم، وفى ميدان التاريخ كعلم، أما فى ميدان الاعتقاد، وفى الصحائف المقدسة، فلها شأن عظيم أيضاً، لكن بوضعها ذلك البلد الضال أهله، الذى تأله حاكمه، فكفر، فوصم مع شعبه بأنهم من المجرمين، لذلك استحقوا أن يكونوا من المشرقين، بقرار من (يهوه) رب التوراة، ويضربة من عصا إعجازية دمرت الزرع والضرع فى وادى النيل، قبل أن تطبق البحر المغلوق على من بقى منهم، أليسوا مجرمين؟

أما إسرائيل فهى عمدة المقدس وعقدته الجامعة، هى المحور منه والقلب الخافق، فهى شعب مقدس فضله الله على العالمين، سلسلة من النجباء الأنبياء المطهرين، فالأب نبي يجب نبيا، فى سلسال توارث النبوة كما توارث أرض فلسطين، خير خلف عن خير سلف، فكانوا فى المقدسات هم المقدمين على غيرهم من الأمم الضالة، جدهم البعيد هو إبراهيم الخليل، وآباؤهم إسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل، وبنوه بنو إسرائيل الأسباط المكرمون، ومنهم يوسف الصبى الفاتك الجمال الذى توزر على خزانة المصريين، وعلم خبراء الزراعة ومهندسيها فى مصر، كيف يواجهون قحط السنين، ومن بعده جاء (موسى) أعظم أنبياء إسرائيل، ويغص التاريخ المقدس بعد ذلك بمسيرة أولئك الهداة المطهرين، فهذا (شاؤول) يقيم لهم دولة فى فلسطين، لينترك تأسيسها وتعميدها لداود الملك وولده سليمان، بينما أصبح ذلك الأخير سيداً على مملكة عظمى تغنت بها كتب الدين وكتب الأساطير، فتسلط على الوحوش والهوام والجن والعفاريت، وأصبحت إسرائيل فى زمانه أغنى الدول، حتى كانت الفضة فى الشوارع مثل التراب (بتعبير التوراة)، أما فى المأثور الإسلامى فكان أحد أربعة ملوك ملكوا العالم الأرضى من أقصاه إلى أقصاه.

هذا شأن إسرائيل فى مأثورات الدين، لكن الغريب والمشكل الحقيقى أمام هذا الرتل العقائدى الهائل، أن التاريخ كعلم، يعلم يقيناً تاريخ مصر بحفائره وعلمائه وأركيولوجيته،

بأعلامها الآثارية الشاهدة، كما انتهى ترتيب أوضاعها الزمنى عبر أسرات ودول، من ميناء موحد القطرين مروراً ببناء الأهرام إلى الخامسة ثم السادسة فالرعامسة حتى الشناشقة والبطالمة، فأرض مصر تفيض بالحفائر، غنية بالأحداث، لكن ذلك العلم نفسه، علم الحفائر والآثار، علم التاريخ، رغم الهوس الحفائري في إسرائيل الآن، يجد الأرض صنيعة بأي معلومة ذات شأن، فالتاريخ كعلم لا يعرف عظيماً أقام لإسرائيل مملكة باسم (شاؤول)، ولا يعلم بشأن محارب ذي بأس أسس لإسرائيل قوميتها باسم (داود)، ولم ترد في وثائقه بالمرّة أية إشارة لملك حكيم حاز شهرة فكرية باسم (سليمان)، كما لم يسمع أبداً ولم يسجل في مدونات مصر ولا في مدونات الدول المجاورة، خبر جيش الدولة العظمى وهو يفرق في بحر تفلقه عصا، وإطلاقاً لا يدري شيئاً عن صبي جميل فتن نساء مصر وأذهلن بجماله فقطعوا الأيدي وهن في الهيام به ساهمات. كلا لا يعلم التاريخ من كل ذلك شيئاً ولو بسيراً، وكل ما يعلمه عن إسرائيل، حكايات متناثرة عن شوارد قبائل من شذاذ الآفاق باسم (الخابيرو، العابيرو)، وإيمانه هنا ولفته هناك تتحدث بإهمال عن جماعة باسم إسرائيل سحقها كتائب الفرعون (مرنبتاح)، أو ما جاء في نصوص الرافدين عرضاً عن مملكة باسم (عمرى)، ربما ويحتمل ويظن ومن الجائز وقد تكون هي مملكة إسرائيل زمن ملكها (عمرى) وابنه (أخاب). لكن الأسماء المعظمة المبجلة المفخمة في التاريخ الديني، فلا شيء منها البتة وقطعا في التاريخ كعلم.

الإسرائيليون يدخلون مصر

تقول التوراة - ولا يقول التاريخ هنا شيئاً - إن أول احتكاك للبدو العبرانيين بمصر والمصريين، كان زمن الأب إبراهيم، الذي هبط مصر مع زوجته سارة هرباً من القحط الذي حل بأرض كنعان، فحصل هناك على فضل عظيم وخير عميم، يأتي خبره في نص التوراة القائل عن هدية فرعون لإبراهيم: «فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها - أى بسبب سارة - وصار له غلم وقر وحميز وعبير وإماء وإتن وجمال.. فصعد إبراهيم من مصر.. وكان إبراهيم غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب/ سفر التكوين ١٢ و١٣».

ثم تحدثنا التوراة - ولا يحدثنا التاريخ - عن قصة الصبي الأخاذ في جماله (يوسف) ابن إسرائيل (يعقوب)، وقصة بيعه في مصر، وكيف أثبت مهارة إسرائيلية أوصلته إلى كرسي الوزارة، ليصبح الرجل الثاني في مصر بعد الفرعون، وكيف أرسل يوسف يستدعي أهله لينعموا بخير مصر كملجأ للإسرائيليين كلما قحطت بهم الحياة ولحققت بهم المجاعات.

لكن التوراة لا تخبرنا بالسبب الذي أثار حقن الفرعون التالي على العرش، إلى حد تسخير هنيئوف مصر في الأعمال الشاقة، عقاباً لهم على أمر مجهول، ونحن نعلم أن (ماعث/ العدالة/ القانون الكوني) كانت تاج القانون المصري الدائم، ومن هنا يظن أغلب الباحثين، أن الإسرائيليين لعبوا دوراً مع الهكسوس الغزاة ضد المصريين، وتعاونوا مع أعداء البلاد فحقت عليهم النقمة، وتم أسرهم مع فلول الهكسوس الأسيرة بمصر.

ويدورنا نذهب مع هذا الظن، ونحتمل دخول يوسف وأهله مصر في عهد (أسيس) آخر الحكام الهكسوس على مصر، وهو ما يلتقي مع الاسم (عزيز) الذي جاء بالقرآن الكريم، خاصة أن الآيات كانت تتحدث دوماً عن حاكم مصر باسم الفرعون، عدا زمن يوسف، زمن دخول الإسرائيليين إلى مصر، ناهيك عما سجلته التوراة عن سياسة يوسف في مصر أثناء السنين القحط السبع، حيث احتكر (الميرة) جميعاً في خزائنه وباعها للمصريين الذين يموتون جوعاً مقابل الاستيلاء على أرضهم ثم مواشيهم ثم أنفسهم هم ليتحولوا إلى عبيد، لصالح الحاكم الهكسوسي. أما مشاعر المصريين تجاه هؤلاء الإسرائيليين فقد تبدت بوضوح في اعتبارهم الإسرائيليين نجساً يجب اجتنابه، وهو ما ورد جميعه في نصوص توراتية من قبيل: «اشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاها.. فقال يوسف للشعب إنى اشتريتكم اليوم وأرضكم للفرعون.. سفر التكوين ٤٨»، وفي نفس السفر كان يوسف يقول لإخوته «جواسيس أنتم، لتروا عورة الأرض جلتكم، وكان ينصحهم دوماً بالابتعاد عن المصريين (لأن كل راعى غنم رجب عند المصريين/ سفر التكوين ٤٦».

الإسرائيليون يخرجون من مصر

هذه حكاية التوراة عن الدخول إلى مصر، فماذا عن الخروج؟ تقول التوراة: إن موسى قد ولد في مصر إبان أزمة الإسرائيليين بمصر، والقصة معروفة، فقد ربي في القصر الملكي، وتبنته ابنة الفرعون وأكرمت مثواه، لكن الصبى يكبر فيقتل مصريا تعصبا لبني جلدته، فيطلبه القصاص وتطارده العدالة، فيهرب إلى مديان بسمياء، حيث يلتقى هناك برب سينائي يدعى (يهوه) على هيئة نار في عليقة، ويحمل منه أواصر صريحة لبني إسرائيل، ليخرجوا من مصر تحت قيادة موسى إلى فلسطين، وعاد موسى إلى مصر بملك الأوامر، وبالعصا الشعبان، مع وعد إلهي يقول: «الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم/ سفر الخروج ٦».

وتتالى الأحداث فيضرب موسى بعصاته الذليل ليتحول دما، وتصير مصر خرابا، ثم يضرب بعصاته ضربات متتالية، فتمتلىء مصر بالضفادع والبعوض والذباب والماعون والجراد مع برد وظلام، ثم يهبط الرب يهوه بنفسه لتحقيق الضربة الأخيرة بقتل أطفال المصريين، وذلك فى النص «وقال موسى: هكذا يقول الرب: إنى نحو منتصف الليل، أخرج فى وسط مصر، فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التى خلف الرعى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر/ سفر الخروج ١١.

وفى تلك الليلة «كان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت/ خروج ١٢. ولم ينس الإسرائيليون عادتهم فى الخروج من مصر بالخير الوفير، فقد فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعميس / خروج ١٢.

ثم تأتى الضربة الحقيقية لإفناء المصريين، فى رواية التوراة عن قيام ملك مصر وجيوشه بمطاردة الفارين بالذهب، حيث أدركوهم عند البحر، وهنا تحدث المعجزة الكبرى «ومد موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم... فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة.. فدفع الرب المصريين وسط البحر/ خروج ١٤. ويتوجه الخارجون من مصر إلى فلسطين ليغزوها ويحتلوها ويقيموا لهم هناك دولة، تلك الدولة التى قبض لأحد ملوكها (سليمان) أن يحوز فى مقدسات المنطقة شهرة لا تضارع، ومع ذلك فقد قال (هـ. ج. ويلز) ونقل عنه الباحثون العرب مثل د. أحمد سوسة ود. أحمد شلبي قوله: «لما الوصف الذى اعتاد للباحثون تربيده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان، فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التى درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التى تبجحت التوراة بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسياها الفراعنة.. وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة فى البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكانياته الاقتصادية... فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب.. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض فلسطين الساحلية طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشا مصريا صغيرا احتلها وسلمها له مهرا لابنته، ثم يتساءل: «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان فى صورة تفوق الواقع بكثير؟ فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكا صغيرا

يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم، ثم يتابع قوله: «إن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لسليمان شيئا من الحركة والنشاط والتبسط في ممارسة السيادة، أما ما جاء عن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس، فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع، على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، في وصف رخاء عصر سليمان، مولها بتعميد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي بل والإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التواضع الهائلة، أما مملكته فكانت رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيًا، وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر المؤقت».

ماذا يقول التاريخ؟

وهكذا يتضح أن الباحثين عندما يريدون الحديث عن أحداث التوراة حديث المؤرخين، يضطرون إلى المقارنات والاستنتاجات، بالنظر إلى أن تاريخ مصر، على كثرة ما اكتشف منه، لا يشير إلا لما ما في لمحات سريعة إلى القبائل البدوية، بينما تتحدث التوراة بالتفاصيل عن مصر وملوكها ومدنها وطبائع أهلها، مما يشير إلى معرفة واضحة من جانب الإسرائيليين بشئون مصر والمصريين، وهو أمر طبيعي تماما حيث أن وضع إسرائيل كقبائل هامشية ما كان يشغل حيزاً هاماً في المدونات المصرية، بينما كان المدون الإسرائيلي لا يستطيع أغفال مصر.

المهم أن أول ذكر لإسرائيل في مدونات مصر، جاء في قصيدة منقوشة على لوح تذكاري من الجرانيت الأسود، أقيم في معبد الملك (مرنبتاح) الجنائزي، والقصيدة تتغنى ببطولات الملك وانتصاراته، حيث تقول: «الأمرأ منبطحون أرضاً يصرخون طالبين الرحمة، وليس بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، لقد دمرت أرض التحنو (ليبيا)، وخاتى (تركيا) هادئة، وكنعان قد استلبت بقسوة، وعسقلون تم الاستيلاء عليها، وجازر قد أخذت، وبنو عام أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أقفرت وليس لها بذر، وخوري (أرض فلسطين) عدت أرملة لمصر».

وقد وقف علماء كثر مع هذا النص واعتبروه دالا على حدث الخروج من مصر، حيث ترد كلمة إسرائيل في نصوص مصر لأول مرة، واعتبروا الفرعون (مرنبتاح) هو فرعون

موسى والخروج، بينما ذهب آخرون إلى أن النص يتحدث عن حرب شنها مرتبتاح على عدد من الشعوب خارج مصر، وأنه هاجم أراضيهم وضعنها إسرائيل.

هذا كل ما ورد من التاريخ التوراتي المهور فى تاريخ مصر، إسرائيل أقفرت وليس لها بذر، ويبدو أن الأمر لم يكن يستأهل الفخار به والإطالة بشأنه قياسا على أعمال الفرعون الأخرى، فاكثفى بتلك الإشارة السريعة، التى قامت عليها ألوف الأبحاث فى جامعات العالم، مقارنة بالتوراة، ولم تزل.

أما قول (ويلز) السالف، إن إسرائيل كانت مجرد دولة رهينة لمصر، وأنها كانت تابع متقدم فى آسيا للفراعنة، فهو استنتاج يطابق أحداث التاريخ، وما ورد فى تاريخ مصر - القديمة من وثائق، عن الحملات الأدبىة التى كان يقوم بها الفراعنة على بدو آسيا، فى حال أى تمرد أو عصيان، مع تركهم على أحوالهم ويحكمون فقط بوال من قبل الفرعون غالباً ما يكون منهم، مع بعض كتائب مصرىة لمنع أى شغب.

وتتحدث التوراة عن زمن حكم (رحبعام)، بن الملك سليمان، ولم يمض على موت سليمان خمس سنوات، فتخبرنا بشأن حملة قام بها فرعون مصرى باسم (شيشق) على دولة يهوذا فى فلسطين، حيث تقول «وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن الملك، وأخذ كل شىء، وجمع أتراس الذهب التى عملها سليمان/ سفر ملوك أول ١٤».

وهو الخير الذى يلتقى مع الوجود التاريخى لفرعون باسم (شيشق)، وبأخبار لحملة قام بها على فلسطين، مع جدول بالمدن التى هاجمها، لكن دون أن يذكر كلمة إسرائيل إطلاقاً ولا كلمة يهوذا ولا حتى أورشليم، وهؤلاء الفرعون الذى قالت التوراة، أنه كان صهر سليمان، وأن سليمان طلب منه مساعدته للاستيلاء على مدينة جازر الفلسطينية الساحلية، فأرسل إليه شيشق بضعة كتائب مصرىة احتلتها له وتركها له هدية، وقد عثر مؤخراً فى مجدو على نصب تذكارى أقامه شيشق هناك تذكراً لحملته على المملكة السليمانية بعد موت سليمان، وهو الأمر الذى يشير إلى أن سليمان كان تابعا مخلصا لشيشق، كما يشير فى جانب آخر إلى عصيان ما ارتكبه ولده (رحبعام) بحق الفرعون فاستحق التأديب.

ومن المعلوم أن مصر ظلت ترعى فلسطين وتزودها بالميرة أيام القبط والجفاف، كما ظلت ملجأ آمناً لأهلها عند أى خطب أو غزو خارجى، وهو بالضبط ما حدث زمن هجوم الملك الكلدانى نبوخذ نصر على يهوذا، حيث لجأ أهلها بالآلوف المؤلفة إلى مصر، التى استقبلتهم بالترحاب زمن الفرعون (واح اف رع) المسمى باليونانية (إفريس) ٥٨٧ - ٥٦٨

ق. م) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وهو ما حكته التوراة فى الإصحاح ٢٥ من سفر ملوك ثانى، وتأكد بوجود جالية يهودية تعيش بعد ذلك فى جزر الفنتين جنوبى أسوان بمصر.

وتحكى لنا التوراة عن معركة بين مصر وأشور وقعت فى بلاد الشام، مما يشير إلى خروج الجيوش المصرية للدفاع عن بلاد الشام ضد غزو آشورى، وتقول التوراة أن ملك إسرائيل (يوشيا) اعترض طريق الفرعون نخاو ليمعنه عن نجدة سوريا، فاضطر الفرعون إلى قتل الملك الإسرائيلى، كما اضطر بعد ذلك لأسر ابنه (يهود أهاز) الذى تخابر مع الاشوريين، وتم ترحيل الملك الإسرائيلى (يهو أهاز)، إلى مصر، وهى رواية سفر الملوك الثانى بالإصحاح الثالث والعشرين، ولا نجد فى مدونات التاريخ نظيراً للرواية، لكننا نجد ما يصادق عليها، حيث تم العثور على لوح عليه نقش ورسم وكتابة عن شخص باسم (يوده ملك) وترجمتها (ملك يهوذا)، وتعود إلى زمن الفرعون نخاو، وهو ما جعل المؤرخون يتأكدون أنه بعينه الملك الإسرائيلى الأسير (يهود أهاز).

وبينما كانت التوراة تصف مصر بأنها أجنة الرب أرض مصر، حيث الراحة والهدوء والرخاء والدعة، نجد أيوب النبى يحلم بأيام مصر «قد كنت مضطجعا الآن ساكناً، كنت نمت مستريحاً، مع ملوك ومشيرى الأرض، الذين بنوا أهراماً لأنفسهم/ أيوب ٣»، وفى سفر الخروج نجد الإسرائيليون يعانون الجوع بسيئاتهم، فيحتجون على موسى معبرين عن ندمهم لترك أسر مصر قائلين: «لبيتنا كنا بمصر، جالسين إلى جوار قدور اللحم»، وهى كلها الأمور التى تفسر ما استقر فى نفوس لإسرائيليين تجاه المصريين، متمثلة فى نبوءات ترد لمصر الجميل.

نبوءات التوراة لمصر

فى الأزمنة الأخيرة لإسرائيل، زمن أنبياء إرميا وإشعيا، وقبل زمن من تدمير الهيكل على يد طيطس الرومانى وتشيتتهم فى بقاع العالم، وقف أنبياء إسرائيل على عتبات النهاية، يتنبأون بعودة المجد السليماني وقيام دولة إسرائيل مرة أخرى، وأنها حينذاك ستسود العالم، لكن قيامها كان يشترط أولاً وأخيراً خراباً تاماً لمصر، وإذلالاً لها، وهو ما يفصح عن التكوين النفس والعقلى ومدى التشوه الذى لحق بنفوس القوم تجاه مصر.

يقول إشعيا فى الإصحاح التاسع عشر من سفره: «وحى من جهة مصر، هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر.. يذوب قلب مصر فى داخلها.. تنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس، وتنقن الأنهار.. والرياض على النيل على حافة النيل وكل مزرعة

على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون .. فى ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود التى يهزها عليها، وتكون أرض يهوذا رعباً لمصر..

ثم يؤنب إشعيا بنى جلدته الذين يلجأون إلى مصر وفيها فى الملمات، بقوله فى إصحاحه الثلاثين: «ويل للبنين المتمردين يقول الرب .. الذين يذهبون لينزلوا إلى مصر للمعونة .. ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتمون بظل مصر، فيصير لكم حصن فرعون خجلاً، والاحتواء بظل مصر عاراً».

أما النبى إرميا فى الإصحاح ٤٦، فقد وقف يعبر عن مكنون كل إسرائيلى تجاه مصر فى قوله: «أخبروا مصر، واسمعوا فى مجدل، واسمعوا فى نوب (منف) وفى تحفنجيس، قولوا انتصب ونهياً الآن، لأن السيف يأكل حوالبك .. نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك .. نوب تصير خربة وتحرق فلا ساكن .. ها أنذا أعاقب آمون نو وفرعون مصر وألهتها والمتوكلين عليه».

أما حزقيال النبى فلم يخل على مصر وهو يوجه كلام الرب الإسرائيلى إلى الفرعون المصرى المقبل، بالإصحاح ٢٩ حيث يقول: «ها أنذا المليك على أنهارك، أجعل من أرض مصر خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان .. وأشتت المصريين وأبددهم من الأرض».

فلسطين وإسرائيل:

الخلل فى التوراة أم فى التاريخ؟

حدث هذا أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد، عندما أنقضت موجات بشرية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، قادمة من جزر البحر الإيجى، كان أكبرها تلك التى اكتسحت العاصمة الحيثية (خاتوشاش/ بوجاز كوى حالياً تركيا) ودمرتها، لتتركها خراباً بلقها إلى الأبد، ثم ترحف منها جنوباً لتقضى على (قرقميش/ جرابلس حالياً شمالى حلب)، لتحتل بعدها (لؤغاريت/ رأسى شعرا الآن قرب اللاذقية)، ومن بعدها (أرود)، لينحدر السيل الجارف جنوباً باتجاه حدود مصر الشرقية عبر سيناء، مترافقاً مع جناح بحرى لمهاجمة شواطئ مصر الشمالية، مصحوباً فى الوقت نفسه بجناح ثالث هبط على السواحل الليبية ليهاجم حدود مصر الغربية، وكان ذلك الهجوم الثلاثى أكبر كماشة عسكرية تعرضت لها مصر.

ويحكى لنا (رمسيس الثالث) أحد المحاربين العظماء فى التاريخ، أنه قد تصدى بجيوش مصر لهذا العدوان الثلاثى، وألحق به هزيمة مروعة، فى ثلاث معارك برية وبحرية، وكان ذلك عام ١١٨٠ قبل الميلاد. أما علم التاريخ فقد حاول تفسير وجود عناصر من هؤلاء المهاجمين على الساحل الفلسطينى بعد ذلك، يعيشون هناك فى شكل ممالك مستقرة، بأن انكسار الهجوم البحرى الكاسح للمنطقة، الذى جاء من جزر البحر الإيجى وعاصمتها (كريت)، قد انكسر على الحدود المصرية انكساراً شديداً، لكن الفرعون المصرى المنتصر، ترك لهم سواحل فلسطين ليقيموا بها، ويكونوا من رعايا الفرعون وجنوده، وفيالقه المتقدمة فى آسيا.

أما (هيرودت) أبو التاريخ، فيقول: إن هؤلاء المهاجمين هم من حملوا اسم (اليلست)، ويضيف المؤرخون من بعد أن هيرودت اليونانى هو أول من أطلق على بلاد كنعان شرقى المتوسط اسم (بلسيتا) و (بالاستين)، نسبة إلى هؤلاء الغزاة (اليلست)، لتحمل بعد ذلك اسم فلسطين.

موجات الهجوم

ويعلمنا علم التاريخ من وثائقه، أن ذلك الهجوم الفلسطينى القادم من كريت والجزر الإيجية، قد هجم على منطقتنا فى شكل موجات متتابعة، بعد أن شكلت قبائل بحر إيجة اتحاداً

(*) لم يسبق نشره.

قويا في نهاية ١٣٠٠ قبل الميلاد، وأن أول تلك الموجات قد اضطرت مصر إلى التخلي عن مستعمراتها في سوريا وفلسطين، وأن أول الموجات قد تمكنت تماما من احتلال ساحل فلسطين في زمن قياسي .

وكان أول ذكر في وثائق التاريخ لهؤلاء (الباست) ، هو ذلك الذي نقرأه في وثائق الفرعون (أمنحتب الثالث ١٣٩٧ - ١٣٦٠ قبل الميلاد) ، ذلك الزمن الرخي الذي ضمت فيه مصر دول الشرق القديم تحت جناحيها، وتدفقت عليها الجزيات، منذ زمن الفاتح الكبير (تحتمس الثالث)، فكان عصر (أمنحتب الثالث) عصر رخاء عظيم .

وقد تلى الموجه التي وصلت زمن (أمنحتب الثالث ١٣٩٧ - ١٣٦٠ قبل الميلاد) ذكر لموجات أخرى كان تاليها تلك الموجه التي وصلت زمن (رمسيس الثاني ١٢٩٢ - ١٢٢٥ قبل الميلاد) ، ويبدو أن المصريين قد أسروا أعداداً كبيرة، حيث نجدهم بعد ذلك يعملون كمرتزقة في جيوش مصر، باسم الشردينيين (نسبة إلى جزيرة سردينيا) .

وعلى نصب عثر عليه في (صان الحجر) بمحافظة الشرقية، نجد حكايات عن سفن البلست الضخمة، ونقوشا تصورهم يلبسون خوذاً ذات قرون، ويحملون دروعا مستديرة، ويمتشقون سيوفاً طويلة ضخمة، وهو النصب الذي روى لنا كيف صد الفرعون (مرنبتاح بن رمسيس الثاني) هجومهم، ليردهم عن الحدود المصرية .

أما في فلسطين ذاتها، فقد نظم (الباست) أنفسهم عندما دخلوها، في هيئة ممالك صغيرة مستقلة في إدارتها، منها جرار وغزة وعسقلان وأشدود وجازر وغيرها، لكن ضمن اتحاد فيدرالي مركزه الرئيسي مدينة أشدود، أما قوتهم العظيمة فتكمن فيما نعلمه من نصوص مصر ومن التوراة، أنهم صنعوا أدوات القتال من الحديد، وأن الحديد كان عندهم مادة اعتيادية ووفيرة، حتى أنهم صنعوا منه عجالاتهم المقاتلة .

وكل هذا إنما يعني ببساطة، القول: إن الفلسطينيين جاءوا المنطقة كعنصر دخيل، قادم من كريت وبحر إيجه، وهو أمر يشكل عموداً لأعمال بحثية كثيرة، تشكل الخلفية التاريخية للأحداث التي تجري في منطقتنا، منذ قيام دولة إسرائيل مرة أخرى، في عام ١٩٤٨ م .

ماذا تقول التوراة ؟

إذا التاريخ قال: إن الفلسطينيين جاءوا مهاجرين من كريت إلى فلسطين، ليستقروا بها زمن الفرعون (رمسيس الثالث) حوالي عام ١١٨٠ قبل الميلاد، أي بعد خروج بنى إسرائيل من مصر بحوالي خمسين عاما، ومعلوم أن كبرى المدارس البحثية قد استقر رأيها على خروج

الإسرائيليين من مصر زمن الفرعون (مرنبتاح ابن رمسيس الثاني) حوالى عام (١٢٢٩) قبل الميلاد.

ومثل ذلك التاريخ وتلك التزميدات، تستتبع عدداً من النتائج والدلالات، حيث تقول التوراة: إن الإسرائيليين قد سبق لهم أن استقروا بفلسطين قبل زمن الدخول إلى مصر بحوالى خمسة قرون، وهو ذلك الزمن الأسطورى الممتد من إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب المسمى إسرائيل، وأنه إذا كان الإسرائيلي والفلسطينى واقدين على كنعان، غربيين عليها، فإن إبراهيم كان داخلها الأول حيث سكن بين أهلها الكنعانيين وتكلم بلسانهم، وذلك قبل مجيئ الهجرة الفلسطينية بحوالى ستة قرون كاملة.

هذا كلام، لكن التوراة نفسها لها كلام آخر وقول آخر فماذا تقول التوراة؟.

أولاً: لقد جاء إبراهيم وأسرته الصغيرة إلى أرض تسميها التوراة أرض كنعان، قادما من موطنه (أوركسديم)، وأن إبراهيم قد تنقل فى كنعان بين عدة مواضع، أهمها ذلك الموضع المعروف بمملكة (جرار) التى كان يحكمها ملك اسمه (أبى مالك)، وتصف التوراة تلك المملكة بأنها مملكة فلسطينية، وذلك فى قولها: «وتغرب إبراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة/ سفر التكوين ٢١».

ثانياً: يتكرر ذكر جرار بذات التوصيف فى زمن إسحق بن إبراهيم فى قول التوراة «فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار... وزرع إسحق فى تلك الأرض فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف... فحسده الفلسطينيون/ سفر التكوين ٢٦».

وهكذا، ومع إبراهيم أول رجل مهم فى التاريخ التوراتى، نجد مملكة باسم (جرار) توصف بأنها فلسطينية، وهو ما يعنى اعترافا من جانب التوراة، بوجود العنصر الفلسطينى فى فلسطين، قبل زمن الأب إبراهيم بزمن أبعد، يسمح بأقامتهم ممالك مستقرة، ويصبح القول: إن (هيروردت) أول من أطلق على أرض كنعان اسم فلسطين قولاً مردوداً بشهادة التوراة ذاتها، أما عند خروج الإسرائيليين من مصر، نجد نصا توراتيا صريحا يسمي أرض كنعان بكاملها وليس جرار وحدها باسم فلسطين، وذلك فى قوله: «يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين/ سفر الخروج ١٥». وفى نبوءة متأخرة للنبي اليهودى (صفنيا)، نجده يخاطب تلك الأرض بلسان رب اليهود قائلا: «يا كنعان أرض الفلسطينيين، إنى أخبرك بلا ساكن/ سفر صفنيا ٢».

وهكذا اكتسبت أرض كنعان اسم أرض الفلسطينيين زمن خروج الإسرائيليين من مصر، رغم أن الفلسطينيين كانوا عنصرأ يقطن بساحل فلسطين ضمن عناصرها الأخرى، وقد

حددت التوراة مساكن الفلسطينيين كمجموعة ممالك متحدة على الساحل، بترتيب يصعد من الجنوب إلى الشمال، بدءاً من غزة على حدود مصر، وذلك في قولها: «من الشيحور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرى شمالاً، تحسب للكنعانيين، أقطاب الفلسطينيين الخمسة: الغزى والأشدودى والأشقلونى والعقرونى والعويين/ يشوع ١٣»، وفي قول آخر تمزج فيه التوراة بين الكنعانى والفلسطينى نجد «وكانت تخوم الكنعانى من صيدون حينما تجبىء نحو جرار إلى غزة/ تكوين ١٠»، لكن الترتيب هنا كان من صيدا فى الشمال إلى غزة فى الجنوب.

وقد بات من المشكوك فيه عند الباحثين الآن، أن يكون الإسرائيلون الذين خرجوا من مصر، لهم علاقة بذلك الرعيل الأول المسمى بالبطارقة أو الآباء (إبراهيم، إسحق، يعقوب، الأسباط)، ناهيك عن كون مسألة البطارقة برمتها. كما حكمتها التوراة. تدخل فى عداد الأساطير عند باحثين محترمين، إضافة إلى جلة محترمة من باحثين آخرين، يرون أن قصة إبراهيم والبطارقة الأوائل لون من الصياغة التى تمت متأخرة بعد الخروج لربط الخارجين بتاريخ قديم، لإلقاء تاريخ إسرائيل المقدس فى عمق التاريخ القديم، وأن كل الأمر ربما تم بعد قيام مملكة داود فى أووشليم، بتدوين إسرائيل فى خضم تاريخ أعرق، وأبعد فى القدم، من باب إيجاد موطىء قدم لإسرائيل فى التاريخ القديم للمنطقة.

مصادقية التوراة وخلل التاريخ

لكن تظهر هنا مشكلة كبرى، تثيرها مصادقية مذهشة للتوراة، من حيث تطابقها مع نصوص التاريخ الآثارية، حيث تنسب التوراة الفلسطينيين إلى أصول من جزيرة تسمى مرة (كفتور) ومرة (كريت)، وتسجل بهذا الشأن نصوها من قبيل: «وهكذا قال السيد الرب: ها أنذا أمد يدي على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر/ حزقيال ٢٥»، و«الرب يهلك الفلسطينيين بقية جزيرة كفتور/ إرميا ٤٧»، و«ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين، كلمة الرب تكون عليكم يا كنعان أرض الفلسطينيين/ صفنيا ٢»، وفي تعبير واضح لا يقبل لبساً يقول: إن بعض الهجرات تمت بفعل إلهي، يقول النص: «يقول الرب: ألم أضع إسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور، والأراميين من قير؟ رعاموس ٩».

وهنا المشكلة، والخلل بعينه، فإذا كانت رواية التوراة ككتاب فى التاريخ قد تطابقت مع المكتشفات والسجلات الآثارية فى هذه المسألة، وإذا كان كليهما قد أكد قدوم الفلسطينيين من جزيرة كريت وبحر إيجة، فإن هناك خللاً يتمثل فى كيف نوفق بين قول التاريخ باستقرارهم على الساحل الفلسطينى فى عهد الرعامسة، حول القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وبين

وجودهم حسب التوراة في فلسطين قبل خروج الإسرائيليين من مصر، ناهيك عن قول التوراة بوجودهم زمن البطارقة الأوائل؟.

وبالحسابات، يقول علم التاريخ: إن الفلسطينيين قد استقروا على سواحل فلسطين بعد أن سمح لهم رمسيس الثالث بذلك، أى بعد الزمن المفترض للخروج الإسرائيلي من مصر بحوالى خمسين عاما، وبحسابات التوراة نعلم أن الإسرائيليين أقاموا بمصر ٤٣٠ عاما حسب الرواية العبرية المازورية، ويضاف إليهم أربعين عاما زمن التيه في سيناء، يكون المجموع ٥٢٠ سنة كاملة، إضافة إلى حوالى سبعين سنة افتراضية بين إبراهيم وحفيده يعقوب، فيكون المجموع ستة قرون كاملة، هي الفارق بين تزمين المؤرخين للخروج وبين زمن الغزو البلستى التاريخى لفلسطين، وهذا إنما يعنى وجود الإسرائيليين بفلسطين قبل وصول الفلسطينيين إليها بست قرون كاملة، وهو ما لا تقول به التوراة ذاتها، أليس ذلك خلا حقيقيا؟.

والإشكالية في محاولة إيجاد حل يتطلب أحد فرضين، فإما أن نتأخر بعصر الرعامسة ستة قرون إلى الوراء، قبل التزمين المتفق عليه حاليا بين المؤرخين، وهو ما سيعترب عليه إشكاليات كبرى، حيث سيلحق الخلل بكل تاريخ المنطقة، الذى تم تزمينه قياسا على تزمين التاريخ المصرى، وإما أن نتقدم بزمن الخروج الإسرائيلي من مصر ستة قرون، أى يكون الخروج قد حدث عام ٦٠٠ قبل الميلاد، وهو غير ممكن علميا، لأنه سيتضارب تضاربا صارخا مع حقائق تاريخية ثابتة، وتفصيلات شتى لا تسمح بهذا الجموح في الافتراض المستحيل.

إشكالية تبحث عن حل

نعود هنا مرة أخرى لزمن البطارقة الأوائل، وقول التوراة بوجود الفلسطينيين في ذلك الزمن الأسطوري، زمن إبراهيم وإسحق ويعقوب، لندقق النظر مرة أخرى، فنجدها إطلاقا لا تذكر أرض كنعان إلا باسم أرض كنعان، ولا ذكر لفلسطين ولا لفلسطينيين إلا عند الحديث عن مدينة واحدة بالذات هي (جرار) التى يسكنها فلسطينيون، وهو ما يضعنا أمام واحد من احتمالين: فإما أن يكون الكاتب التوراتى لهذا الجزء من التوراة -والذى كتب متأخرا بعد الألف الأولى قبل الميلاد- قد استقر في ذهنه اسم فلسطين للدلالة على تلك الأرض، فاستخدمه في غير موضعه من الزمن وأطلق اسم فلسطين السائد في زمانه على أرض كانت تحمل فقط اسم كنعان في الزمن السحيق، وإما أن تكون جرار تحديداً ووحدها دون غيرها كانت موئلا للفلسطينيين زمن البطارقة، وأن الفلسطينيين قد سكنوها كجند مرتزقة أو جالية بموافقة الفرعون، وهو الاحتمال المرجح لدينا، حيث نعلم من التاريخ أن حيا بكامله شمال

شرقى مصر قد حمل اسم (الحى الجزرى) زمن الرعامسة، لسكنى الإيجيين فيه، وكانت جزار أقرب المدن الفلسطينية إلى الشبحور المصرى الواقع شرقى الحى الجزرى تماما، وقد سمي (الجزرى) نسبة للجزر، وعبدت هناك آلهة غريبة تماما على مصر، تليق بالأغراب الملتحقين بخدمة الفرعون.

والأسباب فى وضع الاحتمالين واستبعاد أن تكون فلسطين مسكونة بجنس البلست زمن البطاركة، هو كما قلنا أن التوراة كانت تصفها بأرض الكنعانيين، وأنها لم تصف أى مكان فيها بالفلسطينى سوى مدينة (جزار)، هذا إضافة إلى أن الأحداث التى رافقت زمن البطاركة لم يأت فيها ذكر الفلسطينيين إطلاقا فى أى وثيقة تاريخية، لا فى مصر ولا فى أى من دول المنطقة ولا بفلسطين ذاتها، علما أن ذلك الزمن لحقته أحداث جسام، تمثلت فى غزو الهكسوس لمصر، وتذهب جلة محترمة من الباحثين إلى أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر قد حدث زمن الهكسوس، وهو زمن ما كان يسمح بدخول البلست، حيث كان الهكسوس قوة كبرى تحتل مصر ذاتها وتقهرها، مع عدم وجود أى إشارة لفلسطين بهذا الاسم ولا لهجرة باسم البلست فى أركيولوجيا ذلك الزمن.

لكن التوراة من جانبها تصر زمن الخروج على وجود الفلسطينيين فى فلسطين كحقيقة واقعة. والأمر هنا ليس كما فى عهد البطاركة حديث عن مدينة واحدة، بل عن مجموعة ممالك قوية ومقتدرة للفلسطينيين بشكل لا يدع سبيلا للشك فيه، بنصوص غزيرة كثيفة ومتعددة، تحدثنا عن قراهم وأسماء زعمائهم، بل وشخصيات هامة من بينهم، وقواد عسكريين، وشكل أسلحتهم، وحروبهم مع الإسرائيليين عند دخول الأرض، وعباداتهم، وآلهتهم، مما يشير إلى أن الفلسطينيين كانوا قد أصبحوا حقيقة مسلم بها فى فلسطين، حتى أنهم أعطوا أرض كنعان اسما جديدا هو أرض الفلسطينيين، وأن ذلك قد حدث أثناء تواجد الإسرائيليين فى مصر.

محاولة حل

رغم أن آخر النظريات وأكثرها اعتمادا فى الأكاديميات العالمية، تلك التى تقول باضطهاد الإسرائيليين فى مصر زمن الفرعون (رمسيس الثانى)، وبخروجهم من مصر فى عهد ولده الفرعون (مرنبتاح)، فإننا لا نعلم كيف وجد هؤلاء السبيل (مثل بروغش وبيير مونتييه وغيرهم) كيف وجدوا السبيل إلى التوفيق بين ذلك، وبين الحقيقة التى تؤكد مجيئهم الفلسطينيين واستقرارهم على الساحل الكنعانى زمن (رمسيس الثالث)، أى بعد خروج الإسرائيليين من مصر حسب ذلك التزمين بحوالى خمسين عاما، بينما التوراة التى تعد لدى

هؤلاء مرجعا تاريخيا أساسيا فى حسابات تزمينهم للأحداث، تقول إن الخارجين قبل خروجهم كانوا يطلقون على الطريق السينائى طريق فلسطين، وعلى كنعان كلها اسم الفلسطينيين، وأنهم عندما وصلوا إليها وجدوا الفلسطينيين قوة قائمة فى ممالك دخلوا معها حروباً طاحنة قبل أن يستقروا إلى جوارهم هناك ؟.

ومن ثم لا يبقى أمامنا سوى اقتراح فرض لا ينزلق إلى الاصطدام بما استقر عليه علم التاريخ فى تزمينه للأحداث وللأسر الحاكمة فى مصر، إنما هو فرض يرجع قليلا بزمان الخروج إلى الوراء، فنحن نعلم أن أول الهجمات البلسية قد حدثت زمن (أمنحتب الثالث) ١٤٠٥-١٣٦٧ قبل الميلاد، وهنا نفترض نجاح تلك الهجمة واستقرارها على الساحل الفلسطينى، أى أننا بوضوح نستبعد الخروج زمن (مرنبتاح) ١٢٢٩ قبل الميلاد، ونرجع به إلى تلك الفترة الواقعة زمن خلو العرش بعد سقوط (إخناتون ابن أمنحتب الثالث) الذى حكم بين ١٣٦٧ و ١٣٥٠ قبل الميلاد، وهو الزمن المناسب للخروج، لأن زمن مرنبتاح كان زمن قوة مصرية تسيطر على فلسطين ذاتها، أما زمن خلو العرش بعد سقوط إخناتون فكان فترة ضعف تسمح بوقوع أحداث الخروج، ومهاجمة الخارجين لفلسطين التابعة لمصر، لكن ليجد الخارجون أن الفلسطينيين قد استقروا هناك زمن (أمنحتب الثالث) وربما قبله بقليل وأسسوا ممالكهم هناك.

وبالحسابات الافتراضية، نحن ندفع بزمان الخروج الإسرائيلى إلى الخلف إلى عام يقع قبل ١٣٥٠ قبال الميلاد، وبإضافة زمن التيه فى سيناء وهو أربعين عاما، فإن وصول الإسرائيليين إلى فلسطين يكون قد حدث حوالى عام ١٣١٠ قبل الميلاد، وبذلك نكون قد أرجعنا زمن الخروج مئة وعشرين عاما إضافية عن الزمن المفترض لخروجهم زمن مرنبتاح، وهو ما يعنى أنهم قد دخلوا فلسطين قبل قرن من زمن الفوعون مرنبتاح.

وإن فرضنا هذا سيحل عدداً من المشاكل الكبرى فى التاريخ غير المحلولة حتى الآن، فسيحل أولاً مشكلة وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل الخروج الإسرائيلى من مصر، وثانياً سيعيد الاعتبار إلى المؤرخ المصرى (مانيتون السمودى/ القرن الثالث قبل الميلاد) الذى أثبت مصداقية عالية فى كثير مما أورده، ومع ذلك استبعد ما ذكره عن الخروج زمن فرعون باسم (أمنوفيس) لصالح فكرة الخروج زمن مرنبتاح، استناداً إلى لوح مرنبتاح الذى يقول فيه أنه هاجم قوماً باسم إسرائيل ودمر بذرتهم. وهنا بالتحديد يكمن الخلل فى رأينا، حيث نحتسب أن لوح مرنبتاح كان يتحدث عن حملة تمت بعد خروج الإسرائيليين واستقرارهم فى فلسطين، ضمن الحملات التأديبية التى كان يشنها الفراعين على مستعمراتهم، بينما

(أمنوفيس) الذى ذكره مانيتو كفرعون للخروج هو النطق اليونانى للاسم المصرى (أمنحتب) وكان إخناتون يحمل اسم (أمنحتب الرابع) .

هذا ناهيك عن كون ذلك الفرض يجعل الخارجين من مصر، ربما كانوا أتباعاً مباشريين لإخناتون كأول داعية للتوحيد فى التاريخ، وهو ما يفسر التوحيد الإسرائيلى بعد ذلك، إضافة إلى حل معضلة كأداء كانت تقف دوماً فى وجه القائلين بالخروج زمن مرنبتاح، وتتمثل فى أن التوراة قد أكدت أن الإسرائيليين عند غزوهم فلسطين، قد دمروا مدينة أريحا وأحرقوها بالكامل، وقد قامت بعثة حفائر بريطانية، بقيادة عالمة الأركيولوجية (ك. كينون) عام ١٩٥٠، بإجراء حفائر فى مدينة أريحا للكشف عن أى أدلة، تشير لتدمير أريحا، ومدى صدق الرواية التوراتية .

وقد تأكد للبعثة البريطانية أن أريحا قد دمرت بالفعل، لكن فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو ما شكل معضلة لأصحاب نظرية الخروج زمن مرنبتاح، لأن أريحا تكون بذلك قد دمرت قبل زمن مرنبتاح بقرن من الزمان، وقد اعتمدت البعثة البريطانية فى تزيينها لدمار أريحا، على ما عثرت عليه من جدران وكسرات فخارية تحمل أسماء ملوك مصريين، حكموا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هذا مع آثار الحريق المدمر، وأثار التهديم الذى تعرضت له أريحا .

ونقصد من هذا كله القول: إن العودة بزمن الخروج ١٢٠ سنة إلى الخلف، إلى فترة خلو العرش بعد سقوط إخناتون، يحل معضلة آثارية كبرى ومشكلة تاريخية حقيقية، ويتطابق موعد دمار أريحا، مع موعد دخول الإسرائيليين إليها . كما يحل لنا مشكلة مستعصية تفسر وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل دخول الإسرائيليين إليها، ولماذا حملت كنعان اسم أرض الفلسطينيين حتى فى التوراة ذاتها، لكنها لم تحمل يوماً اسم أرض الإسرائيليين، وهو الأمر الذى لم يزل بعد قيد البحث فى كتابنا: النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة .

قدماء العرب والإسرائيليين

رغم أن ذكر العرب في التوراة لا يظهر بوضوح كاشف، إلا مع الأحداث التي يفترض أنها دارت حوالى عام ألف قبل الميلاد، أى مع قيام مملكة إسرائيل التى أسسها (شاول) ودعمها (داود)، ويعد مؤسسها الحقيقى (سليمان بن داود)، فإن ذات التوراة تذكر أموراً يمكننا أن نستنتج منها، أن العرب أحد أقدم العروق فى التاريخ، حسب شجرة الأنساب التوراتية، لكن من البداية يجب أن نقر أنهم هم أنفسهم لم يشعروا بوحدة جنسهم إلا فى المرحلة القبل إسلامية مباشرة.

وفى السفر المعروف بسفر التكوين، أول أسفار التوراة، نجد ذلك الشخص القديم المعروف باسم (عابر)، وهو ابن شالح ابن ارفكشاد ابن سام ابن نوح، وتقول: إن (عابر) هذا كان أباً لفرعين أو عرقين من البشر، (العرق العبرى) الذى جاء منه الإسرائيليون فيما بعد، وينتسب ذلك العرق (العبرى) باسمه للأب (عابر)، وعرق آخر هو (اليقطنى) نسبة إلى (يقطان بن عابر)، ثم يستطرد النص قائلاً: «ويقطان ولد الموداد وشالف وحضر موت وبارح وأوزال وبقلة وعيبال وأبيمال وشبا وأوفير وحويلة ويوياب، كل هؤلاء بنو يقطان» (انظر سفر أخبار الأيام الأولى).

وبإعمال النظر فى أبناء (يقطان) ستجد أنها أسماء تشير جميعاً إلى مواضع فى الجنوب العربى (اليمن)، ومعلوم أن أسماء المواضع كانت تسمى بأسماء أشخاص كما هى عادة التوراة. كما أن اسم (يقطان) نفسه يحيلنا إلى نطقة العربى (قحطان)، ومن ثم فإن المقصود هنا هم العرب القحطانية سكان الجنوب اليمنى. وقد رصد المؤرخون للعرب اسم (قحطان). كجد بعيد لقبائل عرب الجنوب، مقابل (عدنان) الجد البعيد لعرب الشمال.

وسيكون المعنى أن حفيد نوح المعروف باسم (عابر)، كان الأب المشترك لكل من العبريين فى جانب، والعرب الأقحاح (القحطانية) فى جانب آخر، ولنلاحظ أن المفردات (عابر) و (عبرى) و (عربى) تعود جميعاً إلى جذر لغوى واحد، كما أن (عربى) بالقلب اللسانى تصبح (عبرى).

الخط العبرى فى الجزيرة

ويمتد خط النسل من عابر حفيد نوح ليصل إلى إبراهيم الخليل، وتوضح التوراة أن إبراهيم

(*) لم يسبق نشره .

قد أنجب ولدين هما: إسماعيل وإسحق، وأن أسحق أنجب ولده يعقوب المعروف باسم إسرائيل، وعنه تناسل الإسرائيليون، بينما على الجانب الآخر أنجب إسماعيل أولاداً يحملون أسماء واضحة العروبية، منها قيدار، وتيماء، ودومة (دومة الجندل)، ونبايوت.. الخ.

ومن ثم سنجدنا في جزيرة العرب، بإزاء خططين لعرقين منفصلين، عرق أصيل في الجنوب هو العرق القحطاني، والذي أطلقت عليه كتب السير والأخبار الإسلامية لقب العرب العارية، أي العرب الأصلية في العروبية، وعرق آخر جاء عبر إسماعيل (العبري) شقيق إسحق وعم إسرائيل وابن إبراهيم، ونحن نعلم من كتب الأخبار الإسلامية، أن إسماعيل كان أب العرب الشمالية (من الحجاز فما نحو الشمال) المنعوتة بالعرب العدنانية، ومعلوم أيضاً في ذات المأثور أن العرب العدنانية ليست أصلية العروبية، إنما اكتسبت العروبية اكتساباً بنزوحها إلى الحجاز قادمة من الشمال، لذلك أطلق عليها التراثيون المسلمون لقب (العرب المستعربة) أي التي استعربت ولم تكن من الأصل عربية، والمطالع لمأثورنا الإسلامي التاريخي، سيجد اتفاقاً واضحاً على أن إبراهيم ولده إسماعيل لم يكونا من العرب، إنما وفدوا على أرض العرب أغراباً عنها، وأنهما كانا يتحدثان السريانية، وبمعيشة إسماعيل بين العرب اكتسب اللسان العبري (!!).

ولعله من الواضح سواء فيما أوردته التوراة، أو أوردته كتب السير الإسلامية، أن كليهما ليس إلا رجوع صدى لأيام خوال وذكريات قديمة، تشير لعنصر عربي أصيل هو العنصر القحطاني، وعنصر غريب وافد هو العنصر العدناني، وأن الأول كان يسكن الجنوب اليمني، بينما استقر الثاني شمالاً في الحجاز، وهو الأمر الذي يلتقى مع الواقع الجغرافي للجزيرة المنفتحة شمالاً على ما جاورها، تستقبل هجرات وتدفع بأخرى، وهو ما يعنى ثانياً أن سكان الجزيرة الأصلاء دوماً خلال التاريخ البعيد، هم العرب الذين عرفوا باسم العرب القحطانية أو القحطانية.

لكن الغريب في الأمر جميعه، أن يصبح حديث التاريخ المطول عن العرب العدنانية المستعربة، وساعد على ذلك قريهم أو انفتاحهم على الحضارات المجاورة (جغرافياً)، وهى الحضارات التي تركت مدونات سجلت لنا بعض ما يتعلق بعرب الحجاز العدنانية، حيث نجد في نصوص التوراة أن من ولد إسماعيل كان (قيدار) و(نبايوت)، ويبدو أن (قيدار) هذا سكن شمالاً على تخوم الحضارات القديم، بينما استقر (نبايوت) في أرض الحجاز، وقد رصدت نصوص بلاد الرافدين، وبخاصة نصوص الملك (أشور باني بعل) قصة صراع حدث بينه وبين قبيلة (قيدار)، كذلك رصدت التوراة صراعاً آخر حدث بين ملوك دولة يهوذا والقيداريين، مما يشير إلى قيدار كقوة لا يستهان بها آنذاك، ويبدو أن القيداريين قد اشتغلوا بما

آدر عليهم ربحا كثيرا جعل منهم قوة، ومضربا للمثل فى الفخامة، وهو ما يؤخذ من سفر نشيد الإنشاد بالتوراة، المنسوب لسليمان، والذي تصف فيه شولميت (سلى بالعربية) نفسها، بقولها تجملا: أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام قيدار، كشقق سليمان،، فسأوت فى الجمال بين خيام قبيلة قيدار العربية وبين شقق أو قصور سليمان المعروفة فى التراث الدينى بالفخامة إلى حد الأسطورية.

أما (نبايوت) فهو ما سجلته كتبنا الأخبارية باسم (نابت بن إسماعيل)، واحتسبته الأصل الحقيقى للعرب العدنانية التى استقرت فى الحجاز، وكثر ذكره فى أشعار العرب مما يشير إليه كحقيقة واقعة، ونموذجا لذلك شعر (عمرو بن مضاض الجرهمى) الذى يسجل صراعا حدث بين العرب القحطانية ومنهم قبيلته جرهم، وبين العرب العدنانية، ويشير إلى انتصار مؤقت للقحطانيين اليمانيين استولوا بموجبه على سيادة الحجاز بحيازة الكعبة المكية، وللاختصار نورد ببيتين من ذلك الشعر القائل:

وكنا ولادة البيت من نابت	نطوف بذلك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت	بعز، فما يحظى لدينا المكائر

ولا نفوتنا هنا ملحوظة أساس، فنحن نعرف عن اليمن القحطانى أنه عرف الكتابة ودونها فيما يعرف بالخط المسند، لكن استمرار الغرابة، وللتاريخ أفاعيله، أن اللغة العربية الحالية لم تتطور عن أصول عربية قحطانية أصيلة، إنما تطورت عن الخط النبطى الذى وجد مدونا فى مملكة الأنباط على حدود الجزيرة الشمالية، وهو ما يوعز بارتباط ما مع (نابت) أو (نابط) أو (نبايوت) ابن إسماعيل العبرانى المستعرب، فعربيتنا الحالية هى الخط التطورى عن خط نابت أو الخط النبطى المستعرب وليس العارب.

أما الصراع بين العرب العاربة والعرب المستعربة، فيبدو أنه قد استمر طويلا، حول مكة بالذات، باعتبارها أهم محطة تجارية على الخط التجارى العالمى القادم ببضائع الهند وإفريقيا من اليمن إلى أرض الحضارات الشرق أو سطية، كما يبدو، أن العرب الأصلاء ظلوا على انتصاراتهم وعدم نفريطهم للمستعربة حتى زمن (قصى بن كلاب)، الذى أقصى آخر قبيلة عاربة يمنية عن مكة، وهى قبيلة خزاعة، ليقرش عرب الشمال المستعربة تقرشا، أى يجمعهم ويؤلفهم ويوحدهم، ويأخذوا سمت السيادة العربوية فى زمنه، وما تلى ذلك من أزمان.

لكن ما لا يفوت المدقق هنا، أنه قبل زمن تلك الأحداث بأزمان، ترقى إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، كان عرب الجنوب القحطانية، الحمر أو الحميرية، قد اندفعوا بهجرة كبرى من

الجنوب نحو بوادي الشام ليستقر فرعهم المهاجر على سواحل المتوسط الشرقية بطول الساحل السوري اللبناني الفلسطيني، والذين عرفوا هناك باسم الكنعانيين أو الفينيقيين، وذلك قبل ظهور الفرع الإبراهيمي بكل خطوطه أصلاً، وأن ذلك الفرع الإبراهيمي عندما هبط فلسطين تكلم بلسان كنعان، أو بشفة كنعان كما قرر سفر إشعيا بالتوراة، لكن اللسان كان قد تغير بمرور الزمن والمكان، وهو ما يعني أن التطور التالي للعربية عن العربية العدنانية النبطية أو النابتية، كان بضاعة عربية ردت للعرب، بعد تحولات، ومفردات كثيرة جديدة دخلت المعجم العربي الأصلي، جعلت الفارق بيننا شاسعاً، لكنه إشارة للأصل، ما دمنا نتحدث عن الأصول، ومن وجهة نظر أخرى يمكن القول أن ذلك جميعه كان إثراء للغة العرب.

أصول العرب العدنانية

هنا لا يملك الباحث إلا أن يقف مذهوشاً أمام الترميزة الإسرائيلية التي تربط العنصر الاسماعيلي العدناني بالعنصر العبراني الإسرائيلي بصلات قرابية، وتعود كليهما إلى أصول أولى واحدة، وحتى يمكن بدء المحاولة لفك الرموز، يجب البحث عن هجرة حدثت، كان اتجاهها قادماً من نول الحضارات المجاورة لبوابة الجزيرة المفتوحة من الشمال، وأن تلك الهجرة لسبب أو لآخر قد اتجهت نحو عمق الجزيرة لتستقر أولاً في شمالها، بينما يوغل آخرون من المهاجرين إلى الحجاز وما حواليه. وبشرط أن تكون تلك الهجرة قد تمت قبل عام ألف قبل الميلاد بعمدة مناسبة، تسمح بظهور قبائل قيثار التي ذكرها سليمان وأسفار الكتاب المقدس التي تحدثت عن أحداث بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وهنا سنجد أمامنا ثلاث احتمالات ترتبط بهجرات حدثت على التوالي، الأولى هي هجرة الهكسوس إلى المنطقة واحتلالها، واحتلال مصر ضمن مناطق أخرى، أما الثانية فهي خروج الهكسوس من مصر في هجرة مضادة عند طردهم منها، ثم تأتي الثالثة في خروج بني إسرائيل وبقياء أسرى الهكسوس من مصر أيضاً، وقد حدثت الهجرات الثلاث في زمن متقارب وعلى التوالي، ويكاد الفارق بين الهجرات الثلاث يذوب عندما نعلم أن هجرة أساسية إلى داخل مصر ومنها إلى الخارج كانت لعنصر واحد هو الهكسوس، وأن هجرة بني إسرائيل بدورها لم تكن غريبة على الهكسوس، فهم فيما تحت أيدينا من وثائق. ليس هنا مجال مناقشتها. أحد البطون القرابية لهؤلاء الهكسوس.

وقد سبق لنا وناقشنا مصدر الهجرة الهكسوسية في كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول)، وأعدناها إلى المنطقة الكاسية الواقعة على القرات الأعلى عند بحيرة فان (أرمينيا حالياً)، وأنهم الذين احتلوا العراق باسم الكاسيين، واحتلوا مصر باسم (هـ-كاس) أو

(التهكسوس) بأداة التعريف العبرية أو العربية الشمالية (هـ). وقد كان الهكسوس عدة بطون وأفخاذ تزعمهم عنصر من بينهم، وقد دخل بنو إسرائيل في زمريتهم آخر سنين حكمهم في مصر، وكانت الصلات القرابية والثقافية واللغوية مبرراً كافياً ليرتقى أحد الإسرائيليين سدة رزارة المال والخزانة في مصر، وهو ما تمثله قصة يوسف بن يعقوب في التوراة. ومن بين عناصر الهكسوس تلك القبيلة التي حملت لقب (قاطعو الرقاب)، والتي كتبت بالمصرية (سا - جاز) (هـ كاس) أو (هـ كاز) ويبدو أنها كانت القبيلة الزعيمة التي أعطت لجموعهم اسم الهكسوس، وربما كان الدكتور لويس عوض محقاً في ربطه ذلك في إشارته إلى أنهم هم من أكسب الحجاز اسمه، بعد طردهم من مصر.

وربما عن لنا أن نضيف هنا، أن الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر بعد ذلك، متأثرين بعقيدة إخناتون التوحيدية، وعبادة إله أوحد كتبه المصريون (أتون)، وكتبه الإسرائيليون (أون) أى السيد/ الرب، ربما كانوا هم أصل كلمة (عدن) في العرب العدنانية، حيث أن (أون) أو (أدن) يمكن ببساطة أن تنطق (عدن) بقلب الهمزة عيناً، وهو أمر وارد في الساميات، وربما أحلنا هبوط هؤلاء التابعين لعدن أو أدن جنوباً نحو جزيرة العرب، إلى الصراع الذى دار فى قادش على حدود سيناء الشرقية، بين الخارجين من مصر، والذى لا شك أدى إلى انفصال اتجه بموجبه كل فريق وجهة تخالف الآخر، فاتجه أحدهم نحو فلسطين، بينما اتجه الآخر نحو الحجاز وهو الأمر الذى يفسر لنا ذلك المدهش فى عمل على فهمي خشيم فى كتابه (آلهة مصر العربية)، وهو الكتاب الذى قدم جهداً، للتدليل على أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة ليستا توأمتين، بل هما لغة واحدة، وقدم لنا معجماً وافراً رائعاً حقاً، وهو ما يجعلنا نظن أن تلك الهجرة التى حدثت من مصر، بعد أن عاش المهاجرون فى مصر نحو أربعة قرون، اكتسبوا فيها عقائدها ولغتها، هى تلك التى عرفت بعد ذلك بهجرة العرب العدنانية إلى جزيرة العرب، خاصة وأن التوراة قد أشارت بما لا يدع مجالاً للشك، أن لفيفاً عظيماً من المصريين، قد خرج مع الخارجين، وهم من نظنهم الاتباع المخلصين لعبادة (أتن) أو (عدن) الإله الواحد، وهم من نظنهم كانوا الطرف الثانى فى صراع قادش مع الطرف الإسرائيلى الذى عبد (يهوه) إله البراكين والثيران فى سيناء، وأنهم هم من اتخذ سبيله جنوباً إلى جزيرة العرب ليحملوا اسم العرب العدنانية، احتمالات نرجحها، وهى قيد البحث المطول بين أيدينا الآن، فى كتاب: (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولا نعلم الآن هل سيؤيدها البحث أم سينفيها.

أما النبى إبراهيم نفسه فقد كان من المنطقة الكاسية التى قدمت منها هجرة الهكسوس إلى مصر، وبالتحديد من الولايات الأرامية أو الأرمينية، لذلك كان يعقوب (إسرائيل) يردد دائماً

أراميا تائها كان أبى، وهو التعبير الذى يشير إلى حركة انتقالية واسعة للأب إبراهيم ونسله فى المنطقة .

وبعد، لا يغرب عن بال قارئنا أن كل هذا الحديث عن ذلك الموعظ فى التاريخ القديم، لا علاقة له بدولة إسرائيل الحالية، فلا علاقة البتة بين الشراذم المؤتلفة الآن فى إسرائيل، والتي تجمعت من أنحاء مختلفة وأوطان شتى، لا يجمعها سوى العنصرية الدينية، وبين قبيلة بنى إسرائيل التاريخية من بنى يعقوب، إن الموجودين الآن فى إسرائيل ليسوا عنصرا ولا جنسا واحداً، إنهم فقط مجرد يهود. وعلاقة أى فرد منهم بأبطال التاريخ الإسرائيلى مثل موسى أو إبراهيم، لا تزيد ن علاقة مسلم من بلاد الصين بنبى الإسلام .

معارك فكرية

هل بنى الفراعنة الكعبة؟!

تصحيح مغالطات *

د. سيد كريم على مطالعتنا بمجلة الهلال، بنظريته حول علاقة الديانة المصرية القديمة بديانات البدو الساميين، وبخاصة عقائد أهل جزيرة العرب، وهو رأى بحد ذاته يتسم بكثير من الصحة والوجاهة. وقد ذهبت كثير من المدارس العلمية إلى القول بتأثير مصر القديمة فى عقائد جيرانها، وألف أصحابها فى ذلك مؤلفات شتى، ولنا فى ذلك مؤلف خاص حول عقيدة الخلود المصرية، بحسبانها التبع الأصل لعقيدة الخلود، التى ظهرت بعد ذلك فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، بعنوان (رب الثورة: أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة).

لكن للحفاظ الأساسى على كتابات د. كريم يتأسس من البداية، على طريقة المعالجة، ومدى التزامه بشروط البحث العلمى ومنهجه، وعلى مدى صدق مقدماته التى كثير ما أدت إلى نتائج أكثر بطلاناً منها. ولما كانت معالجة كل موضوعات السيد الدكتور المنشورة، إطالة لا حاجة إليها، لأنه يدور باستمرار حول فكرة واحدة وهدف واحد، فقد تخيرنا أخطر هذه الموضوعات، وأكثرها شمولاً لأفكاره المكررة فى مختلف كتاباته، وهو المعنون بـ «قدماء المصريين وبناء الكعبة»^(١).

والغريب إنه رغم خطورة هذا الموضوع فقد مر مرور الكرام، ولم نسمع أو نقرأ عليه تعقيباً، على حد ما نعلم، مما أعطى السيد الدكتور الضوء الأخضر للإستمرار والمثابرة. وواضح من البداية أنى لن أكون مجاملاً، وفق حسابات بسيطة تماماً، أولها أن ميدان البحث العلمى، ميدان لا يصح فيه لفارس تجاوز شروط الفروسية، وقواعد اللعبة، لتحقيق قصب السبق. وأعتذر عن استخدام تعبير (اللعبة)، فى حديثى عن العلم وشروطه، لأن الموضوع برمته كان عند د. كريم مجرد لعبة. وثانى هذه الحسابات هو أن القارئ أمانة، والكلمة أمانة، وأول شروط البحث العلمى هى الأمانة. ورغم بساطة الحسابات، فإنها لم تترك لنا بصرامة حقوقها (وهى لوجه الحق، حق، وأحق أن تتبج) أى فرصة للمحابة أو المجاملة.

موجز الأمر

ويقوم مقال د. كريم على فكرة أساسية تسلطت عليه، مفادها: أن المصريين القدماء، قد

(*) نشر بالعدد ٨١ من مجلة القاهرة الصادر فى ١٥/٣/١٩٨٨.

(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة، مجلة الهلال، فبراير ١٩٨٢.

اكتشفوا مبدأ التوحيد فى العقيدة الإلهية، منذ بداية الأسرات الفرعونية الحاكمة، وربما قبلها، ومن ثم قام ببنى على فكرته قصة ملخصها: أنه عندما قامت الثورة الكبرى فى مصر القديمة ضد الملك، وضد الكهنة ورجال الدين، فى نهاية الأسرة السادسة الفرعونية^(٢)، هرب كهان مدينة (منف) - ويزعم الكاتب أنهم قوم موحدون - إلى الجزيرة العربية، حيث اكتنوا هناك بالكلمة (بنى مناف)، أو أهل منف، بينما أطلق عليهم الفراعنة اسم (جرهم) أى مهاجرى مصر، وأن النبى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) عندما ترك سريته (هاجر)، مع رضيعها (إسماعيل) فى جزيرة العرب، ووجدت نفسها وسط أعراب لا تعرف لغاهم، لجأت إلى قبائل (جرهم) المصرية، الذين آروها، وأمكنها التفاهم معهم. وكان (بنو مناف أو الجراهمة) قد أقاموا فى هذا المكان بيتاً للرب هو (الكعبة)، على غرار كهنتهم المصرية التى تركوها فى منف ونعرف حالياً بـ (هرم سيدوم)، ثم تلقى القول بذكره: «وليس هناك من شك فى أن زيارة جميع الأنبياء إلى الكعبة، ابتداءً من سيدنا إبراهيم إلى إسماعيل وشعيب وموسى، قد بدأت جميعها بعد زيارتهم لمصر، وتفهم عقيدة التوحيد وإيمان المصريين بالبعث والحساب والآخرة وخلود الروح»، ثم يزيد فيقول: إن إشارة النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) أنه خيار من خيار، من خيار قريش، وأن قريشاً من كنانة، فإن كنانة لم تكن قبيلة فى جزيرة العرب كما كنا نتصور، إنما هى (مصر الكنانة)، وأن النبى (صلى الله عليه وسلم) يشير بذلك إلى أن أسلافه إنما كانوا مصريين.

والعجيب فى أمرى مع د. كريم، أننى ألتقى تماماً معه فى القول بهجرة مصرية إلى جزيرة العرب، كانت سبباً فى نشوء اتجاه دينى هناك. وقد عالجت هذا الأمر فى بحث خاص، كنت أود إرفاقه بهذا التعقيب لولا أنه سيضيف مساحة يضيق بها المتاح فى عدد واحد، إلا أن أول ما يزعج أى عارف بتاريخ مصر هنا، هو قول د. كريم: أن الثورة المصرية ضد الملك والكهنة فى نهاية الأسرة السادسة، هى التى أدت إلى هجرة أصحاب (منف) إلى جزيرة العرب. وقوله بصريح العبارة أنهم أصحاب عبادة الإله (رع). ومصدر الإزعاج هنا هو أن منف كانت مقراً لعبادة الإله (فتاح) وليس (رع)، وإن الإله (فتاح) قد توارى فى الظل مع مدينته (منف) بعد أن قام كهنة الإله (رع) بانقلاب دينى وسياسى فى الوقت ذاته، واستولوا على الحكم فى نهاية الأسرة الرابعة، وأسسوا الأسرة الخامسة الحاكمة، واستمروا فى

(٢) يفترض د. كريم أن الثورة المصرية الأولى فى العصور القديمة قد حدثت إثر انهيار الدولة القديمة أى بعد سقوط الأسرة السادسة، سيراً مع الافتراضات الشائعة، ولذا فى ذلك اجتهاد يعود بزمان الثورة إلى ما قبل ذلك، بل ونظير أن هذه الثورة كانت سبباً فى سقوط الدولة القديمة، وليست نتيجة لها، لرجع إلى كتابنا (أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة) صادر عن دار فكر للنشر، وقد ناقشنا فيه مسألة التوحيد باستفاضة بخاصة فى الفصلين الأولين.

الحكم فى الأسرة السادسة. وكانت مدينة الإله (رع) المقدسة، هى مدينة (أون) عين شمس الحاتية، وليس مدينة (منف).

وبذلك تكون الثورة الشعبية التى قامت ضد الملوك والكهنة، قامت ضد ملوك وكهنة الإله (رع) فى (أون) وليس فى (منف)، ويكون الإله (رع) إله مدينة (أون) وليس إله مدينة (منف)، مما يشير إلى خلل خطير فيما قدمه السيد الدكتور لقارنه، أما إن أراد صدق المراد، فإن هجرة أهل (منف) تكون قد سبقت الثورة الشعبية بحوالى ثلاثة قرون أو أكثر، عندما حدث الصدام بين (منف) و(أون)، أو بين أتباع (فتاح) وأتباع (رع)، الذى انتهى باستيلاء (رع) وأتباعه على سدة الحكم.

ومن هنا، فإذا كنا نلتقى مع السيد الدكتور فى أمور، فإننا نخالفه فى أخرى، وهى ليست مخالفة لمجرد المخالفة، إنما سيراً مع صحيح الأمور وتاريخيتها. أما أشد تحفظاتنا فهى تتعلق بمدى التزام الكاتب. أى كاتب. بالحياة والموضوعية وتحرى الحقيقة، بحيث لا يميل مع هواه كل الميل، فيفسر النصوص على الرأى الخاص ليؤكد فكرته. ومن هنا، وتأسيساً على ذلك، سنناقش ما كتبه د. كريم بمعيار واحد، هو مدى التزام الصدق العلمى وشروط تحقيقه.

الآلهة المصرية

لقد كان جميلاً من د. كريم أن يحاول اكتشاف جديد، يضيفه إلى مجموعة إبداعات وكشوف المصريين القدماء، فقام يختار (مبدأ التوحيد) ليضعه من بين أول الكشف التى وصل إليها المصريون فى (منف)، منذ بداية الأسرات وقيام الدولة المركزية، أى منذ حوالى خمسة آلاف عام مضت، وبذلك يؤكد فى موضوعه أنهم كانوا أساتذة عرب الجزيرة فى ذلك، عبر الأنبياء الذين زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد، ثم عادوا يعمونه فى جزيرتهم، وعبر الهجرة الكبرى لكهان (منف) بعد الثورة إلى الجزيرة.

والسيد الدكتور لا شك. بمقصده. يريد أن يرفع أكثر من شأن قدامى المصريين وينزع عنهم شبهة التعدد فى العبادة. وهو فى ذلك يبرهن على وفاء لمصر، وحب نادر المثال مشكور، لكن البحث العلمى شىء، ومعانى الحب والكره والوفاء أو عدمه، شىء آخر، لا مكان لها فى قاموس البحث العلمى، ولعله لم يرغب عن بال السيد الدكتور أن مصر العظيمة بأفضالها على الإنسانية، ويكشفها فى مجال الفكر والتحضر، ليست بحاجة إلى محاولات جديدة، كأن تكون أصل التوحيد الإبراهيمى، خصوصاً أن المصدر الأقدم عن رواية النبى إبراهيم ورحلاته وعبادته (أقصد التوراة، وكانت المصدر الوحيد فى ذلك حتى مجيئ

الإسلام) ليس فيها ما يشير إلى عبادة واحدة، ولا تشير التوراة في قصتها عن النبي إبراهيم وعهده إلى إله واحد، بل إلى (إلوهيم) أى مجموعة الآلهة. ولم نعرف عن النبي إبراهيم أنه كان موحداً إلا عندما جاء القرآن الكريم، وأوضح أن إبراهيم النبي هو أصل التوحيد الحنفى.

نعم ولا شك أن القول بكشف المصريين لهذا المبدأ الدينى الذى يركز العبادة فى ذات واحدة، ينسب لهم قصب السبق فى أمر هو من الفتح المبينة. لكن المشكلة أن ذلك لم يحدث، وإن كان قد حدث فلم يحدث إلا بعد ذلك بقرون فى عهد إخناتون على ما يزعم البعض. هذا إضافة إلى أن د. كريم لم يكن موقفاً كل التوفيق وهو يحاول ذلك.

ولعل أول ما يعترض مقولة د. كريم، القائلة: إن أهل (منف) فى الأسرة القديمة أول الموحدين، هو أن المصريين القدماء لم يعرفوا التوحيد بالمعنى المطلق الذى عرفناه فى الإسلام، (الذى يقصده د. كريم) طوال تاريخهم الدينى الطويل، فكانت الآلهة تربيو على المنات، (آلهة أقاليم، وآلهة مدن، وآلهة عواصم، وآلهة للدولة، وآلهة لقوى الطبيعة، وآلهة للملوك، وآلهة الشعب) تنطبع بوجه عام بالشكل الطوطمى الممثل فى رأس الحيوان على الجسد آدمى. وكان واضحاً أن المصريين قد توقفوا عن تطوير شلون الآلهة، ولم تشكل المسألة بالنسبة لهم قضية شاغلة، بعد أن انصرفوا إلى أمرين: الأول هو البناء السياسى والحضارى وتأمين الحدود عسكرياً والتقدم العلمى الدنيوى والثانى: هو التجهز لعالم آخر مقبل يجازى فيه الإنسان على ما أتاه من أعمال فى دنياه. وكان هذا المبدأ الثانى بدوره مسألة حضارية ملحة، حيث يقوم التعامل الاجتماعى بمقتضاها على أسس خلقية تضمن للمجتمع سلامته وتماسكه وأمنه، كى ينصرف أكثر إلى شلون الارتقاء بدولته وبحياته الأرضية، هذا إضافة إلى العامل البيئى الذى ارتبط به التعدد وسناقشه بعد قليل.

ونعل د. كريم لم يقصد بالتوحيد ما عرفه المصريون بإله الدولة، فهو لم يكن بالمرة توحيداً إنما اعتراف بسيادة (إله الدولة) على بقية الآلهة الإقليمية. تدعيماً لمركزية الحكم ليس إلا، وحتى هذا الإله السيد كان يتغير مع تغير الدولة الحاكمة، فهو بداية كان (حور)، ثم فى الدولة القديمة (فتاح)، ثم (اتوم رع)، ثم فى الدولة الوسطى الإله أمين أو (آمون) المندمج برع، بل وكان هذا الإله السيد يدخل باستمرار كضلع أكبر فى أسرة ثلاثية (أب وأم وأبن). وهو أمر طبيعى يتسق وفكر الإنسان فى المراحل الأولى من تطوره، عندما كان يتصور الإله على شبهه ومثاله، ويسلك مثل سلوكه، ويتزوج، وينجب، ثم يدخل هذا الثلاثية فى تناسخ، حتى كان لكل مدينة ثلاثيتها وتناسخها الخاص، ولم يكن الإنسان فى باقى أنحاء المعمورة أكثر توفيقاً من ذلك. فرغم استفادة اليونان والرومان من علوم الشرق وبخاصة مصر، وكان

يفترض فيهم ارتفاع أكثر سيراً مع سنة التطور، ولما ورثوه من تراث ثقافى عن مصر، فإنهم فعلاً تقدموا وكونوا إمبراطوريات عظمت، وأضافوا للإنسانية رصيذاً جديداً، ومع ذلك كانت آلهة الأولمب بالملات إضافة إلى كم هائل من مغامرات الآلهة. كان يلقى هناك بكرة وأصيلاً.

لكن يبدو أن د. كريم قد رأى فى التعدد لدى المصريين مثلبة ونقيصة، تعيب بقية علومهم وفنونهم، فأراد أن ينزهم عنها، وغاب عنه أن ذلك كان أمراً طبيعياً سواء كان آلهة بالملات، أم نكتيلاً أو تنسيعاً. أم تنسيعاً كما حدث لدى الرافديين من قدامى الساميين، ولم يكن له أى أثر مباشر فى تخلف اجتماعى أو حضارى بل كانت مصر رائدة فى كافة الميادين العلمية، بينما كان الآخرون فى بداية بداوتهم ينعمون (من الأنعام) أو على الأصح يتمرغون، أيا كانت ادعاءاتهم، ولعله يعلم أن العالم المتقدم اليوم - سواء فى الغرب الذى يعتقد بالتثليث، أو فى الشرق الذى يدين بالاشتراكية العلمية - يسمى العالم المتقدم، لإنجازاته فى العلوم الدنيوية، ولو قسمناه بمنطق د. كريم، لكان أشد العوالم تخلفاً. أو يصبح واجباً عليه إثبات أن الأمريكان والسوفيت موحدين!! وهو أمر لا شك عسير.

التوحيد والتعدد

وكانت فكرة التوحيد فى مصر فكرة طارئة، وحالة واحدة ونادرة، حدثت فيما يزعم بعض الباحثين، إبان حكم الفرعون الشاب (إخناتون)، وانطفتت سريعاً ولم يمضى عليه فى الحكم سبعة عشر عاماً، وانقضى أمرها وأنتهى، بعد ثورة قضت على حكمه، ولم يعرف مصيره بعدها. ويذهب د. كريم وراء هذا المذهب - وهو فى ذلك معذور - لأن ذهابه كان وراء الرأى السائد والاتجاه الغالب بين الجماهير ثم هو يضيف إلى حديثه عن التوحيد (الإخناتونى) لوحة جميلة للفرعون يسجد إماماً وخلفه صفوف الساجدين. ولكن الذى لم يلحظه د. كريم وهو يدلل باللوحة على معنى التوحيد، أن السجود معروف فى غالبية الأديان، لدى عباد مظاهر الطبيعة والوثنيين، وليس سمة خاصة بطقس الصلاة لدى الموحدين وحدهم، والعجيب فى أمر إخناتون (وليس بعجيب) أن تفرغه لعقيدته لم يكن على دولته الإمبراطورية سوى الأنهيان، بعد أن انصرف عن شئون دولته الدنيوية، وما تحتاجه من فنون سياسية وعسكرية وإدارية إلى تصوفه وغيبابه عن واقع دولته فى غيبوبة غيبوبة، وبعد أن ترك له أجداده إمبراطورية تمتد من الجندل الرابع جنوباً فى العمق الأفريقى، إلى تركيا وأرمينيا شمالاً، إلى إيران شرقاً. فقد حلت بركات الفرعون الشاب بعد أن تفرغ

لشئون الدين، وصم أذنيه عن نداءات الاستغاثة التي كانت تصله من الحاميات المصرية في بقاع الإمبراطورية تباعاً، والتي حفظتها لنا رسائل تل العمارنة. تجأ بطلب العون، ضد الثورات الإقليمية التي أخذت تنهش جسد الإمبراطورية وتقتطعه جزءاً فجزءاً، وصاحبنا لاه في دروسه الغيبية عن غرور الدنيا، حتى عادت مصر من بعده تنكمش داخل حدودها الدولية مرة أخرى^(٣).

لكن الأعجب من كل هذا هو الإصرار على أن (أخناتون) كان موحداً توحيداً مطلقاً، وهو أمر يثير الشك، فمن يذهبون هذا المذهب. من أصحاب الرأي الذين تابعهم د. كريم، لأن التدقيق في منمنمات هذه العقيدة وفسيفسائها، يكشف أن كل أشعار إخناتون وأناشيده، تشير إلى اعتقاده الجازم أنه هو شخصياً ابن الإله (آتون)، وأن فيه قد حلت قدرات هذا الإله وبركاته^(٤)، كما أن هناك شواهد قاطعة على تقديس الثور المنفى في مدينة إخناتون، التي أطلق عليها اسم (أخت آتون)^(٥).

(٣) لا يخلو مصدر تناول مصر القديمة إلا وأسهب في الحديث عن دور إخناتون في ضياع الإمبراطورية، ومثالاً لذلك مصر الفراغة لجاردنر، والحضارة المصرية لجون ولسون، وفجر الضمير لبرسند، ومصر والشرق الأدنى القديم للدكتور نجيب ميخائيل وغيره كثير.

(٤) من النماذج التي يزعم فيها إخناتون بلبوته للإله آتون (على سبيل المثال):

لقد خلقت الناس
ليعيشوا من أجل ابنك
الذي خلق من أطرافك
ذلك الملك الذي يعيش في الحقيقة
نور

طالما أبى آتون يعيش
فأني سأقيم أخت آتون
لأبى آتون
نور وصف وزير خارجيته له بقوله:
أنت الذي يشكل الإنسانية
ويهب للأجيال حياتها
ثابت ثبات السماء
التي يعيش فيها آتون

ارجع إلى فليكونسكي: أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، ص ٥٨ : ٦٠.

(٥) يقول جاردنر: «وهناك إشارة غريبة جاء فيها أن عجل منف في هليوبوليس يجب أن يدفن هو كذلك في أخت آتون، وهي دلالة أخرى على اعتماد الآتونية الجديدة على واحدة من أقدم العبادات في مصر، وكان وضع خراطيشه بجوار خراطيش آتون تدل على أنه كان لا ينفرد إطلاقاً من ادعاء نصيب من ألوهية أبيه المقدس». ارجع إلى سير ألن جاردنر في كتابه مصر الفراغة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص ٢٤٨ و ٢٥٥.

أما الشك فمدعائه عندنا هو أن إخناتون قد تربى في طفولته خارج بلاده مصر عند أخواله الساميين في بلاد ميتاني^(٦) (كانت أمه سامية، ترجم اسمها عن المصرية تاي، ونرى صق الترجمة ضى أو ضياء)، وأنه عاد إلى مصر عند موت أبيه ليتولى الحكم. ومن هنا كانت جنسيته مصرية، أما ثقافته فسامية. ويبدو أن ذلك هو الدافع الخفى الذى دفع الباحثين للتغاضى عن عبادة الثور فى أخت أتون وتآليه إخناتون لنفسه، وإغفالهم المتعمد لذلك، بحسبانهم الساميين أصحاب الإكتشاف التوحيدى، بينما كل ما فعله (إخناتون) فى رأينا هو محاولته تسييد إله سامى غريب على مصر، اعتاد عبادته فى ميتاني هو المعروف باسم (أتونيس)^(٧)، أو باللسان المصرى الأرق (أتونيس)، وأصله (آدون) أو (أتون).

ويبدو أن المصريين قد رأوا فى ذلك خيانة لآلهة البلاد الوطنية التى عادة ما كانت ترتبط بمعنى المواطنة وبالوطن ذاته، ومن ثم كانت عبادة آتون خيانة عظمى، استوجبت الثورة على البدعة الوافدة، التى لم تكن ثورة من وثنيين مصريين متخلفين، على بيانة راقية بدوية سامية موحدة، كما حاولوا تصوير الأمر، واستحق إخناتون بعد ذلك أن يلقيه مواطنوه (مجرم أخت آتون)، أما تلاميذ المدارس فقد ظلوا زمانا يتدربون على كتابة مواضيع إنشاء عن (الخائن من أخت آتون)^(٨).

ولعلنى أكون مخطئا، وربما أكون مصيباً، عندما أطرح تصورى لمسألة التوحيد والتعدد فى التاريخ الدينى، مرتبطة بالطرف النبلى، لكنه اجتهاد شخصى يصح قبوله أو رفضه، ويقوم هذا التصور على الفصل والتفريق بين البيئة الزراعية النهرية، والبيئة البدوية الصحراوية، ففي البيئة الزراعية تتعد أشكال الطبيعة ومظاهر الحياة تعدداً ثرياً هائلاً، (أنهار دافقة، شلالات، أحجار جامدة، شجر، طيور، حيوان نافع، حيوان ضار، كائن ضخم قوى، حشرة ضعيفة، موسم خصب، موسم جفاف، أصوات وضجيج من كل نوع، سيمفونية نعرفها نحن أهل الوديان الخصبة، تضج بالنقيق والعواء واللغاء والتغريد والهدير).

وفى المقابل نجد البيئة الصحراوية ضدية بالشكل واللون والصوت، مظاهر الحياة محدودة جداً وتكاد تنعدم، فالصحراء تترامى أطرافها دون طارئ جديد، فهي رتيبة الوقع متشابهة دائماً، مشهد واحد باستمرار، ولون واحد باستمرار، أصفر مسترخى يتمطى فى كلبان مثلية، وزمن هادئ التوقيع، نادر المفاجآت، والإيقاع الدائم تتأوب وقيلولة فى صمت ممتد

(٦) عن تربية إخناتون فى ميتاني. لرجع إلى فيكتوفسكى فى المصدر المشار إليه آنفاً.

(٧) عن الإله أتونيس. لرجع إلى موضوعنا (إلهة الجنس والزهرة - اتفاق عربية، عدد ٩ - ١٩٨٢ بغداد) وإلى موضوعنا (البعد الأسطوري للشيطان فى التراث الشرقى) مجلة فكر للدراسات والأبحاث، للعدد ١٠، للقاهرة.

(٨) «ظل جيلان بعد إخناتون يشيران إليه: العدو من أخت آتون»، جارندر، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

أبدا. ومن هنا نزع أن العامل البيئي أدى دائما بالبدو إلى نظرة مصبوعة بالتوحيد والوحدانية، مقابل أثر التعدد الهائل للحياة وصخبها في الحياة النهرية الزراعية، مما دعى إلى اقتراب البدوى من معنى الواحد مقابل المتعدد عند المزارع.

ومع ذلك عندما كانت تتعد المظاهر، كان البدوى يعدد، فهو مرة يعبد ألتيس، ومرة يسجد للصخر، ومرة يثور البركان فسيجد للبركان مرتعدا، لكنه كان التعدد البسيط السهل، بما لا يقارن بمظاهر بيئة المزارع الضجوج الخجوج المتغيرة المتلونة دوما، وما كان أسهل أن يكشف البدوى قيمة خروفيه، وأهمية القمر في ليل الصحراء الصامت المفزع، فيقرن بين قرنى الخروف وقرنى الهلال، فيسجد عابدا، ويهتف الباحثون: مهللين لقد تم التوحيد، وأصبح الخروف قمرا، فى أفنوم واحدا!!.

مغالطات

ويبدو أن د. كريم لم تتقبل نفسه أن تكون هاجر مجرد جارية، منحها فرعون مصر للنبي إبراهيم ليتسرى بها، على ما جاء فى التوراة. ولا نعلم هل كان ذلك ترفعا بها عن ذلك، أم ترفعا بالنبي عن معاشره الجوارى؟ وكليهما كان واقعا فى العهد الخوالى. فلم يكن هناك حرج على الأنبياء والمؤمنين من إتيان ملك اليمين والتسرى بالجوارى والإماء. لكن د. كريم يعامل الماضى بذوق الحاضر، فيؤكد أن هاجر كانت إحدى أميرات البيت المصرى المالك، فى الأسرة الثانية عشر الفرعونية، حوالى عام ١٨٩٠ ق.م، بالتحديد والتدقيق والتمحيص والتفحيط المبين. ثم لا يعطينا أى أفادة بالمرّة عن مصدر هذا اليقين، ولا من أى مصدر أثارى أو أركيولوجى استقاه! ونؤكد له، ولقارئنا الذى نحترمه ونحترم وقفته لمطالعنا، أنه ليس هناك مصدر أثارى واحد يقول ذلك. ولم يعثر حتى الآن على وثيقة مصرية واحدة تشير إلى النبي إبراهيم وإلى زيارته مصر، لا من قريب ولا من بعيد، ولا بالرمز، ولا بالإشارة، ولا حتى بنص يحتمل التأويل، كما لم تشر النصوص المصرية إلى دخول اليهود مصر زمن النبي يعقوب، مع ولده النبي يوسف ولا حتى لموسى، ولا لرحلة الخروج الشهيرة فى التوراة، وهو أمر أثار حيرة الباحثين طويلا حتى اليوم، وكتب فى ذلك مصنفات شتى لعلماء أجلاء. لم يستطع واحد منهم أن يعطى مثل جزم د. كريم الواثق القطعى هذا. ونحن بالطبع لا ننكر أن ما جاء فى قصص الأنبياء وزيارتهم لمصر قد حدث، لأن ذلك أمر يعد لدينا بدهية تتأسس على إيمان راسخ بالكتب السماوية، لكن ما ننكره هو الادعاء بما لم تكشف عنه آثار مصر حتى الآن، وما نمسك به هو أن يقدم لنا د. كريم ذلك فى صيغة التقرير، فى حين كان يجب عليه تقديمه فى صيغة التقدير، كراى وتقدير شخصى، وحتى الراى الشخصى لا يلقى على عواهنه دون توثيق أو مبررات كافية.

ثم يجازف الدكتور مجازفة مفزعة حقاً، تصيب الباحث بهلع شديد، فيرفق بموضوعه لوحة فرعونية تصور شخصيات توضح سيماهم أنهم من البدو الساميين، وسبق لى أن لاحظت هذه اللوحة فى المصادر، فلم أجد عليها تعليقاً أكثر من كونها شخصيات بدوية سامية فى مصر بزعامة شخص يدعى أبيشا. لكن الأخ الدكتور يعلق بالقول الجهير: "سيدنا إبراهيم عليه السلام، لوحة اكتشفت فى حفريات مدينة منف حيث زار معابدها، وتزوج الأميرة المصرية هاجر عام ١٩٨٠ ق.م" وهكذا، وببساطة يتصورها هينة، هان معها عقل القارىء، عندما يلقيه الأقصوصة وهو يطالع بحسن نية وثقة، ليؤكد فكرة، هى لوجه الحق جميلة، لكنها لوجه الحق أيضاً قد صيغت بأسلوب أقل ما يوصف به أنه نوع من الـ (فهلوة) وغير جميل.

ولا يقتع د. كريم بذلك، إنما يتعمدى، فيعرض لنا صورة الهرم (ميدوم) الواقع غربى مدينة الواسطى (تبعد عن القاهرة ٩٠ كم جنوباً)، المعروف بالهرم الكاذب لضالة الكشف فيه، مقارناً بلوحة للكعبة المكية، مع التعليق على صورة هرم (ميدوم) بالقول: «كعبة منف، هرم ميدوم الكاذب، بناء الملك سنفرى مؤسس الأسرة الرابعة، بنى قبل الهرم الأكبر كرمز لإله التوحيد رع، كان ثالث معبوداته أليت وعيزت ومنى، . ولا ندرى كيف ساغ له أن يتحدث عن توحيد وتثليث فى آن معا بل وتربيع بأضافة كبيرهم (رع). ثم يضيف معقبا: «عندما وصل بنو مناف أو جرهم إلى أرض مكة، أقاموا بينا للرب مماثلاً لمعبدهم الجنازى بمنف، الذى يطلق عليه حالياً هرم اللاهون، الذى بناه الملك (سنفرى) مؤسس الأسرة الرابعة ليكون كعبة للتوحيد».

والآن خلط د. كريم الأوراق جميعاً: فاصطلاح (المعبد الجنازى) شىء، و(الهرم) شىء آخر. و(هرم منف) شىء، و(هرم اللاهون) شىء ثان. و(هرم ميدوم) شىء ثالث فهرم اللاهون يقع قرب هواره من أعمال مدينة الفيوم الحالية، وهرم ميدوم علمنا أنه يقع قرب مدينة الواسطى، وكليهما غير هرم منف المعروف بهرم سقارة المدرج الذى بناه الملك (زوسر)، مؤسس الأسرة الثالثة حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م^(٩).

وما يبدو لنا الآن هو أن د. كريم عمد إلى خلط الأوراق كلها بسرعة خاطفة. وهو عالم بما يفعل تحقيقاً لهدف مقصود، هو أن ينقل هرم (ميدوم) إلى منف ليصبح هو الهرم (المنفى) بدلا من هرم سقارة، وذلك عبر ورقة ثالثة هى هرم (اللاهون)، بحيث يصبح هرم اللاهون هو (الجوكر)، الذى يصرف انتباه المشاهد (آسف: أقصد القارىء) عن الورقتين الأخريين فى الثلاث ورقات (هرم ميدوم بالواسطى وهو المقصود وعليه العين، هرم سقارة وهو هرم منف

(٩) انظر الموسوعة الأثرية العالمية، الهيئة العامة للكتاب، ص ٤٤٩.

الحقيقى وهو المطلوب نسيانه، وهرم اللاهون بالغيوم وهو الجوكر المستخدم لإرباك الصيد: أسف: أقصد القارىء) وقبل أن يفيق القارىء لما حدث، يمد يده يريد ورقة الهرم المنفى، فيطالعه هرم ميدوم بدلا من سقارة، فيسلم القارىء بعد أن تحول الأمر إلى (فزورة) محيرة، فينسى سقارة ولا يذكر سوى ميدوم، وبقدرة قادر يتنقل هرم ميدوم إلى منف، وينتهى دور هرم اللاهون عند هذا الحد بعد انتفاء الحاجة إليه ويدور عقل القارىء فى الطريق المرسوم له بعد أن أصابه الدوار (ويقنع بأن الذى عدى البحر ولم يبتل، العجل فى بطن أمه)!! . ويحقق الدكتور ما يريده . وما يريده هو ميدوم بدلا من سقارة هرما لمنف، لا لشيء إلا لأن صورة هرم ميدوم تشبه الكعبة، وهو شبه لا يمكن لمسه فى الواقع، إنما يمكن تمريره عبر صور مطبوعة غير واضحة ملتقطة عن بعد، تزيد فى ضبابيتها عوامل الطبع أو الطبخ، ومع الطبخ لا يأكل القارىء ملبن إنما يأكل مقلب .

وهرم (ميدوم) مصاطب تهدم أعلاها، إضافة إلى أنه أقرب إلى التكعيب، وكان للعوامل الجوية وللتعرية أثرها فى تآكل الطبقة الملساء من صفائح الجير الأبيض التى تشكل كسوة للأحجار، وقد حدث التآكل على شكل شريط عند الثلث الأعلى من الهرم، فبدا لعيون د. كريم شببيها بالشريط الذى يحيط بالثلث الأعلى من الكعبة، وهو عمل فنى حديث جدا قام به المصريون المحدثون المسلمون، عندما كانت مصر ترسل للكعبة كسوتها، وكان الغرض من هذا الشريط غرضاً جمالياً فنياً بحثاً، كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ليس أكثر، ولم يكن أصيلاً فى بناء الكعبة ذاتها. ومن هنا قام د. كريم بمجازفته الهائلة ليقول: إن الكعبة أنشأها أهل منف المهاجرين فى الحجاز على غرار كعبتهم المنفية (هرم ميدوم) الذى ليس أصلاً فى منف، إنما فى الواسطى، ولا هو بكعبة، إنما مثوى لجسد الملك (والمصادفة الطريفة هنا أنى من مواطنى مدينة الواسطى أصلاً، وحلى لى أن أزور غرفة المدفن الملكى مجدداً، عند معالجة الموضوع، وكتبت هذا الجزء وأنا جالس فى استراحة هرم ميدوم أطالعه عن كئيب، أقلب أمره وأتساءل: هل ظلمه د. كريم أم أنصفه؟ لكنى على أية حال لم أجازف بقراءة الفاتحة على روح الملك) .

رمسيس يؤمن أخيراً

وطوال موضوعه يقدم د. كريم الفكرة الجميلة، ثم لا يلقيها فى صيغة الاحتمال أو الظن، إنما يؤكد! وحتى يكسب لها ثقة القارىء، يقدم لها الدعم من نصوص آثارية، لكنه للأسف

(١٠) جيمس هادى برستد: فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، ص ٢٠٧.

يتدخل فى النصوص، ويردف بها ما ليس فيها، ويقولها ما لم تقل، ليكتسب لرأيه ثقة القارىء المسلم، وهو ما فعله مع الحكيم (آيبور) ذلك الحكيم المصرى العظيم، الذى بلغت حكمته وشهرته حدا دفع (برستد) إلى وصفه بالنبي^(١٠)، وهو إذ يختار رجلا محل ثقة واحترام مثل (آيبور)، يقول: «يضيف آيبور كيف هرب أهل منف إلى الصحراء الشرقية وجنوب الوادى، ثم يردف مستمرا كما أن الحديث لم يزل لآيبور، وعبروا البحر إلى الجزيرة العربية، حيث أطلق عليهم هناك اسم بنى مناف أو منف،؟! وهكذا ورغم جمال فكرته واحتمال صدقها، يدمر الأمر كله بنسبه كلام للرجل الحكيم، هو منه برىء.

وحتى يزيدنا السيد الدكتور نخسراً على جمال أفكاره، وإمكان إثبات صدقها بالأسلوب العلمى، يضيف من عندياته القول: إن فرعون موسى المعروف بأنه رمسيس الثانى (وبالمناسبة هذا فرض مررت الكتابات الصهيونية ولم يتأكد صدقه العلمى)، كانت له زوجة مؤمنة موحدة، فأرسلت مع قائد الجيش المصرى الذى كان بدوره مؤمناً موحداً، كسوة إلى الكعبة، صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد حدث هذا الأمر سراً بالطبع، لأن زوجها رمسيس الثانى كان كافراً أثيماً (ولا يغيب عن القارىء أنه هو الفرعون الذى ترك لمصر أهم الأعمال المعمارية والفنية العظيمة وصاحب غزوات وفتوحات تحسب لمصر كلها)، وهكذا يكون المصريون قد بدأوا صناعة كسوة الكعبة وإرسال المحمل للحجاز من ألوف السنين، ولا مانع أن نتخيل هنا (لئلى مراد) تلبس تاج القطرين، وتغنى على صوت الدفوف وهى تودع قائد الجند: (يا رايحين للنبي الغالى، هنيالكم وعقبالى)؟، وندخل مع د. كريم إلى تمثيلية رمضان، يتسلط فيها فرعون الجبار، وتلتقى فيها الزوجة الملكية سرا بأخيها فى الإيمان، قائد الجند المغوار، ويتعاهدان عند أستار الكعبة فى حب الله، وحتى تأتى النهاية السعيدة. فإن حبكة الدكتور كريم الدراماتيكية استلزمت أن يخالف حتى النص الدينى، ويؤكد أن رمسيس الجبار قد أكرمه الله بالإيمان بعد أن رأى معجزة فلق البحر بالعصا، فنجا من الغرق والحمد لله.

ثم وفى نهاية موضوعه، يقول بذكاء أريب: «... وبعد، فهذه مجرد آراء تاريخية قد يصح بعضها، ويخطئ بعضها، ولكن فى قراءتها فائدة، وبذلك يعتذر مقدما لمن يكتشف أمرا فيؤكد أنها (مجرد آراء)، والرأى يحتمل الصواب والخطأ، لكنه ينتلئ للقارىء العادى المستسلم ليكمل عميلة الحقن قائلا: أنها مجرد آراء، ولكنها (تاريخية)، حتى تثبت الأمر عنده، ثم يصيب هدفا ثالثاً (سيرا على سلة الثلاث رقات) فيحقق لنفسه أهم صفات العالم وهى التواضع، متصوراً ذلك يعفيه من المآخذ.

ولوجه الحق فلا شئ خاص بيننا وبين الرجل إلا الحرص على القارىء الذى ينتلقى المعلومة بحسن نية وثقة فى الكاتب، والحرص على سيادة المنهج العلمى وشروط البحث

العلمى دون الأشخاص، خاصة فى ظروفنا الحالية، ومحاسبة من يتخطاه حتى لو كان الغرض نبيلًا وجميلًا، فالغاية لا يمكن أن تبرر الوسيلة خاصة فى مجال البحث العلمى. ونحن أشد ما نكون حاجة إلى الصدق العلمى، فإن ذهب بدوره، فكل إذن إلى ضياع.

ومرة أخرى أكرر للسيد الدكتور أنه ليس من الضرورى أن يكون التوحيد هو المجد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته، فمجد مصر لا ينكره إلا حاقد أو متجاهل أو كليهما، وهو إنكار لا يشكل أية قيمة، لأننا نعلمه اعترافًا بدواخلهم، وعجزًا فى طوايا ضمائرهم، وقصورًا فى هممهم، وشللًا قعيدا فى تاريخهم، هذا إن كان لهم تاريخ.

عفاريث الترات.. وتراث العفاريث

فى يوم ٦/٨/٩٤، احتفلت فى غرفتى رقم ٤٣٧ بالجناح التاسع بمستشفى الهرم، برفع أهم الممنوعات: القراءة، واستعدت نظارتى العزيزة - بسعادة غامرة، وفتحت صحيفة أهرام ذلك اليوم، بعد انقطاع دام حوالى الشهر عن القراءة لتستوقفنى مرثية الصديق (عزت السعدنى) على أيام زمان وحضارة زمان، عندما كنا جوهره التاريخ ودره الزمان والمكان، وإمعاناً فى الاحتفال المقام على شرف النظارة والسماح بالقراءة رأيت مشاكسة الرجل، بمناقشة سريعة لما قال فى مقاله «زنوبيا.. امرأة بألف رجل، لكن طبيعة العلم غالبية، فأنجرف من المقال من المشاكسة إلى مرثية كاملة على حال الأمة، رفع الله عنها الغمة.

امرأة بألف رجل

لفت نظرى العنوان بداية، وأدهشنى تخصيص (زنوبيا) بتلك المقارنة أو المفارقة، وهى لا شك تستحق أن توصف بكونها تساوى ألف رجل، لكن صياغة العنوان، التى تبدى الدهشة من أمر (زنوبيا)، جعلتها تبدو كما لو كانت حالة نادرة فى التاريخ، وخارجة على القاعدة وعلى المؤلف. بينما تاريخنا، بل تاريخ الإنسانية جميعاً، يمتلئ بإناث تعدل الواحدة منهن آلاف الرجال، رغم سيادة المنظومة الذكورية، والتفوق السيادة للذكر. بل أنك ستجد اليوم كثيرات تعادل الواحدة منهن آلاف الرجال، عالمات متخصصات، يصفن إلى رصيد البشرية العلمى كل يوم، بينما هناك رجال لا يستحق أحدهم أن تضعه فى رتبة بنى الإنسان.

ومع ذلك؛ فإن شهادة واحد من هؤلاء النكرات، تعدل شهادة اثنتين من عالمات الذرة، وما زالت المهندسة أو الطبيبة أو المحامية، تساوى نصف بائع الملوخية أو أحد صبيان بائعى الباطنية (!؟) ولا نفهم عن عالمة الانثروبولوجيا أو البيولوجيا، سوى أنها عورة يجب أن تستتر وأنها للسيد الذكر مجرد متاع، ثم نقف نتساءل لماذا نحن فى ضياع؟ إنه السؤال الزائف زيف الوهم الذكورى، والخيانة الذكورية للمرأة (كأم وكزوجة وكشقيقة وكابنة وكصديقة وككاتبة وكعالمة وكمناضلة وكحبيبة، وكجمال خصيب تتصحربودنه الأرض الخضراء)، إنه السؤال الملتوى الملفت الهارب من السؤال الحقيقى حول حجم الخيانة الذكورية للتاريخ نفسه، ولا ريب أننا بحاجة إلى صدق كاف لامتلاك جرأة طرح السؤال الحقيقى دون خجل.

والمسألة بالأساس مسألة منهج، فالعنوان المندesh يدلل بوضوح على مدى تكريس منهج الثبات المسبق فى عقولنا، الذى كرس فى داخلنا نظرة دونية تبخيسية للمرأة، حتى لو أظهرنا التقديمية، إنه منهج الذكورة البدوى.

زنوبيا والجن

يحكى الأستاذ عزت السعدنى، أنه ذهب إلى مدينة زنوبيا (تدمر) فأبهرته عظمة البناء وفنون الهندسة وروعة التخطيط حتى ردد قول أهالى المنطقة «إن الجن من أعوان سيدنا سليمان عليه السلام، هم الذين بنوا وشيدوا تدمر العظيمة، ومعابدها وأسواقها وحماماتها ومسارحها». وهذه آفة أخرى من آفات منهجنا فى التفكير، أودت بنا إلى ما نحن فيه، فى قاع العالم مع الجن والشياطين، فالحديث نموذج أمثل لمنهج تفكير جماهير أمتنا العريضة الغليظة (والعدد فى الليمون كما تعلمون)، لكن المصيبة أعظم، حيث أن ذلك ليس حديث العامة، بل أصبح حديث الخاصة، والأنكى أنه حديث كتبنا التراثية، التى نملأ أرفف المكتبة العربية، ويوصف أصحابها بأنهم علماء الأمة (١٢)، وتستجد فى كل صفحة من تلك المصنفات شتى أنواع العفاريث، ورتبهم، ودياناتهم، وصفاتهم، ودورهم فى بناء كل ألوان المعمار العظيم فى الحضارات القديمة. وهو ما يحمل دلالات واضحة على تهافت منهج عاجز عن التفسير يلجأ إلى منطق المعجزة، ويكشف عن عدم تصور أى بدائل، وعن مدى كمل ذلك العقل لإيجاد تفسير سليم، فأى نموذج معمارى عظيم الشأن، يستدعى على الفور مقاولين ومهندسين مهرة من السعالى والغيلان وشمهورش وجمهورش وطرايطش (١٣) فالبدوى فى تفرقه القبلى، لم يكن يتصور أبداً، إمكان قيام الإنسان بمثل تلك الأعمال الهائلة، وهو ما قيل فى بناء سور الصين الذى بناه ذو القرنين والجن من أتباع سليمان، كما قيل فى قصور بابل وحدائقها المعلقة، وإن ثبت عدم وصول جن سليمان إلى وادى النيل، فلا شك إذن أن بناء الكرنك والأهرام، كانوا عمالقة الأجسام، حتى يتمكنوا من ذلك الإنشاء الهائل. إنها عقلية الدونية والقزمية والكسل والاسترخاء، بل والتكاسل عن مجرد تصور بشري يقومون بتلك الأعمال العظيمة، فالعظمة ليست للإنسان الغر المفتون إنها دوماً لذلك القابع وراء الطبيعة والجن والعفاريث! ثم إن الأمر على المستوى الاجتماعى، يعبر عن فرقة أصيلة، وقبلية متجذرة، وعقلية لا تعرف التوحد فى وحدات سياسية كبرى تقوم بالمشاريع الضخمة، وتكاتف البشر فى توحد منتظم متين.

لماذا دائماً سليمان ؟

أما الملحوظة التى يجب ألا تفوتنا، فهى حديث المقال الموقن بما قال، فالبناء لجن سليمان، وتكسير الإله البابلى مردوك على يد النبى إبراهيم و.... الخ. وهو ترديد لحديث مأثورنا

التراثى المفرط المبالغ كثيرا لنهاويل، لكن كان لسليمان وجنه دوما الدور الأعظم، سليمان بالتحديد وبالذات.

والمعلوم أن (سليمان) هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل فى فلسطين، حوالى عام ألف قبل الميلاد، والغريب هو ذلك الإيمان الثابت فى العقل بصدق ما جاء عنه فى المأثور، والأعجب هو استمرار ذلك الإيمان حتى الآن، ليسب للإسرائيليين كل الأمجاد رغم تحولات الزمان، ودخول بلاد الحضارات القديمة إلى الدائرة العروبية، ثم مزيد من التبدلات وما يحدث اليوم بقيام دولة إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بعد أن دمرها لنا الرومان، فى سالف الأزمان.

إننا لا نقرأ التاريخ، بل فقدنا الذاكرة التاريخية، بل والحس الوطنى والقومى، وبقي المأثور وحده يرفع يده بعلامة النصر فوق رؤوسنا (١٩) فلم نر المتغيرات، لأن الثبات هو المبدأ، والمبدأ هو الثبات، الحركة تخيفنا، والتغيير يرعبنا، والسؤال يبهتنا، والجديد بدعة، وكل بدعة ضلالة، إذن فليحيا الثبات على المبدأ، وليكن الإسرائيليون هم بناء حضارتنا القديمة جميعا كما يزعمون، أقصد كما نزعم نحن، ما دمنا نؤمن بعفاريث التراث، ونحمل على أكتافنا تراث العفاريث (١٩) وإذا كان جن سليمان قد قاموا بكل تلك الإنجازات، فهل يهون عليهم شفاء مرضى هذا الزمان؟ ثم نتساءل لماذا تنتشر كتب العفاريث على أرصفة الشوارع وفى المكتبات؟.

ويبدو أن صديقنا أراد تأكيد ما سمعه عن الإنجازات الجنية للعفاريث السليمانية، فأورد ما جاء فى كتاب (روبرت وود) - وللحقيقة أنا لا أعلم من هذا الود - حيث قال: «أنه قد جاء فى التوراة ما يفيد أن سيدنا سليمان هو الذى بنى تدمر، وأطلق عليها اسم بالميرا، هذا رغم الفارق الزمنى الكبير بين زمن زنبوبيا وزمن سليمان.

بهذا المنطق يجب علينا أن نؤمن إيمان العجائز بفضل الإسرائيليين الذين فضلهم الله على العالمين، وأن نؤمن بهم كتاريخ لنا، وهو الحادث وفق تلك المنظومة المأسورة (أسف أقصد المأسورة)، بحيث تربعوا داخلنا منذ سنين طويلة مضت، منذ حفظنا قصص إسرائيل وبني إسرائيل المؤمنين، وقصص الكافرين من أجدادنا الفراعين، لنقلب نحن على تاريخنا الحقيقى، ثم نتحدث اليوم بوجل عن الغزو الثقافى الإسرائيلى؟ ألا يستحق الأمر أن نقول: عجبى!!.

تاريخ العجول

ويقول الأستاذ السعدنى، أنه قد رافقه فى رحلته إلى تدمر، السيد (خالد الأسعد)، الذى وصفه بأنه «حجة فى الآثار التدمرية»، وأن هذا الحجة قد أفاد صديقنا علما نافعا بقوله: إن

المعبد هناك كان لعبادة إله باسم (بل)، وكان من الأوفق لو قال له اسمه بالعربية أو الحقيقي بالسامية القديمة، فاسمه العربي هو (بعل)، لكن المرافق الحجة قرأه في كتب الأفرنج، ومعلوم عدم احتواء الأحرف اللاتينية على حرف العين، مما أسقطها من لسان رجل الآثار. ومعلوم أن (بعل) كان إله المطر والخصب والصواعق، ولم يزل الفلاح المصري يطلق على اللبات الذي سقته السماء بمطرها لقب (البعل). وهو ذات الإله الذي انتقلت عبادته إلى جزيرة العرب،، على يد (عمرو بن لحي الخزاعي) فيما تزعم كتب السيرة ليعرف هناك باسم (هبل)، بعد إضافة (هـ) أداة التعريف في العربية الشمالية القديمة، ومع إضافة الهاء سقط حرف العين بقوانين اللسانيات نتيجة وجود الهاء المفخمة فنطق (هبل) بدلا من (هبل).

أما ما جاء بالموضوع عن عبادة إلهين آخرين في تدمر هما (يرحبول) و(عجلبول)، وتفسير الأستاذ السعدني بأنهما إلها الشمس والقمر، فهو ما يحتاج إلى تقويم، فكل الإلهين بعل، فالمذكور باسم (يرحبول) مركب من ملصقين هما (يرح) و(بعل)، وكان القمر يسمى (يرح وأرج) ومنه أخذ اسم (أريحا) أى القمرية، كما كان ينطق (يرخ وأرخ) ومنه أخذت كلمة (التاريخ) باعتبار القمر رمزاً لدورات الزمان، وبعل المرأة ربها وسيدها، وعليه فمعنى (يرحبول) هو السيد أو الإله القمر، وعليه يقاس أيضاً (عجلبول)، فهو الإله العجل، ولا عجب، فقد قدس الأقدمون العجل أو الثور، حتى لقب الملوك أنفسهم بلقب (ثور) تشبهاً بالآلهة القوية، الآلهة الثيران، وقد قرن الثور أو العجل بعبادة القمر، بالمقارنة بين شكل الهلال وشكل قرني الثور، وما بينهما من تشابه، فكان الهلال هو ثور السماء الإلهي، ومن ثم فإن (يرحبول) إنما يرمز للقمر عندما يكون بدرأ، أما عجلبول فيرمز للقمر عندما يكون هلالاً، لقد كانت عبادة قمرية، ذات دلالة عروبية. ولم تزل للهلال قدسيته، فالشهور قمرية، والتاريخ قمرى، والصيام قمرى، والزمن العربى كله قمرى، كله يرحبول، كله عجلبول، بمنهج الثبات على المبدأ.

حكاية المنهج

ما الذى دفعنى وأنا على سرير المرض إلى كتابة ما كتبت الآن؟ لقد بدأ الأمر بمشاكسة صديق من باب المداعبة التى لا تفسد قضية الود، لكن يبدو أن موضوعه قد نكأ الجراح واستدعى استنفاراً داخلياً إزاء كل النماذج التى تملأ أرفف المكتبة العربية، وأرفف العقل العربى، وبالطبع صحفنا الغراء، تكرر وتردد بثبات وبيقين، تزايد وتضيق، من ذات الرصيد إلى ذات الرصيد، ولا تضيق إلا مزيداً من المعلومات المتحفية إلى معلومات حجرية، وتتناقص فى ذلك مع التفاضل الميمون، لينافسوا جميعاً الرصيد الأصيل فى «دجمته، وثباته

عند الأصول، وإن أرادت المعاصرة والتحدث بحدائق، رددت معلومات مغلوطة، مغلفة بأسلوب حكائي مزوق، دون النظر إلى ما تفعله في عقول الناس، ثم نسأل أنفسنا: لماذا الأصولية؟ لماذا الإرهاب؟ إنها النتيجة الأخرى لذات المنهج! أسئلة يكمن وراءها الثبات على المنهج الأوحد، فكل شيء واضح لكننا لا نريد أن نرى، فقط هذه هي المسألة!.

لذلك كله انتهزت فرصة ذلك المقال، لأملاً فراغ الوقت لحين استكمال المشوار العلاجي الطويل، لأنه فتح كل الجراح دفعة واحدة، وتحدث في صميم همومي، ويقدر ما كان (روتين) وزارة الصحة مزعجاً بل ويشعاً، بقدر ما كان (روتين) التاريخ ثابتاً ساكناً مترهلاً نائماً يرثم تشخيرة واحدة رتيبة. ويقدر ما شعرت بطعن ألم المرض في قلبي، بقدر ما لم يعد بالإمكان تحمل مزيد من الطعن في رأسي وآمالي وأحلامي في مستقبل هذا البلد وتلك الأمة.. إنهم يقتلون أحلامنا يا سادة!!

المنهج يا سادة، الدوجمة، المسبقة، واليقين القطعي، وغياب العقل النقدي، والتكاسل المخيف عن بذل الجهد، يفرش ظله السحري على حياتنا ليفسد علينا كل شيء، الرؤية الاستاتيكية للتراث، التي لا تربطه بواقع، بقدر ما تعتبره شيئاً فضائياً جاء من فراغ، رغم تزلزل كل البنى التحتية التي قام فوقها، حقاً نحن أغرب أمة أخرجت للناس. نخلط التراث، بمسلمات ما أنزل الله بها من سلطان، بالحكي الشعبي، بالتاريخ الحقيقي مع تزييف نموذجي ليلتقي بالمأثور الديني، كما نفعل في حكاية العلم والإيمان التليفزيوني لنرضى في النهاية الإيمان التليفزيوني، ونرضى أنفسنا التي تركز للسكون والترهل، ويرضى المتاجرون بمصير الأمة بما ربحوا.

وأثناء ذلك نسقط دون وعي في شبك التاريخ الإسرائيلي، لنكتب لهم، نيابة عنهم، أمجد التاريخ، ونسب أسلافنا وبناء حضاراتنا الكبرى بأقذع سباب اخترعه الإنسان، وهو النموذج الذي مثله هنا بناء جن سليمان لمدينة تدمر! وهو نموذج بسيط إزاء الكم الهائل المتراكم على أرففنا من زاد لا تنفذ خزائنه، وهو التراكم الذي يجعلنا نتخذ من المأثور مرجعية ومقياساً ومعيّاراً لكل شيء، ونزق حشراً في كل أمر، ومثله ما جاء في المقال المذكور أن (بعل) هو الإله البابلي (مردوك)، وأن (مردوك) قد تم تكسيره على يد البني إبراهيم.

هكذا ببساطة نقلى القول، فقط لأن إبراهيم كسر أصناماً كما جاء بالقرآن الكريم، ولأن بعض المؤرخين قالوا أنه عراقي الأصل، ولأن مردوك كان أحد آلهة العراق، فلا بد إذن أنه لم يسلم من فأس إبراهيم (!؟) بالله ماذا يمكن أن يفعل مثل ذلك الكلام بقلبي المريض؟ إن قولاً كهذا كى تثبته أو تنفيه، عليك أن تكسر له من عمرك سنوات، وعندما تكون أى دراسة من دراساتي قد استغرقت من عمري زمناً، وأعملت المرض في قلبي، فإن إلقاء القول هكذا على الناس، وفي ظروفنا، ومع حالتنا، يصبح قتلًا حقيقياً.

مرة أخرى إنه منهج الترديد، وأقول لصديقي الذي لا أشك في نواياه: إن البحث عن المعرفة الصادقة هدف إنساني وعظيم، والبحث الذي يسعى لتحقيق مطامحنا الوطنية والقومية لا شك أعظم، لكن كي يكون الأمر بحثاً، وكي يثمر نتائج لا تدفعنا إلى مزيد مما نحن فيه، فحاجتنا أكبر للتخلص من أوهام المنهج الثابت الأوحـد، حتى لا نتصور أننا ندافع بإخلاص عن قوميتنا، ونقع في التعصب القبلي، لنصحرو يوماً ونكتشف أننا داخل القبيلة الإسرائيلية، وسبب من أسباطها، خاصة في هذه الأيام، التي بدأ فيها التاريخ يردد صـداه، ويعكسه على رؤوسنا.. سلام.. سلام. وعليكم السلام.

الرد اليسير على توراة عسير

(كمال الصليبي)، أصبح اسما مطروحا في المنتديات الثقافية، ومتواتراً في هوامش البحوث التي تتناول تاريخ القبائل الإسرائيلية، أو ما تعلق بها من أبحاث في المجتمع أو الدين أو الاقتصاد أو السياسة. وعلى مستوى الانتشار أخذ اسم (الصليبي) موقعه من غرابة النظرية التي يطرحها في مولفاته. وعلى مستوى البحوث العلمية أخذ مكانه من باب تثمين مضطر للنظرية، سواء بالاتفاق أو الاختلاف، لما قدمه الرجل من جهد وقرائن على نظريته، الأمر الذي يجعل من فساد الرأي التغاضي عنها، عند بحث شأن من شئون الجماعة الإسرائيلية.

ونظرية (الصليبي) تذهب - عموماً وبإيجاز - إلى احتساب القبائل الإسرائيلية، قبائل عربية قحة، سبق أن عاشت في جزيرة العرب في الأزمنة التوراتية القديمة وبالتحديد في منطقة عسير غربي الجزيرة، وأن جميع الأحداث التي قدمتها التوراة كمادة تاريخية وثائقية عن بني إسرائيل من فجر تاريخهم، إنما حدثت جميعاً في بلاد عسير العربية، وكانت أهم براهين الباحث وقرائنه، وممكن قوة نظريته قد جمعت تقريباً وحشدت في كتابه الأول *The Bible Came From Arabia*، المترجم عن الأصل الألماني *Die Bible Kam aus dem Lande ASIR*، وقد ترجمت النسخة الإنجليزية إلى العربية تحت عنوان: «التوراة جاءت من جزيرة العرب».

وقد أتبع الباحث ذلك الكتاب بكتابين آخرين وإن كانا أقل تماسكاً وأدنى في الدرجة وفي قدرة الإقناع عن كتابه الأول، قدمها للتخديم على نظريته الأساس التي ضمنها كتابه الأول، ومن ثم جاء على قدر واضح من الهزال والضعف والتعسف، أولهما بعنوان (خفايا التوراة) والثاني بعنوان (حروب داود)، لذلك سيكون مناظ حديثنا هنا مادته الأساس وملاطحة الخرساني في كتابه الأول (التوراة جاءت من جزيرة العرب).

والدكتور (كمال الصليبي) يعمل رئيساً لدائرة التاريخ بالجامعة اللبنانية، فهو أستاذ دَرَس مادة التاريخ - فيما علمنا - لأكثر من ثلاثة عقود متصلة، ويبدو لنا أنه قد ركن إلى قناعة تتضح بها سطور العهد القديم من الكتاب المقدس، عند حديثها عن الرب التوراتي (يهوه)، وهي القناعة التي لا تهتز أمام الصفات التوراتية ليهوه، بأنه لم يكن أكثر من بركان، أو على الأقل أن البركان كان أبرز رمز تجلى فيه، وهو البركان الذي توجه إليه الخارجون من مصر بقيادة موسى النبي، في جبل باسم (حوريب)، ويذكر مرات باسم جبل (سيناء). فإن المتوقع

(*) نشر بالعدد ١٢٧ من مجلة القاهرة في يونيو ١٩٩٢، القاهرة.

تماماً أمام التفاصيل التي تحدثت عن صفات (يهوه)، أن نجد ذلك الجبل البركاني في شبه جزيرة سيناء، لكن المشكلة التي واجهت الجميع، هي تأكيدات جاءت تؤكد أن سيناء لم تعرف البراكين إطلاقاً طوال تاريخها.

وربما كان من الأوفق الرجوع إلى بعض نماذج صفات الرب (يهوه) في التوراة، والتي كونت القناعة بالرب البركاني لدى (صليبي) - دون أن يذكرها - ولدى كثير من الباحثين، ولدى كاتب هذه السطور، ومن تلك النماذج:

* وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب... وليلاً في عمود نار (خروج ١٣/٢١).

* وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح، أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل.. وأخرج موسى الشعب لملاقاة الله.. وكان جبل سيناء كله يدخن، من أجل أن الرب قد نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الآتون، وارتجف كل الجبل جداً.. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل (خروج ١٩/١٦ - ٢٠).

* الرب إلهك هو نار آكلة (تثنية ٤/٢٤).

* على الأرض أراك ناره العظيمة، وسمعت كلامه من وسط النار (تثنية ٤/٣٦).

* يمطر على الأشجار فحاشا، ناراً وكبريتاً وريح السموم (مزمور ١١/٦).

* فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه (مزمور ١٨/٦ - ١٢).

* صوت الرب يقدح لهب نار، صوت الرب يزلزل البرية (مزمور ٢٩/٧).

* وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل، أمام عيون بني إسرائيل (خروج ٢٤/١٧).

وهنا، لن نجد أى مهتم بدراسة التاريخ الإسرائيلي سوى التسليم ببركانية الإله، ثم التسليم أيضاً بالمأزق الشديد المحير، إزاء ما أفادنا به الباحثون أن شبه جزيرة سيناء لم تعرف البراكين طوال تاريخها. ويبدو أن المأزق ظل علامة استفهام مؤرقة لصليبي، حتى تصادف وطالع كتباً تفصيلية، لجغرافية شبه جزيرة العرب، أشعلت لديه فكرة جديدة تماماً، يمكن أن يكون فيها الخروج من المأزق الذهني الملحاح، وأسئلته الحائرة المؤرقة. حيث وجد تطابقاً مدهشاً بين مواضع أسماء كثيرة بجبال عسير - وهي جبال بركانية عموماً - وبين الأسماء التي وردت في

التوراة، للمواضع الجغرافية القديمة في تاريخ إسرائيل التوراتي. وعندما قام بعملية تدقيق لإحداثيات تلك المواضع، انتهى إلى يقينه الذي وضعه في شكل كشف خطير بحق، يؤكد أن كل الأحداث التوراتية إنما جرت في جبال عسير، وأن الإسرائيليين عرب أقحاح، وأنهم لم يدخلوا إطلاقاً مصر الفرعونية، ولم يخرجوا منها قط، وأن هناك مغالطة تاريخية هائلة، أدت إلى هذا الخطأ التاريخي العظيم في معارفنا، وأنه مما يدعم وجود تلك المغالطة، هو غياب أي دليل وثائقي مباشر في مدونات مصر القديمة، يشير إلى دخول الإسرائيليين إليها أو خروجهم منها، أو إقامتهم فيها. ومن هنا شعر الدكتور الصليبي عن همته بإعادة النظر في الجغرافيا التوراتية محاولاً إثبات أن جميع الأحداث التي جرت والمواقع التي حدثت بها تلك الأحداث، لم تقع لا في مصر، ولا في فلسطين، ولا فيما بينهما (سيناء)، بل وقعت جميعاً بلا استثناء في مرتفعات عسير بجزيرة العرب، معتمداً على تحليل لغوي مقارنة، طابق فيه بين المواضع الجغرافية التي أوردتها التوراة، وبين مقابلها في غربي جزيرة العرب.

أساس الكتاب

وكان أهم تبرير قدمه (صليبي) لمذهبه ونظريته، هو ما جاء في قوله: «ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات، والحقيقة الساطعة، هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى، قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وأن بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأرخت، في حين أنه لم يعثر في أي مكان كان على أثر يتعلق مباشرة إلى أي حد بالتاريخ التوراتي. وأكثر من ذلك، فإن التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة من قلة قليلة، تماثلت لغوياً مع أسماء أمكنة في فلسطين... وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإن الإحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في إطار الموقع، أو المسافة المطلقة، أو النسبية، لا تنطبق على المواقع الفلسطينية.. وسجلات مصر والعراق القديم، قد قرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتي أجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية، تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين»^(١).

ومن هنا أسس الباحث عمله بالركون إلى تلك السلبيات التي طرحها، حول التاريخ التوراتي وتاريخ المنطقة المدون، ميمماً وجهه شطر عسير، بادئاً بتحديد منهجه ومواد عمله

(١) كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، ط ٢، بيروت، ص ٥٠: ٥٢.

فى مقدمة كتابه بقوله: «وأساس الكتاب هو المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة فى التوراة بالحرف العبرى، وأسماء أماكن تاريخية أو حالية فى جنوب الحجاز وفى بلاد عسير». ثم يحدثنا عن الصدفة التى جعلته يعثر على عالم التوراة القديم (المفقود) فى جزيرة العرب بقوله: «لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، كنت أبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربية فى غرب شبه الجزيرة العربية، عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك فى منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠ كم، ويعرض يبلغ حوالى ٢٠٠ كم، تشمل ما يسمى اليوم (عسير) والجزء الجنوبي من الحجاز، وكان أول ما تنبّهت إليه أن فى هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة فى التوراة، وسرعان ما تبين لى أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة فى ذهنى، أو جلها، ما زال موجوداً فيها، وقد تبين لى أيضاً أن الخريطة التى تستخلص من نصوص التوراة فى أصلها العبرى، سواء من ناحية أسماء الأماكن، أو من ناحية القرائن أو الاحداثيات، تتطابق تماماً مع خريطة هذه الأرض الموصوفة فى التوراة، مع خريطة الأرض - بين النيل والفرات - التى اعتبرت حتى اليوم أنها كانت بلاد التوراة.. وهنا قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه، فاليهودية لم تولد فى فلسطين بل فى غرب شبه الجزيرة العربية وليس فى أى مكان آخر.. ويجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية، فى ثنايا الاتجاه فى منحى التوحيد فى عسير القديمة»^(٢).

مشكلة اللغة

وهنا كان على (الصليبي) أن يبدأ - بالطبع - من مشكلة اللغة، ليجد ما يشير إلى أن اللغة العبرية القديمة (وهي أيضاً اللغة الكنعانية بإقرار الكتاب المقدس) وكذلك اللغة الآرامية، وكلتاهما: العبرية والآرامية، كانتا لغة إبراهيم (إبراهيم). فاللغة الأصلية لآله وأسلافه هي اللغة الآرامية، واللغة التى اكتسبها بهبوط (كنعان) أو أرض التوراة القديمة هي العبرية/ الكنعانية. لقد وجد صليبي - فيما يزعم - كلتا اللغتين، وبالطبع وبالتبعة كلا الشعبين، الآرامى والعبرى (وبالضرورة الكنعانى)، فى بلاد عسير العربية. ولأنه قرر أن يعمل على أساس المقابلة اللغوية لأسماء الأماكن، فقد جاء اكتشافه لوجود تلك الشعوب ولغاتها فيما جاء بسفر التكوين ٣١/٤٧ - ٤٩ عن الميثاق الذى تم بين يعقوب (العبرى)، وخاله لابان (الآرامى)، وهو الميثاق الذى أقيم بموجبه شاهد تمثّل فى كوم من الأحجار، أطلق عليه لابان بلسانه الآرامى (يجر سهودثا)، وأطلق عليه يعقوب بلسانه العبرانى (جلعيد والمصفاة). وقد وجد صليبي أن تلك الأسماء ما زالت تطلق حتى اليوم على ثلاث قرى صغيرة متجاورة، فى منحدرات عسير

(٢) نفسه: ص ٢٧، ٢٨.

البحرية، فى منطقة «رجال ألمع، غربى أبها، وهى: قرية الهضبة وهى فى الآرامية (يجر)، وقرية (الجدد) وهى عند الصليبيى المقابل، لاسم (جلعيد)، ثم قرية (المضاف) التى هى بقلب الصاد (المصفاة)»^(٣).

وعليه يذهب إلى نتيجة يؤكددها، وهى أن المملكة الإسرائيلية، قد تأسست فى غرب شبه جزيرة العرب، بين أواخر القرن الحادى عشر، وبين مطلع القرن العاشر الميلادى، قياسا على تاريخ هجرات الفلسطينيين والكنعانيين من عسير إلى فلسطين، بضغظ افتراضه قد حدث من قبل الإسرائيليين عليهم فى عسير، وهناك أطلق المهاجرون إلى فلسطين أسماء مواطنهم القديمة فى عسير، على مقار استيطانهم الجديدة بفلسطين، وهو ما يفسر لنا التشابه بين أسماء المواضع الجغرافية الفلسطينية، وبين أسماء المواضع التوراتية، وهى الظاهرة المرتبطة بالهجرة فى كل زمن وفى كل أنحاء العالم، فالمهاجرون يحنون دوما إلى الوطن الأصلى، فيطلقون على مواضع مهجرهم الجديد أسماء البلدان والأقاليم والجبال والأنهار التى تركوها فى مواطنهم الأولى^(٤).

وإعمالا لنظريته، يرى الدكتور صليبي، أن جميع الهجرات المصرية التى تم تجريدتها على فلسطين، كانت فى حقيقتها موجهة ضد بلاد عسير غربى جزيرة العرب، وبخاصة حملة (شيشانق الأول) الفرعون المصرى ضد مملكة يهوذا، فى أواخر القرن العاشر قبل الميلاد. كذلك الحملة الثانية التى قادها الفرعون (نخاو الثانى) فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، حيث كان البابليون قد حاولوا السيطرة على عسير، مما أدى إلى صدام حتمى بين المصريين والبابليين فى عسير، ومن ثم فإن وقعة (كركميش) التى وردت فى العهد القديم (أخبار الأيام الثانى ٢٥ / ٢٠، إشعيا ٩ / ١٠، إرميا ٤٦ / ٢)، لم تجر فى داخل الأراضى التركية، وأن موقع (كركميش) ليس (جربلس) الحالية كما ذهب المؤرخون، إنما وقعت المعركة بين جيوش الأمبراطوريتين: المصرية والبابلية قرب مدينة (الطائف) جنوبى الحجاز، حيث الدليل عند الصليبيى يقوم فى قريتين: الأولى تحمل اسم (القر) والثانية تحمل اسم (قماشة) وجمعهما يصحان (قرقميش).

بل ويذهب السيد الدكتور إلى أن الحملات المصرية المبكر، التى تعود بتاريخها إلى الألف الثانية قبل الميلاد، والمفترض علميا أنها كانت موجهة لاحتلال مواضع بعينها فى فلسطين

(٣) نفسه: ص ٣١.

(٤) نفسه: ص ٢٦، ٣٨.

وبلاد الشام، إنما كانت في حقيقتها موجهة ضد (عسير)^(٥)، والدليل الدامغ على ذلك، هو أنه لو كان داود وسليمان وقتذاك هما السيدان الفعليان لدولة كبرى في فلسطين، تسيطر على الإقليم الاستراتيجي الذي يفصل مصر عن العراق، كما هو الافتراض الشائع، لأشارت إليهما السجلات المصرية والآشورية المتعاصرة. بينما لا نجد في تلك السجلات أيا كانت سياسية أو عسكرية، أية إشارة لهذين الاسمين، بخاصة في أخبار غزوات مصر وأشور على فلسطين.

ثم يقدم لنا تفسيره لوجود الإسرائيليين، والديانة اليهودية في فلسطين، بأنه أمر حدث متأخراً عن الأحداث الكبرى في التاريخ التوراتي القديم، وأن الأمر كان ناتجاً عن التدخلات المصرية المستمرة والدائبة في بلاد عسير، مما أدى إلى انقسام مملكة سليمان الكبرى في غربي جزيرة العرب، ونشوب الحروب بين شقيها المنفصلين: يهوذا وإسرائيل. وما تبع ذلك من غزوات الآشوريين والبابليين، التي انتهت بتصفية (سرجون الثاني) الآشوري لمملكة إسرائيل عام ٧٧١ ق. حيث احتل عاصمتها (السامرة) التي هي عند صليبي قرية (شمران) الحالية بعسير، ثم تبعه (نبوخذ نصر) الكلداني البابلي ليقضي على مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ ق. م، حيث ساق الآلاف منها إلى بابل أسرى، وعندما قامت مملكة فارس الإخميدية أفرج (قورش) عن الأسرى، فعادوا مع عائلاتهم إلى عسير، ولكن ليجدوا أن كل شيء هناك قد أصبح خراباً، فعاد أغلبهم إلى فارس والعراق، وتوجه التيار الرئيسي نحو فلسطين ليقوم هناك بينما دخلت - في زحمة الأحداث - الأصول العربية لبنى إسرائيل في غيابات النسيان، وساعد على ذلك الغياب التحول الذي طرأ على اللغة بحلول القرن السادس قبل الميلاد، حيث ماتت اللغة العبرية/ الكنعانية، وحلت محلها اللغة الآرامية في كل مكان، وظهرت اللغة العربية كمنافس للآرامية، فتخلبت في النهاية بحلول القرون الأولى من العصر المسيحي^(٦)، هذا بينما كان يهود الجزيرة العربية يتحولون نهائياً إلى اللغة العربية، وهي التحولات التي توافقت مع نسيان كامل للأصول العبرية القديمة في عسير العربية^(٧).

نماذج لغوية مقارنة

بطول كتابه لايني الدكتور صليبي ولا تفتر همته، عن دعم ما ذهب إليه بنماذج لأسماء الأماكن التوراتية، وما عثر عليه مقابلاً لها في خريطة عسير العربية وفق تلك النماذج التي

(٥) نفسه: ص ٣٦، ٣٨.

(٦) نفسه: ص ٣٩، ٤٤.

(٧) نفسه: ص ٤٦.

وضعها جميعا غربى الجزيرة، وحسب تخريجاته اللغوية المقارنة، يمكن تقديم النماذج الأساس الآتية:

- أرض جاسان التى سكنها بنو إسرائيل بمصر، هى قرية (غلن) بعسير.
- مدينة رعميس هى (مصاص).
- فيثوم هى (آل فطيمة)^(٨).
- سكوت هى (سيكة) بالطائف^(٩).

- مصر ليست مصر الفرعونية، إنما هى (مصر) فى وادى بيشه، أو (المضروم) فى مرتفعات غامد، أو هى (آل مصرى) فى منطقة الطائف. ولو احتجنا بأن مصر التوراتية كان يحكمها فرعون، فإنه يرد بأن كلمة فرعون تلك مأخوذة من اسم قبيلة (فرعا) الموجودة الآن فى وادى بيشه^(١٠) (وبالطبع منذ أكثر من ثلاثين قرنا دون أن تتحرك رغم أنها قبيلة بدوية مرتحلة دوما). ونهر مصر الوارد فى التوراة مصحوبا بأحداث عظيمة حول شأنه، ليس سوى واد جاف اسمه (وادى لية)، وأن التوراة لم تسمه وادى مصر، إلا لأن هناك تقع قرية فى حوضه باسم (المصرمه)^(١١)، ثم لم يكن خروج بنى إسرائيل من مصر، وعبورهم البحر المعروف فى التوراة باسم (بحر سوف)، بالعصا المعجزة ثم عبورهم الأردن بالدوران حول دول آدوم وموآب وعمون، لفتح فلسطين، كل هذا لم يكن سوى عبور جبال السراة بمنطقة الطائف إلى الليث^(١٢).

- الدول الكبرى التى وردت فى المدونات المصرية كما وردت فى التوراة تقع بدورها فى جبال عسير، فمعلوم أن مملكة (دمشق) الآرامية كانت الحد الشمالى لدولة إسرائيل الفلسطينية، ومن هنا وجب نقلها بدورها إلى عسير، لتصبح قرية (مسقو) فى ناحية العارضة شرقى أبو عريش^(١٣)، و (مجدو) الفلسطينية، أعظم فتوحات تحتمس الثالث الفرعون المظفر، إنما هى قرية (قصوى) فى منطقة القنفذة^(١٤)، أما بلاد لبنان بمدنها وقرائها وجبالها وأرزها، لم تكن فى الحقيقة سوى (لبينان) شمال اليمن بجوار نجران^(١٥).

(٨) نفسه: ص ٥٣.

(٩) نفسه: ص ٢٠٢.

(١٠) نفسه: ص ١٤٨.

(١١) نفسه: ص ٢٦٠.

(١٢) نفسه: ص ١٤١.

(١٣) نفسه: ص ١١٦.

(١٤) نفسه: ص ١١٩.

(١٥) نفسه: ص ١٥١.

- ودولة (ميتاني)، بجيوشها وملوكها وحضارتها وتاريخها، والتي حدثنا جدول الفرعون (شيشانق) عن هزيمتها وإخضاعها لسلطان مصر، فهي لا تقع في أقصى شمال الفرات، إنما هي (وادي مغان) بالطائف. وأن كل ما فعله (شيشانق)، هو أنه استولى هناك على مجموعة قرى متناثرة بذلك الوادي. ولما كانت النصوص المصرية تشير إلى (ميتاني) باسم ثان هو (نهارين)، لوقوعها بين نهري دجلة والفرات في أقصى اتساعهما، داخل الأراضي التركية، فقد رأى الدكتور صليبي أن ذلك خطأ فادح، حيث وجد في وادي مغان بالطائف قرية باسم (النهارين)، بل أن حديث الفرعون (شيشانق) عن هزيمته لجيوش دولة آشور تفسير خاطيء من المؤرخين، لأنه إنما هزم جيوش قرية (يسير) الحالية (١٢) بمنطقة رابغ في تهامة الحجاز^(١٦). أما الإشارات التوراتية لنهر (الفرات) فإنها كانت تعنى واديا باسم (أضم) حيث توجد بجواره قرية باسم (الفرت)^(١٧)، أو ربما كان واديا آخر باسم (خارف) بجوار تنوكة شمال أبها^(١٨)، وللقارىء أن يختار ما يحلو له.

- وللقارىء أيضا أن يختار أو (يحتار) بين اثني عشر اسما لاثنى عشر موقعا لقرى تقابل اسم (إسرائيل) الدولة، منها على سبيل المثال: السراة، آل يسير، يسير، أبو سرية.. الخ^(١٩).

- كذلك المدن الواردة بالتوراة باعتبارها مدنا فلسطينية، إنما تقع بكاملها في جبال عسير. فبئر سبع لا تقع جنوبي فلسطين، لأنها هي قرية (الشباعة) قرب خميس مشيط^(٢٠)، وكذلك (جرار) لا تقع على الساحل في أقصى جنوب فلسطين، لأنها هي قرية (القرارة)^(٢١)، وقادش هي (الكدس)، و(شور) المفترض أن تقع على حدود مصر الشرقية هي (آل أبوتور) في وادي بيشه^(٢٢)، وميناء (يافا) ليس على ساحل المتوسط، لأنه هو (الوافية) قرب خميس مشيط، والزرقا ليست شرق الأردن، لأنها هي (الزرقة) في جيزان^(٢٣) أما حصن صهيون بأورشليم، فليس سوى قرية (قعوة الصيان) في مرتفعات رجال ألمع غربي أبها^(٢٤). كذلك بقية المدن الفلسطينية المشهورة، التي يتم نقلها جميعها إلى عسير،

(١٦) نفسه: ص ٢١٩.

(١٧) نفسه: ص ٢٦٠.

(١٨) نفسه: ص ٢٧٦.

(١٩) نفسه: ص ١٩٦.

(٢٠) نفسه: ص ٩٦.

(٢١) نفسه: ص ٩٧.

(٢٢) نفسه: ص ٩٨.

(٢٣) نفسه: ص ١٢٠.

(٢٤) نفسه: ص ١٧٨.

فتصبح (بيت إيل) هي (البطيلة) في سراة زهران^(٢٥) وبيت لحم تصبح (أم لحم) في منطقة الليث^(٢٦)، وحبرون المصطلح على أنها الخليل الحالية جنوبى فلسطين، يتم وضعها في قرية (الخربان) في منطقة المجاردة^(٢٧).

- والمدن الفلسطينية الخمس على الساحل، المشار إليها في التوراة بالأقطاب الخمسة، تصبح عنده كالتالى:

* غزة = (عزة) في وادى أضم^(٢٨)، وفي موضع بعيد في كتابه تصبح (آل عزة) في بلحمر جنوبى النماص^(٢٩)، ثم في صفحات أخرى أكثر بعداً نجدها منسوبة إلى قبيلة (خزاعة)^(٣٠).

* أشدود = السدود في رجال المع.

* عسقلان أو أشقلون = شقلة بجوار القنفذة.

* جت = الغاط في جيزان.

* عقرون = عرقين في وادى عتود بين رجال ألمع وجيزان^(٣١).

- وسكان فلسطين القديمة، ومنهم العبرانيين، إنما كانوا في الحقيقة سكان قرية (آل غبرانى) في ظهران الجنوب^(٣٢)، والكنعانيون كانوا سكان قرية (القنعة) القديمة، لكن ربما كانوا من قرية أخرى هي (قناع)^(٣٣)، وصيدا ليست على الساحل اللبناني لأنها هي قرية (آل زيدان) في مرتفعات شهدان في أراضى جيزان الداخلية^(٣٤)، وجبل حوريب المقدس بسياء، يقع في الحقيقة قرب قرية (خارب) في وادى بقره^(٣٥).

- وأسماء أسباط بنى إسرائيل جميعا تقع بدورها في جبال عسير، كالتالى:

* رأوبين نسبة لقرية (اعريبان) في سراة زهران مع مواقع أخرى محتملة نختر من بينها.

* شمعون نسبة لقرية (الشعون) جنوب جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختر من بينها.

(٢٥) نفسه: ص ٢٠٠.

(٢٦) نفسه: ص ٢٠٢.

(٢٧) نفسه: ص ٢٠٣.

(٢٨) نفسه: ص ٢٥٣.

(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.

(٣٠) نفسه: ص ١١٦.

(٣١) نفسه: ص ٢٥٣.

(٣٢) نفسه: ص ٢٣٨.

(٣٣) نفسه: ص ١٠١.

(٣٤) نفسه: ص ٩٩.

(٣٥) نفسه: ص ٧٠.

- * يهوذا نسبة لقرية (الوهدة) فى رجال ألمع مع مواقع محتملة نختار من بينها.
- * دان نسبة لقرية (الدنانة) مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
- * نفتالى نسبة لقرية (آل مفتله) مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
- * جاد نسبة لقرية (الجادية) فى سرة غامد مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
- * أشير نسبة لقرية (وشر) فى جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.
- * يساكر نسبة لقبيلة (يشكر) الحالية (١٩) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.
- * زبولون نسبة لقبيلة (الزباله) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.
- * يوسف نسبة لقرية (آل يوسف) فى بلسمر مع قرى أخرى محتملة نختار من بينها.
- * بنيامين وهو الاسم الذى أطلقه الشعر الجاهلى على أهل اليمن (٣١).
- * (وربما كانت القرى والقبائل المذكورة - بالعكس - نسبة للأسباط).

المنهج والنظرية

هذه بإيجاز نظرة سريعة على أطروحة (كمال الصليبي)، لا تغنى - بالقطع عن قراءة الكتاب، كما لا تعبر - باليقين - عن الجهد المبذول بإخلاص فى هذا العمل الثرى، والذي أبهر متقفيها إلى الحد الذى لم يلتفتوا فيه إلى مجرد إعادة التصنيف ونموذجاً له ما قدمناه، وكان كفيلاً وحده بهذا الترتيب وبالقراءة والدراسة المقارنة، أن يبدل أسباب الدهشة، بل وطبيعة النعشة.

وقد اختار الرجل مع براعته، منجهه المخلص بتواضع جم، رغم ما وضح من إمكاناته العظيمة فى مجال اللغة تحديدًا، وإن ذهب فى مواضع أخرى إلى الاعتداد الشديد. إلا أن المشكلة الحقيقية التى تواجه عمله بالكامل، وباعترافه هو نفسه فى مقدمة كتابه، هى أنه لم يأخذ علم الآثار باعتباره على الإطلاق، وحين تناول بعض المدونات التاريخية القديمة، كان ينزعها من سياقات عدة ترتبط بها، ليدعم بها رؤيته فى شموليتها، محتجا بأن المسح الأثرى لمناطق غربي الجزيرة لم يتم بعد بشكل تام، كما لو كانت نظريته قد ثبتت وانتهى القول بشأنها فعلا، ولم يبق سوى التنقيب وراءه، للجد هناك تحت الرمال عالم التوراة القديم برمته، وهو التصريح الذى أكدده دوماً فى أكثر من حديث صحفى. وفى المقابل أهمل الرجل تماماً أثارى المنطقة، فى مصر والرافدين والشام، ومدوناتها. وهو ما يمكن أن ينطق بالكثير كما سنرى. لذلك كانت خطورة عمله القاصمة لأساسه، هو أحاديته التى أهملت تماماً جميع

(٣١) نفسه: ص ٣٠١ : ٣٠٤.

النظريات الأخرى حول التاريخ التوراتى، مع إهداره المطلق للجانب التاريخى الوثائقى، حتى داخل الكتاب المقدس ذاته باعتباره وثيقة تاريخية، وبخاصة المرتبط منه بمصر وفلسطين.

وكان اعتماده على المقارنات اللغوية وحدها، وفى حدود أسماء الأشخاص والمواضع ثم حذفه للحركات والضوابط، التى دخلت على المأثور التوراتى فى القرن السادس الميلادى من قبل أهله، كنتاج ملاحظته لبعض الأخطاء فى التصويت والإعراب، وهو ما حور بعض المعانى، ونحن نقف فى قدرته المتبحرة فى هذا الجانب، لكن المأخذ هنا أنه أعاد النص التوراتى الهائل برمته إلى أصله غير المتحرك، لأنه اقتنص خطأ هنا وقلته هناك، فى بضع كلمات أدى تصويتها إلى تبديل معناها. على ذمته. ضمن حوالى نصف مليون كلمة تشكل ذلك المأثور، لكنه استمر على دربه غير هباب، فقام بتسكين كل الأحرف، ليعيد هو تحريكها بما يوافق حركته بين المواضع التى رآها أهلاً للتطابق معها فى بلاد عسير.

ولو أنقينا نظرة سريعة فيما عرضناه هنا، سنجد (الدكتور صليبي) يحل كل المشكلات الهائلة، التى حارت فيها أفهام العلماء لقرون، حلاً نهائياً تاماً مانعاً، بمجرد إيجاد الصلة أو التطابق بين اسم موضع ورد بالتوراة، واسم موضع عثر عليه فى خرائط جزيرة العرب الغربية، مثلما فعل فى تأكيده أن أهل عسير كانوا يتكلمون العبرية، وإلى جوارهم مباشرة كان هناك قوم آخرون يتكلمون لغة أخرى هى الآرامية (١٩)، فقط لأن كوم الأحجار الشاهدة على ميثاق يعقوب العبرى، وخاله لابان الأرامى، المسمى بالآرامية (يجر سهوذاً) وبالعبرية (جلميد والمصفاة)، يتطابق كأسماء مواضع، مع قريتين عثر عليهما على خريطة رجال ألمع باسم (مزعة آل شهدا) و (الجمد).

ثم أنه لم يلتفت قط إلى أنه من الممكن افتراض العكس، وسيكون هو الافتراض الصحيح علمياً وتاريخياً، حول فرضه أن الأسماء التوراتية الموجودة بفلسطين أطلقها هناك المهاجرون من عسير كذكرى لموطنهم القديم. بمعنى أن العكس ممكن أيضاً وأكثر علمية، فتصبح الأسماء الواردة بجزيرة العرب ومثابهاة لأسماء توراتية، ناتجة عن هجرة إسرائيلية من فلسطين إلى جزيرة العرب، وهو ما نعلمه نتيجة هجوم (آشور) و(كلديا) على فلسطين، ومن بعدهم هجوم (طيّطس) الرومانى عليها وتدمير الهيكل وتشيتت بنى إسرائيل، الذين انحدر أغلبهم جنوباً ليشكلوا فيما بعد يهود شبه الجزيرة العربية الذين تقاتلوا فى مواضع عدة أشهرها خيبر ويثرب واليمن هذا بالطبع إذ سلمنا له بصدق بعض، وليس كل، مقابلاته اللغوية لمواضع الأمكنة وأسمائها.

أما الأشد غرابة فهو اعتماده أسماء موجودة اليوم بالجزيرة لمواضع وقبائل، يراها هى ذات الأسماء التوراتية، بعد مرور أكثر من ثلاثين قرناً، كانت كافية لتبديل أسماء المواضع

التي ذكرها عشرات المرات، ونسيان قديمها وهو أمر معلوم، ومعلوم أيضاً أن أسماء المواضع عادة ما تتغير بتغير سكان المنطقة. وهو أمر دائم التكرار في بلاد البداوة القبلية أكثر من المناطق المستقرة، وذلك للسعى وراء الكلا والتحرك للإغارة أو هرباً من الإغارة، هذا ناهيك أنه قال بنسيان العالم كله للأصل العسيري العربي للإسرائيليين في عسير، بعد أسر في بابل لم يدم لأكثر من نصف قرن، فما باله يرى جزئيات وتفصيل أجدر بالنسيان، خلال قرون طويلة، يراها باقية شاهدة على الأصل العسيري للتوراة القديمة وأهلها في بلاد العرب.

وفي موضع آخر من كتابه يلتفت إلى نقاط ضعف يحاول تبريرها، فهو يشير إلى النصوص الأسطورية التي وردت في التوراة، وضرب منها مثلاً بقصة (الطوفان)، التي تحتاج غمراً مائياً وبلاداً مطيرة ونهرية كأرضية للحادثة، وهو ما لا يتطابق مع حال جزيرة العرب، ليؤكد لنا أنه لا يمكن التأكد أين ولدت مثل تلك الاساطير؟ ومن استعارها؟ ومن أصحابها الأصليين؟ ولكنه لا شك يعلم أصولها المصرية والعراقية والشامية، وسر انتقالها إلى الكتاب المقدس وظروف ذلك! وسبق لنا أن قدمنا في ذلك بحثاً نشرناها في كتابنا (الأسطورة والتراث)^(٣٧) يمكن للقارئ الرجوع إليها، وهو ما لا يمكن أن يتطابق بحال، مع ما ذهب إليه الدكتور الصليبي.

ثم في موضع آخر يجد شاهداً أركيولوجياً لا يقبل دحضاً، يتمثل في (الحجر الموبى)، الذي عثر عليه شرقي البحر الميت، بلاد موبأ القديمة، ويتحدث فيه (ميشع) الملك الموبى عن حروبه مع إسرائيل، فيتحايل على الأمر برمته، ويقول أن النصب قد أقامه (ميشع) في تلك المنطقة التي حددتها التوراة شرقي فلسطين بعد أن هاجر من عسير بعد حروبه مع إسرائيل في عسير (١٩).

ويتمادى فيبالغ ليرى أن حملات المصريين جميعاً، على البلاد التي كان مظنوناً أنها فلسطين وبلاد الشام وجنوب تركيا، إنما كانت جميعاً على شبه الجزيرة العربية، وتحديدًا ضد عسير، بما فيها حملتا (شيشانق) و(نخار) المدونتان في التوراة وفي النصوص المصرية القديمة، كذلك حملات البابليين والآشوريين اتجهت بدورها جميعاً إلى بلاد عسير، وترك العالم الإمبراطوري بقاع الثروة والخصب، والموقع الفلسطيني الشامي الاستراتيجي العالمي، ليتصارع جميعه في بلاد عسير، ولأجل عيون قرى عسير (١٩) وهو أمر نافر تماماً ومتكلف، ناهيك عن فقدته لأي مصداقية أركيولوجية أو وثائقية إضافة لمخالفته للمدونات القديمة التي تحدثت عن تلك الحملات الإمبراطورية!

(٣٧) سيد محمود القملى: الأسطورة والتراث، القاهرة، ١٩٩٢.

نعم لا يكابر أحد أو يجادل في أن المصريين قد اخترقوا بلاد العرب، وأنشأوا هناك مستعمرات متقدمة، لضمان السيطرة على الطريق التجاري البري الذي ينقل بضائع الهند وأفريقيا الشرقية إلى عالم الشرق الأوسط القديم، وهو أمر سبق أن قدمنا عليه قرائن في أعمالنا المنشورة (انظر مثلاً: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول)، لكن أن تكون دولة إسرائيل القديمة قد قامت هناك، وأن كل الصراعات الإمبراطورية قد دارت هناك من أجل تلك الدولة والتي سيقل شأنها أكثر في حال نقلها من موقعها الاستراتيجي بفلسطين، إلى جبال عسير، فهو الأمر الذي يصعب قبوله تماماً،

وما يجعل أمر عسير هنا، (عسيرا) تماماً، هو قول (الصليبي) أن الحملات المصرية جميعاً لم تكن متجهة من مصر إلى حوض المتوسط الشرقي (فلسطين، سوريا، تركيا، العراق)، بل دوماً إلى عسير، حيث أن هناك مراجعات شاملة قد جرت للروايات القديمة بهذا الشأن، خصوصاً المدون المصري منها. وهي إن لم تقطع بأمر موقع أو آخر، فهو أمر طبيعى تماماً في دراسة القديم لكن هناك من الشواهد ما يكفي لضمان سلامة تحديد خطوط سير تلك الحملات. فإن نجد - كمثال - نصباً لرمسيس الثاني على مصب نهر (الكلب) بمواجهة البحر المتوسط، بين بيروت وجبيل، يتحدث عن حملته الأولى على بلاد الشام سنة ١٢٩٧ ق.م، فإنه سيكون دلالة لا تقبل جدلاً ودليلاً شاهداً يكمل أى نقص في المعلومات المدونة حول تلك الحملة، وخط سيرها^(٢٨).

ومثله عندما نتحدث النصوص عن استيلاء (رمسيس الثاني) على بيروت وجبيل، فنحن نصدقها، بهذا الشاهد الأثرى، ولا نذهب مع (صليبي) إلى فيافي الجزيرة العربية البلقع لنبحث هناك عن (لبنيان)، بل نصدق تماماً أن (رمسيس الثاني) قد غطى بحملته نصف الشاطئ الشرقي للمتوسط بتلك الحملة الصغيرة، ثم لا بد أن نصدق مرة أخرى، لوجود عناصر أخرى ترتبط بالحادثة، لأن الحملة كانت إنذاراً للملك الحيثي (ما تتيوالي) سنة ١٣٠٦ - ١٢٨٢ ق.م، ليكف عن تدخلاته في سوريا، ودواعي التصديق، هي الحرب التي خاضها (رمسيس الثاني) بعد ذلك مع الملك الحيثي ملك تركيا القديمة، في موقعة قادش على نهر العاصي السوري، والتي انتهت بتوقيع اتفاق سلام من نسختين، نسخة بالمصرية ونسخة بالحيثية، وقد تم العثور على كلتا النسختين واحدة في مصر، والثانية في (بوغازكوى)

(٢٨) من باب التبسيط نحيل إلى كتاب صغير للدكتور سامي سعيد الأحمد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٣٣.

العاصمة الحيثية القديمة في داخل تركيا، وهو السلام الذي لجأ إليه الملك الحيثي، سعيًا وراء مصلحة التفرغ لحماية بلاده، أمام جيرانه (الآشوريين) وقوتهم المتصاعدة، في بلاد الرافدين الشمالية، وليس في قرية (أبي ثور) في بلقع عسير.

وشواهد أثرية أخرى

وإذا كانت قرية (النهارين) في وادي مثن بالطائف، هي (نهارينا) المذكورة في مدونات مصر، للإشارة إلى دولة الميثانيين، فماذا سنفعل في تلك الحال باللوحة التذكارية التي أقامها (تحتمس) في كركميش (جربلس الحالية على حدود تركيا الجنوبية). والتي يحكى فيها عن انتصاراته هناك، وأخذة الأسرى بأعداد غفيرة، وعن احتفال الملك في رحلة العودة بنجاحه في المعركة، وكان احتفاله بصيد الأفيال، حيث اصطاد فيلا ضخما من مستنقعات (نى) قرب (أباميا) السورية. ولو حتى غرضنا الطرف عن اللوحة التذكارية. التي ربما نقلها شخص ما، في زمان ما، من قرية النهارين في وادي مثن بالطائف، ليضعها في نهارينا دولة الميثاني، كما حدث للحجر الموبى (١٩)، فماذا عسانا نفعل بالفيل الذي اصطاده الملك في مستنقعات أباميا؟ وهو أمر معتاد في سوريا القديمة، لكنه لم يكن موجودا إطلاقا في تلك العصور بجزيرة العرب، ولا في العصور التالية، والفيل الوحيد اليتيم الذي عرفته جزيرة العرب، جاء بعد ذلك بقرون طوال قادما من بلاد الحبش، في حملة الفيل المشهورة على مكة.

أما مدونات بلاد الرافدين، فلم تبخل بالتدوين، ولضرب المثل فقط نجد الملك (تجلاتيلزر الأول) الآشوري، يحكى في مدوناته، أنه غزا سوريا ووصل إلى الساحل الفينيقي، وأخذ الإتاوة من المدن الفينيقية (أوراد، وجبيل، وصيدا)، وقد قتل في ميثاني عشرة أفيال ضخمة، وبالتحديد في منطقة حاران، كما اصطاد أفراس البحر من المياه قرب ارواد^(٣٩).

وبالطبع ما كان بالإمكان حدوث ذلك في بوادي العرب عند (آل زيدان التي يقابلها بصيدا) في أراضي جيزان، وعليه لا يمكننا بالطبع التسليم بأن حملة (تحتمس الأول) لتثبيت حدود الدولة المصرية على نهر الفرات، بواسطة نصب تذكاري أقامه على الضفة اليسرى للنهر، بعد ما تجاوزه قرب كركميش^(٤٠)، لا نستطيع أبدا أن نسلم أن تلك الحملة إنما قطعت كتيبان جزيرة العرب الرملية، مئات الأميال لضرب قريتي (القر) و (قماشة)، هذا إذا

(٣٩) أيضا للتبسيط لغير المتخصص، نحيل إلى كتاب طه باقر: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين (وهو ليس وجيزا على أية حال)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ١، ص ٤٩٢.
(٤٠) يوسف سامي اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٩، ص ٤٠.

غضضنا الطرف عن النصب التذكاري، أو افتراضنا انتقاله هو الآخر من القر وقماشة إلى الضفة اليسرى لنهر الفرات.

وسيادته، عندما يؤكد لنا أن مصر كانت هي (المضروم)، في مرتفعات غامد، أو (آل مصرى) في الطائف، وأن مدينة (رعسيس) التي عاشوا فيها بمصر حسب نص التوراة، إنما هي قرية (مصاص)، وأن بحر (سوف) الذي عبروه إنما كان مرتفعات (السراة) نجدنا مشدوهين تماما، إزاء النص المصرى الذى جاءنا فى شكل تقرير قدمه (بينيبس) كاتب البلاط الفرعونى، لرئيس قلم الكتاب بالقصر (آمنموى)، ويحكى فيه عن مدينة (رعسيس)، ونقتطع منه ما يعنى الموضوع هنا، فى قول (بينيبس):

- إن الكاتب بينيبس يرحب بسيده الكاتب آمنموى.

فى حياة وفلاح وصحة

لقد وصلت إلى مدينة بيت رعسيس محبوب آمون

ووجدتها فى غاية الازدهار..

لديها مؤن وذخيرة كل يوم

بركها تزرع بالسمك، ويحيراتها بالطيور، حقولها يانعة بالبقل

وشواطئها محملة بالبلح

ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح

.....

وشيحور تنتج الملح..

وسفنها تروح وتجىء إلى الميناء

.....

إن مستنقعات زوف تثبت لها البردى

وشيحور تمدّها باليراع.....

وشباب عظيمة الانتصارات يلبسون حلل العيد كل يوم...

ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالأزهار.

وبالنبات الأخضر من بيت حتحور^(٤١).

(٤١) سليم حسن: الأدب المصرى القديم، مطبوعات كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، للقاهرة، ديسمبر ١٩٩٠، ج ١، ص ٣٨٤: ٣٨٩. (نص الرسالة كاملاً).

والمثال هنا يوضح أن مدينة (رععمسيس) ميناء، ملئ بالخيرات مما يشير إلى الأراضي الخصبة، وأنها القريبة من موضعين بحريين هما (شبحور) و(زوف)، إضافة لمنطقة خصيبة باسم (بيت حتحور). والتوراة تقول لنا: إن بنى إسرائيل عاشوا بمصر في مدينة باسم (رععمسيس)، وأنهم عبروا بحرا باسم (سوف/ زوف)، وأنهم عبروا البحر في منطقة باسم (بى حيروت) وهى (بيت حتحور) أما (شبحور) فهو موضع يتردد فى التوراة كمكان بمدينة رععمسيس، كانوا يشربون منه هم وبهائمهم، فهل نهمل كل ذلك، ونلقيه جانبا، لنذهب إلى عسير مع صليبي؟ وهل لم يطالع استاذ التاريخ المتخصص مثل تلك النماذج التى تضرب منها مجرد أمثلة سريعة لقارىء غير متخصص لا نريد أن نثقل عليه؟.

ولا يفوتنا. أنه فى حديثه عن حملة الفرعون (شيشانق) على مملكة (سليمان)، بعد وفاة سليمان بأربع سنوات فقط، والتى حدثتنا عنها التوراة، وذكرت أن شيشانق قد هاجم أورشليم بفلسطين ونهب كنوز الهيكل، فقد وقف (الصليبي) مع نقطة هامة، وضعها ضمن رصيده لرفض أن تكون فلسطين هى محل تلك الحملة، لتأكيد أن تلك الحملة كانت على عسير، وتلك النقطة. وهى جديرة بالاعتبار حقا. أنه بمراجعة جداول (شيشانق) الذى ذكر فيها عند وأسماء المدن التى استولى عليها، مع الدول التى أخضعها للسلطان المصرى، لم يأت على ذكر أورشليم إطلاقا بين تلك الأسماء التى ذكرها فى جدول! لكن الدكتور صليبي وهو يمكك تلك الفجوة لينقل الحملة بكاملها إلى عسير، بيد أنه قد تغافل تماما عن دليل حاسم يؤكد دخول شيشانق أورشليم، وهو النصب التذكارى الذى عثر عليه مؤخرا بمجدو فى فلسطين، ويتحدث بوضوح عن هجوم شيشانق على أورشليم^(١٢)، وهو ما يملأ ذلك الفراغ الساقط فى جدولته الذى اعتمدته (صليبي).

التوحيد العسير

وإذا كان استاذ التاريخ المتخصص، قد ترك الجانب التاريخى برمته، ليتعامل مع اللغة وحدها لإثبات نظريته، فهو الأمر الغريب، أما الأغرب فهو تأكيد أنه التوحيد اليهودى فى العبادة، قد نشأ فى ذلك العصر الموغل فى القدم (حوالى ١٢٠٠ ق.م فيما يذهب إليه)، بين تلك القبائل التى قطنت عسير، وهو أمر إضافة لعسر قبوله، فإنه يخالف منطق التطور التاريخى وشروطه المجتمعية والاقتصادية والسياسية، حسبما تعلمنا فى فلسفة التاريخ، وقوانين الحراك الاجتماعى عبر بقية المنظومات على سلم الارتقاء التاريخى. فنحن نقبل مثلاً ما

(٤٢) سامى اليوسف: سبق ذكره، ص ٦٩.

أخبرنا به علم التاريخ عن الفرعون (أمنمحتب الرابع) أو (إخناتون)، كأول داعية لفكرة توحيد الآلهة في إله واحد، في تاريخ الفكر الديني، (وبالمناسبة فإن الصليبي يؤخر إخناتون زمنيا عن موسى)، وقبولنا للتوحيد عند (إخناتون)، ناتج قراءة تغيد بنضوج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية آنذاك، حيث كانت الأوضاع قابلة لظهور ذلك الطارىء وتلك الطفرة، فقد تحولت الدولة المصرية المركزية إلى امبراطورية كبرى تضم تحت جناحيها دول شرقى المتوسط، وغذى نموها اقتصادى ذلك التراكم الثروى الذى تدفق من بقاع إمبراطورية على مصر، والنضوج التجارى، مما أدى لوضوح طبقي بين المعالم، أما الإتاوات والضرائب والجزى التى تراكمت مع اتساع الإمبراطورية، فقد أدت إلى إفراز فوقى ينزع نحو سيادة إله واحد يرعى مصالح الطبقات السائدة ودولتها الإمبراطورية.

ولما كانت تلك السيادة تتمثل في شخص الفرعون وتتماهى في سيادته، فإنه سيكون مقبولا أن تظهر في مصر فكرة إله يرعى مصالح الطبقة السائدة، ويعبر عن سيادتها، وسيكون مقبولا أيضا انتشار ذات الفكرة التوحيدية لدى الفئات المطحونة التى تريد إله لا يفرق في توزيع الأرزاق. ومن ثم سيكون مقبولا بالتالى أن تتأثر جماعة (موسى) في مصر بظروف مصر، رغم أن نظامها القبلى شوه الفكرة وقصرها على توحيد إله القبيلة الإسرائيلية، بمعنى الاعتراف بآلهة الشعوب والقبائل الأخرى. لكن مع عدم توقيف أى إله آخر سوى إله بلى إسرائيل، أما أن تغفز فكرة التوحيد فجأة دون بنية تحتية تسمح بها في جزيرة العرب، في ذلك الزمن العتيق، في وسط قبلى متشردم لا يسمح، ولا تسمح معه قوانين التاريخ التى لا شك يعلمها الأستاذ الصليبي جيدا، بظهور ذلك التوحيد، حتى لو كان توحيداً ابتدائياً، فهو الأمر الذى يجافى منطق العلم بالكلية.

لكن الأستاذ هنا لا يرى الوسط طبيا متشردما، بل دولة قامت هناك، أقامها شاول وداود وسليمان، ويرى في ذلك دليله الأقوى، الذى رفض بموجبه تفسير العلماء لسجلات التاريخ التقليدية في مصر وأشور، باعتبارها تتحدث عن فلسطين، حين قال أنه لو كانت دول الإمبراطورية تتعارك مع فلسطين، لدونت أسماء هؤلاء الملوك (شاول، داود، سليمان) وهو ما لم يحدث، ونتيجته الحتمية أن هؤلاء الملوك لم يتواجدوا بفلسطين، دون أن يفتن سيادته أن للحجة مردودة عليه. فإذا كانت تلك الحملات الإمبراطورية موجّهة ضد مملكة إسرائيل اليهودية في عسير، وكان (صليبي) صادقا في مذهبه، فإن الطبيعى أن تذكر نصوص مصر والرافدين أسماء هؤلاء الملوك الذين حكموا في عسير، وهو أيضا ما لم يحدث، ويتعادل الموقف، ثم يرجع لصالح فلسطين.

هذا ناهيك عن كوننا لو اعتمدنا أسلوب الأستاذ الباحث في المطابقة لأسماء المواضع والأماكن والأشخاص، مع نصوص التوراة. أو حتى مع نصوص لدولة ما، لأمكن أن نكتشف ببعض التعسف ولّى التفاسير، أن مصر كانت في فلسطين، وأن فلسطين كانت في سيناء، وأن الدول الفينيقية كانت في شمال أفريقيا وأسبانيا، دون مشاكل كثيرة، كما يمكننا ببساطة أن نضع جزيرة العرب في صعيد مصر حيث حلت هناك القبائل العربية مع الفتح الإسلامي وأعادت التسميات، والأمر كله يعود إلى حركة الهجرات القديمة وإعادة تسمية المواضع وهو الأمر الذى أشار إليه الصليبي بنفسه، وهو الأساس الذى بنى عليه عمله بالكامل، وهو الأساس الذى لا يعول عليه إطلاقاً، لبناء مثل تلك النظرية التى طرحها، والتى تتسم بغرابة وخطورة هائلة، لا تتناسب وأدوات البحث المستخدمة فى سبيل إثباتها.

أما الدافع الذى نظنه كان بداية الخيط فى اندفاع الصليبي، هو اسم جبال (عسير) متقاطعاً بالميتاتيز (القلب اللغوى) مع جبال (سعير) التى ذكرت التوراة ونصوص مصر أنها كانت جبال ودولة تقع ما بين خليج العقبة، وبين البحر الميت، أى على حدود سيناء الشرقية مع بداية الشام. وقد تحدثت التوراة عن (سعير/ بلاد أدوم)، باعتبارها دولة مستقلة عن فلسطين، وعن دولة إسرائيل عموماً، ودخلت فى حروب مع دولة إسرائيل مرات، وفى تحالفات مرات أخرى، أى أنها لم تكن ذات دولة إسرائيل، لكن الدكتور (الصليبي) عمد إلى نقل إسرائيل الدولة، وفلسطين الأرض بكاملها إلى جبال (سعير) فى دولة (آدم)، ثم نقل جبال (سعير) إلى بلاد العرب محتسباً إياها جبال (عسير)، وأن الأمر لا يعدو قلباً لسانياً كما فى (زوج/ جوز) وهو المثال الذى ضربه بكتابه للتدليل على نظريته، بينما تم إلغاء دولة (آدم) التى قامت فى جبال (سعير) على حدود مصر، والتى تحدثت بشأنها نصوص مصر فى إيان حديثها عن حملات مصر التأديبية للدولة المشاغبة المجاورة، كما أفاضت فى الحديث عنها نصوص التوراة حتى آخر سفر فيها.

هذه لمحات سريعة موجزة مقتضبة، لم نقصد بها النقد المفصل والتوثيق الكامل، فمثل ذلك الرد الناقد يحتاج إلى كتاب قد لا يقل حجماً عن كتاب الصليبي نفسه، وهو ما يخرج الآن عن دائرة همومنا، فقط رأينا فى ضوء الحماس الغريب فى أوساط ملتقىنا للصليبي، إن هناك واجباً علينا للتوضيح والتبيان ليس إلا، ولعل قارئنا قد لاحظ أننا لم نحاول أن نسقط على الرجل أى اتهامات سياسية، لقوله بعروبة الإسرائيليين أو تكفيرات دينية لإنكاره عبور البحر بالعصا المعجزة أو نعوت بالخيانة القومية، كما حدث فى بعض صحفنا العربية الغراء،

فتصوروه يُخطّر لمطلب جديد لإسرائيل بالعربية السعودية، وهو نقد يعبر عن خصاء ذهني ونفسي ومثل في القدرات، وعدم ثقة لا بالذات ولا بالوطن، إضافة إلى أننا نرفض أى تعامل من منطق الإدانة والتكفير، فهو المنطق الأعرج الذى انتهى بنا إلى مقلب نقابات الأمم.

حتى لا نفسد تاريخنا..

قليل من العقل وبعض من الضمير

تحت عنوان رئيسى (بلاغ إلى شيخ الأزهر والمفتى وعلماء الإسلام)، وعنوان فرعى (وزارة التعليم تفتى على أمير المؤمنين عثمان بن عفان)، نشرت صحيفة إسلامية ما أسمته تحقيقاً تقول: إنها تكشف فيه بالوثائق افتراءات الوزارة على عثمان، وتبرئتها لليهودى (ابن سبأ) من دم عثمان! وأن الوزارة فى أحد كتبها المدرسية اتهمت الخليفة باللين وتقريب أهله من بنى أمية واختصاصهم برعايته، فكان أن طالبت وفود الأمصار الإسلامية عثمان بعزل ولاته، وانتهى الأمر بمقتله، وهو ما أدى إلى الفتنة والانقسام فى صفوف المسلمين، ولم تنس الصحيفة الهمز من الدكتور (بهاء الدين) والغمز من قناته، وبإشارتها إلى أن تلك الافتراءات جاءت مع مجيء الوزير الحالى. ثم ترد على ما أسمته افتراءات بما رأته حقيقة ثم إغماض العين عنها، والحقيقة هى أنه فى عهد سيدنا عثمان كانت الشريعة مطبقة والحدود مقامة والإسلام الذى يوجه حياة الأمة.. وصارت الدولة الإسلامية أعظم دول العالم.. وعم الرخاء وكثر المال على عهد عثمان حتى بيعت جارية بوزنها..

إذا كانت الدولة الإسلامية قد أصبحت أعظم دولة فى العالم زمن الخليفة عثمان، وأن الرجل قد طبق الحدود وأقام الشرائع وحكم بالإسلام، فقيم قتل إذن؟ ثم تساؤل أكثر براءة: هل عصمت المؤسسة الإسلامية البلاد من الفتن والتمزق وقتل رأسها وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومع منهج التقديس المفرط، الذى يتحول بالبشر غير المعصومين إلى قدسية العصمة، لا يجد دعائه سوى البحث عن سبب خارج إطار الأحداث الموضوعية، فما دامت الشريعة مطبقة، والحدود مقامة، والدولة فى أوج قوتها، وأهل ذلك الزمان هم من الصحابة الأجلاء، فليس هناك إذن من سبب واضح، وأن ضرب تلك القوة التى شرعت أسباب الأمان والتوحد يحتاج إلى شىء أسطورى يملك قدرات خرافية، يتلبس لبوساً شيطانياً، ولا بأس هنا أن يتم اختياره من اليهود المبغضين، ليصبح هو المحرك الخفى وراء الأحداث الكبرى فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية بغرض إجهاض الإسلام، حيث تمكن ذلك الشيطان اليهودى من إقناع الصحابة بالتحريض على عثمان، ثم قتله تلك القتلة المهيبة. ثم تحريضهم بعضهم على بعض، ليقتلوا بعضهم بعضاً، ويتقاذفوا التهم، وينتراموا بالكفر والفسوق، ويصبح ذلك الهلامى

(*) نشر فى ١٥/٣/١٩٩٥ بصحيفة الأمالى، القاهرة.

الغامض الشيطاني الهائل (ابن سبأ) تفسيراً سهلاً يريح نوازعنا التي تنزع إلى تنزيه الصحابة، والتي تدفعنا لتكوين رأى فى الصحابة هو أحسن من رأى الصحابة فى أنفسهم، ونستبعد - كدأبنا دوماً فى كل نكساتنا - الأسباب الحقيقية للكوارث التي تحيق بنا، ونبحث دوماً عن مؤامرات تحاك هنا وهناك يقودها حزب الشيطان لأمة الإسلام، خير أمة أخرجت للناس.

ثم لا نسأل أنفسنا: كيف تمكن شخص متفرد من فعل كل ما حل لدولة الإسلام وهى فى أوج قوتها؟ وهى تلتزم كافة الفروض والسنن مما يعنى - حسب منهجهم - أنها تحت رعاية الله مباشرة وحمايته؟ وأمر (ابن سبأ) بهذا التصور يجعل الأمة أمة هزيلة ضعيفة مترنحة، يستمع أهلها للوشايات، كلهم أذان، يسارعون إلى الفتنة مع أول همسة، وبينما (ابن سبأ) ينشر ما يخالف كل مفاهيم الإسلام، أى أنه بات معطوم الأمر مشهور الكفر، فإن الصحابة يستجيبون له من فورهم، فينقمصون شيعا، ويقتلون بعضهم بعضاً (١٤) وهو ذات المنهج الذى لا زال يمارس حتى اليوم، فلا نرى فى كيواتنا أسبابها الحقيقية، ولا نعترف بهدوء بتلك الأسباب، إنما نبحث عن سبب خارجنا، وأن تلك الأسباب شياطين عظيمة القدرة والشأن تبغى تخلفنا ودمارنا، غير مدركين أن انتصار الأعداء الدائم ليس إلا نتيجة لذلك التخلف أصلاً.

وعم الرخاء

يقول بلاغ الصحيفة الإسلامية، عم الرخاء وكثر المال بشكل لم يسبق له مثيل.. وقال المؤرخ الشهير ابن سيرين: كثر المال فى عهد عثمان حتى بيعت جارية بوزنها، نون أن يلتفت صاحب البلاغ أبداً إلى الظروف الاجتماعية زمن عثمان والتي أدت إلى نشوء طبقة ثرية عظيمة الثراء من قريش، ومن البيت الأموى - بيت عثمان - تحديداً، وأن ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه بعض أصحاب الخطوة والمحاسب، هو ما قصده بالرخاء وكثرة المال، وهو الثراء الذى رافقه إسراف وصل حد السفه والتهتك، فبيعت جارية بوزنها، خاصة إذا ما وضعنا بالحسبان الوظيفة التى ستؤديها تلك الجارية (١٤) فمع كل المغازى والأموال والسبايا التى تدفقت على المدينة مع حركة الفتوح، ظل هناك نفر من الناس فى حالة جمش وتهتك وصل بهم إلى المزايدة على الجارية المليحة لتباع بوزنها ذهباً، وهو الذهب الذى كان متفرقاً يوماً فى بهيمة لفلاح مصرى بسيط، وفى محصور حنطة لمرأى يعيش فى الأهوار، وفى بعض الشياة لشامى يرعى فى البوادر، ليجمع جميعه ويصب فى كفة ميزان تقف على كفته الأخرى جارية حسناء.

وكتب التاريخ الإسلامية والسير والأخبار ثرية بالأمثلة التوضيحية لأصحاب العقول، ومن تلك اللماذج ما حدث عندما أطلق عثمان يد أخيه فى الرضاع (ابن أبى سرج) فى البلاد

المصرية، وأرسل مما جمع في مصر إلى عثمان غنائم وأموالا عظيمة، وكان قبله عليها (عمرو بن العاص)، الذي سبق وجبى بدوره من مصر جباية مرهقة، لكن جباية (ابن أبي سرح) كانت أعظم وأكثر إرضاء للخليفة، مما دعاه أن يأتي بعمرو بن العاص ويسأله معرضاً بأمانته: «هل تعلم يا عمرو أن تلك اللقاح قد دَرَّتْ بعدك؟»، فما كان من عمرو إلا أن أوضح ما آلت إليه أمور مصر بهذا الاستنزاف برده البليغ: «وقد هلكت فصالحا!!».

فهل نعجب من كثرة المال في عاصمة الدولة وهكذا كان الحال؟ أم نعجب ممن ترك إرثاً - من الصحابة - يربو على الخمسين مليوناً، أو ممن ترك ثروته ذهباً يقطع بالفؤوس، أم نعجب وسط كل تلك الأموال من حال الرعية، خاصة في البلدان المفتوحة؟! أم من أرقاء الحال من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عاصمة الدولة الثرية، حيث كان (أبو ذر الغفاري) يدور بها يندد بالأثرياء، متحدثاً لسان الفقراء، ثم أخذ يحتج على عثمان ويدد بأعطياته الضخمة لأهله من بيت المال، وبأعطياته لمن أراد تألفه من المعارضين لسياسته، لينتهي أمره بالنفى إلى (الريذة) ليموت فيها غريباً معدماً، وأيضاً حيث كان (عمار بن ياسر) الذي أعلن احتجاجه على المنح التي يأخذها تجار مكة الطلقاء، ووقف إلى جوار أبازر يدافع عن قضية الفقراء، فأمر عثمان بنفيه بدوره إلى الريذة، فاعترض الإمام علي؛ فأمر بنفيه بدوره، لولا احتجاج الصحابة على عثمان بقولهم: «أكلما غضبت على رجل نفيت، ولم يتم نفى عمار». وفي موقف آخر اعترض عمار على أخذ عثمان للجواهر القادمة من الأمصار وتحليته بها لبنااته ونسائه، فرد عثمان: «لأخذ حاجتنا من هذا الفء وإن رغمت أنوف أقوام»، فقال عمار بن ياسر: «أشهد الله أن أنفى أول راغم، فرد عليه عثمان بسب قبيح قائلاً: أعلى يا ابن المتكء تجترى؟» ثم أمر الجند بضربه حتى غاب عن الوعي، ولم يهدأ عمار بل حمل كتاباً من بعض الصحابة يلوم عثمان ويعظه، فشتمه عثمان وضربه برجليه وهما في نعل قاس، فأصاب الصحابي الجليل العجوز بالفتق.

بنو أمية وعثمان

ولعله من المعلوم أمر الصراع الذي كان يدور خفية حيناً، وعلناً جهاراً أحياناً أخرى، بين أبناء العمومة من البيتين الهاشمي والأموي، قبل الإسلام وبعده، ويتولى عثمان الخلافة أثر قريشاً دون الأنصار، مما ترك في مدينته معارضة لا يستهان بها فهي مدينة الأنصار، ثم أثر الأمويين بشكل خاص، وهو الأمر الواضح بكتبنا الأخبارية، ودونه المسلمون الثقات دون انزعاج، لكنه أزعج صاحب البلاغ المذكور إزعاجاً شديداً، فهل علم صاحبنا أن عثمان قد رد

عمه الحكم بن العاص وأهله للمدينة، رغم أن جميع المسلمين كانوا يعلمون أن النبي أمر بطرده منها، بعد أن كان يمشى وراء النبي يسخر منه ويقلد حركاته ويتجسس عليه في بيته، ترى ماذا يترك تصرف عثمان هذا في نفوس المسلمين؟ خاصة وهم يرونه يأوى عدو النبي ويسبغ عليه مالا كثيراً، ثم يولى ابنه الحارث سوق المدينة ويسبغ عليه بدوره، ثم يجعل مروان بن الحكم وزيراً ومستشاراً. ثم يرونه يولى عدواً آخر للنبي صلى الله عليه وسلم هو (ابن أبي سرح) أخى عثمان من الرضاعة أمر مصر، بينما المسلمون يقرأون قرآناً نزل بتكفير ابن أبي سرح وذمه، فكان ابن أبي سرح يقول: سأنزل مثلما أنزل الله، ولما اعتصر الرجل مصر أرسلوا وفداً لعثمان يشكون (ابن أبي سرح)، فعاقب الشاكين وضرب أحدهم فقتله، ثم يرونه يولى أخاه لأمه (الوليد بن عقبة) ولاية الكوفة، وهم يعلمون كيف غش النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف كفر بعد إسلام؟ ويذهب الوليد إلى الكوفة ليصلى بالناس وهو سكران، ثم يقر معاوية بن أبي سفيان الأموى على دمشق والأردن، ثم يضم إليه ولاية فلسطين وحمص ليملك بعدها الشام جميعاً، ويوطىء لمملكة الأمويين الوراثية العضود من بعده!! هل كان الناس مع هذا كله بحاجة إلى (ابن سبأ) أم كان ابن سبأ وراء هذا كله؟ أم نعترف بهدوء ولو مرة واحدة بخطأ حساباتنا في قراءة التاريخ؛ أم نحن أكثر روية من (ابن الأستر) الذى أرسل من الكوفة لعثمان بعد تولية الوليد ثم سعيد الأمويين يقول: «من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطيء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره... احبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك والسلام».

المحرضون الحقيقيون

بعد تلك الأحداث التى تدافعت على صفحات الزمن العثماني، بكتب السير والأخبار، وما انتهت إليه من نتائج حتمية صبت الأمر كله بيد البيت الأموى المنتصر، يصر دعاة القداسة لغير المعصومين، على البحث عن أسباب خارج التاريخ، ويهرولون وراء شيء اسمه (ابن سبأ) يمكنون بتلابيبه ليجعلوا منه شخصاً فريداً فذاً عبقرياً، تغلب قدراته حكمة الأمة جميعاً، وتدهم الصحابة ولم تزل آثار النبوة باقية بينهم، ليظهروا مسلوبى الإرادة والعقول، وهو الأمر الذى يزرى بتلك الأمة إن صدقناه، ويبعدنا عن بحث الأسباب الموضوعية لأحداث تاريخنا، مما يجعل ذلك المنهج فى التفكير قائماً يفرش ظله السحري على حياتنا دون أن نلتفت إلى الأسباب الحقيقية لكبواتنا، ونطمئن إلى أوامنا سادرين فى السعاديير ونحن نهوى إلى قاع الأمم، بينما نظرة ناقدة فاحصة لكتب الأخبار تكشف ببساطة أن رواة الأخبار المتقدمين، لا

نكر لابن سبأ عندهم، فلا تجده عند ابن سعد في طبقاته الكبرى، على كثرة ما بها من دقائق السرد وتفصيل الأحداث والشخصيات، كما لا تجده أيضاً معلوماً من البلاذري، وهما أهم المصادر بشأن فتنة عثمان، وكان أول ما ذكره الطبري عن رواية لسيف بن عمرو (١٩) ويأخذها عنه المؤرخون من بعد، ممن ذهبوا مذهب صاحب البلاغ، لإيجاد تفسير يرضى هواهم في تنزيه الصحابة وتقديسهم.

ويصدد قصة عثمان جمع أهل السير والأخبار تقريباً أهم الأسباب الموضوعية التي أدت للفتنة، والتي ذكرنا طرفاً منها، وكانوا موضوعيين أكثر من أصحابنا هذه الأيام، ناهيك عن إشارتهم بالتلميح تارة وبالتصریح أطواراً، للمحرضين الحقيقيين، ونماذج لذلك ما رأيناه فيما سبق، إضافة إلى كون عثمان قد استعدى ضده نفراً من الناس ذوى التأثير البالغ، فقد استعدى (عمرو بن العاص) عندما غمزه في ذمته وهو أحد دهاة العرب الكبار، ثم سار هو وولاته سيرة خشنة مع أهل الأمصار، وهو ما استنفرهم كما استنفر حاسة الحق والإنسان داخل الصحابة في المدينة، ومعلوم أن ثورة المصريين كانت بسبب اشتداد الولاة عليهم، مع عامل آخر، حيث نجد محرضين حقيقيين لا وهميين، مثل محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر الصديق، اللذين تركا المدينة وذهبا إلى مصر تحديداً، ليحرضوا الناس على الثورة، ثم انضم إليهما بعد ذلك عمار بن ياسر.

ثم جاءت قمة الأحداث عند جمع المصحف وإيقاع صحف وإحراق أخرى، مما أدى إلى معارضة الصحابي الجليل حبيب رسول الله (ابن مسعود)، وتنديده بما يفعل عثمان بآيات الله، حتى أمر عثمان بإخراجه من المسجد وضربه حتى كسرت أضلاعه، ثم حدد إقامته بالمدينة، حتى حصب عثمان مع الحاصبين من ثوار مصر وأهل المدينة وهو على المنبر.

وفي كتبنا الإخبارية لا تبدو المدينة بمعزل عن التمرد والإحتجاج بل نجد المدينة ذاتها والصحابة أنفسهم هم أساس المعارضة المنكرين لسياسة عثمان؛ بل تجد صهر عثمان (عبد الرحمن بن عوف) الذي سبق ورشح عثمان للخلافة، وقد أصبح من كبار المعارضين لعثمان، وكان يحرض على قتله، وهو أحد رجالات الهيئة التي رشعها عمر بن الخطاب للخلافة، وهو بذلك ليس خارجاً ببقية رجال تلك الهيئة كانوا على ذات الحال، ولهم مواقف مشابهة، فطلحة ابن عبد الله شارك بنفسه في حصار عثمان كذلك سعد بن أبي وقاص شارك في الثورة، أما الزبير بن العوام فقد اكتفى مع منح وأعطيات عثمان الجزيلة بالنصح له، أما على فكان معارضاً للخلفاء الثلاثة على سواء، وقاوم عثمان أكثر من مرة خصوصاً بشأن الأموال التي كان يأخذها من بيت المال، وسبق وعلمنا رأى أبي ذر وعمار بن ياسر.

فأين ابن سبأ من هذا؟
ومن المفترى بالله عليكم؟

محمد الغزالي وسقوط الأقنعة!!

الشيخ محمد الغزالي منزعج هذه الأيام بشدة، ممن ناقشوا موضوع (الردة) بعدما افصح عنه الشيخ في محاكمة القتل (وليس القاتل)، بعدما ردوه عليه على المستوى الفقهي والتشريعي، خاصة وأن الشيخ كان رمز الهزيمة الذكراء في المناظرة التي جرت أمام الدكتور فرج فوده، وأن الشيخ ذاته هو من جاء الآن ليحكم على ضمير رجل ميت، لإدانة القتل وتبرئة القاتل، وما يمكن أن يلحق الموقف مما قد تهجس به النفس بين الأمرين، عن صاحب القرار الخفي وراء مقتل الدكتور فرج.

ويبدو أن مزعجا جديداً بدأ يقلق راحة الرجل، حتى دفعه إلى نسيان حذره وتقيته، التي أشاعت عنه حيناً شائعة الاعتدال، فخرج عن حذره ليقول في صحيفة الشعب (عدد ٧ سبتمبر ٩٣): «إن من يناقشون حد الردة، يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والذهب والسلب، وهم بذلك يصيحون: افتحوا أبواب الحانات ودعونا نلتقي بالنساء كما نشاء، وأن الآية التي يحتجون بها (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ليس لها سوى تفسير حقيقى أوحده، هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد، ومن يرى للآية تفسيراً آخر فهو كافر فى دولة مؤمنة، وعليه أن يطوى نفسه على ما بها، أو ليرحل إلى مكان آخر، أما أن أصر على التصريح بما يرى، فقد أطلق صيحات كفور تقرب أجله».

ورغم قوله: أن الدولة مؤمنة، فإنه يعود إلى الغمز واللمز، بقوله: ان أصحاب هذه التصريحات عصابات قليلة تستعين بالاستبداد السياسى لتفرض ضلالها، مشيراً إلى تحالف الدولة مع هذه العصابات الكفور.

حرية الاعتقاد

والرجل إذ يقول: مطلوب من علماء الدين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، يغالط مغالطة فاضحة، فهو يعلم يقيناً أنه ليس مطلوباً منهم ذلك على الإطلاق، أولاً: لأنه ليس فى صحيح الإسلام شيء اسمه حد الردة، وثانياً: لأنه يعطى نفسه وجماعته سلطة موهومة، متصوراً أن أى أمر يمس مصير الناس يجب أن تصدر عنه فتوى من رجال الدين أولاً، وهو الأمر الذى تجاوزه الزمن، اللهم إلا إذا كان الرجل يعيش حلم سيادة مقبلة، يحتكر فيها الرأى

(٥) نشر فى ١٩٩٣/٩/٢٢ بصحيفة الأهرام، القاهرة.

الأوحد والتفسير الأوحد، حيث وضع فى خطابه المذكور أنه ليس للآية سوى تفسير أوحد هو ما ساقه بشأنها.

وهو الأمر الذى يشير إلى ما يمكن أن يترتب على أى خلاف فى التفسير (ناهيك مثلا عن الخلاف المذهبى أو الدينى)، فى دولة يحكمها رجال الدين، فتهمة التكفير مشهورة، ولا مجال حتى للخلاف فى رأى أو الاجتهاد، ولنا أن نتصور حمامات الدم التى ستحدث حينذاك، لخلاف فى مصالح الرجال وأهوائهم، حول تفسير آية، أو حديث يخدم تلك المصالح أو يتعارض معها.

وهكذا، فالرجل قبل أن يتملك على العباد ويحكم فى الرقاب، يصدر قراراته بتكميم الأفواه أو النفى والتشريد أو القتل، كما لو كنا نعيش فى العزبة التى ورثها عن آل غزالي.

الجموح

والشيخ عندما يرى للآية تفسيراً أوحداً، يعطى نفسه قدراً حاشاً لإنسان أن يجمع به طموحه إليه، فهو بذلك إنما يعطى نفسه قدرة الاطلاع على المقصد الإلهى، بل ويفرض تفسيره على ذلك المقصد الرفيع فرضاً، فيسوق للآية تخريجاً يقول: إنها إنما تعنى عرض الإسلام على الناس دون اكراه، فإن آمنوا وكونوا جماعتهم ودولتهم، التزموا بذلك العقد الإيمانى.

ولوجه الحق، فإن هذا الرأى التفسيري سليم إلى حد بعيد، لكنه لا ينفى آراء أخرى وتفسيرات أخرى، وليس هناك شئ اسمه التفسير الوحيد الصحيح، وكان أولى بالشيخ إن أراد صدق المقصد، أن يلجأ إلى حيثيات الناسخ والمنسوخ مرتبطة بواقعها وظرفها الموضوعى، وكيف نسخت آية السيف ما سلفها من آيات حرية الاعتقاد، وأصبح الكفر ملة واحدة، وأصبح الدين عند الله الإسلام، لكنه لم يرد أن يورط نفسه إزاء ما يزعمونه عن تمسكهم الإيمانى بحرية الاعتقاد لأصحاب الديانات الأخرى فى ظل دولة دينية يحكمون فيها.

هذا ناهيك عن كون ذلك التفسير للآية يسقط دعواه حول حد الردة، لأن الآية بذلك قد عرضت الإسلام على الجاهليين وغيرهم فى جزيرة العرب زمن الدعوة، عرضته على أناس غير مسلمين عند تأسيس الجماعة (الدواة) الأولى المؤسسة للدولة، وكان الخروج عليها حينذاك يعنى فرط عقدها حيث حلت محل القبيلة، وأصبحت وطننا فى وسط قبلى لا يعرف غير القبيلة وطننا، لكن مسلم اليوم، ولد مسلماً، ولم يعرض عليه الإسلام وهو راشد بالغ عاقل، ولم يدع إلى عقد أوبيعة يقبل بشروطها أو يرفضها، ومن ثم فإن الظرف يختلف تماماً عن وضع من قبلوا الإسلام عند تكوين الجماعة الأولى، ويبقى سؤال لا يحتاج إلى أجابة: هل يطبق على مسلم اليوم إن أراد اتخاذ موقف جديد بإرادته الحرة حد الارتداد، الذى هو غير

مقرر أصلاً؟ وهل نستحق ان نكون بشراً حقاً، عندما نهال لمسيحي يخرج على دينه ليدخل الإسلام، ونقتل مسلماً ليس لأنه خرج إلى دين آخر، بل فقط لأنه أراد أن ينتمى إلى بني الإنسان، فقرر لنفسه حرية الإرادة والتفكير، وناقش أمراً من أمور دينه ليطمئن إلى طوية فؤاده، أو لأنه ناهض أمراً يراه ضد مصلحة البلاد والعباد.

التهديد بالقتل

وإن ما يؤكد الهواجس ويدعمها، أن الرجل ساق حديثه هذه المرة في هيئة من يملك سلطاناً أو يتوقعه، بشكل يشبه بيانات المسئولين وتصريحاتهم، فهو يصدر الأوامر، ويتحدث عن سيطرة الإسلام وسيطرة الدولة، ثم يلقي بما لم يكن متوقعاً، فيهدد المخالفين، (المؤمنين بأن الإسلام قرر حرية الاعتقاد)، بالقتل إن لم يصمتوا، لكنه في هذه الفقرة الأخيرة القاتلة تحديداً، تحول خطابه عن الجماعة إلى المفرد، كما لو كان يعنى شخصاً بعينه وبالذات، يعلمه ويوجه له رسالته الموجزة: أصمت أو إرحل، أو تقتل، ويبدو أن هذا الشخص ممن تصعب مناقشتهم أو اتهامهم بشيء من سيل الاتهامات المعادة، والرجل بذلك يتصور أن بمقدوره أن يخيف، غير مدرك أن الموت دفاعاً عن قضية شريفة هو الخلود الحق، وأن من عرض نفسه على أمانة الكلمة ومصير الناس في هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ ولا قنابل صبيته، وإن كانت ثقة الرجل وهو يلقي بهذا الكلام الفلوت تعكس تخطيطاً بعينه يوقن بسلامة برمجته حتى النهاية، فمرحبا بموت يرحل بنا عن عالم أفتان تحت عرش عمائم وسيوف مشرعة، قموت صاحب المبدأ بشرف، يختلف تماماً عن موت جهول يطمع في الخمر والحور، فلسنا نحن أيها الشيخ من يطلب الحانات والنساء (؟) فقط لتتذكر أن من قتل لافوازيه لا يعرف أحد اسمه وبقي ذكر لافوازيه خالداً، ولتذكر أن من ذبح الحلاج ذهب إلى سلة مهملات التاريخ وبقي ذكر الحلاج، ونحن نؤمن تماماً أن ما نطمع إليه من حياة أفضل للأجيال المقبلة، لن يكون دون تضحيات نحن أهل لها، ولو كانت بقرارات قاتلة أنتم أهل لها.

يا أبا العزائم نظرة!

بعد عملنا الذى نشرناه بمصر الفتاة (الرد على الاضاليل فى تنظيرة بنى إسرائيل) والذى تم نشره على مدى عشرة أسابيع متصلة، كان مفترضاً ومتوقفاً ان تكتم مهاجمتنا بشكل ما، وكان من الفطنة ان نتقرب حملة قريية علينا، ربما تأخذ أبعاداً تنقسم بالخطورة، وأن ننتهياً لما سيحدث، وبالفعل بدأت البوادر لكن بسرعة وسفور مدهشين!! متمثلة فى هجمة شرسة شنتها علينا مجلة تدعى الإسلام ووطن (عدد ٥٢). وعلى واحد من أعمالنا، هو كتاب (الحزب الهاشمى) بحيث لبس الهجوم زياً مألوفاً ومعتاداً فى تأليب الجماهير وخداعها ضد مصالحها ولا جدال أن ربطنا لهذا الهجوم بأول الموجات ضدنا وضد أعمالنا مقابل المؤسسة الصهيونية العالمية يجد تبريره فى ذلك التزامن الغريب وفى طبيعة الجهة المهاجمة ومناهجها وهو الأمر الذى كان لابد يحمل ذلك المغزى الذى لا يخفى على لبيب.

ويزداد ذلك الترابط تبريراً إذا ما نظرنا إلى ذكاء الاختيار، وترتيب الأدوار، وطبيعة الخطاب الموجه ضدنا، واستفزازه للمشاعر الدينية، بأسلوب معلوم، استخدم ضد من سبقونا من باحثين مثلنا، كانوا يؤدون المقدمات لما نؤديه نحن الآن، وقد أدى ذلك الدور أحد كتاب المجلة المذكورة أعلاه، وهو أيضاً أحد أصحابها وهو نائب رئيس مجلس إدارتها الذى هو شقيقه. فهو سماحة صاحب الفضيلة القطب الصوفى العزمى حفيد الإمام المجدد وابن الخليفة الأول، وشقيق الخليفة القائم لمشيخة الطريقة العزمية الشيخ السيد اللواء عصام الدين ماضى أبو العزائم، وهو فيما تزعم المجلة المذكورة سليل الحسن والحسين أى أنه من آل البيت أى أنه هاشمى فى حساب الأنساب. ومن هنا حشد الشيخ اللواء ما ينوء به من ألقاب ضدنا ليتناول كتاب (الحزب الهاشمى) وصاحبه بالقذف والتشهير والسب والتفكير، لكن كل ذلك فى رأينا.. رغم تجاوزه لآداب الخطاب وقواعد اللياقة لم يشكل سوى زوينة كلامية لم تغنها تجاوزاتها وأغراضها عن أن تكون كالعهن المنفوش (١٢) بحيث كشفت عن سوء فهم متعمد، وأسقاط لسوء الفرض على نوايانا وما تخفى صدورنا، وهو الأمر الذى يكشف عنه وضع السيد اللواء الطبقي وانتماؤه الوظيفي، وظرفه السبائى، ومنظومه التى يحتل فيها مكاناً ومكانة. وعليه فإن كل ما قدمه السيد اللواء ليس فيه رد موضوعى واحد يستحق المناقشة، بقدر ما هو لون من التحريض الواضح، لذلك رأيناها من جانبنا استفزازاً وتهجماً نعلم خلفياته، ومن هنا فقط وليس من قيمة الموضوع. يأتى اهتمامنا بالإستجابة له حتى يكون هناك تقييم دقيق للقدرات، وممكنات الطرفين فى تلك المعمة التى توشك على البدء والله المستعان.

(*) نشر بالعدد ٣٨ فى ١٢/٨/١٩٩١ بصحيفة مصر الفتاة، القاهرة.

منهج الخطاب

وقد اتبع الشيخ اللواء منهجا معتادا، ليس له غرض، سوى هزيمة الخصم بأي أسلوب ممكن، حتى لو كان تزييفا متعمدا على القارئ لتحقيق الغرض الأساسي وهو التحريض! ومن هنا قام السيد اللواء يقطع من كلامنا على هواه، وينزع عبارات كتابنا من سياقها على نمط (لا تقربوا الصلاة) بحيث شوه ما كتبنا، وقال غير ما قلناه، غير مدرك إلى أي منزلق ذهب، لكنه لم ينس تخويفنا، فوضع في صدر لعناته وسبابه صورة لسيادته بزي الشرطة الرسمي، تعمد فيها أن يلقي بكتفه الأيمن أمام عدسة المصور، ليظهر ما يحمله كاهله من أثقال وليبين صورة النمر والسيوف لكل ذى عينين.

وهكذا يعلم القارئ من الصورة البهية، والألقاب السنية، أننا أمام مهاجم ذى شأن، يجمع بين قدرات العارفين الواصلين، وسلطان أهل السلاطين، إضافة إلى ما أبانه من إحاطة بالقول المأثور، والدر المكنون مثل أقوال (برنارد شو) و(كارلايل) والمؤرخ (ديورانت)، ومدائح السيد (ويلز) ومواجيد المستر (هارت)، فأبان عن علم واضح بالأقوال الابتدائية التي كنا نحفظها من كتاب المطالعة الرشيدة، ليكسب بها ثقة من لا يفقهون القول فيتبعون أسوأه، وأول ما يسترعى العجب في هجوم السيد اللواء، أنه لم يضع لموضوعه عنوانا، إنما صدره بلافته عريضة، تحمل الآية للكرامة: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا» وهكذا بدأ الرجل موضوعه بأحسن الكلام، لكن اختياره للآية وانتقاءه لها مع ربطها بما نسبته إلينا يكشف أنه بدأ بالغمز الصريح واللمز الواضح (ويل لكل همزة لمزة)، مستغلا كلام الحق تعالى في غير موضعه، موظفا كلمات القرآن الكريم لغرض السب والقذف! وبحيث تحول ضابط الأمن من الحفاظ على أمن المواطن والذي يتقاضى عليه راتبه ضرائب من جيوبنا، إلى محرض لشذاذ الآفاق، من تتر هذا الزمان الرديء ليستأصلوا شأفتنا وشأفة ولدنا من أطفال أبرياء، بعد أن ألصق بنا تهمة الكفر والضلal.

فلا تطالع أول كلماته إلا وتجده يقول عن كتابنا: إن به آراء وأفكار ضد الإسلام ونبي الإسلام وضرريات خفية وظاهرة للإسلام وكعبة الإسلام!! وأننا فعلنا ذلك بوضع السم في العسل؛ وهكذا ورط ذو السيفين نفسه بإصداره الأحكام، بزعمه القدرة على قراءة النوايا بغير بيان، لذلك بات من حقه علينا لوجه الأمانة أن نعلمه بحقيقة موقفه معنا، بقولنا يا ذا السيفين لقد تجاوزت حدود وظيفتك، بل وعكست الأدوار ووظفت قلمك بتسرعك غير المحمود، فأصبحت أهلا لما يمكن أن نقول.

ونتابع مع السيد اللواء القطب الصوفى مسيرته التكفيرية فى تكفيرنا دون بيان، سوى قراءة النوايا ربما فى المندل أو فى الفنجان.. فيقول باجترأ غريب أننا لا نؤمن بالرسالة التى أرسلها الله دون أن يشق بأحد سيفيه عن قلبنا وقرأ ما فيه؛ بل ويذهب إلى حد الزعم أن كلامنا فى الحزب الهاشمى لم ينطق به كافر يعادى الإسلام!! بل ونقف الآن مع أخطر انتقاعات السيد اللواء المختلة، حيث يقول: «جاء فى كتاب الحزب الهاشمى أن عبد المطلب بن هاشم كان من ذوى النظر الشاقب، والفكر المنهجى المخطط، استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة، هى إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها مكة تحديدا، رغم واقع الجزيرة المتشردم آنذاك، ويؤيد ذلك بقول عبد المطلب إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وهو يشير إلى أبنائه وحفدته، (ويقصد الكاتب؟) أن عبد المطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده». وصل إلى حد اتهامنا بالبطعن فى الرسالة والقرآن، وأننا قمنا بضرب آيات الكتاب الكريم بعضها ببعض.

ثم ينهال علينا سماحة الشيخ الذى لا يتسم بسماحة القول سبابا قائلا: «فإن لم يكن هناك رد لمن يسب الإسلام، فيكفينا رد غير المسلمين عليه وخاصة كارلايل، وقد أتى بهذا الرد فى نماذج منها (البكة، المجانين، السفهاء، نتاج جبل الكفر والاحود والالحاد، دليل خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح) إلى آخر قائمة ما فى جعبة القطب العزى من بديع الألفاظ منسوبة إلى (كارلايل)».

اللواء يلوى الكلام

ولأن انتقاعات الشيخ اللواء لكلامنا، حتى وهى مقطوعة من سياقها، لم يكن فيها ما يدين أو يشين، فقد كان يردف بعد كل مقطع تعليقا من عنده يقول فيه (ويقصد الكاتب كذا وكذا، ويعنى الكاتب كذا وكذا، وكأن الكاتب يريد كذا وكذا الخ) فيدس أنفه فى عملنا، ويملى على القارئ البريء الموقف المطلوب منا ويحمل نوايانا ما لا تحتل من نواياه، ونموذج لذلك أمثله منها: «ويقصد الكاتب أن عبد المطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده - ص ٢٠ - وكأنه يقول أن الكعبة المشرفة هى من صنع العرب لأنها صنعت كعبات أخرى كثيرة - ص ٢١، وكأنه يريد أن يضرب الآيات بعضها ببعض ولا يحقيق المكر السىء إلا بأهله - ص ٢٣، ويعنى الكاتب بقوله أن النبى - صلى الله عليه وسلم قد تعدد القوم بالذبح، ونفذ هذه الرغبة فى غزوة بدر الكبرى - ص ٢٣».

ونقول للسيد اللواء، نعم لقد قلنا بالفعل ما نصه «عندما غمز أشراف قريش من قناة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالكعبة، التفت إليهم هاتفا: أسمعوني يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جعلتكم بالذبح»، وكان طبيعيا عندما يقسم نبي أن يبر بقسمه، لذلك عقبنا بالقول: «وقد بر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقسمه في بدر الكبرى»، لكن القطب الصوفي يرفض ذلك الخبر برمته كما لو كنا قد افتريناه، أو لي جعل القارىء يعتقد ذلك، بينما الخبر متواتر في كتب السير والأخبار الإسلامية، فإذا كان في الأمر ملامة فهي على السيد اللواء لأنه لا يقرأ، وإذا كان مصرا فليتوجه بمعركته إلى التاريخ الإسلامى ولا نظله بفارس لهذا الميدان.

ونعم قلنا أنه كان للعرب في زمن بعيد، عدد من بيوت الآلهة التي كانت تبنى على هيئة المكعب، لذلك سميت كعبات وذكرنا منها بيت اللات وكعبة نجران، وكعبة شدادا الأيادى، وكعبة غطفان، والكعبة اليمانية، وكعبة ذى الشرى وكعبة ذى غابة، وأرفقنا مصادرنا في الهوامش (الإكيل الهمداني، وتاج العروس للزبيدي، وأصنام ابن الكلبي، والمفصل لجواد على)، مع كل معلومات النشر وأرقام الصفحات، فلم نفتقر شيئا من عندنا، ثم ماذا في الأمر من مزعجات يريد بها فتنة القارىء؟ إنه يسرب للقارىء قوله: «إن الكاتب يقصد أن كعبة مكة بدورها من صنع العرب»، نعم إنها من صنع العرب، فقد تهدمت وبنيت عدة مرات، وكل مرة كانت تبنى من طين الأرض وحصبائها وخشبها، وكان بناتها هم العرب أيها القارىء الكريم، ولا شك أن ذلك أمر معلوم والغرض عند السيد اللواء - مما يقول - أيضا مفهوم.

وفى أقوال الشيخ اللواء متفرقات أخرى، مثل قوله: «لنا تجربنا في تفسير القرآن، كما في تفسير الزنيم بأنه ابن الزانية في الآية الكريمة «هناز مشاء بنميم، عتل بعد ذلك زنيم» والمضحك المبكى في أمر اللواء وهو يلوى الكلام ليحرض علينا، نفية لذلك المعنى، وإتيانه بالمعانى التي يراها صادقة ومنها «الزنيم هو الذى لا أصل معروف له، وقيل هو الدعى الملحق بقوم وليس منهم، وهكذا يتوهم سيادته في القارىء عدم الفطنة، غير مدرك أن القارىء سيلبس بوضوح أن حضرة اللواء لم يأت بجديد، ومعلوم أن مكة قبل الإسلام كانت تنص بصاحبات الرايات الحمر (الزانيات بالأجر) لذلك كان طبيعيا أن يكثر أبناء الزنى والأدعياء.. وفى حادثة نسب لعمر بن العاص إشارة واضحة لكيفية حل مثل تلك الإشكاليات فى الجاهلية، فهل كان السيد اللواء يعلم، أم كان يلوى الكلام، أم هو بحاجة لأن يعلم؟ على أية حال كلنا دائما بحاجة لأن نعلم ونتعلم، فقط يجب أن نقسم بنزاهة الغرض وعلمية المقصد.

ويأتى الشيخ اللواء بقولنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - «قام يؤلب العبيد على أسيادهم بندائهم اتبعونى أجعلكم أنسابا» ويحتج على قصرنا ذلك النداء على العبيد، ويزعم أنه كان

موجها للعرب كافة، وأنا بذلك لا نعلم من التاريخ الإسلامى شيئا لذلك، وفى حدود علمنا الضعيف نفهم أن ذلك النداء لو كان شاملا للعرب جميعا، لكان معنى ذلك أن جميعهم كانوا بلا نسب، حيث كان النسب له أهميته القصوى فى البيئة القبلية، حيث لا شرطة، ولا أولوية لحفظ الأمن، فقط كانت قوة النسب هى الضامن القبلى لحماية الفرد، وحيث لا حماية لمن لا نسب له، وعليه لا يصح التوجه بالنداء (اتبعنونى أجعلكم أنسابا) إلا لفائد النسب، لذلك منح النبى - صلى الله عليه وسلم نسبه لعبد زيد بن حارثة بعد أن أعتقه، وهو المثال الذى ضربناه ولم يعجب السيد اللواء.

الظروف الاجتماعية

ثم يستمر الشيخ اللواء متقبسا من كتابنا قراءة تاريخية، يوهم القارىء أنه على علم مسبق بها، فيقول: «وإذا رجعنا إلى تاريخ العرب، نجدها لا تقبل النظام الملكى وسيطرة الملك على القبائل العربية، لأن ذلك يجعل لمشييرة الملك سيادة على بقية العشائر، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلى وتتفرغ منه، وقد ذكر الكاتب هذا المعنى فى ص ١٠ من كتابه، فإذا كانت هذه صفات العرب، فكيف يحلم عبد المطلب بتأسيس دولة هو ملك لها؟».

ومرة أخرى نقول: نعم ولا نراجع قيد أنملة عما قلنا، فالكلمة أمانة، لكن اللواء رفيع المقامات نزع ما قلناه من سياقه، وأعاد ترتيب الفقرات بحيث تؤدي التأثير المطلوب لتحقيق التحريض وما يليه، لكن ذلك لا يعنى أننا لم نقل بل وأيم الحق قلنا غير هيابين. فلم نقدم فرية مفتراة، ولا أضعنا العمر ندرس المنهج العلمى، ونطبق أصوله فى بحثنا، للنسحب مع مثل تلك الزمجرات الأولية، وهنا نجدنا مضطرين إلى اعطاء ذى السيفين درسا فى معنى قراءة الواقع قراءة علمية، والتى طبقناها على جزيرة العرب قبل الإسلام، والتى كانت هدف كتابنا وغرضه، وهو ما رأيناه بحاجة إليه، فأردنا به كسب الثواب.

ومن هنا نقول: إن كتابنا كتاب فى التاريخ الاجتماعى وليس كتابا فى الدين ولا أى من علومه، وضع بغرض قراءة وفرز أحداث المرحلة القبل إسلامية، وقد تعمد القلم العزمى عدم الإشارة لتلك القراءة الاجتماعية بالمرّة، رغم أنها العماد الأساسى للكتاب. تلك القراءة التى تكشف أنه لم يكن عبد المطلب وحده هو الذى أدرك تهيز الواقع لقبول الوحدة السياسية بل أدركه آخرون، وسعوا إلى تحقيقه، مثل أمية بن عبد الله الذى أراد لنفسه النبوة والملك، ومثل عبد الله ابن أبى سلول، الذى كاد يلبس التاج الملوكى لولا مجيء الدعوة، ومثل زهير الجنايى وغيرهم كثير، لم تعطنا أشخاصهم قدر ما عانا الأدوار الهامة المؤثرة، أثناء تقديمنا لقراءة الواقع الذى أفرز توجهاتهم.

وهكذا فقد كانت مهمة الكتاب هي الكشف عن أوضاع الجزيرة، الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة مكة، وبهذا الكشف علمنا أن تلك الأوضاع، قد دخلت مرحلة متسارعة من التغيرات الكيفية الناتجة عن تغيرات عديدة متراكمة، ومرتبطة بظروف أدت إليها، مما هيا مكة للتحول من كونها مجرد استراحة ومنتدى وثلى دنيوى على الطريق التجارى، للقيام بدور تاريخى حتمته مجموعة من الظروف التطورية فى الواقع العربى والعالمى، وكان ذلك الدور هو توحيد عرب الجزيرة، فى وحدة سياسية مركزية كبرى.

ومعلوم أن ذلك التطور ترافق معه صراع أولاد وأحفاد (قصى بن كلاب) على أولوية التشرىف والسيادة فى مكة، مما انتهى إلى انقسامهم إلى حزبين كبيرين متصارعين هما (الحزب الأموى) نسبة لأمية بن عبد شمس، و(الحزب الهاشمى) نسبة لهاشم بن عبد مناف، بينما كانت الساحة تنهياً لفرز فكرة الوحدة، عبر سريان العقيدة الحنفية وانتشارها، بحيث ساهمت فى تحطيم العصبية القبلية لسلف كل قبيلة، وأعادت صهر الجميع بإعادتهم معا لسلف واحد مشترك هو إسماعيل بن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما ساهمت فى القضاء على التشرذم القبلى، الذى كان يتأسس على تعصب كل قبيلة لنسبها وسلفها الذى هوربها دون أرياب القبائل الأخرى. وذلك بالعودة إلى إله واحد هو سيد الجميع ومن هنا تهيات الجزيرة لقبول فكرة الوحدة السياسية، عندما تهيات لقبول فكرة السلف المشترك والإله الواحد، ومن هنا يكون توحيد الأرياب فى إله واحد قد جاء عند الرواد الحنفيين كناتج طبيعى لهدير الواقع بذات السبيل، لكنه يسبق الواقع، لأن الفكرة تسبق الحدوث والتحقيق. وعليه فقد كان قبول الأرياب القبلية الانصواء تحت سيادة إله واحد، مقدمة نظرية، تترك الباب مفتوحاً للقبيلة التى يمكنها تحقيق الأمل، كما كان يعنى التوطئة المنطقية لقبول ما حدث فى عالم السماء (عالم الفكرة) ليحدث فى عالم الأرض (عالم الواقع) وقد حتمت الظروف وتضافرت الأحداث بحيث صبت الأقدار فى يد قرش، وفى البيت الهاشمى الذى أخذ على عاتقه تحقيق هذا الأمر العظيم، والذى ترافق وتزامن مع تواصل الأرض والسماء وتطابق الفكرة مع حاجة الواقع وضروراته، ومع هبوط الوحي الذى تهيات له الأسباب فمهدت له أرض الواقع، بحكمة لا تخضع لمؤامرات فى التاريخ، ولا لرغبة قبيلة، ولا لإرادة عبد المطلب أو غيره من أفراد، إنما تضافرت له الأسباب التى تراكمت عبر فترة زمنية حتى نضجت لفرز واستقبال الإسلام تحديداً. فهل شرحنا وأوفينا؟ ويا أبا العزائم لا بأس إن شددت من عزائمك بمزيد من المناظرة على الاطلاع والتحصيل، ففيهما فضل آخر أضافه لفضل الأنكار والمواجيد، ويا أبا العزائم نظرة، ولكن فى الكتب!!.

ما بين "القمنى" وهذا المترجم!

يسجل مترجم هذا الكتاب الطبيب د. رفعت السيد واقعة مرة المذاق فى مقدمة ترجمته لكتاب «عصور فى فوضى» من الخروج إلى الملك إخناتون، - لمؤلفه عالم الطبيعة اليهودى الرومى (إيمانويل فلايكوفسكى) والواقعة نسبها المترجم بما نصه: «ثم التقيت بالدكتور سيد محمود القمنى عام ١٩٩٢ وكنت أكن له من خلال كتاباته كل تقدير نظراً لريسته المتميزة لبعض جوانب التراث الشعبى الدينى فى الشرق العربى ومدلولاته التاريخية. وحين طلب استعارة المخطوطة المترجمة للاطلاع عليها نظراً لما ترمى إلى سمعه عنها وتشوقه لقراءتها لاستخلاص مايمكن استخلاصه منها فى إعداد مادة كتابه الذى كان مشتغلاً فيه فى ذلك الوقت وهو كتاب «النبى إبراهيم والتاريخ المجهول»، لم أتوان عن إعارته المخطوطة مع وعد منه بعدم نشر أية أجزاء منها. ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى فوجئت بالفصل الأول منشوراً على هيئة مقالات أسبوعية فى جريدة (مصر الفتاة) مع تعليقات وحواش، والمقالات تحمل اسم د. سيد القمنى. وهالنى أن ينكث عالم جليل مثله بوعود كان قد قطعها على نفسه، وبذلت كل جهد ممكن لوقف النشر، ولم أنجح فى ذلك إلا بعد أن كان الفصل الأول قد نشر بأكمله، وغنى عن البيان أنه قد جمع تلك المقالات بعد ذلك مع بعض الإضافات فى كتاب آخر أصدره باسم: «إسرائيل - التوراة .. التاريخ .. التضييل»!

والكتاب الذى وردت فيه هذه الواقعة صدر عن دار سينما للنشر هذا العام فى شهره الأخيرة، ومعنى ماورد أن المترجم يوجه اتهاماً صريحاً إلى د. سيد القمنى بأنه لم ينكث بوعده له فقط! بل ونشر الفصل الأول من المخطوطة المترجمة مقالات باسمه دون نسبتها إلى المترجم! الذى سعى بالطبع إلى وقف النشر فتم له ما أراد بعد لآى!

ولولا أن هذا قد أصبح منشوراً ما كنا تعرضنا له هنا بالتعليق، كما أننا لانملك تأكيد ماورد أو نفيه، والحقيقة فيه عند د. سيد القمنى، لكننا نسعى لجلاء هذا الأمر، لاسيما وأن المسألة تخص باحثاً كبيراً وكاتباً ومفكراً مبدعاً وصاحب اجتهاد متميز وملحوظ فيما يختص بالدراسات التراثية العربية والإسلامية، والصلة نراها منعقدة بين المترجم ومخطوطته وبين د. سيد القمنى. ليس فيما كتبه المترجم فقط، بل وفى كتاب د. سيد القمنى (إسرائيل .. التوراة .. التاريخ .. التضييل) الذى ذكر المترجم أنه يحوى تلك المقالات التى نشرها د. القمنى فى جريدة (مصر الفتاة) محتوى الفصل الأول من مخطوطة المترجم! والكتاب نشرته (دار

(٥) مقال كتبه الأستاذ حازم هاشم بصحيفة الوفد بتاريخ ١١/٧/٩٥، للقاهرة.

كنعان) للدراسات والنشر ومقرها دمشق، وطبعت منه ألف نسخة في طبعته الأولى عام ١٩٩٤، ونلاحظ في هذا الكتاب أن المترجم صاحب المخطوطة يرد ذكره في صفحة رقم ٩٧ بعنوان «التأسيس»، في الهامش أسفل الصفحة هكذا «إيمانويل فليكوفسكى: عصور في فوضى عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد»، وفي حين أن هذه الصفحة بداية لفصل طويل موضوعه كله مناقشة د. القمى لوجهات نظر (فليكوفسكى) في الكتاب الأصلي «عصور في فوضى»، من خلال المخطوطة المترجمة فإننا لانجد بعد ذلك أية إشارة إلى المترجم ومخطوطته إلا هذه المرة الوحيدة! حتى في ثبت المراجع واستشهادات البحث الواردة في آخر الكتاب لا يرد ذكر المترجم ولا مخطوطته! مع أن د. القمى نراه يورد في هوامش بعض الصفحات المراجع وأصحابها ويعود إلى ذكرها مرة أخرى في ثبت المراجع واستشهادات البحث آخر الكتاب! وفي نص إهداء (فليكوفسكى) كتابه لأبيه، يلتزم د. القمى بترجمة د. رفعت السيد بالنص! وفي كثير من المواضع يفعل نفس الشيء! مع إضافات وتعليقات بالطبع، وكان هذا ما طالعه من أوراق المسألة هنا وهناك، ونثيرة بكل الحرص على ألا يظل اتهام المترجم للدكتور القمى معلقاً في ثنايا صفحات كتابه الصادر مؤخراً وبدون جلاء لحقيقة يملكها المترجم ود. القمى وحدهما فقط!

الصهاينة مرة أخرى (؟!)

كنا قد آلينا على أنفسنا عدم الاستجابة لأية استفزازات، حتى لا نشتغل بمعارك وهمية تصرفنا عن أبحاثنا، خاصة مع إدراكنا لحجم الشراك المنصوية تلك الأيام، والتي نعلم جيداً دقتها وآلياتها وأهدافها، لكن مانشره الأستاذ (حازم هاشم) في (الوفد) بتاريخ ١٩٩٥/١١/٧ تحت عنوان (مابين القمى وهذا المترجم)، ودعوته الواضحة لنا للرد على الطبيب (رفعت السيد) حول ماكتبه في مقدمة ترجمته لكتاب (عصور في فوضى)، لمؤلفه الكاتب الصهيونى (إيمانويل فليكوفسكى)، إضافة إلى العبث غير المحمود الذى ساقه الطبيب المذكور، كل ذلك لم يترك لنا فرصة التمسك بمبدئنا، حيث انزلق السيد الطبيب إلى منزلق شديد الوعورة، غير مدرك إلى أى منحدر ذهب، فطعن فى أمانتنا الطمعية، وهى الرصيد الوحيد الذى نملك ونتيه به اعتزازاً، ومن هنا تأتى استجابتنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم، وهى الاستجابة الكفيلة بإنهاء الأمر بالقاضية، حتى لا نترك مساحة لمزيد من المهاترات، وحتى لا يطول أمر الأخذ والرد، لكن ذلك لا يعنى حرمان القارئ من متعة المتابعة، فسنعطيه هنا قدرأ كافياً من المتعة، وبغرض العودة السريعة إلى مكاننا الحقيقى بعيداً عن السجال حول أمور هى كالعهن المنفوش، ومن هنا نعتقد أن السيد الطبيب بدوره سيلتزم الصمت الحميد وفى ذلك كفاية وغنى.

وكان السؤال الذى تبادر إلى ذهنى فور قراعتى للوفد، هو: لمانا صمت السيد الطبيب منذ التقائى عام ١٩٩٢ - حسبما قرر هو فى مقدمة الكتاب المذكور - وحتى اليوم، ليخرج الآن عن صمته؟ أما لو كنت مكان أى قارئ آخر لكان السؤال هو: لماذا لم يبادر سيادته من فوره إلى اتخاذ الخطوات القانونية الرادعة فى مثل تلك الأحوال؟ لكن لو حاولت الإجابة على سؤالى أنا، مع الأخذ بحسن الظن، لذهبت إلى احتمال أن الرجل وهو لم يبدأ بعد خطواته فى عالم الكتابة، قد هدته قريحته إلى أن أقرب طريق إلى الشهرة هو التهجم على شخص يتم اختياره بعناية، وإذا كان ذلك كذلك، فقد فعلها الرجل دون أن يرمش له جفن، بجرأة متفردة ومغامرة يحسد عليها، لكن ذلك الاحتمال تراجع إزاء معطيات أخرى يمكنها أن تفسر لنا سر تلك النزوة المفاجئة، لمغامرة نزقة، فى منطقة خطرة عسرة العبور.

رواية هذا المترجمان

يحكى لنا الطبيب المترجمان فى مقدمته رواية غاية فى الطرافة والظرف، فيقول: إنه قد

(*) نشر على حلقين بصحيفة الوفد بتاريخ ١٩٩٥/١١/١٤ و ١٩٩٥/١١/٢١.

الثقاني عام ١٩٩٢، عندما كانت ترجمته لكتاب فليكوفسكى لم تزل بعد مخطوطة بأدراج مكتبه، لكن تلك الترجمة غير المنشورة - بمعجزة غير مفهومة - طبقت شهرتها الآفاق حتى وصلتنى أخبارها، حيث كنت أقيم بمدينة الوسطى (كذا؟!)، وعندها هزعت إلى السيد الطبيب أسعى، أطلب منه استعارة تلك المخطوطة الأسطورية لأطلع عليها، وحسب قوله أنى قد فعلت ذلك بعد ما ترامى إلى سمعى عنها، وتشوقى لقراءتها، وذلك كى أستعين بها فى كتاب كنت أكتبه حينذاك، هو كتاب (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول).

وهكذا وجه الرجل لنا اتهامين دفعة واحدة، الأول أننا استعنا بفليكوفسكى فى كتابنا (النبي إبراهيم) دون أن نشير إليه كمرجع لأنه بالفعل غير مدرج كمرجع، أما الثانى فهو أننا قد أخذنا بأفكار كاتب صهيونى فى معالجة مسألة تتعلق بأب الأنبياء خليل الله عليه الصلاة والسلام. والغريب أن الطبيب الملم لم يكلف نفسه عناء النظر فى تاريخ طباعة ذلك الكتاب الذى صدر عام ١٩٩٠، واستغرق العمل فيه ثلاث سنوات قبل صدوره، وهو مايعنى أن الكتاب قد صدر قبل أن ألتقى بالترجمان المعجزة بسنتين كاملتين. ومعلوم أن مثل هذه الافتراءات من النوع الذى يعاقب عليه القانون، وهو مانوى الإقدام عليه بكل سعادة، رغبة منا فى العقاب اللائق لتطهير مناخنا الثقافى، وليكون رادعاً مائلاً دائماً للنماذج المشابهة.

ونتابع مع الرجل مندبته المأساوية وهو يجأ بالشكوى قائلاً: إنه أعطانى مخطوطته المترجمة لكتاب فليكوفسكى، بعد أن أخذ منى وعداً بعدم نشر أى جزء منها (!؟) أى أنه كان يخشى على مخطوطته سلفاً ومع ذلك وثق فى وعدنا الشفاهى (هكذا!!؟)، لكن الرجل يكشف كم كان غراً عندما أعارنا المخطوطة، لأنه لم تكد تمر أسابيع حتى فوجئ بنشر ترجمته فى مقالات أسبوعية بصحيفة (مصر الفتاة)، وبأننا قد وضعنا اسمنا على ترجمته للكتاب، وأننا كى نمرر تلك السرقة اللئيمة لجهد الرجل المسكين، أضفنا إلى تلك الترجمة بعض المقبلات، مع تعليقات هنا، وحواشى هناك، لذر الرماد فى العيون.

ويزعم الطبيب الترجمان أنه بذل جهوداً مضنية لإيقاف نشر ترجمته لكتاب فليكوفسكى باسمنا، وتمكن من ذلك فعلاً، لكن بعد أن كنا قد نشرنا الفصل الأول كاملاً، ولأنى رجل لا أتردد عن الغى، فقد تماديت وأدرجت مقالات (مصر الفتاة) بكتابى (إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل)، وأضفت إليها بعض التوابل والمشهيات فى عبارة هنا وجملة هناك، لمزيد من الضحك على ذقن القارئ والمترجم، إنها إذن فضيحة بكل معنى الكلمة، وظل الرجل صامتاً يمزغ أوجاعه بصمت الكبراء والكاظمين الغيظ، حتى قرر أن يتكلم الأمس فقط، فأى تسامح؟ وأية مروءة؟ وأى ترفع؟ لكن ماذا يفعل الرجل بنفسه وهو يسوق أكاذيبه، عندما يكشف أنه لم يجهد نفسه فى صياغة الكذب المرتب، حيث أن دراستنا التى أشار إلى نشرها

بـ(مصر الفتاة) ، والتي نشرناها تحت عنوان (الرد على الأضاليل فى تنظيرة بنى إسرائيل) ، وكانت رداً على الصهيونى فليكوفسكى ، قد نشرت خلال عام ١٩٩١ ، أى قبل أن يلقانى سيادته بعام كامل (!؟) .

يبدو أن الموضوع سينتهى عند هذا الحد، ولم أف قارئى الوعد بالمتعة المنتظرة، وهو غبن لقارئنا الكريم، وحتى لاتأخذ القارئ بنا ظنون عدم الوفاء، أجد من واجبى توسيع الحكاية حسب الأصول، ومن هنا أقدم للسيد الطبيب مثالا للأمانة لعله يحتذى به فى مستقبل أيامه، فأقر هنا رغم انتهاء الأمر بهذا الشكل، أن الترجمة التى اعتمدنا عليها فى ردنا على كتاب فليكوفسكى الصهيونى (عصور فى فوضى) ، كانت بالفعل ترجمة صاحبنا الترجمان، وهذا درس آخر فى جرأة الواقفين المطمئنين، أما كيف حدث ذلك؟ فهى حكاية أخرى.

زيارة الترجمان للصعيد

أكد الطبيب الترجمان أنه قد التقانى عام ١٩٩٢ ، لكن لأن للشرف رجاله، فإنى أصبح له المعلومة لصالحه، حيث أنه قد تجشم مشقة زيارتى لأول مرة فى بيتى بمدينة الواسطى فى شناء ١٩٩١ ، كأى زائر من قرائنا الكرام الساعين إلى التواصل مع كاتبهم، لكن زيارة الرجل كانت بغرض آخر، حيث جاء يطلب منا رعايته كمبتدىء هاو، ومساعدته على نشر مخطوطة من ترجمته أحضرها معه لأن المخطوطة تواجه عقبات شديدة فى نشرها، كما طلب - إذا أعجبتنى - أن أكتب لها تقديماً يساعد على انتشارها.

ووعدت الرجل خيراً، وبدأت مطالعة ترجمته لكتاب فليكوفسكى (عصور فى فوضى) ، ولكن لأكتشف أنى أمام شرك عظيم، وأن عدم تجرؤ دور النشر على نشره له مسوغاته وحيثياته، حيث وجدتنى بإزاء عمل هائل وشديد الخطورة هزنى هزاً، حتى لحق الهز بالثوابت، ووجدت أمامى فناً عالياً وعظيماً بل ورائعاً ومثيراً للإعجاب، فى تزوير حقائق التاريخ والعقائد، لصالح الفكر الصهيونى، كما لاحظت أن العمل قد وقفت وراءه ودعمته جامعات عالمية كبرى، وأساتذة كبار فى شتى صنوف المعرفة، وهنا كان لابد أن يطفر السؤال قافراً: إذا كنت وأنا المتخصص قد حدث لى كل هذا الانبهار، - مع هول الصدمة - إزاء ذلك التكنيك الصهيونى العالى الجودة والامتياز، فماذا سيكون شأن قارئ عادى دون أن يتسلح برد على ذات المستوى من الأصولية العلمية والاقتدار؟ بينما الكتاب يتألق تحت ستار براق من العقلانية والعلمية والصرامة الظاهرة، لينقض نهشاً على تاريخ مصر وتاريخ العرب، ليؤسس لإسرائيل مكانها فى التاريخ وفى العلم وفى العقول وفى القلوب، وكانت الدهشة أكثر عندما علمت أن أول طبعة للكتاب بالانكليزية كانت عام ١٩٥٢ ، ومع ذلك لم

نسمع فى بلادنا ولو رد واحد على ذلك الكتاب، بل اكتشفت أن العكس هو ما قد حدث بالضبط، حيث استعان به كُتّاب عرب كمصدر غفل من الإشارة مفترض أنهم مهمون أشرت إليهم فى حينه .

هنا وجدت معركة حقيقية من النوع الذى يستهوينى، خاصة أنى سأخوضها فى ميدانى الذى أعرف مسالكه ودرويه، وقررت فضح كل هذا الكم من التزييف التاريخى وتزوير الحقائق، لكن اللياقة الريفية اللعينة دعتنى إلى عدم تجاوز الترجمان الطبيب، خاصة وأنه كان السبب فى تعريفنا بذلك الكتاب الخطير، وعليه طلبت من السيد الترجمان الحضور إلى بيتى، وأحطته علما بقرارى الرد الفورى والسريع دون إبطاء على ذلك الزيف المخيف الذى تأخر الرد عليه طويلا .

وبالفعل حضر السيد الترجمان يركب سيارته المرسيدس الفاخرة، واستمع إلى جزء طويل من ردودى على فليكوفسكى، بينما وجهه يتلون ويتبدل، ثم انحدر فجأة إلى حالة عصبية دفاعا عن طروحات الكاتب الصهيونى، مما أشعرنى أن وراء الأكمة ما وراءها، ومن ثم كان ردى الفورى هو أنى سألجأ إلى ترجمة النصوص التى سأرد عليها من جانبى ومباشرة، من النسخة الإنكليزية التى كان قد أحضرها لى لتدقيق ترجمته، وسافر الرجل ليعمل تفكيره فى قرارى الحاسم والقاطع، لكن لتختفى من على مكتبى النسخة الانكليزية مع مغادرته، وأسقط فى يدى . لكن فى ذات الليلة اتصل بى السيد الترجمان ليقدم لى اقتراحا يقول: ما المانع أن نستثمر ترجمته الموجودة لدى الآن ما دمت متعجلا؟ على أن أشير إليه كمترجم لنص فليكوفسكى بشكل واضح مع نغمة نفعية عالية الصراحة . مفادها أن ذلك سيكون دعاية متميزة لترجمته حين نشرها، وإزاء تلك النفعية الواضحة، تراجعت ظنونى فى طبيعة علاقة الترجمان بمنظومة الكتاب، وبما جبلنا عليه من مد يد العون للمبتدئين، قررنا العمل باقتراحه . وقعت بالرد على تأسيسات فليكوفسكى التى أوردها بفصله الأول، حيث أن بقية الفصول كانت إعادة لتوزيع المعروفة التأسيسية حسب نوات أخرى، وقد قلت ذلك واضحا فى مقالى الأول، وأنجزت ذلك الرد فى عشر مقالات سلمتها كاملة للأستاذ مصطفى بكري رئيس تحرير مصر الفتاة آنذاك، ونشرت على التوالى كاملة دون توقف، هذا بينما يقول السيد الترجمان أن ما نشرناه كان ترجمته هو، وأنا كنا نزمع الاستمرار بنشر الكتاب كاملا لولا تدخله لإيقاف نشر بقية الفصول، ولعل الأستاذ مصطفى بكري يقرأ معنا الآن ليدلى بشهادته حول هذه الجزئية، أى أن السيد الترجمان لم يتدخل ويوقف نشر بقية ترجمته المسروقة كما زعم، حيث لم يتسلم الأستاذ بكري سوى تلك الحلقات العشر فقط وقد نشرت كاملة .

حقوق الترجمان

وعملا بالأصول العلمية، واتباعا لشروط الأمانة البحثية، قمنا بتصدير الحلقة الأولى بالبنط العريض برأس المقال، بأشارة واضحة إلى أن العمل الذى سندر عليه هو من ترجمة الطبيب رفعت السيد، وعدنا إلى تكرار الإشارة فى الحلقة الثالثة نظراً لورود نصوص كثيرة من تلك الترجمة فيها، وفى ختام المقال العاشر والأخير طلبت من الأستاذ مصطفى بكرى تليفونيا أن يكتب بنفسه شكر وتقدير لتلك الترجمة، وقد جاء نص ذلك التنويه فى مربع بلون متميز لمزيد من الإيضاح، وكان نصه: «يتقدم د. سيد القمنى بالشكر إلى الزميل د. رفعت السيد الذى ترجم كتاب عصور فى فوضى، وبذل فيه من الجهد والعرق ما يستحق التقدير».

وعندما قررنا توسعة الرد على تلك المدرسة الصهيونية، أصدرنا كتابنا (إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل)، وضمنه تلك الردود، وعند ورود الجزء الخاص بعرض أسس نظرية فليكوفسكى التى سندر عليها وذلك ص ٩٧، أحلنا إلى المترجم بحاشية مستقلة واضحة نقول: (إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الدكتور رفعت السيد)، وهو الترتيب العلمى لعناصر معلومات الكتاب حسب الأصول الأكاديمية، أما ملحوظة الأستاذ حازم هاشم، أن تلك الإشارة لم تتكرر بعد ذلك عند ورود نصوص نر دعليها بالكتاب، فهو الأمر الذى ما كان ممكنا، فالترجمة مخطوطة بلا أى معلومات نشر نحيل إليها، فلا اسم ناشر، ولا طابع، ولا بلد، ولا صفحات أيضا، فكيف نحيل إلى صفحات غير منشورة؟ وللتغلب على تلك العقبة وضعنا تلك الإشارة الواضحة فى مستهل عرض طروحات فليكوفسكى، مع إبراز الاقتباسات بعلامات التنصيص أحيانا، بالهامش الأوسع أحيانا أخرى، وهى من الأدوات الأكاديمية المعروفة.

ولو قمنا بجمع النصوص الفليكوفسكية التى أوردناها للرد عليها، فى اتصال سردي، لما تجاوزت العشرين صفحة، فى كتاب يمهدها، ويناقشها، ويرد عليها، فى مائتى صفحة كاملة، جهدنا عليها زما حتى أنجزناها، وهى الردود التى أسماها السيد الترجمان (تطبيقات وحواشي).

وأذكر أنى بعدما نشرت تلك الردود التى تكشف الكتاب والدوائر التى تقف من ورائه، فاجأنا السيد الطبيب بالعدد (١٣٩) من مجلة القاهرة بمقال يتلبس الزى الوطنى والقومى الغيور ضد فليكوفسكى، وهو ما عاد إلى عزفه فى مقدمة ترجمته التى نشرت بالأمس القريب، لكن ليقدم لنا الآن، والآن بالتحديد، كتابا مليئا بالمتفجرات الموجهة. بالطبع نحن لا نصادر على نشر أى كتاب من أى لون، لكن يبقى ذلك السؤال الأرق الملحاح بهمس: لماذا

نشر مثل هذا العمل الآن تعديداً، خاصة وأنه الكتاب الوحيد الذى ترجمه السيد الطبيب، فلماذا هذا الاختيار من بين ملايين الكتب التى تحتاجها مكتبتنا العربية فعلاً؟.

مرة أخرى- إذا أخذنا بسوء الظن- فسيكون ما أزعج صاحبنا المترجمان ليس موضوع الترجمة، بل ردنا نحن غير المتوقع على فليكوفسكى الذى تصوره من النوع الذى لا يقهر، فهل يسعد صاحبنا الطبيب القيام بدور حارس الشرف للكتاب- الصهيونى؟.

أما إذا كانت الإجابة تأخذ بحسن الظن، فإن السيد الطبيب قد كسب رهان المغامرة، عندما اضطرنا للرد عليه، ليشكل ردنا دعاية مجانية لسيادته، وللكتاب، وبالطبع للدار الناشرة التى تجرأت على نشر هذا الكتاب أخيراً، بعد ما رفضته كل دور النشر الأخرى.

وبعد، فقد استجبنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم بذلك الرد النهائى، الذى يتضمن درساً واضحاً لأشباه السيد المترجمان، ونحن واثقون أنهم سيعملون بالحكمة البليغة: (أنج سعد فقد هلك سعيد).

مقالات ودراسات

حول الحاجة لتحديد المفاهيم

من لحظة زمنية معينها، تلك التي توصلت فيها السماء مع الأرض عند نزول الوحي القرآني، ومن مكان بذاته يتمركز في بلاد الحجاز من جزيرة العرب، تحدد (زمكان) التراث لدى أصحاب الاتجاهات الاصولية الإسلامية. بل أنه من جانب آخر ذات التحديد لدى شريحة كبرى من الباحثين المهتمين بالدراسة حول الهوية والآخر وفق تصور غروبي ضروري جامع يلتقي بالضرورة بالتأسيس الأصولي الإسلامي لمعنى التراث كمرجعية أولى أساس، وهي الرؤى المؤسسة سلفا على مقدمات تحاول إيجاد جامع مشترك، كنتاج لعدم تأسيس اصطلاحى ومفهومي واضح، لمفاهيم (الوطن، العروبة، الأمة القومية، التراث).

وذلك بدوره ليس إلا ناتج الالتباس الحادث بين الإسلام كعقيدة جامعة لمجموعة شعوب تليين به، وبين (العروبة) كهوية قومية جامعة لمجموعة الشعوب الناطقة بالعربية، وتتشارك عبر التاريخ في تفاصيل تؤطر لفكرة توحد أصيل باعتبار أن المفهوم العروبي يتأسس تاريخيا على فتوحات عرب الجزيرة للاقطار المحيطة والتي تحولت إلى العروبية (لغة) لتؤسس دولة عقدها الجامع هو الإسلام، وتحول شعوب الأقطار المفتوحة إلى العقيدة الإسلامية المؤسسة للدولة الأولى (دينا).

ومن ثم تارجحت حالة الالتباس حول الهوية، بين مفهومي (العروبة) و(الإسلام) ليلقى كل منهما بظلاله على مفهوم (المواطنة) بخاصة إذا أخذنا بالحسبان أن شعوب للبلدان المفتوحة وأن تحولت جميعا إلى اللغة العربية (لغة قريش) فإنها لم تتحول جميعا إلى عقيدة الإسلام (دينا)، وعليه فقد ظل داخل تلك المجموعة البشرية عربا لا يدينون بالإسلام ويبن تحديد الهوية المسارى الآن بالإسلام، ورد فعل العربى غير المسلم بتحديد هويته بدينه، صناع الوطن بين الطرفين، وإعمالا لذلك يصبح الالتباس والتداخل بحاجة ماسة إلى تحديد مفهومي واضح، يركز على قراءة علمية تاريخية مجتمعية لرفع الالتباس، والبدء من مرتكزات واضحة.

القطعة التاريخية والمعرفية

والسؤال الأهم هنا هو: هل شكل الإسلام قطعة تاريخية ومعرفية مع ما سبق، بحيث يمكن احتسابه وحده مع بداية تواتر الوحي هوكل تراث الأمة؟.

(*) نشر فى ١١/٣/١٩٩٣، بصحيفة الأهرالى، القاهرة.

على مستوى الرؤى الاصولية لابد أن تكون هناك قطيعة تاريخية، فبدأ الإسلام من لا شيء، فهو مفارق سماوى، أزلى الكلمة المقدسة، غير مرتبط بماض أرضى، رغم الواضح فى القرآن الكريم وما لحقه من أحاديث نبوية، وما ارتبط به من أحداث تجادل معها التكم المقدس أخذاً ورداً. فاعلا ومنفعلا مؤثرا ومتأثرا وما تأسس على كل هذا فيما بعد من اضطرابات مذهبية ورؤى فلسفية استندت إلى جدل المقدس مع حدث الواقع الموضوعى، وهو ما يشير بوضوح إلى تناقض تلك الرؤية مع قواعد الإيمان ذاته وتاريخ الدعوة ناهيك عن استحالة القطيعة التاريخية، لأنه لا شيء إطلاقاً يبدأ من فضاء دون قواعد مؤسسات ماضوية يقوم عليها، ويتجادل معها، بل ويفرز منها حتى لو كان ديناً.

والدارس لآيات الوحي يجدها تدببه بوضوح أنه لم يكن هناك قطيعة معرفية - أيضاً - مع السابق الأرضى، وإن تشكلت تلك القطيعة بالفعل على المستوى الإيماني البحث كنتاج لتأسيس الإسلام لذاته ولمصاديقته على طرفين: الأول الاتصال بذلك القديم وتقديم معرفة به، ثم على الطرف الثانى تم نفي هذا القديم باعتباره أفكاراً باطلة وعقائد أمم كافرة، وهو الأمر الذى ساعد على لون خطير من فقدان الذاكرة التاريخى الجماعى، وأسهم فيه بدور أساسى وتام انقطاع الشعوب المفتوحة عن لغاتها القديمة باعتبارها وعاء ذاكرتها وتاريخها وحضارتها، وحاصل خبراتها وتفاعلاتها مع واقعها عبر زمن طويل، وما أفرزه ذلك التفاعل من ثقافة احتوتها اللغة المفقودة.

وعليه (على سبيل المثال) فقد انقطع المصرى عن تاريخه، ولم يعد يذكر من ذلك التاريخ سوى ما قدمه له الإسلام من معلوماتية بشأنه، وهى المعلوماتية التى تحدد الموقف المعرفى ليس بكونه تاريخاً، وموضوعاً للمعرفة، إنما بوقوعه بين طرفى معادلة الإيمان والكفر (!) وبالتالي تم تلخيص ذاكرة مصر بكل تاريخها فى فرعون طغى، وتجبر فكان مصيره الهلاك غرقاً مع قومه المجرمين! وهو الأمر الذى يسحب ظلاله على الحاضر الآنى، حيث لا يصبح للمصرى تاريخ قبل الفتح، وتنقطع الذاكرة، وتتحول الهوية المفقودة نحو الدين وطننا وتاريخنا، ويصبح صدق الإيمان مع الإسرائيليين، الذين خرجوا من مصر الكافرة ليحتلوا فلسطين، لاحتلالا استيطانياً مشروعاً من وجهة نظر الإيمان (١٢) ويصبح المصرى مع موسى ويشوع، ليبارك غرق التاريخ بالكامل مع العصا المعجزة، وهو الأمر ذاته الذى يكابده الواقع الفلسطينى حيث لا بد للمسلم الفلسطينى أن يكون مع طالوت الإسرائيلى ضد جالوت الفلسطينى، وهو الأمر الذى يصدق أيضاً على نمرود العراق الكافر إزاء أرومة إسرائيل إبراهيم، وعلى كتعان إزاء سام النخ، وهى الأمثلة التى توضح إلى أى مدى هى إشكالية الوطن والمواطنة والتبساتها إزاء الدينى والقومى.

الإسلام إذن لم يشكل قطيعة معرفية مع ما سلف، إنما تجادل معه وحاوره ثم نفاه ليصبح الوحي هو مصدر ذاكرة الأمة، وهو وحده كل تاريخها ومصدرها المعرفي، وعليه يتأسس الموقف إزاء أى طارئ أو أى معرفة أخرى، وبموجبه تصدر الأحكام والتقييمات بصدد ما يتعلق بما سبق ثم باللاحق أيضا.

وعلى مستوى العقائد، لم يشكل الإسلام قطيعة معرفية مع الأديان السابقة عليه، بل اعتبر نفسه امتدادا لبعضها كما فى موقفه من اليهودية والمسيحية، بل إنه أسس ذاته سابقا لها، وأن اعترافه بها لأنها كانت إسلاما بالاساس، ثم نافيا لبعضها الآخر، كما فى نفيه لعقائد أخرى كعبادة الاوثان، باعتبارها عقائد باطلة، لكنه فى تحاوره مع الديانات التى أطلق عليها (الديانات الكتابية) أصدر أحكامه بشأنها، وأبطل ما بقى مستمرا منها، إما لأنها انحرفت عن أصلها الإسلامى؟ أو لأنها حرفت الكلم المقدس عن مواضعه، أو لأن الدين فى النهاية قد أصبح عند الله الإسلام فتساوى الكل، وأصبح الكفر ملة واحدة، وعليه فقد أصبحت المعرفة المعلوماتية لدى المسلم عن تلك الديانات تستمد أصلا مما قدمه الوحي والتاريخ الإسلامى بشأنها، وهو ما أدى إلى انقطاع داخل شرائح المجتمع العربى، تساعد عليه كافة أجهزته الاعلامية والتربوية، التى تتحدث جميعا طوال الوقت دون كلل أو ملل بتكرار شديد الإملال عن الإسلام وقواعده وتفاسيله وشروحه، مما يعطى للعربى غير المسلم معرفة كافية بالإسلام، بينما يظل المسلم العربى لا يعلم من شأن عقيدة المواطن العربى غير المسلم، سوى ما قدمه له الإسلام، وهو ما أدى بالضرورة إلى اغتراب العربى غير المسلم عن معنى المواطنة، واحتمائه بدينه ليصبح دينه وطنا، وهو ما سبقه إليه العربى المسلم عندما فقد ذاكرته وتاريخه.

تاريخية النص

والمطالع للمأثور الإسلامى، وما لحقه من تاريخ وتفاسير وسير وفلسفات وعلوم دين، يكتشف إلى أى مدى توقفت الذاكرة العربية عند لحظة نزول الوحي، وإلى أى مدى انقطعت عن ماضيها، وهو الأمر الذى استمر يتأكد بفعل الاصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة، وأن تلك الثقافة الثابتة ليست بالأصل أرضية، بل هى مفارقة سماوية، وأنها الاصل فى كل ثقافة أخرى، وأن ثباتها هذا ينفى أى محاولة لبحث تاريخيتها، فقد جاءت جاهرة هكذا من الأزل، ودونت فى لوح أزلى محفوظ، دون ارتباط بأى سبب موضوعى وقت تواتر الوحي (رغم تناقض ذلك مع تقرير الوحي ذاته).

وعليه أصبح بالإمكان اجتزاء أى نص من بين النص القرآنى الكلى، ونزعه من سياقه مع باقى الآيات، وسحبه من لحظته التاريخية التى سببته، لدعم أى موقف آنى نفعى حسب

المصلحة المراد تحقيقها. أما الأخطر- برأينا- في رفض تاريخية النص، هو أن هذا الموقف تحديدا هو السبب الجوهرى والاساس فى تلك الالتباسات المشار إليها، وعدم الوصول إلى تحقيق دقيق بشأنها، كنتيجة لعدم أخذ الاسباب الحقيقية والموضوعية بالاعتبار، والتي أدت بالنسبة، وبالوحي إيان تواتره، إلى اتخاذ مواقف بعينها من ذلك المأثور الحضارى القديم، أو من الديانات السابقة وأصحابها، وهو الأمر الذى بات يحتاج إلى تقديم دراسات واضحة جريئة بشأنه، والتعامل فى درسها- مع النص بوصفه معبرا عن واقعه فى حقل موضوعى للأحداث، إيان ثلاثة وعشرين عاما هى زمن تواتر ذلك الوحي.

وهو ما يستدعى عملا دؤوبا يربط حقل الأحداث بتصنيف الآيات، والمكى منها والمدنى مرتبطا بظرف كلا المدينتين وواقع البشر فيها مع دراسة وافية لعلاقة النبي وأتباعه بأصحاب الديانات الأخرى وما مرت به تلك العلاقة من متغيرات فرضها ظرف الواقع وتطور الدعوة، وأدى إليها وأفرزها، وعلاقة كل هذا بالمستوى المعرفى لجزيرة العرب وكَم وحدات تذكر العربى البدوى، وما ألقته البداوة من صباغ على تراكمه المعرفى (وهو لا جدال مستوى الخطاب القرآنى الموجه إليهم)، مع تأسيس كل ذلك على قراءة علمية صارمة لواقع الجزيرة ومحيطها، من حيث البنى المجتمعية والأنماط الاقتصادية والأشكال السياسية، وهو الأمر الذى نظنه قد أصبح ضرورة ماسة الآن، وربما نهينا إلى أن الأمر بهذا الشكل مطلب مصيرى لا يتناقض إطلاقا مع قداسة الدين، بل نزع أن هذه المطالب توقف عمليات التزييف والتدليس والتخديم الانتهازى للنص الدينى، مما يحفظ له كيانه وقداسته، وفى ذات الوقت يرفع الالتباسات عن المفاهيم المطلوب تحديدها، ويساعده على استقرارها وتوقفها عن الرجرجة بين باحث وآخر، ورؤية وأخرى، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى حل كثير من الاشكاليات البحثية الداخلة فى همومنا الآنية.

حول مفهوم التراث

هل يمكن حقا الركون إلى الرؤية الأصولية التي توقف ذاكرة الأمة عند لحظة ابتدائية أولى، هي لحظة نواتر الوحي القرآني، وتحدد للتراث مفهوماً واحداً هو المفهوم الإسلامي، وتؤطره مكانياً بمهبط الوحي بجزيرة العرب؟ وحينئذ هل يغدو العربي المسلم بغير تراث وطني وقومي؟ أم سيلجأ إلى التراث الإسرائيلي في التوراة (وهو الحادث فعلاً)، وهل يبقى كل تاريخ تلك المنظومة من الشعوب العربية مقصوراً على التآرجح بين الإيمان والكفر، وبين فرعون وموسى، وبين طالوت وجالوت، وبين نمرود وإبراهيم؟

ووسط هذه الحالة الرجراجة بين الإيمان والكفر، هل يمكن أن يجد الوطن ومفهوم المواطنة مكاناً في تحديد الهوية؟ وهل بالحق يمكن إطلاق مفهوم (أمة) على مجموعة شعوب فقدت ذاكرتها ونماهت في الدين فأصبح هو الوطن وهو الهوية؟ وهل يصبح ممكناً - على الإطلاق - الحديث عن صراع حضاري آني، دون أن ننكهن بمصير آل إليه الهنود الحمر قبلنا؟ وإذا كانت هذه أسئلة أرقّة مؤرقة، فهل من سبيل إلى الخروج من دائرة الإيمان والكفر إلى فضاء أوسع، لا يظله غير مناخ علمي حرّ تاماً، ويكون همه الأكبر هو مصير البلاد والعباد، إزاء التسارع الهائل الآن في تقدم الشعوب المتقدمة أصلاً، وتمكنها من أدوات السيطرة، مع فقدان الأسس والأدوات والمناهج التي قد تساعد - مع التفاؤل - على بدء خطوات صحيحة، للخروج من دائرة جذب ذلك المغناطيس الرهيب نحو القاع، فالتلاشي، فالزوال في طوايا القرون الغواير، مع عاد وثمود وأصحاب الأيكة وهنود أمريكا وشعب الأنكا؟.

وإذا كانت الرؤية العلمية ممكنة دوماً، فهل ينبغي أن يظل شبح الرعب من معادلة الإيمان والكفر، وما يصحبه الآن من أدوات تنفيذية لا تقيم وزناً لأبسط الحقوق الإنسانية، وتنفذ دون مراعاة لحديثيات العدل (١؟)، هل ينبغي أن يظل رعب مصادرة الكلمة والحياة (بأمر الله) عائناً دون المحاولة؟ لو كان ذلك كذلك، فإن من يحاولون تأسيس تلك القراءة العلمية الآن، هم أصحاب الريادة في أشرف ساحات النضال حقاً وصدقاً.

التاريخ العيب

إن المحاولات العلمية المخلصة في التعامل مع المآثر الإسلامية في ظل الواقع المبهين الراهن يجب ألا تضع باعتبارها إطلاقاً - إن كانت مخصصة حقاً وعلمية حقاً - أي قطيعة معه،

(*) نشر في ١٠/١١/١٩٩٣، بصحيفة الأهالي، القاهرة.

ولا أن تضع ضمن أهدافها إصدار أحكام بشأنه، ولا رفضه أو نفيه، ولا اقتطاع بعضه - بحجة صلاحيته - دون بعضه، ولا إسقاط مفاهيم معاصرة عليه، إنما يجب درسه مرتبطا بواقعه، منصبتا مع حركة هذا الواقع في زمانه، وإيقاع ذلك الواقع وضبط هذه الحركة مع الحدث الذى سبقها والذى عاصرها، وما نتج عن هذا من إفراز معرفى بعينه، دون محاولات وادعاءات عقلنة المأثور، أو أدلجته، ودون المبالغة فى بعض مناطقه، ودون التجاوز عن مناطق أخرى فيه، باختصار أن تتم قراءته قراءة تاريخية لا تجرده من ماضيه ومشكلات زمانه. من حيث كان واقعة فى حقل لحدث الواقع المجتمعى، بحيث ترتبط الفكرة بواقعها، ليعود ذلك المأثور إلى حجمه الطبيعى، ويتراجع ظله السحري الذى يفرضه دوما كمثل أوحد لا يصح تخطيه، ولا يظل لونا من التاريخ العبد، قدر ما يتحول إلى تاريخ دافع ومحرك، دينامى لا سكونى.

لكن وسط كل هذا الاهتمام بين من يفرضون المأثور الإسلامى وحده تراثا أوحد لكل الأمة، ومن يحاولون درس هذا المأثور دراسة علمية، تكشف حقيقة أولى هامة وخطيرة، وهى أن كليهما - حتى أصحاب الدراسة العلمية - لا يتحركون خارج دائرة المأثور الإسلامى وحده، كما لو كان الأمر فعلا، ثم رد فعل، محاولة فرض دائمة، ومحاولة رد لتحجيم ذلك المفروض، دون أن يسمح ذلك الاصطراع الفكرى الدائب بالحركة التاريخية إلى ما قبل المرحلة الإسلامية، كما لو كان الزمان قد انبث عندنا وانقطع، ولا يظل فى الذاكرة من تراث تلك الأمة وسط الهموم الحاضرة سوى ذلك المأثور وحده، مع تجمد المحاولات العلمية ذاتها عند نفس لحظة البدء المحددة سلفا وسلفيا، بزمان بدء تواتر الوحي، ومكانه بجزيرة العرب.

نحو فهم آخر

ومن هنا نلح وننبه إلى خطورة حالة هذا الخدر العلمى الذى استطاب حركة رد الفعل الدائمة، والذى توقف - ربما مضطرا - عند هذا المأثور دارسا محققا مدققا، وربما كان واقع الحال سببا يفرض موضوعات البحث، وأيها جدير بالاهتمام الآن. لكن الاقتصار على المأثور الإسلامى وحده فى ساحة الدرس العلمى، يؤسس لفهم كاد يصبح حقيقة، وهو أنه وحده تراث الأمة بكاملها، وعليه كان ههنا فتح النافذة على التراث بمعناه الأكمل والأشمل باستمرار، حتى لا يضيق من الذاكرة معنى التراث الحقيقى.

وإن أى عقل سليم يمكن أن يرى بهدوء، أن أى تراث لأى مجتمع لا يمكن أن يتطور أو يحدث أصلا دون توارث، فالتراث - لغة - إرث موروث عن الأسلاف، تركوا لنا فيه ناتج

خبراتهم ومعارفهم، أى أن التراث متطور فاعل منفعل دوماً، أى أن الناس هم صناع ذلك التراث، يصوغونه وفق ظروفهم وحاجاتهم، حتى لو كان ديناً، فالوحي القرآنى جاء مفروقاً ومدجماً، ناسخاً ومنسوخاً، وبذل ومعى وأثبت، تبعاً للمتغيرات ولمصالح الناس خلال زمن تواتر الوحي، ثم ظل كمأثور دينى حسب فهم الناس له، أو على الأدق فهم كل فرقه أو مذهب أو طبقة اجتماعية.

هذا بالطبع مع اعتبار أن أى نقلة تطورية على سلم التراث، كان لابد أن تسبقها نقلة على الدرجة الأدنى، ويستحيل دونها الوصول إلى الدرجة الأعلى، وهو ما ينطبق بدوره على علاقة المأثور الإسلامى بالتراث السابق للمنطقة بكاملها.

ويعطى آخر؛ إن أى تطور ثقافى ما كان ممكناً حدوثه إلا على أسس وأعمدة من ثقافة سابقة، فقط ما يجب أخذه بالاعتبار هو: أن التطور عندما يأتى رأسياً صاعداً على عمد تراث قديم، فإنه يقوم إيان ذلك بتوسع افقى يفجر فيه مع كل نقلة، الأسوار والتحديدات القديمة، من أفكار ومعتقدات لم تعد مناسبة لاحتواء الظرف التطورى الجديد، ولم تعد صالحة كوعاء مناسب للتراكم المعرفى المتزايد، ولم تعد صالحة لمعالجة إشكاليات مستجدة لم تكن معروفة من قبل، ويفرضها التطور الدائم للأشكال الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية، وهو ما ينطبق على علاقة المأثور الإسلامى بما سبقه، كما يجب أن ينطبق تماماً على ظرف اليوم وعلاقته بمأثور مضى عليه ما يزيد عن أربعة عشر قرناً من الزمان.

ومن ثم فإن القناعة السائدة بانقطاع شعوب المنطقة عن ماضيها القديم هى قناعة إيمانية، أكثر منها حقيقة واقعة، لأن التراث حسبما أسلفنا لا يمكن أن يكون حكراً على ثقافة بعينها، ولا يمكن أن يكون ذا مبتدا (زمكانى) محدد. وإن ما جاء بمأثورنا الإسلامى عن تراث سابق، لم يأت غريباً من الماضى ليتسلل إلى المأثور الإسلامى زمن التدوين، وفى الوقت ذاته فإن المأثور الإسلامى ذاته ليس وافداً من خارج الزمن والمكان، بل كان هو الامتداد الموضوعى للزمن والمكان، وبهذا الطرح يمكن تحقيق معرفة بالتراث تصحح للوعى به، وتزيل عن فهمه أى التباس، وهو الأمر الذى سيسحب عدداً من التصويبات تلحق بفهمهم لم تنزل رجاجة حول (الوطن، الأمة، الهوية، القومية ... الخ).

وعليه فلا مناص من تحديد مفهوم الثقافة والتراث، باعتبارها ناتج تراكم كمى وكيفى لخبرات طويلة تعود إلى عمق ما قبل بداية التاريخ، مع ارتباط الإنسان بهذه الأرض واستقراره فيها، وأن هذا التراث ناتج تفاعل جدلى داخل تلك المجتمعات منذ بداياتها الأولى، وبينه وبين طبيعته الطبيعية، وبينه وبين المجتمعات الأخرى والثقافات الأخرى المتباينة، عبر خلالها

نقلات على سلم التطور الزملى والمجتمعى والاقتصادى، وشكل فى النهاية منظومة فكرية كبرى، يشكل المأثور الإسلامى فيها إحدى الحلقات الكبرى.

"النص" بين الأزلية والتاريخية

عنوان هذا الموضوع، يلخص - فى رأينا - سر الأزمة التى أثارها الشيخ (عبد الصبور شاهين) إزاء أعمال المفكر (نصر أبو زيد) . حيث انطلق الشيخ (شاهين) من موقف مألوف، يصير على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة .. المتماهية مع النص الإلهى، بحيث يظل ثبات المفهوم القدسى، ضامنا لثبات المواقع السيادية لرجال المنظومة الدينية (!!) بمعنى ثبات النص كوحدة كتلية واحدة من الأزل. وأن هذا الثبات الكتلى غير المتغير - قد جاء كما هو معلوم - نتيجة انتهاء جدل فلسفى قديم حول قدم النص أو حداثة، بانتصار سياسى سيادى لأصحاب فكرة الأزلية والقدم والثبات، بتحالف أسس لأصحاب تلك الرؤية مواطىء قدم ثابتة دائمة فى المنظومة السيادية، التى يجب أن تقوم دوما على الثبات المشروع قدسيا . وبعدها أصبحت أى محاولة للمناقشة لونا من الكفران المبين ! مع الأمر غير الخفى الذى يبين فى تمهى وتماسك المنظومة السيادية التحالفى مع مؤسستها الدينية، وبالتالى مع صاحب النص الذى يمثلونه على الأرض، كمعبرين دائمين عن ثبات كلمته، وثبات العروش القائمة فى الآن ذاته .

ومن ثم كانت أية محاولة لنش ذلك المفهوم السائد الثابت، حول الثبات الكتلى المتوحد للنص مع ذاته ومع صاحبه ومع الأزل، والتى يؤكد أن النص كان فى الأزل كتلة واحدة متماسكة سماوية مفارقة للأرضى وأحداث الواقع، تعنى هز الأسس السيادية التى تقوم عليها تلك المنظومة . وهو ما كان يوجب بالطبع ردا عديفا حديا بين قرارى الإيمان والكفر، وهو الرد الطبيعى غير المدهش اطلاقا، وهو الرد نفسه الذى يضرب فى عمق الماضى، الذى استخدمته الطبقات السائدة دوما عبر وسطائها المحترفين من رجال الدين ! كما استخدمته منظومة رجال الدين ذاتها، لتأمين مصالحها الخاصة، بإبقاء النص مطلقا فى الفضاء غير مرتبط بأى واقعة تاريخية كانت سببا له، لأمر مفهوم تماما استمر عبر أربعة عشر قرنا مضت، رزح فيها المسلمون تحت كافة أنواع القهر الطبقي والطغيان السلطوى . الذى عادة ما كانت تتغير مظاهره وتتفاوت بتفاوت أحوال المكان والزمان، وعادة أيضا ما كان يجد ذلك القهر المتفاوت سنده فى النص الذى يفلسفه رجال الدين، بسحب أى آية قرآنية فى سياقها النصى، ويترصلتها بسابقها ولاحقها ! وهم بذلك يسمحون لأنفسهم وحدهم بفض ذلك التماسك الكتلى الذى يدافعون عنه، وفى الوقت ذاته يقطعون علاقة الآية المطلوبة بواقع الحال الذى سبقت بشأنه فى أوانها .

(*) نشر فى ١٧/١١/١٩٩٣، بصحيفة الأمالى، للقاهرة.

استخدام نفعى

وهكذا يظل النص دوما رهن الاستخدام النفعى، لتبرير مواقف قد تصل إلى حد التناقض التام مع بعضها، وبالتالي التناقض التام فى الآيات المعبرة عن تلك المواقف المتناقضة والمبررة لها، ولا تحتاج إلى جهد كبير لكشف ما وراءها من مصالح ومواقف هى ضد إنسانية المواطن وكرامته.

وقد كان ذلك الاستخدام الانتهازى الدائم للنص الدينى، مصدرا لعدد من الانتكاسات الفادحة، حتى وصل الأمر أحيانا إلى استخدام النص لتبرير أهواء ونزوات للحاكمين، هى ضد الوطن وضد المواطن وضد الدين ذاته.

وعليه فإن أية محاولة لإعادة النص إلى سياقه وبناؤه الداخلى، ومحاولة تحليله وأدراك علاقاته ببعضه، وعلاقته بواقعه الحدى وسياقه الخطابى - وهو الأمر الذى يعيد له احترامه ومفهوم قدسيته - كانت مثل تلك المحاولات، فى معناها الأخطر، هى ارتجارج عروش بدأت الأرض تميد من تحتها بالفعل، وأن مغربها. وعليه كان رد الفعل الذى أدهش كثيرين، رغم أنه لم يكن مدهشا على الإطلاق.

ويبدو أن الأمر سيظل كذلك بعض الوقت، وهو ما لن يحسمه إلا أن يضع المفكرون المخلصون بحسبانهم، أن القضية قضية نضالية فى المقام الأول، إضافة لكونها قضية علمية، لا تحتل تببيع المواقف، أو المصالحة حول مناطق وسطية تصالحية، فالأمر الآن مصير أمة بكاملها، لم يعد بالإمكان إخضاعه للنزوات الرجال وأهوائهم.

وإزاء التمسار فى إتساع المسافة بين أحوالنا وأحوال الأمم المتقدمة، لم يعد هناك وقت لإرجاء حسم كثير من المواقف الفكرية، التى ترتبط بشدة بمصير البلاد والعباد، ويبدو أن هذا قدرنا، وأن هذا زمنها، فإن ذهب بلا حسم لكثير من القضايا المسلط فوقها سيف التكفير، ومنها القضية عنوان هذا الموضوع، فلن يكون هناك بعد مساحة لمناقشة أمور هذه الأمة، لأنه لن يكون بعد هناك أمة.

سر الأزمة

وأتصور أن من أهم ما استثار الرجال فى المؤسسة المشيخية فى أعمال (أبوزيد)، ذلك للموقف الذى أبرز فيه التناقض الناشئ عن القول بأزلية النص وثباته، وهو ما جاء واضحا فى كتابه (مفهوم النص) يقول:

إن ظاهرة النسخ تكثير فى وجه الفكر الدينى السائد المستقر اشكاليتين (يتحاشى مناقشتهما) الاشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب عليها من تعديل للنص بالنسخ والالغاء، وبين الإيمان الذى شاع واستقر بوجود أزلى للنص فى اللوح المحفوظ، والاشكالية الثانية: اشكالية جمع القرآن، وما يورده علماء القرآن من أمثلة توهم أن بعض

أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية، ولم يناقش العلماء ما تؤدي إليه ظاهرة نسخ التلاوة أو حذف النصوص سواء بقي حكمها أم نسخ أيضا، من قضاء كامل على تصورهم الذي سبق الإشارة إليه، لأزلية الوجود الكتابي للنص في اللوح المحفوظ.. إن فهم قضية النسخ عند القدماء، لا يؤدي فقط إلى معارضة تصورهم الأسطوري للوجود الأزلي للنص، بل يؤدي أيضا إلى القضاء على مفهوم النص ذاته.

وهكذا بسط الرجل الأمر ببساطة وإنصاف، وعرض الإشكالية بموضوعية ودون استفزاز، فقط أكد أن الثبات الأزلي كمفهوم، يتناقض مع مفهوم النسخ، وللاحظ أن مفهوم النسخ بدوره كان معتمدا آخر لكثير من التبريرات للتوجهات القومية، أو ما هو ضد مصلحة الأمة، وذلك باستخدامه تبادليا عند الحاجة مع مفهوم الأزلية، المهم أن (نصر) هنا إنما يذهب فقط إلى هذا للتناقض، بدليل مسألة النسخ كما وردت في كتب علوم القرآن، دون أي محاولة للتدخل، الرجل أراد - فقط - فتح نافذة للنقاش، لكنها النافذة التي تسحب من رجال الفكر الديني أهم أدواتهم الانتهازية لمحقق المواطن باسم الدين! وهو الأمر الذي يمكن أن يؤول بالموطن في النهاية إلى مقتل نفايات الأمم، ومن ثم ندفع بالمسألة مسافة أبعد، ونطلب جهدا واضحا يربط إشكاليات النسخ بواقعا الموضوعي، من حيث كانت الآيات تعبيراً عن وقائع في حقل أحداث أعت إليها في زمانها، وهو ما سبق أن قدمنا فيه دراسة منشورة كمدخل ومقدمات^(١)، من أجل وقف تزيف وعي المواطن، وتزييف الدين ومعاملته بانتهازية، ووقف الانزلاق التاريخي للمهين لهذه الأمة نحو القاع.

التناقض

وأن التناقض يظهر واضحا جليا، عندما نجد أن أي محاولة لمناقشة أزلية النص تنتهم فوراً بالكفر والإلحاد، وفي الوقت ذاته، ودون أن يطرف لهم جفن، يأخذون قضية النسخ من المسلمين، ومن لا يؤمن بها كافر بدوره، ولا نجد مبررا لكلا الموقفين المتناقضين غير الأبقاء على بدائل تظل دوما متاحة، للتخديم على المصالح وقت الحاجة، حتى لو كانت تلك المواقف شديدة التناقض.

وللحق، فإن الإصرار على وقوع النسخ هو موقف حق، لكنه يحتاج في الجانب الآخر التنازل عن المفهوم السائد حول الأزلية والثبات، ومن النماذج التي تشير إلى التمسك بوقوع النسخ على سبيل المثال، ما جاء عند شيخ علوم القرآن (جلال الدين السيوطي) في قوله: «قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف منه الناسخ

(١) انظر كتابنا: الأسطورة والتراث، باب: النسخ في الوحي، محاولة فهم.

والمنسوخ، وقد قال على رضى الله عنه لفاض: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، قال: هلك وأهلك.

كذلك ما ورد عن (أبى جعفر النحاس) فى قوله: «ومن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ، وهذا قول عظيم جدا يتول إلى الكفر».

وهو ما صادق عليه (الدكتور شعبان اسماعيل) وكيل الأزهر بقوله: «وأهمية معرفة النسخ تتضح مما يأتى: أولاً: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين جحدوا وقوع النسخ وهو واقع، وثانياً: أن الإمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشرية، وثالثاً: أن معرفة النسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام، والاهتداء إلى صحيح الأحكام، فالمنكرون لوقوع النسخ فى القرآن الكريم، يخالفون صريح النص القرآنى والسنة النبوية الصحيحة وإجماع المسلمين».

وتأسيساً على ذلك، يصبح إنكار النسخ لونا من الكفر الصريح، والنسخ إنما يعنى تاريخية النص وتفاعله مع واقعه وارتباطه بظروف ذلك الواقع، وفى الوقت ذاته فإن إنكار عكس ذلك ورفض الأزلية والثبات كفر بدوره وهو ما يتبناه الشيخ الغزالى هذه الأيام، وبين الكافرين بضيع المسلم ولا يبقى سوى أن يركن لمن يفسرون له الحكمة فى التناقض، بالتعظيم على الإشكالية، لاستخدام المتناقضين حسب الحاجة والطلب والمتغيرات، دون احترام مطلوب لذلك النص الرفيع، الذى تأكدت تاريخيته درسا ترويا للمؤمنين به، تلك التاريخية التى أكدتها نصوص القرآن الكريم ذاتها بما لا يحتمل لبساً أو تأويلاً.

كشف الخدع

فيما جاء به الخطاب الدينى من بدع

هل يبدو العنوان مستغزاً؟ لا شك أنه كذلك لأول وهلة.. لأننا نخلط بشكل غير واع بين الدين بقداسته التى تمثلها كتبه الموحى بها، وبين الخطاب الدينى الذى يستخدمه كل من هب ودب للدفاع عن قضيتته، حتى لو كانت أشد القضايا بطلانا، وهو الخلط الذى انسحب من الدين على الخطاب الدينى، وعلى أصحاب هذا الخطاب أنفسهم، الذين عمدوا إلى تأكيد ذلك المعنى، بالخلط المقصود بين الدين فى ذاته وبين خطابهم المصلحى! حتى أصبحوا ينعمون فى نظر العامة على الأقل بهيبة مستمدة من قداسة الدين، ويخوف خرافى من الزى (اليونيفورم) الذى يرتديه رجل الدين المتكهن عادة، وهو ما ساعد أصحاب الخطاب الدينى، دوماً على خداع الجماهير ضد مصالحها، وتبرير أفطع المظالم، وتبرير أشد الفظائع إثماً، باعتبارها مشروعة دينياً، وهو الأمر الذى تدلل عليه إطلالة سريعة على تاريخ الأنظمة (الديوقراطية)، سواء فى أوروبا أو فى بلادنا، عندما كان الناس يحكمون بمساندة رجال الدين، أو بهم مباشرة، خاصة عندما يدعون لأنفسهم قميصاً سريلهم الله به، أو حقاً إلهياً مزعوماً، وسواء كان ذلك الدعى باباً أم سلطاناً أم خليفة أم إمبراطوراً.

ومن نكد الدهر أن نعى هذا الخلط، ونظل فيه سادرين. ومن ثم فإن مانسمع ونقرأ من كلام مرسل، لم يستطع أن يفرق بوضوح بين الدين وبين المشتغلين بأمر الدين، وبين الدين وبين الخطاب الدينى، وبين الدين فى ذاته كمقدس سر تقديسه الوحي الإلهى، وبين الفكر للدينى الذى يشرح أو يفسر أو يضيف أو يؤول أو يستخدم ذلك الوحي لمأربه أو لوجه الله.

والمثال الأوضح هنا، أننا نعلم جميعاً ولا نشك لحظة أن الوحي القرآنى هو كلمة الله الواحدة الثابتة، ومع ذلك فإننا وجدنا عبر متغيرات سياسية واجتماعية، من كان يبرر لنا النظام الاشتراكى بالقرآن والسنة والقواعد الفقهيّة، ثم جاءنا من يبرر الاقتصاد الحر ويكفر الاشتراكية والاشتراكيين، ويتغيّر الأحوال عبر الأيام، وتداولها بزوال نظام اقتصادى اجتماعى وقيام آخر. كنا نجد لدى الخطاب الدينى مشروعية كاملة لمحاربة دولة إسرائيل، بينما نجد فى زمن كامب ديفيد كل المبررين يتقدمون بدلائلهم السلمية وآرائهم الشرعية، التى تؤكد أنهم ما داموا قد جنحوا للسلم، فعلياً أن نجح لها ونتوكل على الله (!؟) وفى حرب الخليج وجد نظام

(*) نشر فى مايو ١٩٩٣، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

صدام من رجال الدين فى مختلف أنحاء بلاد لا إله إلا إله، العدد الكافى لتبرير مواقفه، وعلى الجانب الآخر وجد المتحالفون ضده (من المسلمين تحديداً لأن الأمريكان لم يفعلوها) من يبرر لهم موقفهم تبريراً شرعياً.

وهكذا مع شديد الأسف، نهدر قيمة الوحي الصادق، ونتعامل معه (بفهلوة)، نبرر ما نريد، وترفض ما لا نحب، وتدافع عن ظلم، وتقرر لمواقف شديدة التناقص مصداقيتها الدينية، وهو الأمر الذى يستهين بالوحي الإلهى، ويجعله مطية لكل الأغراض، ويمتهن كلمة الله الصادقة، دون أن يرف له جفن، وهذا هو بالتحديد ما نقصده بما جاء به الخطاب الدينى من بدع، ليست من صحيح الدين، ولا من سلامة الضمير ولا الإيمان.

ومن ثم كان لابد من موقف حاسم إزاء ما يحدث، موقف يضع الشروط التى تضمن احترام النص، وتمنع استثماره حسب الهوى والغرض، وربما لخدمة أشد الأمور بعدا عن الحق والإنصاف. ومن بين هؤلاء الذين أخذوا هذه المهمة على عاتقهم، المفكر المتميز (نصر حامد أبو زيد)، الذى حدد أساساً لمشروعه العلمى، يتمثل فى أن الدين يجب أن يكون عنصراً أساسياً فى أى مشروع نهضوى. لكنه توطئة لذلك أعطى من عمره الكثير لإيضاح أن الدين ليس هو الخطاب الدينى، والذى يمارس دوره بشكل أيديولوجى نفعى، إنما الدين هو النص الدينى الموحى به بعد تحليله وفهمه فهما علمياً صحيحاً يمنع عنه أى لبس، ويقف عقبة إزاء محاولات استثماره، وهو ما سينفى فقط ما فيه من قوة دافعة نحو التقدم والعدل والحرية.

وقد انتهى الدكتور نصر أبو زيد فى بحوثه إلى عدم وجود خلافات جوهرية بين خطاب المعتدلين وخطاب المتطرفين، فكلا الجانبين النشيطين يعتمد على ذات الآليات التى توجد فكرهم بالدين لاكتساب قداسته، وتفسير كافة الظواهر بإرجاعها إلى مبدأ أول هو الحاكمية الإلهية، بوصفها نقيضاً لحاكمية البشر، إضافة إلى سلطة السلف، وتحويل نصوص المجتهدين إلى نصوص شبه مقدسة أو مقدسة، بحسم قطعى يهدر البعد التاريخى للدين تماماً، كما يعتمد الخطابان على ذات المنطلقات الفكرية بمبدأ تحكيم النص، الذى عادة ما يصبح تحكيمياً لتفسير وفهم فئة بعينها للنص على حساب العقل، وهو الأمر الذى ينتهى بالخطاب الدينى إلى موقف نقيض من الإسلام، لأنه نقيض للعقل رفيق الإسلام وأساسه المتين، ثم يقوم ذلك الخطاب بتحريم ما عدا ذلك عن طريق التغطية الأيديولوجية لتوجهاته الرجعية الخادمة للنظم السياسية الدكتاتورية، عن طريق مبدأ (لا اجتهاد مع النص).

وهى خدعة أيديولوجية، لأن معنى النص هو (النص الواضح القاطع الذى لا يحتمل إلا معنى واحداً)، والنص بذلك نادر فى الوحي، وتظل سائر الآيات قابلة للاجتهاد والتأويل.

وبهذه التفرقة بين الخطاب الدينى وبين الدين، يلزغ عمل الدكتور نصر عن الفكر الدينى وخطابه القداسة، ليصبح اجتهادات بشرية لفهم نصوص الدين، بحيث يظل الوحى الإلهى مصاناً باحترام حقيقى، وهو ما لا يسمح باللعب بالآيات وتفسيرها حسب الهوى والمنافع، واكتساب ذلك التفسير قدسية الدين ذاته.

ومن هنا فإن الدكتور نصر حامد أبو زيد، وغيره من أصحاب ذات الاتجاه والغرض، وإن اختلفت الأدوات بين هؤلاء الكوكبة من الباحثين المبشرين بفجر جديد، قد تعرضوا لهجمة شرسة من أصحاب الخطاب الدينى، ارتكبت جميعاً إلى التكفير، لحصار أعمالهم وتغيير المواطن منها، وتشكيل رأى مسبق لديه يمنعه من متابعتها أو قراءتها، ولكن المأساة الحقيقية أن يتحول الأمر إلى إرهاب حقيقى، فمن الدعوة الصريحة إلى إخراس تلك الأصوات (وهو ما تعرض له كاتب هذه السطور على صفحات الأهرام والنور وغيرهما) إلى الانتقال للفعل داخل قلعة العلم المفترضة (جامعة القاهرة)، حيث تم رفض الأعمال التى قدمها الدكتور أبو زيد، والتى تصل إلى ثلاثة عشر عملاً، ولم تشفع له لدليل درجة الأستاذية، أما الأكثر نكابة وإثارة للفرع حقاً، هو أن يكون التبرير المدون لذلك الرفض، هو اتهام الرجل بالكفر، بعد تزوير كلامه وتحريفه عن موضعه وسياقه، على نمط (لا تقربوا الصلاة)، إضافة إلى التلقيق فى التأويل المتعسف، دون الرأى العلمى المفترض وحده، وهو ما فعله تقرير الشيخ عبدالصبور شاهين، رجل ييوت لهف الأموال المشهور، وبالطبع لم يكن غريباً أن يكون كاتب تقرير بهذا السمى والشكل رجل من المستفيدين المتاجرين بخطابهم الدينى، وهو ما علمناه عنه يقيناً فى علاقته بأكثر من فضيحة لم يداربها ولم يندى لها جبينه. فهو أمر مفترض لدى أصحاب الخطاب الدينى النفعى، ومن الطبيعى تماماً أن يصاب مثل كاتب التقرير بهذا الهياج الشديد، لكن غير المقبول وغير المفترض وغير المتوقع إطلاقاً، أن يكون رجل واحد هذا رأيه، يتمكن بالإرهاب من فرض رأيه واستبعاد رأى جميع أساتذة كلية الآداب وبخاصة قسم اللغة العربية فيما قدموه من تقارير، وهنا الكارثة حقاً.

ويبقى التساؤل: هل أصبحت قبة الجامعة، قبة شيخ من ذوى الكرامات ثوى فى قبر مبروك؟! أم قبة كنيسة؟! أم قبة أحد المساجد؟! أم قبة معهد علمى عريق تعرض فى غفلة أو تغافل مقصود، لتسرب الإرهاب إلى حرمة ليعتدى على أقدس حرماناته وهى حرية البحث العلمى، وأمانة القرار العلمى؟ الفضيحة عالمية يا سادة يا كرام، ولم تعد مسألة ترقية (أبو زيد) أو حتى فصله (أنا شخصياً أحبذ القرار الأخير، لأنه سيعطى الرجل تفرغاً لياتى ويجلس بجانبى يؤنس ترهيبى، كما سيعطى ضراوة أكثر فى معركة يجب أن تحسم اليوم وليس غداً حسماً نهائياً، إما حياة الأمة وتقدمها، أو نفض أيدينا منها ونترحم على ذكرها) فالقضية أكبر

* وما حدث لهذا الكتاب الآن بين يديك !!

الآن من ترقية أستاذ، إنها منطق الإرهاب والتكفير واضطهاد الفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم، فكيف به لو كان مسيحياً؟ فيا أيها المسيحيون المصريون طوبى لكم حقاً وصدقاً، والحق أقول لكم: إن مصر تتأسس اليوم، وفي هذا الجيل، لقد افتتحت قضية نصر الملحمة، والله المستعان.

ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية

(مفكر من أهم مفكرى التنوير فى التاريخ المصرى، وعلامة فارقة فى تاريخ الثقافة العربية جميعا). هذا بالضبط ما قلته فى إحدى ندواتى بعد أن قرأت للرجل بحثا واحدا، كان منشورا أيامها فى دورية عربية، وبعدها تابعت البحث عن أعمال الرجل، وعن الرجل نفسه، لأكتشف أنه كان بدوره يبحث على، عندما أرسل لى - بمدينة الواسطى حيث كنت أقيم - أحد مريديه، ليطلب اللقاء.

ويقدر ما أدهشتنى كتابات هذا الرجل بقدر ما أدهشنى شخصه، تحسبه لشدة تواضعه وهو يستمع للقول إنه يستمع إليه لأول مرة، ثم تكتشف أنه يعلمه فعلا لكن بشكل أفضل، حكى لى عن مرحلة الصبا بشديد من البراءة والاعتزاز، وكيف بدأ عاملا فنيا باللاسلكى، وكيف حمل أعباء الأسرة بعد رحيل عائلها، وكيف كان يعمل نهائرا ويدرس ليلا، لكنك لا تجد مهما بحثت أى أثر لتشوّهات كان يمكن أن تتركها تلك الرحلة فى نفس أى رجل، كل ما حدث أنه قرر أن يعمل عبء مصر جميعا.

صريح كل الصراحة إلى حد الصدمة، لا يقول إلا ما يعنيه فعلا، أما المستوى العلمى الرفيع والرصين فى إصداراته السبع، فتشئ بصرامة علمية نادرة، تفصح عما يأخذ الرجل به نفسه من شدة وقسوة عندما يعمل، فعلى مستوى الكتابة، وعلى المستوى الشخصى، لم يساوم أبدا على مبادئه، ولا على مستقبل هذا الوطن. ذلكم هو نصر حامد أبو زيد.

والقارىء لأعمال نصر أبو زيد يكتشف هم الرجل فى إزالة ومنع الاستخدام النفعى والانتهازى للدين، بدأ به على ريط النص بسببه الموضوعى وسياقه التاريخى. أما الأسلوب فشديد الرصانة، شديد البراءة أيضا، يفضح ببراءته أولئك المتنفعين على مر العصور، ومن هنا استشعر أولئك الخطر الذى يمثله هذا الإنسان، فشنوا عليه حملتهم التى قادها مستشار بيوت هبش الأموال المعروف عبد الصبور شاهين لتدعمه بعد ذلك أسماء كثيرة وردت بكشوف البركة، ليأخذ التحالف الأسود مداه ليصل بالرجل إلى المحاكم، حيث يصدر ضده الحكم بتفريقه عن زوجته، بحجة أنه أراد الاجتهاد فى قواعد المواريث، فانكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة، والمعنى الضمنى فى هذا الحكم أن الرجل مرتد عن الإسلام، ويصبح من حق أى مسلم مهووس أن يذبحه وهو مطمئن الفؤاد قرير العين، بالنظر إلى العلاقات

(*) نشر فى ٢٦/٦/١٩٩٥، بمجلة روز اليوسف، القاهرة.

الواضحة بين الأقطاب، حيث أفتى الشيخ الغزالي في محاكمة قتلة فرج فودة، بأن أى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه، وبالمناسبة منحت حكومتنا المباركة هذا الرجل جائزتها التقديرية؟!.

ولو مددنا الخط على استقامته، منذ مقتل الدكتور فرج فودة، مروراً بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ، ثم ربطنا ذلك بتراجع العنف الدينى المسلح بعد الصدمات الدموية مع جهاز الشرطة، ومع خسارة ذلك العنف تأييد الشارع المصرى له، حيث بدأ الناس بالتعاون الفعلى مع الشرطة بعد ما رأوا من جرائم الإرهاب، فإننا سنلاحظ فوراً نقلة جديدة، تتمثل فى متغيرات مرحلية وتكتيكية، لكسب الجماهير إلى صف الإسلام السياسى، وذلك برفع عدد من قضايا الحسبة ضد مفكرى مصر، مثلاً حدث مع عاطف العراقي، وكتاب روزاليوسف، وغيرهم، وهنا يتم نقل قضية نصر أبو زيد من دائرتها الأصلية إلى الدائرة التى أصدرت الحكم، دون مبررات واضحة، وهى كلها مؤشرات إلى منهج آخر وطريق آخر يتسم بالذكاء قد بدأ تنفيذه، حيث يمكن ذبح نصر أبو زيد بعد الحكم، مع تهيئة الجماهير لقبول ذلك الذبح الشرعى بحملة واسعة حدثت فعلاً فى مساجد معلومة الشأن، دون أن تتمكن من اتهام الإرهاب الدينى المسلح، وسيف هيبة مؤسسة القضاء مرفوع فوق رؤوسنا، ولأن القتل هنا سيكون بتفويض رسمى من مؤسسة الدولة، ومختوماً بخاتمها الرسمى.

كل ذلك يشير إلى جودة عالية فى التكتيك، وتوزيع مبرمج بدقة للأدوار، تمكن من الاستفادة من الوسطية الفجة التى تلعبها مؤسسة الحكم، منذ أن قررت أن تكون الدولة دولة مؤسسات ديمقراطية، ثم قررت فى الوقت نفسه أن الدين الرسمى للدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع، فجمعت بين المبدأ الديمقراطى الذى لا يعرف عن المواطنين هويتهم الدينية، ولا يضع، فى اعتباره إن كان هذا المواطن مسلماً، أم مسيحياً، أو حتى بلا دين محدد، وبين أيديولوجيا دينية شمولية، مع التصور الساذج أنه من غير الممكن استخدام هذه النصوص الدستورية عملياً، حيث كان الأمر تجملاً من النظام أمام التيار الدينى، وإثباتاً للدين الدولة والتحالفات، لتحقيق عناصر ومناخ مناسب للتحالف الذى حدث آنذاك بين نظام السادات وبين الإسلاميين.

ولا شك لدينا أن السيد القاضى المبجل، الذى أصدر الحكم، كان متسقاً تماماً مع القاعدة التشريعية التى سوغت له أن يحكم بما حكم، فتحت يديه باب اللججيم يمكنه أن يفتحه ويستخدمه وقتما شاء، وقد وضعته له حكومتنا الغراء، كما أن سيادته كان متسقاً تماماً مع منظومته الدينية والفكرية، فالرجل كما رنا إلى علمنا من المتشددى فى أمور الدين، لذلك فقد

أصدر الحكم الذى ارتاح إليه ضميره وعقيدته، التى هى بهذا المنطق أساس ومقياس كل الأحكام.

لكن هذا كله لا يعنى تبرئة السيد القاضى المبجل من الخطأ، فجل من لا يخطئ، نقول هذا ونحن نعلم معنى هيبة القضاء ومؤسسته، كما نعلم جيداً ما قد يجره هذا الكلام علينا نحن بالذات. لكن المسألة لم تعد تحتل تردداً أو وسطية أو تمبيعا للمواقف، نعم مؤكداً لدينا أن الحكم بقياسة على عقيدة القاضى ونص الدستور صحيح تماماً، وهو الأمر الذى يجب أن يحيل الجميع الآن إلى مناقشة القاعدة الدستورية والتشريعية ذاتها، التى سوغت له إصدار حكمه، أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد نصر أبو زيد فى مسألة المواريث، وهو ما شرحه الدكتور محمد البرى، لا فض فوه، أن اجتهاد نصر هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، والخطير هنا هو أن القاضى المبجل قد أصدر حكمه بناء على فهمه هو لما كتب نصر أبو زيد، بينما هناك كثير من مفكرى هذا البلد، قد قرأوا أعمال الرجل، ولم يفهموا منها ما فهم السيد القاضى، وهنا جوهر الأمر، حيث يتم تحكيم الدين فى رقاب العباد، بينما النص الدينى نفسه قابل لتعدد الفهم حوله بتعدد القراءات واختلاف الثقافات، كما أن أى نص آخر يحمل ذات المشكلة فى تعدد ألوان الفهم حوله، ومن ثم يصبح الخطأ هنا - خاصة إذا كان الخطأ قاتلاً - هو فى فهم ما كتب نصر أبو زيد، يلتبس بخطأ آخر يتأسس على الانحياز لفهم دون فهم آخر لنصوص الدين، وهو بدوره ما ينبنى على اعتبار تلك النصوص نصوصاً جامدة ثابتة لا تقبل المناقشة، ويلحق بذلك نتائج هى أن أى محاولة لتحديثها أو تأويلها، أو حتى مجرد تحريكها، يعنى الكفران المبين.

وقد أخذ فهم نصوص القرآن الكريم أحد طريقين، ظلاً طوال التاريخ الإسلامى فى حالة مد وجزر، لعبت بهما أقدار السياسة والظروف الاقتصادية والاجتماعية، حتى استقر أحد الطريقين وساد فى عصور التخلف والظلام.

فالمعلوم لدى أى مسلم أن القرآن الكريم لم يتنزل على النبى صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة وكتلة متماسكة كالواح موسى، إنما تواتر مفزعة عبر ثلاث وعشرين سنة، هى عمر الوحى، أى أنه استغرق من التاريخ زمناً يتجادل مع أحداث الواقع ومستجداته ويتفاعل معها ويجيب على ما تطرحه من إشكاليات دائمة التغير، وخلال ذلك نسخت آيات آيات أخرى، ونسيت آيات، ورفعت آيات، وهو ما يعنى أن للوحى عمراً هو جزء من التاريخ، وهو ما يعنى تاريخية النص القرآنى التى لا يجادل فيها إلا مكابر أو صاحب مصلحة، وكانت هذه التاريخية واضحة تماماً فى أذهان المسلمين الأوائل.

وفهم تاريخية النص الدينى، وريط الآيات بأسبابها، لا شك يوقف الاستخدام النفعى والانتهازى والمصلحى والارتزاقى للدين، فحيث أن عملية جمع القرآن زمن الخليفة عثمان،

قد جمعت الناسخ إلى جوار المنسوخ، فقد دفع ذلك أكثر الصحابة علما وفقها إلى التنبيه على تلك التاريخية طوال الوقت، وهو ما يمثل قول على بن أبي طالب لأحد القضاة وهو يحكم بين الناس: «هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟» فقال: لا، فقال على: «إذن فقد هلك وأهلك».

وفى عصور التخلف، واستخدام الدين لخدمة توجهات أصحاب السلطان، تم وضع قاعدة فقهية تقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو ما يفتح الباب على مصراعيه أمام الاستخدام الانتهازي الصريح لنصوص الدين. ومن أمثلة ذلك الاستخدامات القريبة ما مر فى تاريخنا المعاصر، من تيرير رجال الدين لتوجهات الحكومات على تناقضها التام، فعندما كنا نحارب إسرائيل وجدنا آيات لا حصر لها تؤيد تلك الحرب وتدعو إليها، وعندما قررنا عقد السلم معها وجدنا آيات أخرى تدعو إلى السلم وتطالبنا بالجنوح إليه، وعندما اعتمدنا المنهج الاشتراكي فى الزمن الناصري، اكتشفوا لنا أن رائد الاشتراكيين وإمامهم هو النبى صلى الله عليه وسلم، وعندما قررنا الأخذ بنظام الاقتصاد الحر قدموا لها كسفا على النقيض تماما، يجعل الناس درجات وطبقات.

وهكذا وجد القائمون على شئون الدين بناء على تلك القاعدة الفقهية، مكاسب دائمة، تبرر للسلطين عبر العصور آراءهم واتجاهاتهم بل ونزواتهم، بالدين ونصوصه تأسيسا على إنكار تاريخية الوحي والقول بثباته الأزلى فى لوح محفوظ، للعمل بالناسخ وقت الحاجة، وللعمل بالمنسوخ عند تغير الحاجة، حسب التوجهات المطلوبة والانتهازية.

والقول بأزلية النص إنما يجافى العقل والمنطق والنص نفسه، حيث يحوى النص أحداثا وقعت لىان حياة الرسول لا يمكن فهمها إلا فى ضوء تاريخية النص، ولا يمكن فهم الايات المتعلقة بها إلا بربطها بتلك الأحداث الحادثة وليست الأزلية أو القديمة، وهى تتعدد بتعدد آيات القرآن الكريم ذاته، وإلا كيف نفهم نصا أزليا قديما يحدثنا عن واقعة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ليحل إشكاليتهما؟! أو كيف نفهم فى ظل الأزلية النص الذى يحدثنا عن أولئك الذين نادوا النبى من وراء الحجرات، أو كيف نفهم سماع الله لتلك المرأة التى جاءت إلى النبى تجادلته.. الخ، والنماذج أكثر من أن تحصى.

من هنا وتأسيسا على كل ذلك جاءت أعمال كوكبة المفكرين المحدثين فى مصر، لوقف إهدار الوطن وكرامة المواطن طوال الوقت بهذا الاستخدام النفعى للدين، وحتى لا نظل على حافة التناقض دوما، وعلى رأس تلك الأعمال كانت كتابات نصر أبو زيد الرائدة، التى اقضت مضجع هؤلاء المنتفعين، ودفعتهم إلى تلك الحملة المسعورة، ضمن تكتيكهم الجديد المرحلى.

وغير خاف على أى مدقق، أن استمرار التعامل مع النصوص باعتبارها كتلة واحدة غير مرتبطة بأحداث ومتغيرات واقع الزمن النبوى، مع تطبيقها فى فضاء لا يرتبط بواقع تلك

الأحداث، أدى إلى تناقض شديد إلى درجة (الشيزوفرينيا) في فكر الإنسان المسلم، كنتاج ضروري للتضارب بين الناسخ والمنسوخ، والإيمان بالعمل بأحكام كليهما، وأبرز مثال عليه ذلك التضارب بين آيات الصفح والصبر الجميل، وبين آية السيف التي أجمع الفقهاء على نسخها لآيات الصفح، وهو تناقض شكلي بالطبع وليس موضوعيا. لأن لكل منهما كانت ظروف واقعية تلحم به وتبرره، بالتالي، وعملا بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، انطبع سلوكنا بالنفعية والانتهازية، حيث يمكنك أن تجد مبررا دينيا دائما لما تريد، وبحيث أصبحت الآيات القرآنية والأحاديث حججا دائمة حتى في خصوماتنا الشخصية أو تعاملاتنا المجتمعية أو الاقتصادية، وكل منا على طرفي الخصومة يجد فيها مؤيدا له.

ومن ثم تناقضنا مع أنفسنا، ومع تاريخنا، ومع الآخر، ومع العالم، ومع مفهومنا عن الوطن، بل عن الدين ذاته، فلم نستطع طوال ذلك التاريخ أن نضع رؤية واضحة متسقة لأنفسنا أمام أنفسنا أو أمام العالم، وهو ما ترك بصمته الواضحة لدى الأحزاب الدينية، التي لم تتمكن حتى الآن من وضع برنامج واضح المعالم لها.

ولو حاولنا القياس على المحاكمة التي تمت وانتهت بقرار تفريق نصر أبو زيد عن زوجته، لوجب إجراء محاكمات مثيلة لشخصيات كبرى في تاريخ الإسلام تصل بعضها إلى درجة القدسية، مع تفاوت تلك الدرجة لدى المذاهب الإسلامية، فلدنيا نماذج مثل الخليفة عمر بن الخطاب، الذي ارتكب بهذه المعاني ما لم يسبقه إليه أحد، وما لم يلحقه إليه أحد، فقد أوقف العمل بحد السرقة عام الرمادة، ثم نهى عن متعة حلال، فخالف بذلك نص القرآن «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طبيبات ما أحل الله لكم» (٨٧/ المائدة)، وذلك عندما وقف على المنبر النبوي وقال: (متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا أهوى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء).

لن أناقش هنا مسألة الردة، وهل هي حد من الحدود المقررة في الإسلام من عدمه، فقد تعرض لها أساتذة أكفاء وفندوها تغليدا محكما، لكني أسلك هنا سبيلا آخر أراه سبيل الإنسانية الحرة.

فلحن يمكننا أن نفهم الظروف التي أدت إلى حروب الردة زمن أبي بكر، ويمكننا أن نتفهم اغتيال المعارضين زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بالنظر إلى ظروف الزمن آنذاك، حيث كانت دولة العرب الإسلامية في طور النشأة والتكوين، وكان إسلام الفرد آنذاك تعاقدًا بشروط، حيث يعرض عليه الإسلام، وهو رجل بالغ عاقل راشد، ليختار بملء إرادته وحرية، ويدرك مقدما النتائج المترتبة على إخلاله بذلك العقد، كما يمكننا أن نفهم سر شدة العقاب

للمعترض والمردت آنذاك، حيث كان إنشاء دولة من عدم، ومن قبائل متفرقة متصارعة، مع ما يعنيه ارتداد فرد بارتداد قبيلته جميعا، وما يؤدي إليه ذلك من تفكيك عرى الدولة وتوحيدها، لذلك تمت التصحية بأرواح كثيرة عند قيام الدولة لأنها كانت تنهض في وسط معاد لها تماما، لذلك كانت مضطرة، أن تكون دولة عسكرية شديدة المراس طوال الوقت.

نعم يمكننا أن نفهم ذلك ونعيه جيدا، لكننا هنا في مصر وعلى مشارف القرن الحادى والعشرين، ومصر كانت دولة مركزية، وأمة متكاملة قبل أن تعرف الإسلام بألوف السنين، فما حكم المسلم هنا اليوم حيث يولد مسلما بحكم ميلاده فى أسرة مسلمة؟ فلا هو اختار الإسلام عن دراية وإرادة ودرس واقتناع، ولا هو دخل فى ذلك العقد عن بيئة واضحة نافية للجهالة، أفئن حاول من بعد أن يطمئن إلى طوية فواده، أو أن يناقش أمرا من أمور الدين ويجتهد فيه يحكم عليه بأنه مرتد؟ هكذا بكل بساطة!؟.

هل نحن كيون بذاته؟ أم نحن أبناء هذا العالم؟ لقد كافحت البشرية وناضلت، وقدمت ملايين الضحايا على مذبح كرامة الإنسان وحقوقه، حتى تمكنت من إرساء تلك القواعد الحقوقية، وأهمها حق حرية الاعتقاد، وحرية التفكير، وحرية القول، وحتى استطاعت أن تقيم الدولة المدنية الديمقراطية، ونحن هنا لا نجرؤ على حرية الاعتقاد، فقط ربما حاولنا حرية الاجتهاد، وعندما تصدر ضدنا أحكام القتل، إما من أمير جماعة مأفون، أو من محكمة تابعة للدولة، لأن حكومتنا الرشيدة لم تع بعد التعارض الهائل بين مواد الدستور وبعضها، لم تع أن حقوق المواطن فى دولة مدنية دستورية مؤسساتية، تتعارض بل وتتضارب تضاربا صارخا مع الهدوء الأخرى فى الدستور، وربما كانت قضية أبو زيد الآن هى الضارة النافعة، ومن ثم أرفع صوتى هنا وأطلب من كل شرفاء مصر أن يضموا أصواتهم إلى صوتى، للعمل على إعادة النظر فى القواعد التى يمكن أن تسوغ للبعض إهدار أبسط حقوق الإنسان، حتى لو كانت تلك القواعد لإيجاد توازنات وسطية تحل بها الحكومة مشاكلها مع المعارضة الدينية، أو لرشوة تيار شعبى غير رشيد، فإما أن نقيم دولة مدنية حقا، أو لنخبرونا بوضوح أنك مستريحون لوضعنا المزرى هذا خارج التاريخ، ولنا فى دستور ١٩٢٣ أسوة حسنة، وكنا نحن واضعوه وليس آخر.

منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية

«الدائرة هي أكمل الأشكال.. هذا ما أعلنه (فيثاغورس) في القرن الرابع قبل الميلاد.. وقبله بحوالى نصف قرن كان الفيلسوف (طاليس) يؤكد أن الأرض مستديرة كالقرص تماما. وتوصل (أنسكمنديس) إلى أنها معلقة في الفضاء.

ووسع (بارمنيديس) النظرية، فقال أن الكون كله، ليس إلا كرة تامة الاستدارة. ولم يأت عام ٣٥٠ قبل الميلاد، حتى كان (ديمقريطس) قد عمم النظرية على الكون كله، حين أنهى إلى أن الكون كله، يتركب من جسيمات مادية كروية الشكل متناهية في الدقة والصغر، هي الذرة^(١).

والعلم الحديث يؤكد أن الكون كله من أكبر أجرامه إلى أدناها، يعتمد الكروية في تشكيله، والاهليجية في حركته (الاهليجية هي الطواف دائريا على منحني بيضاوى). فالأرض مثلها مثل بقية كواكب المجموعة الشمسية، كرة تطوف على منحني بيضاوى حول مركز هو الشمس، والشمس كأي نجم كرة نارية تطوف مصطحبة معها كواكبها بنفس الطريقة، حول مركز مجرتها (القبانة)، والمجرات بالملايين والنجوم بالبللايين، وكلها كروية في تشكيلها، ذات طواف اهليجي في حركتها، وينطبق هذا حتى على أدق الأجسام الكونية. فالذرة مجموعة شمسية مصغرة، إذ هي عبارة عن إلكترونات كروية تطوف إهليجيا حول مركز كروى هو نواة الذرة.

والغريب أن الإنسان - منذ فجر التاريخ - عندما كان يريد اثبات خضوعه لناموس الكون، كان يضع نقطة اعتبارية يقدسها ويطوف حولها، كطواف الكواكب حول الشمس أو الإلكترونات حول الذرة، كما لو كانت الكروية أو الاستدارة ناموسا قدسيا إلى جانب كونها ناموسا علميا.

ولما كانت المكتشفات الفلكية القديمة (في الرافدين)، قد توقفت عند سبعة كواكب تدور حول الشمس، فبيدوا أن ذلك سوغ للإنسان القديم أن يضع لطوافه حول بيوت الآلهة المقدسة وحدة قياسية مقدسة تتكون من سبعة أشواط. مع الأخذ في الحسبان أن هذه الكواكب السبعة كانت آلهة في نظره.

(*) من أوائل موضوعات الكاتب الاختبارية، نشر بالعدد (١٢، ١٣) من مجلة الكويت، الكويت.
(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ص ١٢.

الحج في العقائد القديمة

ومنذ بداية التاريخ الفرعوني، اتخذت مدينة (أبيدوس) مكانة قديمة لا تبارى. فقد اعتقد القوم هناك أن رأس الشهيد (أوزيريس) مدفون فيها. ومع بداية العصر المتوسط الأول، أصبحت زيارة البيت المقدس في (أبيدوس) والطواف حوله سبعة أشواط، حجا وفريضة إجبارية على كل مؤمن بأوزيريس، في حين أمنت السنة للمستحبة هي الدفن بجوار حبيبهم، الشهيد، باعتبار جواره وحماه، أقدس وأطهر مكان على الأرض، بل هو في اعتقادهم مركز الكون، حتى أطلق الكهان على مدفن أوزيريس (أباتون) أي الحرم، لأن الغناء أو الطبل أو الصيد، أو حتى مجرد الجهر بالصوت كانت محرمة في (أبيدوس).

وحتى اليوم، لم يزل العامة حول المنطقة ولمسافات بعيدة، يقصدون آبار المياه المقدمة في أبيدوس للاخصاب والاستشفاء، دون علم بأصل هذه القدسية الحقيقي. فالمسيحيون يقصدونها معتقدين أنها قبر قديس من أباء الكنيسة الأوائل، ويقصدها المسلمون واضعين في حساباتهم أن هذا القبر مقام ولى من الصالحين^(٢).

وفي بلاد الرافدين تبنت الدول السامية حضارة سومر. وخلال الحضارات التي توالى هناك من (أكد) إلى (بابل) إلى (آشور) إلى (كلديا)، كان المصطلح السومري (أيلو) أو (أيل) هو اسم العلم المطلق الدال على الإله المعبود^(٣)، فكانت (أيل) تطلق على أى رب من الأرباب^(٤) الذين يربو عندهم على ثلاثة آلاف.

لكن اللسان السامى، أبدل الكلمة السومرية (BIT) بمعنى المعبد، بمقابلها للسامى بيت^(٥) وأضافها إلى (أيل) لتصبح (بيت أيل) أى بيت الله (ولاحظ التقارب في النطق بين أيل والله)، للتدليل على معبد الإله، الذى كان يأخذ عادة شكل الزاقورة وهى شئ أشبه بالمتذنة، يدور حولها سلم صاعد فى شكل دائرى، وعلى قمته كانوا يضعون شكلا هلاليا، رمزا للإله (سين) إله القمر، وهو نفس الإله الذى عبده عرب الجنوب تحت اسم (ياسين). كما كان الهلال أيضا رمزا للآلهة (عشتروت) كوكب الزهرة، وكانت بيوت الآلهة الراقدية تنتشر بطول البلاد وعرضها، لكن مراكز العبادة الكبرى كانت فى المدن، واعتبرت محجات المؤمنين، خاصة بالآلهين: (سين) و (عشتروت).

(٢) ديانة مصرى القديمة، دوفل أرمان، ص ٤٢٠: ٤٢٢. انظر أيضا: مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة أدولف أرمان وهرمان رانكه، ص ٢٩٠.

(٣) «أبيدوس» د. عبد الحميد زليد، ص ٣١ (بالإنجليزية).

(٤) الساميون ولغاتهم، د. حسن غانم، ص ٢٨.

(٥) الديانة عند البابليين، جان برتيروا، ص ١٣٤، ٩٤.

وفى كنعان انتشرت بيوت الآلهة، مثل (بيت شماس) و(بيت إناث) و(بيت لحم) و(بيت يراه). ويقول رينيه ديسو^(٦) «أن هذه البيوت قد اتخذت شكل البناء المكعب، فسمى اللسان الكنعانى بيت للمعبود (كعبو). وأوجب كل معبود على أتباعه الحج إلى بيته والطواف حوله سبعا، ولعل أهم هذه البيوت، ذلك البيت الذى أقامته القبيلة الإبراهيمية بعد هجرتها من مدينة (أور) الرافدية إلى أرض فلسطين، والذى حمل اسم «بيت إيل». كما يزعم الكتاب المقدس.. حيث ظل (إيل) هو المعبود للشعب العبرى منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى ظهور النبى موسى عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد (د. جواد على) أن الطواف حول مركز قدسى كان معروفا لدى قدماء الفرس والهنود والبوذيين والرومان. كذلك نجد فى المزامير بالكتاب اليهودى المقدس «أغسل يدي فى النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب، (الاصحاح ٢٦)، وهو دليل واضح على وجود الطواف عند اليهود، وفى ثانيا حديثه عن الحج، يقول (د. جواد) «أقصد بالحج الذهاب إلى الأماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة للتقرب إلى الآلهة وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس، وتقابل هذه الكلمة العربية كلمة Pilgrimage فى الإنجليزية. والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الأديان تقريبا. وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين. وكلمة حج من الكلمات السامية الأصل الاصلية العتيقة، من أصل ح ك HG ح ج وهى ح ك.

وفى العبرانية، وقد وردت فى كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بنى سام. وفى روع الشعوب السامية القديمة أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها.. ولذلك يرى المتعبدون والمتقنون شد الرحال إليها للتبرك بها والتقرب إليها، وذلك فى أوقات تحدد وتثبت، وفى أيام تعين تكون أياما حراما، لكونها أياما دينية ينصرف فيها الإنسان إلى التفكير فى آلهته.. وتكون هذه المواضع التى تستقر فيها الآلهة بيوتا لها، ولذلك قيل فى الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة)، وقد بقى هذا الاصطلاح حيا حتى الآن يطلق على المعابد. فالمعبد هو بيت الله فى أغلب لغات العالم المعروفة فى الزمن الحاضر^(٧).

محجات الجاهليين

أشارت النصوص السريانية واليونانية واللاتينية القديمة إلى وجود للحج عند العرب قبل الإسلام، غير أنها لم تشر إلى وجود بيت واحد كان يحج إليه العرب جميعا^(٨)، ويقول

(٦) العرب فى سوريا قبل الإسلام، رينيه ديسو، ص ١٢٠.

(٧) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد على، ج ٥، ص ٢٢٣، ٢١٤، ٢١٥.

(٨) نفس المرجع، ص ٢١٧.

(الهمداني) أن العرب كانت لهم محجات متعددة منها بيت اللات وكعبة نجران وكعبة شداد الأيادي وكعبة غطفان^(٩)، ويذكر ابن الكلبي بيوتا أخرى كبيت ثقيف^(١٠)، ويشير (الزبيدي) إلى بيت ذى الخلصة الذي كان يدعى الكعبة اليمانية^(١١)، ويضيف د. جواد ببيوتا أخرى مثل (كعبة ذى الشرى) وكان حجها يوم ٢٥ كانون أول من كل عام، و(كعبة ذى غابة) الذي لقبه عباده بـ (قدست) أى (القدس) ، كذلك كان لآلهة الصفويين (اللات وديان وصالح ورضا ورحيم) محجاتها، كما كانوا يحجون إلى الكعبة المكية و(بيت اللات) فى الطائف و(بيت العزى) قرب عرفات و(بيت مناة) ، وغيرها كثيرا . وكان الحج معنادا فى شهر ذى الحجة ، وكان الطواف الجاهلى حول البيت الذى يعظمه سبعة أشواط^(١٢) .

ويبدو أن تقديس بيوت الآلهة تلك، يرجع إلى اعتقاد الجاهلى فى أن إلهه يسكن فوق سطح السماء، وبالتالي فقد يقدس أى جسم فضائى (كالنجوم ويقايا النيازك والشهب المتهاربة إلى الأرض) لتصوره أنه إنما سقط من البيت الإلهى الذى فى السماء، وكذلك كان يعتبر هذا الحجر رمزا لآلهه ، فيجعله مركزا قدسيا يبنى حوله بيتا يطوف به تبركا، معتقدا أن هذا البيت يقع تماما تحت البيت الإلهى، باعتبار أن حجره المقدس يقع تماما تحت المكان الذى سقط منه . وأضاف الجاهليون إلى الأحجار النيزكية الأحجار البركانية لتكون محل تقديس، لأنهم خالوها ساقطة من السماء^(١٣) ربما لسوادها نتيجة انصهارها، مما يجعلها شبيهة بالأحجار النيزكية التى صهرتها حرارة الاحتكاك بالغلاف الغازى قبل سقوطها على الأرض .

ومثال لهذه الأحجار السوداء، معبود النبطيين، وهو حجر أسود يرمز للشمس^(١٤)، والآلهة مناة عبيدها الهنليون ممثلة فى حجر أسود^(١٥)، كذلك كان «ذو الشرى» حجرا أسودا^(١٦)، وقد تصور الجاهليون أن حجر الكعبة المكية الأسود ومقام إبراهيم مثل بقية أحجارهم المقدسة، حتى ظنوا . كما يقول المسعودى . أن البيت المكى من البيوت التى خططت لعبادة الكواكب السيارة السبعة^(١٧) ولكن للبيت المكى وحجره الأسود قصة أخرى، كما سنرى حين نتطرق إلى الحج فى الإسلام، ولكن قبل ذلك ينبغى الوقوف مع البيت المكى فى العصر القرشى، مستقرى التاريخ اعتقادات الجاهليين حوله .

(٩) الإكليل، ج ٨، ص ٨٤ .

(١٠) كتاب الأصنام، ص ١٦ .

(١١) تاج العروس، ج ٢، ص ٢٧١ .

(١٢) المفصل، ج ٥، ص ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤ .

(١٣) أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، محمد حسنى عبد الحميد، ص ٩٨ .

(١٤) مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، د. خليل أحمد، ص ٤٣ .

(١٥) فى طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم .

(١٦) نفسه، ص ٦٠، ٦١ .

(١٧) مروج الذهب: ج ٤، ص ٤٧ .

الكعبة المكية

يتفق الباحثون على أن الجغرافي (بطليموس) يعد أقدم من أشار إلى مكة وأوردها الاسم (مكربا)، ومن سرده يمكن استنتاج أنها كانت بلدة عامرة في القرن الثاني للميلاد. ويذهب بعض الباحثين إلى أنها يجب أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ بكثير^(١٨).

ويعتقد Dr. Snouck Hmrgruje أن نبع (زمزم) في واد غير ذي زرع، هو السبب في نشوء هذا المركز المقدس^(١٩)، وقد قدم مفتي الديار المصرية (حمنين مخلوف) كتابا للسيد (محمد حميني عبد الحميد)، عنوانه (أبو الأنبياء)، نقل فيه مؤلفه عن (جرجي زيدان) أن الأصل في اسم (مكة) هو لفظ (بكة) أو (بك) السامية الأصل، مع الأخذ في الاعتبار تسمية القرآن لمكة بالاسم (بكة): «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين». ومعلوم أن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميما والعكس. ويمثل المؤلف لذلك بمعبد (بعلبك) في لبنان، مشيراً إلى أن الاسم (بعلبك) مركب من مقطعين، (بعل) وهو اسم صدم يمثل معبودا كنعانياً قديماً ولا يزال قائماً في المعبد إلى اليوم، و (بك) أي بيت. وقد أطلق على المدينة التي فيها بيت البعل (بعل بك - بعلبك) كما هو الواقع بمكة^(٢٠). ويشير (د. خليل أحمد) إلى أن الاسم (بك) ربما كان بابلياً أو آشورياً^(٢١). (لاحظ أن كبير أرباب الكعبة قبل الإسلام كان هبل وهو من أصل كنعاني، إذ تحكى كتب التاريخ الإسلامى أن عمرو بن لحي الخزاعي قد أحضر تمثاله من البلقاء في الشام، والاسم هبل هو في الأصل هبل والهاء أداة تعريف بينما أهملت العين بالتخفيف مع مرور الزمن).

ويذهب بعض الباحثين مذهباً آخر، واستناداً لرواية (ابن طيفور المصري) و(القيرواني) القائلة أن أهل حمير كانوا يلقبون القاف كافاً، يزعم هؤلاء أن أصل الكلمة (مكة) هو (مقة). وكان (مقة) اسماً للإله السبلي المعروف في التاريخ العقائدي بأل (مقة). ومن هؤلاء الباحثة اليمنية (ثريا منقوش) التي اهتمت بدراسة الإله اليمني (مقة) منذ بدء ظهوره حتى تحوله إلى إله قومي، وانتشار عبادته بعد انهيار مركز اليمن التجاري بانتهاء سد مأرب ونشأت القبائل اليمنية في أرض الحجاز، واستقرار أكبرها (خزاعة) في المنطقة التي أصبحت تعرف باسم (مكة)^(٢٢). وتزعم الباحثة أن كثيراً من عادات الحج إلى البيت المكي في الجاهلية، كانت

(١٨) في طريق الميثولوجيا، ص ١٢٥.

(١٩) نفس الموضع.

(٢٠) أبو الأنبياء، ص ٩٣، ٩٤.

(٢١) مضمون الأسطورة، ص ٦٨.

(٢٢) في طريق الميثولوجيا، ص ٤٩.

على غرار التقاليد اليمينية القديمة في تأدية فروض العبادة والحج للإله الـ (مقة)^(٣٣).

وتدعم الباحثة وجهة نظرها بقولها: «وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم علاقة مكة بأهل اليمن بما توافر لديه من معلومات تاريخية عن العلاقة بين مكة وأهلها، واليمن وقبائلها وعقائدها، فورد على لسانه وهو بالمدينة: ما هنا يمن وما هنا شام، فمكة من اليمن. وقوله صلى الله عليه وسلم: أتاكم أهل اليمن وهم أرق قلوبا. الفقه يمان والحكمة يمانية، وأنا رجل يمان، وفي حديث آخر يقول الرسول: «أنا يمان والحجر الأسود يمان والدين يمان». ويأتى موقع مكة فى السهل التهامى ليؤكد ارتباطها باليمن. فجاءت تفسيرات المفسرين ومنهم سفيان بن عيينه لحديث الرسول: أتاكم أهل اليمن، أى أهل تهامة، لأن مكة يمن، وهذا هو أصل قوله: «الإيمان يمان والحكمة يمانية»^(٣٤).

ونضيف إلى هؤلاء الباحثين احتمالات أشد بساطة، مثل أن تكون (مكربا) تعنى رب البيت لو أخذنا بأن (بك) تعنى البيت و (رابا) واضح أنها من (رب) فى اللسان العربى، أو مثل أن تكون (مكربا) من (قربان) وجمعها قرايين، وهى من أصل (قرب) وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب إلى المعبود، وهى معروفة بهذه التسمية Corban فى الآرامية والعبرانية وتعتبر من الاصطلاحات ذات الاصل السامى الواحد فى القديم، فتكون (مكربا) بهذا المعنى مكان التقرب إلى الله أو (المقربة) إلى الله.

الحج فى الجاهلية

وغنى عن الذكر أن (مكة) بعد أن تحولت إلى أكبر مركز تجارى فى شبه الجزيرة وذلك بعد تحول طرق التجارة من اليمن إليها، استقطب بينها المقدس تعظيم غالبية العرب. ورغم أن العرب - بدوا وحضرا - كانوا يعظمون التماثيل التى وضعوها بفناء الكعبة لتمثل الأرباب، فإنهم كانوا يعتبرون للكعبة إليها أكبر وأعظم من هذه التماثيل. ولعظمته وسموه فقد تصوروا عدم إمكانية الاتصال المباشر بينه وبين العبد الخاطيء، فوضعوا بينهم وبينه وسائط وشفعاء، هى تماثيل لقوم صالحين صنعوها لهم بعد موتهم، ثم صارت تندع بالأرباب أى السادة.

ويؤكد القرآن الكريم حقيقة إقرار الجاهلين بإله أعظم للكعبة أسموه (الله) فقط، فى حين كان لأربابهم مسميات أعلام أخرى مختلفة مثل (هبل) و(اللات) و(العزى) و(منة) فيقول:

«لئن سألتهم من خلقهم، ليقولن الله...» ٨٧ الزخرف،.

(٣٣) التوحيد يمان، ص ٨٣ : ٨٩.

(٣٤) نفس المرجع: ص ٨٧.

«لكن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العظيم..» ٩٠ الزخرف، .
«قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله، قل أفلا تتقون» ٨٦، ٨٧
للمؤمنون، .

وتحدثنا كتب التاريخ الإسلامى أن الجاهليين اعتقدوا فى قصة تعيد نشأة الكعبة إلى زمن موغل فى القدم، وتقول هذه القصة أن هبوط آدم إلى الأرض كان فى (سرنديب) من أرض الهند، وظل يهيم فى الأرض حتى وافى (حواء) وعرفها فى جبل (عرفات) ثم أخذها إلى أرض مكة وهناك توسل إلى ربه ليأذن له فى بناء بيت يطوف حوله، كما كان يفعل مع الملائكة حول بيت الله الذى فى السماء، فأنزل له الله على أجنحة الملائكة بيتا من النور مثل البيت الإلهى الذى فى السماء تماما، فوضعه على الأرض تحت موقع بيت السماء مباشرة. ويموت آدم رفع بيت النور، فقام ولده (شيث) بتخطيط مكان النور، ثم أقام عليه بيتا من حجر الأرض وطينها، لكن البيت خرب بطوفان نوح. وامتد الزمان حتى انتهت النبوة إلى إبراهيم، حيث حمل هاجر واسماعيل إلى هذا الموضع المبارك، ثم عاد إليهما بعد بضع سنين، وهناك أخذ ولده اسماعيل فرفعا القواعد من البيت.

ويقول (الشهرستانى) إن الجاهليين كانوا يحجون البيت ويعتصرون ويحرمون .. ويطوفون بالبيت سبعا، ويمسحون بالحجر ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فى قوله: إلا شريك لك، تملكه وما ملك. ويقفون المواقف كلها.. وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويحرمون الأشهر الحرم، فلا يغزون ولا يقاتلون فيها، إلا طى وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب كانوا لا يحجون ولا يعتصرون ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام،^(٢٦).

ويقول د. جواد على: «وقد كان الجاهليون يطوفون بالصفا والمروة وعليهما صنمان يمسحونهما.. سبعة أشواط، كما كانوا يقيمون الأضاحى ويقصون شعورهم هناك، ولم يحرم الإسلام الطواف بالموضعين»، وأن الرجم «كان معروفا عند الجاهليين، وهو معروف عند العبريين، وقد أشير إلى ذلك فى التوراة. وهو معروف عند بنى أرم وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة.. ويلحق بالرجم تقديم العتائر: الضحية فى الإسلام. وكانت تذبح عند الأصنام، والعمرة هى بمثابة الحج الأصغر فى الإسلام، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها

(٢٥) الملك والنحل، الشهرستانى، ج ٢، ص ٣٣، معجم البلدان، ياقوت، ص ٢٧٩، ٢٨١، ٦١٩، أخبار مكة، الأزرقى، ص ٩٠، ٨.
(٢٦) الملك، ج ٢، ص ٢٤٧.

فى شهر رجب، ومن الأشهر الحرم فى الجاهلية، وينقل (د. جواد) عن (فلهوزن) ومجموعة مستشرقين، أن الحجر الأسود كان فوق أصنام الكعبة منزلة، وأن قدسية البيت عند الجاهليين لم تكن بسبب الأصنام، بل كانت بسبب هذا الحجر الذى قدس لذاته وجلب القدسية للبيت، وأنه ربما كان شهاب نيزك أو جزءا من معبود مقدس قديم، وأن البيت كان إطارا للحجر الأسود أهم معبودات قريش، لكنه لم يكن معبودها الوحيد^(٢٧).

مكانة الكعبة فى الجاهلية

وبفيض الشعر بتعظيم البيت وشعائر الحج إليه وبالله صاحب البيت، وثقتهم به، وتبرز هذه الثقة واضحة إيان غزو (أبرهة) وجيش الحبش للكعبة فى عام الفيل، فى شعر عبد المطلب بن هاشم القائل:

لا هم إن العبد يم—	نع حله فامنع حلاك
لا يظلمن صليبيهم ومحا	لهم غدرأ محالك
إن كنت تاركهم وقب—	لننا فأمر ما بدا لك ^(٢٨)

وفى رده على أبرهة الحبشى عندما تعجب من طلبه «رد على إيلي، قال: «إن للكعبة ربا يحميها».

ويقول ابن هشام عن عام الفيل... إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام،، ويبدو أن تفشى الحصبة والجدرى بين جنود الحبش لم يكن فى اعتقاد الجاهلى سببا كافيا لتراجعهم، لذلك أرجع السبب الحقيقى إلى رب الكعبة، وهذا إنما يبرز ثقتهم فى إلههم ثقة كاملة، تلك الثقة التى تجلت فى الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوى فريد من نوعه، فقد أرسل الله على جيش الحبش طيورا ترميه بالأحجار ليرسل (رؤبه بن الحجاج) رجزه قائلا:

ومسهم ما من أصحاب الفيل	ترميمهم حجارة من سجيل
ولعبت بهم طير أبابيل	فصيروا مثل عصف مأكول

(٢٧) الفصل، ج ٥، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٢٢.

(٢٨) لعل، ج ٢، ص ٢٢٩، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٥.

ويشهد (نفيل بن حبيب) على صدق ما حدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طيراً وخفت حجارة تلقى علينا

ويفخر (عبد الله بن الزبير) بمكة قائلاً:

تلكسوا عن بطن مكة، إنها	كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت	إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى	ولسوف ينبي الجاهلين عليها
ستون ألفاً لم يثوبوا أرضهم	ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم	والله من فوق العباد يقيمها

وتكجلى العقيدة الجاهلية فى رب البيت بصورة واضحة فى شعر (أبى الصلت بن أبى ربيعة اللقى) القائل:

إن آيات ربنا ثاقبات	لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل	مستبين حسابه مقدور
حبس الفيل بالمغمس حتى	ظل يحبو كأنه معفور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً	كلهم عظم ساقه مكسور

ويرتفع البيت بقديسيته ويتعالى، فى خطاب (عبد الله بن صفوان) لقومه، عندما كانوا يعيدون بناء البيت قبل البعثة بسنوات خمس: «لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا تدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس».

ويقسم زهير بن أبى سلمى:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم

ويتقدس البيت كانت نصائح الأم لابنها، كما فى وصية (سبيعة بنت الأجب) القائلة:

أبنى لا تظلم بمكة	لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنى	ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكة	يلق أطراف الشرور
أبنى قد جربتها	فوجدت ظالمها يور
الله آمن طيرها	والعصم تأمن فى ثبير
والفيل أهالك جيشه	يرمون فيها بالصخور
فاسمع إذا حدثت وافهم	كيف عاقبة الأمور

الحج في الإسلام

يقول (ابن حبيب) في محبته: باب السنن التي كانت الجاهلية سنتها فأبقى الإسلام بعضها وأسقط بعضها: «وكانوا يحجون البيت ويعتمررون ويطوفون بالبيت اسبوعا، ويمسحون بالحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة. وكان على الصفا اساف وعلى المروة نائلة، وهما صلمان، وكانوا يلبنون إلا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته.. وكانت العرب تقف بعرفات ويدفعون منها والشمس حية، فيأتون إلى مزدلفة، وكانت قريش لا تخرج من مزدلفة ولا تقف بعرفات، ويقولون لا نعظم من الحل ما نعظم من الحرم، فبنى قصي المشعر فكان يصرح عليه يهتدى به أهل عرفات إذا أتوا مزدلفة، فأبقاه الله مشعرا، وأمر بالوقوف عنده. وقال العامري في وقوفهم في الجاهلية:

فاقسم بالذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج إلى الإلال

(الإلال جبل بعرفات)، وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويعظمون الأشهر الحرم.. (٣٠).

نعم أبقى الإسلام. كل هذه السنن والشعائر، لكنه طهرها ونقاها من أدان الجاهلية وجهالتها، فلم يعد المر في تقديس الصفا والمروة والسعي بينهما هو صنما (إساف ونائلة) وإنما في هرولة هاجر أم اسماعيل بينهما بحثا عن الماء في صحراء مجدبة. ولم يعد الحجر الأسود ومقام إبراهيم أحجارا مقدسة لذاتها، بل لأنهما في الأصل ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما. ولو لم يطمس الله نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب (٣١). وعن ابن عباس قال: «ليس في الأرض شيء من الجنة إلا الركن الأسود والمقام» (٣٢).

أما القصة الإسلامية حول البيت، فهي قصة محوطة بالقدسية والتبجيل، يلخصها لنا كتاب (أبو الأنبياء) فيما يلي:

«... إن الله سبحانه خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفي عام. فكانت زيدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور، وهو ياقوتة من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد أخضر، باب شرقي وباب غربي، فوضعه على موضع البيت وقال: يا آدم أنى أهبط لك بيتا تطوف

(٢٩) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٧، ٥١، وص ١٧٩.

(٣٠) المحبر، ص ٣١١، ٣١٩.

(٣١) تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٠٠.

(٣٢) معجم البلدان، ياقوت، جلد ٢، ٢١٢.

به كما يطاف حول عرشى، وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى، وأنزل الله عليه الحجر الأسود، وكان أبيضاً فاسود من مس الحيض فى الجاهلية، فتوجه آدم من الهند ماشياً إلى مكة، وأرسل الله إليه ملكاً ليدله على البيت، فحج آدم البيت وأقام المناسك. فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له: يا آدم لقد حجنا هذا البيت قبلك بألفى عام. قال ابن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه، فكان ذلك إلى أيام الطوفان، فرفعه الله إلى السماء الرابعة. والبيت المعمور يدخله كل يوم ألف ملك ثم لا يعودون. وقد بعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق (زمن الطوفان). فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ثم أن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل واسحق، ببناء بيت يذكر فيه ويعبد، فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت، وهى رياح خجوج لها رأسان تشبه الحية والخجوج من الرياح هى الشديدة السريعة الهبوب، وقيل هى الملتوية فى هبوبها. وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة، فتبعها إبراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه. قال ابن عباس: بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة، فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت، ونودى منها: يا إبراهيم، ابن على قدر ظلها، لا تزد ولا تنقص.. قال ابن عباس: بنى إبراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سينا وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودى وهو جبل بالجزيرة ومن حراء وهو جبل فى مكة. فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: إئتني بحجر حسن يكون للناس علماً، فأتاه بحجر، فقال: انتنى بأحسن منه. فمضى إسماعيل ليطلب حجراً أحسن منه، فصاح الجبل أبو قبيس: يا إبراهيم ان لك عندي وديعة فخذها، فقذف بالحجر الأسود، فأخذ إبراهيم موضعه مكانه، (٣٣).

ونستكمل القصة من (الازرقى) حيث يقول: «فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها، الصفا والمروة ومنا ومزدلفة وعرفة. وبعد حصب ابليس وعرفات إبراهيم مناسكه كلها، أمره أن يؤذن فى الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب ما يبلغ صوتى. فقال الله تعالى: أذن وعلى البلاغ. فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال أطولها، فجمعت له الأرض سهلها وجبلها ويراها وبحرها وانسها وجننها حتى أسمعهم جميعاً، (٣٤).

وهكذا ظلت الكعبة بيتاً مقدماً، تطوف حوله خير أمة أخرجت للناس، سبعة أشعرا، والطواف سنة قدسية، أكد العلم باكتشافه أنها سنة علمية.

(٣٣) أبو الأنبياء، ص ٩١، ٩٢.

(٣٤) أخبار مكة، الأزرقى، ص ٣٣، ٣٤.

العرب قبل الإسلام: العقائد.. والتعدد.. والأسلاف

معلوم أن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها، مع قصور تجربته ومعرفته، كان هو الدافع لتصور قوى مفارقة (ميتافيزيقية)، هي التي تقف وراء متغيرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها، ولأن تلك الظواهر لم تكن مفهومة، فقد جاءت تلك القوى أيضاً غيبية ولذلك ارتبطت عقائد الناس في أريابها بوسطها البيئي، حيث عبرت عن ذلك الوسط وأظهر مظاهره وأكثرها تكراراً وديمومة، ومن هنا قدس العربى أجرام السماء. التي تظهر بكل وضوح فى ليله الصحراوى المنبسط، دون حواجز حتى الأفق بدائرتة الكاملة، كما قدس الأحجار بخاصة ذات السمات المتفردة منها، فبيلته رمال وصخور وأحجار، وقد غلب لفتشار الصخور البركانية فى جزيرة العرب لانتشار البراكين فيها، وأطلقوا عليها اسم الحرات من الحرارة والانصهار.

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة، أدى إلى تباين ظروف البيئة والمناخ، مما أدى إلى تعدد معانيل فى الظواهر، وبالتالي تعددية فى العبادات، هذا ناهيك عن وعورة المسالك فى الجزيرة، والتي أدت إلى ما يشبه العزلة لمواطن دون مواطن، خاصة تلك التى فى الباطن، مما أدى إلى احتفاظها بالوان من العقائد الموغلة فى قدمها وبدائيتها، نتيجة عدم الاحتكاك بالثقافات الأخرى التى تساعد على تطور الراسب المعرفى ومن ثم العقائدى.

التعدد فى العبادة

وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة اجرام السماء وعبادة الاحجار والصخور، بقايا من ديانات بدائية كالفيتشية والطوطمية، وعبادة الأوثان وعبادة الأسلاف.

والفيتشية أكثر ديانات الجزيرة انتشاراً بين أهلها، وهى تقدس الأشياء المادية كالأحجار، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها، أو لأنها قادمة من عالم الآلهة فى السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الموتى، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام.

أما الطوطمية، التى تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان ما مقدس، فتظهر فى مسميات

(*) نشر بمجلة نوى العمانية، العدد الثانى، وقد نشر مجزوماً منقوصاً، وهو هنا على حاله الذى نشر عليه.

قبائل العرب، مثل (أسد، فهد، يربوع، ضبة، كلب، ظبيان... الخ)، لذلك كانوا يحرمون لمس الطوطم أو حتى التلطف باسمه، لذلك كانوا يكون عنه، فالملدوغ يقولون عنه السليم، والنعامه يكتى عنها المجل، والأسد أبى حارث، والثعلب ابن آوى، والصنعب أم عامر، هكذا. هذا إضافة إلى تقديس الأشجار، مثل ذات أنواط التي كانوا يعظمونها، ويأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعلقون عليها اسلحتهم وأرديتهم.

كذلك عبد العرب كائنات أسموها (الجن) خوفا ورهبة، ودفعاً لأذاها، وظلونها تقطن الاماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر، وكان العربى إذا دخل إلى موطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله؛ عموا اظلاما، ويقف قائد الجماعة ينادى: إنا عاثون بمسيد هذا الوادى، وتصوروا الجن كحال العرب، فهم قبائل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم، يتقاتلون ويغزو بعضهم بعضا، ولهم سادة وشيوخ وعصبيات، ولهم من صفات العريان كثير، فهم يرعون حرمة الجوار ويحفظون الذمم ويعقدون الاحلاف.. وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون. وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة، حيث كثرت الهوائف أى الأصوات التى تنادى بأمور وتنبىء بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئى.. وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فزعموا أنهم يتلقون وحيمهم عن الجن، وأن الجن بإمكانها الصعود إلى السماء والتنصت على مصائر البشر فى حكايات الملاء الأعلى مع بعضهم عن فى الأرض، وأن الكاهن بإمكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقه من الجان.

عبادة الأسلاف

أما أشد العبادات انتشارا وأقربها إلى الظرف المكانى والمجتمعى، فهى عبادة الأسلاف الراحلين، ويبدو لنا أن تلك العبادة كانت غاية التطور فى العبادة فى العصر قبل الجاهلى الاخير، حيث كان ظرف القبيلة لا يسمح بأى تفكك نظرا لانتقالها الدائم وحركتها الواسعة وراء الكلاً، وهو التنقل الذى كان يلزمه لزوجة جامعة لأفرادها، تم تمثله فى سلف القبيلة وسيدها الراحل الغابر، فأصبح هو الرب المعبود وهو الكافل لها الحماية والتماسك، بوصفها وحدة عسكرية مقاتلة متحركة دوما، فاستبدلت بمفهوم الوطن مفهوم الحمى، والذى يشرف عليه سيدهم وأبوهم القديم وريهم المعبود، حيث تماهى جميع أفراد القبيلة فيه، ومن هنا كان الرب هو سيد القبيلة الراحل القديم، الذى تمثلوه بطلا مقاتلا أو حكيما لا يضارع، ومن ثم تعددت الأرياب بتعدد القبائل، ونزعت القبائل مع ذلك نحو التوحيد، وهى المعادنة التى تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى، لكن بساطة الأمر تكمن فى ان البدوى فى قبليته كان لا يعبد فى العادة ولا يجعل سوى ربه الذى هو رمز عزته ورابط قبيلته، ولا يعترف بأرياب القبائل

الأخرى، وهو الأمر الذى نشهد له نموذجا واضحا فى المدون الإسرائيلى المقدس، حيث عاش بنو إسرائيل ظروف قبلية شبيهة، فيقول سفر الخروج: «من مثلك بين الآلهة يا رب، أى أن القبلى كان يعرف أربابا أخرى لقبائل أخرى، لكن ربه هو الأعظم من بينها. لذلك كان البدوى فى قبليته يأنف أن يحكمه أحد من خارج نسبه، لأن نسبه هو ربه، هو سلفه، هو ذاته، هو كرامته وعزته، لذلك كانت عبادة الأسلاف أحد أهم العوامل فى تفرق العرب القبلى، وعدم توحيدهم فى وحدة مركزية تجمعهم».

ولم يأت الاعتراف بالآلهة أخرى لقبائل أخرى الا فيما بعد، بعد دخول المصالح التجارية للمنطقة، واستعمال النقد، وظهور مصالح لأفراد فى قبيلة ترتبط بمصالح لأفراد فى قبيلة أخرى، مما أدى لاعتراف متبادل بالأرباب، وهو الأمر الذى بدأ يظهر خاصة فى المدن الكبرى بالجزيرة على خط التجارة، فى العصر الجاهلى الأخير، كما حدث فى مكة والطائف ويثرب وغيرها.

المستوى المعرفى

دأب بعض مفكرينا فى شؤون الدين - عافاهم الله - على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام، وتصويرهم فى صورة منكرة وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة فى القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية، بحيث قدموا ذلك العربى عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية، حتى باتت صورته فى ذهن شبيبتنا، إن لم تكن فى أذهان بعض المثقفين بل والكتاب أيضا، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية. وقد بدا لهؤلاء أن القدح فى شأن عرب قبل الإسلام، وإبرازهم بتلك الصورة، هو فرش أرضية الصورة بالسواد، لإبراز نور الدعوة الإسلامية بعد ذلك، وكلما زادوا فى تبشيع عرب الجاهلية، كلما كان الإسلام أكثر استنشاء وثقافة وعلماء وخلقاً وتطوراً على كل المستويات. وأن الأمر بهذا الشكل يبعث أولا على الشعور بالفجاجة والمخف، ثم هو يجافى أبسط القواعد المنطقية للإيمان، فالإيمان يستمد قيمته من دعوته، ومن نصه القدسي، ومسيرة نبيه، فقيمه فى ذاته، قيمة داخلية، وليست من مقارنته بآخر، أما الأنكى فى الأمر، فهو أن تتم مقارنة الإلهى بالإنسانى، لإبراز قيمة الإلهى إزاء نقص الإنسانى، فى تلك الحال ستكون ظالمة لكليهما: الإلهى والإنسانى، فالإلهى لا يقارن بغيره، كما أن مقارنة الإنسانى به فداحة فى التجنى على الإنسانى بما لا يقارن مع الإلهى.

وقد فطن (الدكتور طه حسين) إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه فى كتابه (الأدب الجاهلى) مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية العرب قبل الإسلام، وكيف أن تلك

الفكرة أرادت تصوير العرب كالحوانات المتوحشة . لإبراز دور الإسلام فى نقله الإعجازى لهؤلاء الاقوام المتوحشين، فجأة ودن مقدمات موضوعية، إلى مشارف الحضارة، فجمعهم فى أمة واحدة، فتحوا الدنيا وكونوا امبراطورية كبرى . هذا بينما القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة فى المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح، إلى أن العرب لم يكونوا كذلك، وفى تطورها الإنسانى، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيهمهم، فهو الأمر الأشد فجاجة فى الرؤية، فيكفي أن نلقى نظرة حولنا، على الإنسان وهو فى مشارف قرنه الحادى والعشرين، لنجده لم يزل بعد يعتقد فى أمور هى من أشد الأمور سخفا ومدعاة للضحك .

معارف العصر

والمطالع لأخبار ذلك العصر المنعوت بالجاهلى، فى كتب الاخبار الإسلامية ذاتها، سيجد فى الاخلاق مستوى رفيعا هو النبالة ذاتها، وسيجد المستوى المعرفى يتساقق تماما مع المستوى المعرفى للامم من حولهم، وأن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الامم معارفهم الخاصة، فقط كان تشنتهم القبلى وعدم توحدهم فى دولة مركزية، عائقا حقيقيا دون الوصول إلى المستوى الحضارى لما جاورهم من حضارات مركزية مستقرة . وهو الأمر الذى أخذ فى التطور المتسارع فى العصر الجاهلى الأخير نحو التوحد فى أحلاف كبرى، نهية للأمر العظيم الآتى فى توحد مركزى ودولة كبرى .

فعلى مستوى المعارف الكونية، كان لدى العرب تصورات واضحة، تضاهى التصورات فى الحضارات حولهم؛ فالأرض كرة مدحاة، والسماء سقف محفوظ تزيينه مصابيح هى تلك النجوم، وفيه كواكب سيارة، اطلقوا عليها (الخنس والجوارى الكنس)، فهذا (زيد بن عمرو بن نفيل) يحدثنا عن التصور الكونى المعروف فى بلاد الحضارات، فى قوله:

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

بينما نجد (أمية بن عبد الله الثقفى)، يصور لنا ما درج عليه العالم القديم من تصور للسماء سقفا بلا عمد، وأنها طبقات سبع، وأن الشهب فيها حماية ورصدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى، وذلك فى قوله:

بناها وابتنى سبعاً شداداً	بلا عمد يرين ولا حبال
سواها وزينها بنور	من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلالأت فى دجاها	مراميها أشد من النصال

المعارف الدينية

أما على مستوى المعارف الدينية، وكانت سمة عصرها، وهي المنحولة عن عقائد الرافدين القديمة ومصر القديمة وبلاد الشام وفلسطين، وجاء تفصيلها مجعلا في مدونات التوراة، فهو الأمر الذي كانت تعرفه جزيرة العرب، فهذا (الأفوه الأودي) يأبى إلا أن يسجل أسماء أبناء نوح في قوله:

ولما يعصمها سام وحام ويافت حيثما حلت ولام

أما طول العمر النوحى فكان مضرب المثل، وهو يؤخذ في مديح الأعشى لإياس:

جزى الله إياساً خير نعمة كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
فى فلكه إذا تبدلها ليصفها وظل يجمع ألواحاً وأبواباً

وهو ما جاء أيضاً فى ضرب الراجز، رافضا عمرا كعمر نوح:

فطلت لو عمرت سن الحل أو عمر نحو زمن الفطحل
والصخر مبتل كهلين الوحل صرت رهينة هرم أو قتل

وكان انتشار قصص التوراة فى معارف الامم يجد صوابه فى معارف ذلك العصر، فما هو (أمية بن أبى الصلت) يقدم حوارا شعريا بين موسى وهارون وبين فرعون، يقول فيه:

وأنت الذى من فضل ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له: أذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له: آنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: آنت رفعت هذه بلا عمد، أرفق إذا بك باتيا

بل وعرف العرب قصة مريم وولدها، وسارت فيهم كقصة معلومة، وهو ما صاغه (أمية) شعرا بدوره، إضافة لما جاءت به المسيحية عن يوم بعث ونشور، مضافا إليه ما سبق إليه المصريون من القول بحساب للموتى أمام موازين العدل فى قاعة الحساب السماوية، فهذا شعر بقى عن (قس بن ساعدة) بقول:

يا ناعى الموت والأموات فى جدث عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم فى ثيابهم منها الجديد ومنها المبهج الخلق

وهو الأمر الذى يوضحه شعر (زيد بن نفيل) وهو يصور أحوال الحساب ونتائجه فى قوله:

ترى الأبرار دارهم جنان وللكنار حامية السعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

وهو ذات الأمر الذى فصل أمره (أمية الثقفى) فى قوله:

باتت همومى تسرى طوارقها أكف عيى والدمع سابقها
مما أتانى من اليقين ولم أوت برأه يقصى ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة النار محيط بها سرادقها؟
أم أسكن الجنة التى وعد الأبرار مصفوفة نمارقها؟
لا يستوى المنزلان ولا الأعمال تستوى طرائقها
وفرقه منها أدخلت النار فسألت مرافقها

أما (علاف بن شهاب التميمى) فيؤكد:

وعلمت أن الله يجازى عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال

كذلك جاء تقرير (زهير بن أبى سلمى واضحا) فى قوله:

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضح فى كتاب فيدخر ليوم الحساب، أو يعجل فينقم

المعالم الأدبية

ليس جديدا التأكيد على شعرية العربى، حتى قيل إن كل عربى شاعر، وحتى أصبح الشعر ديوان العرب، رواية حالهم وظروفهم وعقائدهم، وسجل لمعارفهم ومستواهم الثقافى والاخلاقى، وسجل لحياتهم العملية وطرق عيشهم بل ورؤاهم الفنية والفلسفية.

والى جانب الشعر كان معلّم الخطابة بما حواه من ذات المحتويات الشعرية، بلثته المنظوم المسجوع، إضافة إلى سجع الكهان، المرسل منه والمزدوج.

وكان للعرب أسواقهم، التى عادة ما كانت تفتح افتتاحا ثقافيا، بإلقاء الخطب النثرية، والقصائد الشعرية، وإجراء المسابقات حول افضل القصائد، وهو ما برز فى (المعلقات السبع)، مما يشير إلى ديدن أمة اهتمت بتنمية الثقافة وتشجيعها، رغم تشتتها شيعا فى قبائل لا تجمعها وحدة مركزية.

النثر المسجوع

وكان العربي حريصا على تقديم معارفه وثقافته شعرا، وإن نثرها حرصا على الجرس الموسيقي فيها، مما يشير إلى رهافة في الحس وارتقاء في الذوق، ونماذج من ذلك النثر، ما جاء قصما بالمظاهر الكونية عند (الزيراء) وهي تقول: «واللوح الخافق، والليل الفاسق، والصباح الفساق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأرد ختلا، ويرق أنيابا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثقلا، لا تجدون عنه معلا».

ومن ألوان هذا السجع سجع ديني، جاء في وصف (ربيعة بن ربيعة) ليوم البعث والنشور، بقوله: «يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون»، وهو ذات الرجل الذي يقسم بصدق قوله: «والشفق والضحى، والفعل إذا اتسق، إن ما أنباتك به لحق، أما (شق بن صعب) فيصف ذات اليوم بقوله: «يوم تجزى فيه الولايات، يدعى فيه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الغور والخيرات».

ويقسم (ابن صعب) لسانه بأنه يقول الحق: «رب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، أن ما أنبتك به لحق، ما فيه أمض»، أما الكاهن الخزاعي الذي احتكم إليه هاشم وأميه في نزاعهما، أصدر قراره سجعا يقول: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بطم مسافر، من منجد وغائر، قد سبق هاشم أميه إلى المفخرة».

أما (قس بن ساعدة الأيادي) فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية في نثره قائلا: «ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم نزه، وبحار تزخر، وأرض مدحاة، وأنها مجرة، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا».

المعلم الشعري

والشعر الجاهلي وثيقة هامة في يد الباحث العلمي، تأخذ سميت العلم التاريخي، رغم ما أثير حو الشعر الجاهلي من تشكيك في صحة انتسابه لعصره فعلا، وكان أبرز ما قيل بشأنه قضية النحل التي أثارها (الدكتور طه حسين) في كتابه الشعر الجاهلي، والمحاكمة المشهورة التي جرت آنذاك بشأن ذلك الكتاب وصاحبه.

لكن ما يدعو إلى الاطمئنان في الغالبية مما وصلنا من ذلك الشعر، مدونا بأقلام المسلمين، هو أن اللقافية والوزن كانا يضمنان منع حدوث تغيير كبير على ذلك الشعر، كما أن المحتوى

البسيط لذلك الشعر، وما جاء به من أخبار التخاصم على الإبل والمراعى يضمن عدم التصنع، وعلى رأى (د. حسين مروة) أننا لو حكمنا على شعر الأخطل وجريير..... بشكله، لتعذر علينا نسبته إلى ما بعد الإسلام.

وكان (ابن سلام) أول من بحث قضية الانتحال، وعزا أسبابها إلى العصبية القبلية، والرواة الوضاعين، مثل حماد الراوية، وخلف الأحمر، وسبق الجميع إلى مسألة الانتحال (المفضل الضبي) الذى نقد خلفا الأحمر، أما (طه حسين) فقد ردد ما سبقه إليه المستشرق (مرجليوث) بشكل مختلف بعض الشيء. وإن كان أهم حيثيات محاكمته هي إنكاره هبوط إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جزيرة العرب.

وقد قامت جمهرة السلفيين تؤكد قبولها صحة نسب الشعر الجاهلى دون تحفظ أو تشكك؛ وقد ظهر ذلك واضحا فى المؤلفات التى وضعت للرد على (طه حسين)، ونموذجا لذلك ما جاء فى كذب (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) لمحمد أحمد الغمراوى، و(مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الدين الاسد، وغيرهم. ونسبة الشعر الجاهلى لعصره، قد اتفق أمرها بين المسلمين السلفيين، وبين كثير من المستشرقين، وهو ما يمثل نموذجا قول المستشرق (ليال): «والواقع أن هذا الشعر الجاهلى، قد أفاد المؤرخ الباحث فى تأريخ الجاهلية، فائدة لا تقدر بثمن، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية، على فائدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أمورا مهمة عن أحداث العرب الجاهليين، لم يكن فى وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر».

الخطابة

والخطابة كانت من أبرز الأنشطة الفكرية والثقافية للعرب، وكانوا يلجأون فيها إلى كل الوسائل الابداعية والجمالية والبلاغية لإقناع المستمع بوجاهة محتوى الخطبة، وعند التعامل مع ملوك الدول كان العرب يختارون أكثرهم تفوها، وقد ذكر (ابن عبد ربه) فى عقده الفريد، أن كسرى تنقص من أمر العرب فى حضور (النعمان بن المنذر) لديه، مما استفز (النعمان) لعرويته، فأرسل فى طلب خطباء العرب وأوفدهم إلى كسرى ليعرف مآثر العرب وقدرهم الثقافى.

وكان الخطباء يخطبون فى وفادتهم على الأمراء، فيقف رئيس الوفد بين يدي صاحب السلطان ليتحدث بلسان قومه، ومن هذه الخطب ما قيل بين يدي رسول الله عليه السلام عام الوفود وأوردته كتب السير والأخبار. ومن أشهر الخطباء، أولئك الذين ودرت أسماؤهم فى الرد

على كسرى، وهم (أكثم بن صيفي)، و(حاجب بن زرارة التميمي)، و(الحارث بن عباد)، و(قيس بن مسعود)، و(عمرو بن الشريد السلمي)، و(عمرو بن معد يكرب الزبيدي)، ومن خطباء مكة (عتبة بن ربيعة) و(سهيل بن عمرو)، ومن الخطباء أيضا (هرم بن قطبة)، و(عامر بن الظرب العدائني)، وهي نماذج تشير إلى خطباء كثر لقبائل العرب، أوردها كتب الأخبار والسير تفصيلا وحصرًا.

المستضعفون

لعب جدل الأحداث العالمية دورا أساسيا نشطا فيما جرى من تحولات داخل جزيرة العرب، وكان تحول طرق التجارة العالمية إلى الشريان البري المار بمكة قادما من اليمن متجها نحو الامبراطوريتين، عاملا مؤسسا لتغير أنماط الانتاج الاقتصادي في الجزيرة، التي أخذت تتحول نحو التجارة كعماد أساسي للاقتصاد، وما تبع ذلك من تغييرات في البنى الاجتماعية، التي أخذت بدورها في التحول النوعي عن الشكل القبلي القائم على المساواة المطلقة بين أفراد القبيلة، إلى تفكك ذلك الشكل بتراكم الثروة في يد نفر من أفراد القبيلة دون نفر آخر، الشكل الطبقي الذي فجر الإطار القبلي، لصالح تحالفات مصلحية بين أثرياء القبائل المختلفة، وكان الناتج الطبيعي لتفاوت توزيع الثروة، ظهور شكل مجتمعي جديد على جزيرة العرب، لترصد لنا كتب الأخبار الإسلامية أهم الشرائخ المجتمعية الجديدة، على خريطة النظام الطبقي الطالع، مقابل الطبقة المترفة من أثرياء تجار العرب.

فقراء العرب

وإعمالا لجدل الأحداث اخذ الفارق الطبقي بالاتساع السريع والهائل، ليصبح سواد العرب من الفقراء المستضعفين، يعملون في رعي الانعام والفلاحة وتجارات البيع البسيط، يسكنون الخيام والعش والاكواخ الحقيرة، ويسمعون عن الخبز ولا يأكلونه، حيث كان الخبز من علامات الوجاهة والثراء، ولا يعرفون عن اللحم سوى الصليب، وهو ودك العظام تجمع وتهشم وتغلى على النار طويلا، ليحصلوا منها على الصليب، وغالبا ما عاشوا على مطاردة ظباء الصحراء وأورالها ويرايبيعها. ونقصد بهؤلاء الفقراء، عرب صرحاء من أبناء قبائل متميزة، دفعتهم إلى الاسفل آلة التغير الاقتصادي والمجتمعي.

ويلي تلك الطبقة في التندني، طبقة الموالى، وهم من أبناء قبائل أخرى تركوها ولجأوا لقبائل مخالفة، أو كانوا أسرى فك أسياهم أسرهم، أو أعاجم أرقاء أعتقهم سادتهم بمقابل. وقد شكل هؤلاء طبقة بين أبناء القبيلة الخالص الصرحاء، وبين العبيد.

ثم طبقة أخرى ظهرت بدورها نتيجة التفاوت الطبقي الحاد، وتكونت من أفراد تلبستهم روح التمرد على أوضاع المجتمع الجديد، فتصرفوا بتلك الروح فأضروا بمصالح السادة، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت من فعالهم باعلان مكتوب أو فى الاسواق العامة، وهى الطبقة التى عرفت باسم (الخلعاء) .

الصعاليك

أما أبرز تلك الطوائف أو الطبقات التى أفرزها المتغير الاقتصادى المجتمعى، فهى (الصعاليك)، وهم فئة لا تملك شيئاً من وسائل الانتاج، تمردت على الاوضاع الطبقيّة، بل وسنت عليها الحرب، بخروجهم أفراداً عن قبائلهم باختيارهم، وتجمعهم على اختلاف أصولهم فى عصابات مسلحة، وأبرز الاسماء التى وصلتنا منهم: عروة بن الورد، وتأبط شراً، والسليك ابن السلكة، والشنفرى، وقد اطلق عليهم العرب (الذوبان)، و (العدائين) لسرعتهم.

وقد روى عن هؤلاء أنهم كانوا ذوى سمات متميزة، من الشهامة والمروءة والنبالة، واخلاق الفروسية، فكانوا لا يهاجمون إلا البخلاء من الاغنياء، ويوزعون ما يذهبون على الفقراء والمعدمين، بعد ان شكلوا لانفسهم مجتمعا فوضوياً، شريعته القوة، وأدواته الغزو والإغارة، وهدفه الأول السلب والنهب وهدفه الأخير تعديل الموازين المجتمعية.

وتروى لنا كتب السير والأخبار وطبقات الشعراء، أشعاراً للصعاليك، يعكس فيها الإحساس المرير بوقع الفقر عليهم وفى نفوسهم، ويصيح بشكوى صارخة من الظلم الاجتماعى، وهوان منزلتهم، فهذا (قيس بن الحدادية) يخبرنا أنه لم يكن يساوى عند قومه عنزة جرياء جذماء، أما الأخبار عن الشنفرى فتروى كيف أسلمه قومه هو وأمه وأخوه رهناً لقتيل عن قبيلة أخرى، ولم يفدوهم، وكيف تصعلك الشنفرى ورفع سيف ثورته بعد أن لطمته فتاة سلامية، لأنه ناداها: يا أختى، مستنكرة أن يرتفع إلى مقامها.

ومن مثل تلك الأخبار، نستطيع تكوين فكرة واضحة عن المدى الذى فعله المال داخل القبيلة، مما أدى بالصعاليك إلى فصم علاقتهم بقبائلهم، وتكوين جماعتهم المسلحة ضد الاغنياء، لينزعوا منهم مقومات الحياة الإنسانية التى أهدرها الواقع، وهو المبدأ الذى يتجلى واضحاً فى شعر (عروة بن الورد) وهو يقول:

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح	عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فالموت خير للفتى من حياته	فقيراً، ومن موت تدب عقاربه

العبيد

وفى ضوء الحاجة لليد العاملة فى خدمة آلة الاقتصاد الجديد، بدأت بلاد العرب تعرف النظام العبودى، وكان مصدره السبى والنخاسة وعبودية الدين، حتى جاء وقت أصبحت تجارة العبيد بمكة تجارة منتظمة، تأتى بهم من سواحل افريقيا الشرقية، وهم الطائفة السوداء، ومنهم من كان يشتري من بلاد فارس والروم وهم الطائفة البيضاء. لاستخدامهم فى حراسة القوافل، وأعمال الرى الصناعى والزراعة والحرب وليس أدل على كثرة هؤلاء العبيد. من أن (هندا بنت عتبة) أعتقت فى يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما أعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص مائة عبد. اشتراهم واعتقهم.

ومع النظام العبودى انتشرت عادة التسرى بالإماء، فكان للرجل أن يهب أو يبيع أو ينكح أمته أو يجعلها مادة للكسب بتشغيلها فى البغاء، ثم يأخذ ناتجها المولود ليبيع بدوره، وعندما جاء الإسلام حرم البغاء، ولكنه ابقى على نظام ملك اليمين ضمن ما ابقى عليه من أنظمة الجاهلية وقواعدها المجتمعية، لكنه رغب فى العتق وحض عليه.

الأساطير

مع التطور الرتيب البطيء للقوى المنتجة، نتيحة للتعددية والتشظى القبلى، تواضع العقل العربى على القاء تفاسير ميتافيزية، لما يجابهه من ظواهر طبيعية، يحاول بها تبرير ما يحدث حوله، وهو ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بالأساطير بين العرب أنفسهم، خاصة بين الطبقة المثقفة من أثرياء تجارهم، وهو ما يطن عدم قناعة مستبطن بتلك التفاسير، التى أدرجت ضمن أخبار السالفين وأنبياء الأمم وقوادهم تحت عنوان واحد يجمعها هو (الأساطير).

أساطير الماء

ولما كان المطر أهم الظواهر وأخطرها لحياة البدوى، فقد وضعت بشأن انقطاعه أو تواتره سيولا تفاسير اسطورية بدائية بسيطة بساطة حياة البداوة، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى فعل النجم أو المجموعة النجمية التى توافقت من الظهور مع سقوط المطر، فيقولون: أمطرتنا بنوء كذا. وكان لفيض المطر أحيانا ودوره المدمر تفاسير من لون آخر، فيبدو أن الذاكرة العربية احتفظت بأحوال عرب قداماء، دمرت بلادهم بسبب الامطار العاصفة، فحكوا عنها روايات تفسيرية، تكمن الأسباب فيها بيد الآلهة الغاضبة البطوش على من خالفوا أوامرهم أو نواهيها، وهو ما روته العرب مثيلة عن هلاك عاد وثمود، ويمكن الرجوع بشأنه تفصيلا

للفصول الأولى من كتب الأخبار الإسلامية، وعلى سبيل المثال (تاريخ الأمم والملوك) للطبري.

كذلك كان لندرة المطر أساطيرها الخاصة، والتي دفعتهم إلى ابتداع الوان من الطقوس، قصدوا بها تحريض الطبيعة على العمل، ويبدو أن ملاحظة سكان السواحل للضباب الصاعد من الماء ليكون سحابا ممطر، أثر في تصور اصطناع حالة شبيهة، فكانوا يوقدون نارا تخرج مادتها دخانا شبيها بالضباب الصاعد للفضاء، بقصد الاستمطار. ولأن البقر كان رمزا للخصب عند الشعوب القديمة، فقد عقدوا بين النار والبقر في ملقس يجمعون فيه الابقار، ويصعدون بها المرتفعات، ويربطون في ذيولها مواداً قابلة للاشتعال يوقدون فيها النار، فتخرج الابقار مذعورة تثير الغبار وهي تهبط من الجبل، لتصطنع حالة شبيهة بالعواصف الممطرة، وإثناء ذلك يصجون بالدعاء والتضرع، ويرون ذلك سببا للسقيا بعد ذلك، وذلك إعمالاً لمبدأ السحر التشاكلي حيث الشبيه ينتج الشبيه.

أساطير السماء

وفي العصر الجاهلي الأخير، ومع النزوع نحو توحيد قومي ديني تحت ظل إله واحد، ارتفع العرب بذلك الإله عن المحسوسات، ونظروا إلى الإلهم ساكنا السماء في قصر عظيم تحفه حاشية من الملائكة، لذلك قدسوا السماء وأجرامها، والقسم بها، وبظواهرها، وحفوا بالقدسية كل ما تساقط من السماء بحسبانه قادما من ذلك المكان المقدس حيث العرش، فكان تقديس الأحجار النيزكية أحد نتائج ذلك الاعتقاد.

وقد نسبوا إلى الأفلاك أثرا عظيما في حياة البشر والأمراض والأروثة، وكان تساقط الشهب يعني وقوع أحداث جال، كالحروب، أو الكوارث الاقتصادية، أو الطبيعية، أو ولادة رجل عظيم، أو موت لآخر.

ويبدو أن تلك القدسية امتدت عند بعض القبائل إلى تأليه نجوم السماء، بينما اتجه البعض الآخر إلى اعتبارها هي ذات الملائكة، وقالوا إنهن بنات الله، أو لهن علاقة بالله على الجملة في أكثر من شأن، وتعتبر عن ذلك الرواية المشهورة بشأن كوكب الزهرة والملكين هاروت وماروت، وكيف أغوت الزهرة الغانية الملكين الورعين فارتكبا للخطيئة وعصيا الله خالق السماوات والأرض، وكيف تحولت تلك المرأة التي أغوت ملائكة السماء بدورها إلى كائن سماوي يتمثل في ذلك الكوكب الجميل المعروف بكوكب الزهرة.

أساطير البشر

كذلك لم يجد العرب في تمييز بعض الأشخاص لإسمات خارقة، نسبوها إليهم أحيانا

انبهارا، وأحيانا تمجيذا، فهذا خالد بن سنان يطفىء النار التي خرجت بجزيرة العرب وكانت لها رؤوس تسيح فتهلك البلدان ويبدو أنها كانت ذكرى بركان مدمر، لكنهم جعلوا للنار البركان رؤوسا آكلة حاربيها ابن سنان حتى أطفأها وردھا إلى مقر الأرض.

وهذا الصعلوك القوى النبيل، يشتد الإعجاب به ويقوته حتى يقولوا أنه قتل الغول وأتى يحمل رأسه تحت إبطه، فاسموه (تأبط شر). وهذا عنتر بن شداد يشد على الأعداء فيكسر رماح الحديد وينزع النخيل من مواضعه ويحارب الغزاة، حتى يتحول مع النزوع القومي في الجاهلية الأخيرة إلى بطل عربي قومي يحارب أعداء العرب بقواه الجبارة.

وذلك (سيف بن ذي يزن) يدخل العلم القومي العروبي بعد تحرير بلاده من الأحباش، فيتم التعظيم على استعائته بالفارس الذين يحتلون بلاده عوضا عن الأحباش، ليتم تصويره بطلا شعبيا عظيما يقاتل الجيوش ويهزمها بقوته ومهارته.

وهو ما يشير إلى نزوع جديد نحو أساطير البطولة للجاهلية في عصرها الأخير، لتصنع رمزها القومي العربي، وهي تلحوا نحو التوحد الآتى.

أنماط الزواج

في جزيرة العرب، تعددت أنماط الزواج، كناتج ضرورى لشكل العلاقات المجتمعية، والتوزع القبلى، وتباعدا المضارب عبر مساحة تكاد تكون قارة متبانية، تشكل فيها كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها، ومن هنا فرضت تلك الأوضاع أنماطا عدة للزواج، عددها لنا كتب السير والأخبار الإسلامية.

النكاح لأجل

والنكاح لأجل كان يقع على طريقتين تمثلان نوعين من الزواج، وهولون من النكاح الصريح الذى لا يعنى زواجا بالمعنى المفهوم، والنوع الأول منه هو ما عرف بنكاح (الذواق) الذى يتم دون أى شروط تعاقدية، ويحل برغبة أى من الطرفين متى ما شعر بعدم الرغبة فى الاستمرار، وقد اشتهر بهذا النكاح (أم خارجة) التى تناكحت وأربعين رجلا من عشرين قبيلة، فكان يأتيها الرجل متوددا يقول: خطب، نكح، فيأتيها، حتى ضرب بها المثل فقيل: أسرع من نكاح أم خارجة، وهو الخبر الذى أورده (الزبيدي) فى تاج العروس والميدانى فى مجمع الأمثال.

أما النوع الثانى فهو (نكاح المتعة)، وقد عرف بعد ذلك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كمشروع للمسلمين دون حرج، وكان قبل ذلك واسع الانتشار بين عرب الجاهلية،

وكانت دوافعه لديهم التنقل والاسفار والحروب، حيث كان الرجل يتزوج على صداق محدد لأجل محدد، ويقضاء المدة ينفسخ التعاقد، وقد كان لأثرياء مكة الدور الأساسى فى إرساء هذا اللون من النكاح، حيث كانوا أصحاب قوافل وسفر، وممتلكات مادية تسمح لهم باقتناء الحريم على تلك الطريقة، على محطات سفرهم بالقوافل، ويبدو أنه لون من التقنين الأحدث للطريقة الأولى (الزواج بالذوق).

أنكحة فى عداد الزنى

وعرفت الجاهلية ألوانا أخرى، من النكاح وكرهته رغم عمل البعض به، فكان فى عداد الزنى، وتتمطه عدة ألوان، أولها نكاح (الشغار)، وهو ان يزوج الرجل ابنة الرجل على ان يزوجه الآخر ابنته دون إهمار، فكانت كالتبادل البضائعى، لا حق للمرأة فيه ولا مهر لها، وقد نهى الإسلام عن هذا اللون من النكاح (لا شغار فى الإسلام)، ورغم ذلك لم يزل معمولاً به خاصة بين فقراء المسلمين، كحل غير مكلف لعدم وجود المهر فيه.

وهناك لون آخر عرف باسم (المضامدة)، تتخذ فيه المرأة خليلاً أو أكثر على زوجها، وكانت تفعله نساء القبائل الفقيرة زمن القحط، فذهب إلى السوق وتعرض نفسها على ثرى يكفلها ويمنحها المال، ثم تعود بعد ذلك لزوجها بعد أن توسر بالمال الكافى لإعاشة أسرته، ويدوره كان نكاحاً يدفع العامل الاقتصادى أساساً.

ثم ألوان أخرى من النكاح البديل المعروف بتبادل الزوجات، وزواج (المقت)، وكان مكروها من العرب واسموه المقت كراهة له، وكان يتزوج بموجبه الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه عند موت ذلك الأب، وقد أبطل الإسلام هذا اللون من الزواج، هذا ناهيك عن نكاح الاستبضاع الذى يطلب فيه الرجل بذرة سيد عظيم فى رحم زوجته عساه يرزق بولد عظيم.

ومن أنكحة الزنى الصريح، نكاح صاحبات (الرايات الحمرة)، وهن بغايا مكة اللاتى كن ينشطن فى مواسم التجارة وموسم الحج ترغيباً للتجار وأهل السوق، وقد شجع أثرياء مكة صاحبات الروايا الحمرة، لمزيد من الانعاش الاقتصادى، لكنهم مع ذلك كانوا على مروءة إن حملت المرأة، حيث يلحق ولدها بما يرى أهل الفراسة والقيافة أو بضرب القداح، فيصبح ابن من تقع عليه الحظوظ.

أنكحة بالعرف

وقد تواضع العرف القبلى فى ظل ظروف التشتت القبلى، والإغارة والافتتال بين القبائل وبعضها، على لون بشع من ألوان النكاح، هو لون صريح من الاغتصاب المهين، ينزل

بالقبيلة المهزومة ونسائها، حيث كان من حق المنتصر سبي النساء والاستمتاع بهن حيث تصبح ملكه بالسبي، ويصبح من حقه بيعها إن لم يجد من يفتديها منه. ومثله نكاح الإمام بالشراء والامتلاك، وهذا اللون من النكاح كان لا يعرف عددا للنساء الحريم على سرير الرجل، وهو شبيه بالزواج غير المحدد لعدد الزوجات الذي كان معروفا بدوره بين الطبقات الثرية، لكنه كان نادرا معدودا، حتى تجده في خبر أو اثنين، كما جاء عن غيلان الحقي الذي أسلم وتحتة عشر نسوة.

مكانة المرأة

حول مكانة المرأة في جاهلية العرب الأخيرة، اختلف الباحثون إزاء ما بأيديهم من معطيات تتضارب أشد التضارب، وتتناقض إلى حد عدم الالتقاء أبدا. فذهب الباحثون إلى طريقين على ذات الدرجة من التضارب والتناقض، منهم من رأى للمرأة في الجاهلية مكانة تتميز بها عن وضع بنى جنسها عند بقية الشعوب، وأنها سمت إلى وضع السمات في المجتمع، بينما ذهب فريق آخر إلى النقيض وهبط بها إلى أسفل سافلين.

الشكل الأرقى

ومن ذهبوا بمكانة المرأة في ذلك العصر إلى مكان السمات المتميز، اعتمدوا على ما جاء بديوان العرب من أشعار، تبين كيف كانت المرأة هي الوتر الحساس في قلب كل عربي، ومبعث كل الهام، حيث التزمت القصائد جميعها تقريبا نهجا يهيم بالمرأة ويمجدها، وما يلاحظ على العلاقات التي لا تخلو من الاشادة بالمرأة والتغزل فيها بل والفخر بها.

ويعود الاتجاه نفسه إلى المأثور العربي وما ورد من أخبار عرب الجاهلية في المصادر الإسلامية، ليجد العربي حريصا على كرامة المرأة ويعتبرها موضع شرفه، حتى شنت من أجلها حروب، وأبرزها موقعة (ذي قار) التي انتصرت فيها ثلاث قبائل عربية متحالفة، على الفرس، بسبب رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته للملك الفارسي، كذلك حرب الفجار الثانية التي قامت بين قريش وهوازن تلبية لاستنجد امرأة بآل عامر للذود عن شرفها، ولا ننسى حرب البسوس التي دامت أربعين عاما بسبب انتهاك جوار امرأة، وما قصة عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم إلا أبرز مثل لأفنة العربي وحرصه على كرامة المرأة وعزتها.

وتروى كتب الاخبار وطبقات الشعراء كيف كانت المرأة تستشار في عظام الأمور، كما في حادثة سعدى أم أوس الطائي، ناهيك عن مشاركتها للرجال في ساحة القتال، تحثهم على المثابرة وشد أزهم، وتداوى الجرحى وتدعو للأخذ بالثأر، فيستبسل الرجال مخافة سبي نسائهم، وقد كان لواء (العارضية) في شعر حسان بن ثابت وراء نصر قريش في غزوة أحد

على المسلمين، فعندما سقط لواء المكيين هرعت إليه (الحارثية) وسط الرماح والسيوف وحملته، فجمعت حوله فلول المنهزمين، وظلت تهتف بهم حتى عادوا وحملوا على المسلمين حملة شديدة. ودور (هند بنت عتبة) في ذات المعركة من أهم الأدوار في تاريخ تلك الحروب، حيث أنت بنساء مكة وقيانها يشحذن الرجال، وينشدن الأناشيد الحماسية لتأجيج الحمية القتالية. وكانت (هند) من شاعرات الغرب اللاتي يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال، واشتهرت أيضا (كفيلة بنت النضري)، و(أروى بنت الحباب)، وبنت بدر بن هفان والهيفاء القضاعية ولا مرأ أن الخنساء ذهبت من بينهن بعمود الشعر رثاء وفخرا وحماسة وحربا.

ولا يغيب على فطن انتساب قبائل العرب إلى أمهاتها مثل بجيلة وخندف وطهية ومعاوية ونويرة، ويبدو أن الحرص على مكانة الأم كان وراء حرص العربي على كرم النسب وطهارة الرحم، وقد ذكر كتاب الأغاني في حديثه عن حرب الفجار أن (مسعود الثقفي) ضرب على زوجته (سبيعة بنت عبد شمس) خباء وقال لها: من دخله من قريش فهو آمن، فجعلت توصل في خبائها ليتسع.

وفي الأشعار تقدير عربي شديد للمرأة، فيخاطبها إذا كانت زوجة بأفضل الألقاب، فهو يقول لها:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رجال القوم والقربا
واللقب، وتعجير (غير صاغرة) يشير إلى أى درجة من سمو كانت.

الشكل الأنثى

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فيستندون إلى ذات المعطيات وذات المادة التاريخية، ليعطونا صورة من أشد الصور بخسا بحق المرأة، فكانت تورث مع المتاع إذا توفي زوجها، ويرث الولد زوجة أبيه ويتصرف فيها حسب مشيئته، فبإمكانه أن يتزوجها، أو يزوجه لغيره ويأخذ مهرها، أو يعضلها حتى تموت، أى يمنعها من الزواج حتى تدفع فدية عن نفسها. فهي في منزلة بين الإنسان والأنعام، أو هي مثل متاع البيت متعة لصاحبه، وسميت متاعا بالفعل، مهمتها الاستيلاد والخدمة، وشاع الكثير عن بغض العرب للبنات، حتى سئل أعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أخبث من بنت. وهذا (أبو حمزة العيني) يهجر زوجته إلى بيت مجاور بعد أن ولدت بنتا، حتى أمست تقول شعرا:

ما لأبى حمزة لا يأتيها يظل في البيت الذي يليها

غضبان ألا نلـد البنـيا نالـه ما ذلـك فى أيدىنا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

وغنى عن التنبيه إلى أن تلك الرؤية المتقدمة للرجل كسبب فى جنس الوليد، وأن المرأة مجرد أرض تقبل الجنس المزروع وتنبتة .

هذا ناهيك عن ظاهرة الواد كأبشع الظواهر طرا، وقد ذهب بعضهم إلى قصر الميراث على الولدان الذكور وقالوا؛ لا يرث إلا من يحمل السيف .

التحليل التاريخى

ومثل هذا التناقض فى المعطيات، ثم التناقض بالتبعية فى تقارير الباحثين حول وضع المرأة فى الجاهلية، لا يحله إلا رؤية تاريخية موضوعية، فقد عاش العرب فى قبائل متعددة موجودة جنباً إلى جنب فى زمن واحد، ولكن فى مناطق مختلفة، وهى تتداخل معاً، وفى مكة جمع شكل المجتمع القبيلة إلى جوار الواقع الحضرى، وطريقة العيش ووسائل الكسب، من رعى وغزو إلى استقرار زراعى، إلى تجارة، أثرها الذى يجب أخذه فى الاعتبار عند مناقشة وضع المرأة فى الجاهلية، وهو موضوعنا التالى .

العامل الموضوعى ووضع المرأة

سبق وأشرنا إلى اختلاف آراء الباحثين فى وضع المرأة زمن الجاهلية، كما ألمحنا إلى أن ذلك الاختلاف ناتج من تعدد القبائل والأشكال المجتمعية على التجاور فى زمن واحد، فى مناطق مختلفة، كذلك تنوع الأقاليم وطرق الكسب التى تتباين، وما تبع ذلك بالضرورة من اختلاف فى وضع المرأة، ولا ريب أن دخول الشكل الطبقي أدى إلى ثراء قبائل ضاربة على طرق التجارة، مقارنة بقبائل ظلت على فقرها فى باطن الجزيرة، إضافة إلى التفاوت الطبقي داخل القبيلة الواحدة، وما ارتبط به ذلك التطور الاقتصادى فى تفجير الأطر القبلية فى المناطق التى أصابها ذلك التطور، فتغيرت بنائها المجتمعية وسعت نحو نزوع وحدوى على مستوى الأرض والسماء، مما أدى إلى نشوء وعى قومى وحدوى، استشعرت فيه قبائل العرب بوحدة جنسها، وكان لكل تلك التطورات دورها فى اختلاف وضع المرأة، مما أدى لاختلاف رؤية الباحثين بدورها .

ظاهرة الواد

يقول القرآن الكريم معقبا على ما آل إليه حال المرأة فى العصر الجاهلى، أمراء، ناهيا قولاً

تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم»، وينبه (الدكتور على عبد الواحد وافي) هنا إلى أن الوأد الناتج عن الفقر لم يكن فيه تمييز بين الذكر والأنثى، فكانوا يندون على الجملة، وهو رأى فيه نظر، حيث لم يثبت وأد الذكور على الإطلاق، حيث كانت البداوة ونمطها بحاجة دائمة إلى ذكور شغيلة محاربين، لكنه يطرح من جانب آخر وجهة نظر بشأن وأد الإناث، فيقول أنهم اعتقدوا أن البنت من خلق الشيطان، أو خلق إله غير إلههم، فوجب التخلص منها.

وفي التفسير الديني نجد تفسيراً أقرب للمقبول عند الدكتور (على زيمور) حيث يقول: إنه كان لونا من طقوس التقرب لإله القمر (ود) رمز الأنوثة في رأيه، وإنه كان من بقايا القرابين البشرية، التي درجت عليها الشعوب القديمة، قبل استبدالها بذبح الحيوان فداء للإنسان.

لكن ما يعنى الأمر هنا هو أن المطالع لكتبتنا الاخبارية لن يجد ظاهرة الوأد أمراً متفشياً، كما هو شائع، بل كان علي العكس نادر الوقوع، ذكرت حالات بعدد قليل لا يرقى بالحالة إلى ظاهرة منتشرة، وقد عاب العرب وانكروه. وأشهر حالتين يتم ذكرهما حالة (قيس بن عاصم) وحالة (عمر بن الخطاب).

ولعل صدق الوحي والتنزيل هو الفاصل بشأن سبب الوأد، في بعض مواضع وبعض قبائل الجزيرة، حيث أشار للوضع الاقتصادي وأثره في تلك العادة، فالفقير بحاجة للولد المنتج، وليس بحاجة لأنثى فم يلهم في مجتمع ندرة على العموم، ثم كان حال القبائل المتحاربة يعرض الإناث للسبى والعار، وكان محتماً أن تهزم القبيلة الفقيرة وتسبى بناتها، لقلعة عتادها وحيلها.

والدليل على عدم نفشى الوأد، وأنه بالفعل كان ناتج الإملاق كما قال الوحي الصادق، أن عالية القوم ومن تيسر معاشهم فتهذبت نفوسهم، استهجنوا ذلك بشدة، فكانوا يفتدون البنات من الوأد، واشتهر من بين أجداد العرب (صعصعة بن ناجية) جد (الفرزدق)، الذى أخذ على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فناها، فسمى محبى المؤودات، وقال الفرزدق فيه:

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوثيد فلم يـوأد

وتعبر حادثة (أم كحلة الأنصارية) عن كون السبب الاقتصادي وراء تعاسة المرأة كفى أكل غير منتج فى وسط فقر وندرة، حيث ذهبت إلى رسول صلى الله عليه وسلم تقول: يا رسول الله توفى زوجى وتركنى وابنته فلم نورث، فقال عم ابنتها قولة فيها صدق الحال؛ قال: يا رسول الله هى لا تركب فرسا ولا تحمل كلا ولا تنكى عدواً، يكسب عليها ولا تكسب.

وهناك سبب آخر أدى إلى حالة واحدة أخرى من حالات الوأد النادرة، ويتعلق بالظاهرة في قبيلة تميم، حيث كانت تميم قد امتنعت عن أداء الإتاوة للنعمان ملك الحيرة، فجرد عليهم حملة سبت نساءهم، فكلّموا النعمان في نساءهم، فحكم بترك حرية النساء في الاختيار لقرار النساء أنفسهن، فاختلفن في الاختيار ما بين البقاء في حوزة من سباهم وبين العودة لذويهم، وكانت فيهم بنت (قيس بن عاصم)، وهي الحالة النادرة المشار إليها، فاختارت سابها على زوجها، فنذر (قيس) أن يدس كل بنت تولد له في التراب، وافقدي به بعض تميم نكاية في النساء.

الموضع الطبقي

كان نشوء الطبقة عاملاً أساسياً في تحديد وضع المرأة، فكان هناك الإماء، والحرائر، وكانت الحرائر تتمتع بمنزلة سامية، يختزن أزواجهن، ويتركن إذا أساءوا معاملتهن، ويحمين من يستجير بهن، وكن موضع فخر الأزواج والأبناء، بعكس الإماء الذين كان الأبناء يستحيون من نكرامهاتهم.

علا شأن المرأة في الوسط الثري، خاصة إذا تمتعت هي بالثراء، فكانت تختار زوجها كما حدث من السيدة خديجة أم المؤمنين وكانت إحدى ثريات مكة المعدودات، عندما خطبت لنفسها الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان آخرون يفخرون بنسب أنفسهم إلى أمهاتهم.

وكما سبق وأشرنا فقد ارتبط ذلك التطور الاجتماعي ونشوء الطبقة بنزوع قومي واضح، كانت المرأة طرفاً في جدله التاريخي، حيث كانت امرأة سببا في حرب العرب والفرس في ذي قار، والفرح الاحتفالي الهائل في الجزيرة بالنصر العربي، أما النزوع القومي وشعور قبائل العرب بأنهم جنس له نوعيته وخصوصيته، فقد دفعهم إلى عدم تزويج بناتهم من أعاجم مهما بلغ الأعجمي من مراتب الشرف والسؤدد والمال.

الحب والزواج

يبدو أنه رغم ما نسمع عن قيود وأعراف عربية، وضعها المجتمع على علاقة الشاب بالفتاة، فإننا نسمع أيضاً مع نشوء الطبقة الثرية عن مجالس سمر تعقد في أفنية الدور، ويجتمع فيها الشباب والشابات حيث تضرب الدفوف ويرقص الحداون ويلقى الشعر، خاصة في آخر سنوات الجاهلية الأخيرة.

وكان الشاب منذ بلوغه يبدأ التشبيب بالنساء ويلاحقهن، وكان ذلك إحدى علامات

الرجولة والفخر، ولأن الشعر كان اغنية العربى وفصاحته، فقد كان كل شاعر يبدأ شعره بالغزل، إلا أن الشعر النسوى كان يخلو تقريبا من ذلك الغزل، حيث كان روح المرأة بمشاعرها لونا من خلق الحياء التقليدى بين العرب.

اختيار الزوج

وإذا تأخرت خطبة الفتاة، التى عادة ما كانت تتزوج فى سن مبكرة (حوالى الثانية عشرة)، فإنها كانت تلجأ إلى طلب الرجل، فتتشر شعرها، تكحل واحدة من عينيها، وتسير تعجل فى الشارع ليلا تنادى: يا لكاح، أبغى النكاح، قبل الصباح.

وهو أمر يشير إلى أن العرب وان درجوا على عادة اختيار الفتى لغاته، فإن العكس كان حادثا، وتشير الاحداث إلى أن المرأة كانت حرة فى اختيار زوجها، بخاصة إذا كانت من علية القوم، فهذه (هند بنت عتبة) تقول لأبيها: أنى امرأة ملكت أمرى، فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على، فقال لها وذلك لك.

وتقول المصادر ان حق ابن العم فى ابنة عمه كان عرفا مقنما ومسئونا، إلا أن العرب بعد ذلك صارت تدرج على التزواج من خارج القبيلة، ويقول الباحثون ان كان ناتج ملاحظة ان زواج الأقارب يأتى بالضواوين (الضعفاء والمشوهين)، فصارت لهم فى ذلك امثال مضروية، من قبيلها: لا تتزوجوا من القريبة فيأتى الولد ضاويا، والتزواج من البعداء انجب للولد وابهى للخلفة وأحفظ لقوة النسل، ولا تتزوجوا فى حيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البغض، والنزاع لا القرائب.

زواج الغريب

ويبدو لنا أن الزواج من قبائل أخرى، كان مرحلة متطورة تسارقت مع التطور اللاحق، الذى دفع بأفراد القبائل للخروج عن الحالة القبلية الأولى، ونظام التحالفات الذى كان إرهابا بالقومية والتوحد، سعيا وراء توفير إمكانات إقامة أحلاف قبلية كبرى قوية. وأبرز الأمثلة على ذلك عندما بلغ الصراع ذروته بين كئتنى هاشم وأمىة فى مكة، وبدأ كل من البطلين يعقد تحالفاته الكبرى ضد الآخر، وكيف وهى السياسة التى اختطها هاشم بنفسه، وتبعه فيها بنوه من بعده.

لكن ذلك لم يمنع استمرار الزواج من داخل القبيلة بالطبع وكان للطبقة والفقير والغنى دوره فى ذلك، فكانت الفتاة فى الطبقات الأدنى تفضل زواج الاقارب لأنهم أكثر معرفة بشؤونها من الغريباء، وأحرص على ستر عيوبها وسلامتها، وفى حكاية (عشمة البجالية) ما

يشير إلى هذا المعنى، فقد نصحت شقيقتها (خود) عندما جاءها خطاب أغراب حسان، بقولها: تزوجى فى قومك ولا تغرك الأجسام، فشر الغريبة يعطن، وخيرها يدفن، ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل ١٢.

الطلاق

معلوم أن الطلاق كان بيد الرجل، وكانوا يطلقون ثلاثاً على التفارقة فإذا تمت امتنعت العودة، لكن أيضاً كان من حق المرأة اللرية - ويشار إليها بالشريفة لمالها - حق الطلاق، وقد أشار أبو الفرج الأصفهاني فى أغانيه إلى ذلك فى حديثه عن نساء الجاهلية يطلقن الرجال، وبلغ الأمر حدا لا يجبر فيه المرأة على المصارحة بالطلاق، بل كان يكفيها أن تحول باب خيمتها من الشرق إلى الغرب فيفهم الرجل أنه قد طلق من امرأته.

(إلى هنا انقطع الموضوع المنشور فى مجلة نزوى وقد أوردناه كما نشرته المجلة لفقدنا الأصل).

متى ظهر العرب فى التاريخ؟

متى ظهر العرب فى تاريخ المنطقة؟ السؤال الذى حاول الباحثون تقديم إجابة واضحة بشأنه، استناداً للوثائق التاريخية والأركيولوجية، وإلى الدراسات المهمة بتاريخ الأجناس والجغرافيا البشرية.

وقد انتهت مدرسة الألمانى (نولدكة) بهذا الشأن، إلى أن المفردة (عرب) ترادف فى معناها الصحراء (آرابيا ARABIA)، أو بمعنى آخر، أنها لم تكن تعنى أكثر من البداوة والقفرة والجفاف. أقوام متشرذمة تتناثر على امتداد بوايدى جزيرة العرب حتى بادية الشام وسيناء شمالاً وغرباً، وأنها إطلاقاً لم تكن تعنى ما نفهمه اليوم من معنى الجنس أو القومية. بل أن هؤلاء الأعراب لم يكن بينهم هم أنفسهم أى حس بأنهم جنس واحد أو ذوى أصول واحدة، بل كانوا يأكلون بعضهم بعضاً بالحروب والغارات القبلية التى لا تهدأ.

ورغم أن هناك يقين غير واضح، بأن للعرب وجوداً وأصولاً موعلة فى القدم، فإن ما ورد عنهم من إشارات مكتوبة، قليل ومبهر، ولا يرقى لأبعد من الألف الأولى قبل الميلاد. كما أن تعبير (الساميين) الذى يلتبس تارة بالعرب وطوراً ببني إسرائيل، لا يشير إلى حقيقة بشرية، قدر ما يشير إلى مجموعة لغات متشابهة، يفترض أنها تعود إلى لغة أم أولى.

ولعل أقدم الإشارات المكتوبة إلى العرب - كما هو معلوم لدى الباحثين - هى تلك التى جاءت فى نقوش آشورية، حوالى عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وحدثتنا عن جماعات من البدو دمرتها القوات الآشورية، وأن تلك الجماعات كانت تستقر فى بادية الشام، ودومة الجندل، وتيماء، وقد أطلقت النصوص الآشورية على هؤلاء لفظة اختلف تنعيمها نطقاً فى الترجمة ما بين : عربى، وعربا، وعربى، وعربو. أما بلادهم فيبدو أنها تلك التى ذكرت فى ذات النصوص باسم (عربايا)، كما أشارت إلى ملوك وملكات فى محيط (دومة الجندل) وإلى كيانات قبلية تمتلئ التجارة. يرجح أنهم كانوا بدورهم عرباناً، وربما كانت عبارة (ماتو-أربى) الواردة فى الكتابات البابلية كانت تعنى: أرض العرب، لكن من المؤكد أن لفظة (أربايا) الواردة فى كتابة (دارا الأكبر الأخمينى) تعنى: العرب.

العرب فى نصوص الرافدين

وهكذا اتفق الرأى على أن أول إشارة مدونة فى التاريخ إلى العرب، تلك التى جاءت فى نصوص العاهل الآشورى (شلمنصر الثالث)، والتى تحدثت عن معركة (قرقر) التى وقعت عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وتمت فيها هزيمة حلف لمجموعة من القبائل، تزعمها شخص باسم (جندبو) أو (جندب العربى)، وأن تلك القبائل كانت تقاتل راكبة الجمال، وأن عدد الجمال العربية فى تلك المعركة قد تجاوز الألف جمل، وهو ما يشير إلى حلف كبير، كما يشير إلى لون من التآلف بين قبائل العرب، ربما اقتصر على ذلك الطارئ المؤقت، ولم يرق إلى الإحساس القومى بالتوحد الجنسى،

وقد أشارت تلك النصوص الرافدية، المدونة فى القرن التاسع قبل الميلاد، إلى ملكات عربيات، فقد وردت فى نص من عهد (تجلات بلاصر) سنة ٧٧٨ قبل الميلاد، رواية عن قدوم ملكة العرب (زيبية) تحمل الجزية، ونظنها تلك التى وردت فى أخبار المأثور العربى باسم (الزباء)، وخلصوا بينها وبين (زنوبيا) ملكة تدمر. كذلك ترك لنا الملك (سرجون الثانى) نصا يقول فيه أنه قد هزم جيوش (شمسى) التى وصفها بأنها (ملكة العرب) حوالى سنة ٧٣٢ قبل الميلاد، وأنه قد تسلم الجزية من ملك سبأ (يث - عمر) حوالى سنة ٧١٦ قبل الميلاد، إضافة إلى دحره جماعات من (ثمود) و(العبابيد) و(المرسمانى) و(عفه) الذين وصفهم بأنهم «العرب بعيدو الديار».

وفى نص للملك الآشورى (سنحاريب) نفهم أنه قد أسر شقيقا لملكة عربية أسمها (ياطيعا)، ثم هاجم معسكراً لملكة عربية أخرى أسمها (ت - علخونة)، حوالى عام ٦٩١ قبل الميلاد، أما الملك الآشورى (أسرحدون) فقد ترك وثيقة تشير إلى فرضه الجزية على ملك دومة الجندل المدعو (خزعل) سنة ٦٧٦ قبل الميلاد.

وفى كتابات العاهل الآشورى الشهير (آشورباني بل) يكتب خطأ بانيبال (سنة ٦٤٩ قبل الميلاد، إشارة واضحة إلى معركة وقعت مع عرب يعرفون باسم عرب (قيدار)، ثم نعلم أن هؤلاء العرب قد تغلغلوا داخل الأردن مما اضطر (نبوخذ نصر) العاهل الكلدانى إلى مهاجمتهم عام ٥٩٩ قبل الميلاد، ويبدو أن شأن هؤلاء العرب كان قد تضخم إلى الحد الذى اضطر الملك الرافدى الأشهر (نابونيد) إلى نقل عاصمته جنوباً ليقيمها فى واحة تيماء، ليواجه من هناك تلك الهجمات، وليبسط هيمنته على (ددان. العلا حالياً شمالى السعودية) وعلى فدك وخيبر ويثرب، وهو ما يوضح مصدر تلك الهجمات العربية.

العرب فى التوراة

أما التوراة، كوثيقة تاريخية، فقد سجلت للعرب وجوداً تاريخياً واضحاً، وذلك حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، عندما أرفقت ذكرهم بذكر مؤسس دولة إسرائيل (الملك سليمان)، وذلك فى سفر أخبار الملوك الثانى القائل: «وكل ملوك العرب، وولاة الأرض، كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان»، وهو ما يشير إلى أن للعرب فى ذلك الزمان ممالك تدفع الجزية لسليمان ملك إسرائيل.

وبعدها يتواتر ذكر العرب فى نصوص التوراة بذات السفر، فى حكايته عن الملك اليهودى (يهو شافاط) حيث يقول: «وبعض الفلسطينيين أتوا يهوه شافاط بهدايا وحمل فضة والعربان أتوه أيضاً بغنم من الكباش». وفى زمن الملك (يهورام) يهاجم العرب مملكة يهوذا بذات السفر حيث يقول: «والعرب الذين بجانب الكوشيين، صعدوا على يهوذا وسلبوا كل الأموال الموجودة فى بيت الملك، مع بنيه ونسائه».

ومن ثم تتصاعد نفعة العداء التوراتية ضد العرب، فتحكى التوراة عن عودة اليهود من سبى بابل لبناء الهيكل الخرب مرة أخرى، وكيف كان العرب يهزأون مما يفعلون، وذلك فى سفر ترحميا وهو يقول: «ولما سمع سنبط الحورونى وطوبيا العبد العمونى، وجشم (نظن صحيحها جاسم) العربى، هزأوا بنا واحتقرونا، ومن ثم نجد فى أمانيات النبى (أشعيا) فناء كاملاً للعرب، فى قوله: «وحى من جهة بلاد العرب، فى الوعر بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين (يقصد قوافل تجارة ددان وهى العلا حالياً) .. يا سكان أرض تيماء .. إنهم أمام السيوف قد هربوا .. يفتنى كل مجد قيذار». أما النبى (إرميا) فيقدم ذات الأمانى فى نبوءته «هكذا قال الرب: قوموا واصعدوا إلى قيذار، أخرجوا كل بنى المشرق»، ومعلوم أن (قيذار) اسم لقبيلة عربية كبرى آنذاك، أما اصطلاح بنى المشرق فهو يعنى العرب بالمعنى الواسع، وقد تأكد صدق وجود قبيلة باسم (قيذار)، على الأقل فى إشارة تاريخية لنص (أشور باني بعل) سالف الذكر، وأنه جرد حملات عليها لأنها ساعدت أخاه المتمرد، وأنه دمر (أبى عاطى) زعيم قبيلة قيذار، وغنم منهم جمالاً كثيرة.

العرب فى النصوص اليونانية والرومانية

تعد إشارة (إسخيليوس / ٥٢٥-٤٥٦ / قبل الميلاد) أقدم إشارة يونانية لجزيرة العرب، بحسبانها موطناً للخيول العربية الممتازة، لكن الكتابات الهوميرية بحسبانها أشهر الكتابات اليونانية، لا تأت على ذكر العرب إطلاقاً، رغم تعددها لشعوب وقبائل الشرق القديم، ومعلوم

أن كتابات (إسخيلوس) جاءت بعد (هوميرس) بما يزيد عن ثلاثة قرون، لكن ما أن يأتي عام ٤٨٤ قبل الميلاد، حتى نجد في حديث (هيرودت) المعروف بأبى التاريخ، الحديث الكثير عن العرب ومناطق العرب، مما يشير إلى أن العرب قد أصبحوا حقيقة مستقرة في المنطقة، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، وأنه كان لهم معالمهم الجغرافية المميزة، مثل خليج العرب (خليج السويس حالياً) مما يعنى أنهم قد استوطنوا سيناء، كذلك كانت العرب الجنوبية (اليمنية) معلومة الأمر تماماً في ذلك القرن. وما أن يأتي القرن الثانى قبل الميلاد، حتى نجد الحديث عند (أراتوستين) عن أربع ممالك عربية مستقلة في جنوب الجزيرة، هى: معين وسبأ وقبآن وحضرموت، وهو التقسيم الذى أثبتته الحفائر والكشوف الأركيولوجية الحديثة فى اليمن.

أما الرومان، فقد قسموا جزيرة العرب قسمين: العربية الصحرية (أرابيا بترا) وهى شمالى الجزيرة وشبه جزيرة سيناء، والعربية السعيدة (أرابيا فيلكس) وهى بلاد اليمن أو جنوبى الجزيرة، وذلك بعد معرفتهم الجغرافية لشئونها، مع حملة (أليوس جالوس) على الجزيرة، والتي أثبتت فشلها الذريع فى احتلال تلك الفياقى.

البحر الحميرى

ومنذ القرن الأول قبل الميلاد، نجد النصوص اليونانية تشير إلى وجود مملكة مزدوجة فى جنوبى الجزيرة، هى مملكة (سبأ وحمير)، وأطلقت تلك النصوص على سكان تلك المملكة اسم (الهومريين) الذى يجب نطقه (الحميريين). ويبدو أن اسم البحر (الأحمر) قد اكتسب اسمه من اسم (حمير) قبل سقوطها فى القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن كان اسمه البحر الأرتيرى كما سبق وأسماء (هيرودت)، لكن المثير فى الأمر أن تسميته بالبحر (الأرتيرى) نسبة إلى وقور (أرتيريا) على مضيقه الجنوبى فى المندب، يعنى ذات المعنى، لأن (أرتيريا) نفسها كانت جزءاً من مملكة سبأ، واسمها باليونانية يعنى (الحمراء)، ولتقارن مع (حمير) والبحر (الأحمر)، وهو الأمر الذى يدفع لمراجعة العلاقة التى تربط بين تلك المملكة العربية الجنوبية، وبين سكان ساحل المتوسط الشرقى (الفينيقيين)، حيث تعنى كلمة فينيقى بدورها (الأحمر)، وتلك المراجعة مطلوبة فى ضوء النص الفينيقي المكتشف، الذى يؤكد أنهم جاءوا إلى ساحل البحر المتوسط الشرقى، قادمين من (البحر الجنوبى) وهو الأحمر، وهو الأمر الذى قد ينتهى إلى القول: إن حضارات الجنوب كانت هى الأصل والدافع للحضارة الكبرى التى قامت بعد ذلك على ساحل المتوسط الشرقى. لكن ستكون العقبة هنا: كيف ذلك، بينما

(١) مضى على كتابة هذا الموضوع حوالى أربعة سنوات وقد قمنا بهذه المراجعة المطولة بدراسة وافية فى كتابنا (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة). وسيكون بين يديك فى معرض القاهرة الدولى للكتاب مع بداية عام ١٩٩٨م.

أبعد نصوص تحدثت عن وجود للعرب، لا ترقى لأبعد من ألف سنة قبل الميلاد، بينما نعلم أن الفينيقيين قد ظهوروا على صفحة التاريخ قبل ذلك التاريخ بأكثر من ألف عام أخرى؟ سؤال يجيب عليه الفراعنة.

العرب في الهيروغليفية

وهنا حقاً ما فاجأتني به ترجمة جديدة تماماً للمفكر الليبي (الدكتور على فهمي خشيم)، لكلمة الشرق في المصرية القديمة (إأب ت)، حيث كان المصري يحدد الجهات الأصلية بالتوجه جنوباً نحو منابع النيل، ليصبح الشرق في يساره، لتعني الكلمة (إأب ت) اليسار والشرق معاً، كما تشير إلى الريح الشرقية، وأى مشتقات ترتبط بالشرق، وجذرها (إأب) يعنى الشرق، وفي قراءة الرجل للكلمة نجد الهمزة الأولى مبدلة من العين (أ = ع)، وذلك كما فى المصرية (ك أب) = كعب، و (إن ق) = عنق.. الخ، ومعروف أن العربية تبدل العين همزة كما فى (الأريان = العريان/ أنظر لسان العرب)، أما الهمزة الثانية فى (إأب) فهي مبدلة من الراء، ونموذجاً لذلك خمسين مثالا قدمهم المصنولوجى (أمبير) مثل (ب أك) المصرية = برك، و (ش أع) = شرع، و (ج أم) = جرم، وعليه فإن الهمزة الأولى فى (إأب) تصبح (ع) وللهمزة الثانية تصبح راء، بينما الباء أصيلة، أى أن (إأب) هى بالضبط (عرب)، و (إأب ت) هى عربت مؤنث عرب أو بلفظ العرب (عربة)، أى بلاد العرب، أى جزيرة العرب أو على الأصوب والأرجح (وادی عربية) الممتد من خليج العقبة حتى البحر الميت شرقى سيناء، وهى الكلمة المصرية التى صارت تدل على الشرق عموماً، مما يعنى أن مصر القديمة قد عرفت بلاد العرب باسمها وأنها كانت تعرف سكانها باسم العرب، وإذا كان الشرق فى اللسان المصرى القديم يعرف بأنه (عرب) وسكانه (العرب)، فهو الأمر الذى يعنى وجوداً لقباثل حملت ذلك الاسم وعاشت شرقى مصر، وأن الاسم قديم قدم من أطلقه عليهم.

وأنه من المحتمل الآن البحث عن أصول الفينيقيين الحمر، فى حضارة الجنوب اليمنى الأحمر الحميرى، لكن ما يجب التأكيد عليه هنا أنه رغم كل الاحتمالات التى تشير إلى قدم العرب فى التاريخ، وأنهم أقاموا ممالك فى بعض الأحيان، فإنهم لم يشعروا يوماً بوحدة جنسهم، وهو ما تشير إليه تلك الكتابات القديمة، التى كانت دوماً تتحدث عن القبيلة الفلانية ثم تصفها بأنها عربية، مما يعنى أنها فقط بدوية أو صحراوية، باعتبارها كانت مملكة، ونحن نعلم يقيناً وفق الدراسة العلمية المدققة أن الحس العربى بمعنى القومية أو الجنس الواحد، لم يظهر إلا قبل الإسلام بزمان وجيز، بفعل مجموعة من الظروف الموضوعية أدت إليه، ولم تحمل كلمة

العرب مدلولها الجنسي والقومى المعروف، مع سيطرة لغة واحدة، إلا مع الإسلام، الذى نمت الحس القومى لدى سكان الجزيرة، ليشعروا لأول مرة فى تاريخهم أن لهم كيان واحد هو الكيان العربى، وحينها ابتدعوا فكرة (يعرب) جد العرب البعيد، الذى يجمعهم ويوحد أصولهم فى تاريخ لم يعرف هذا الاجتماع من قبل، وربما كان (يعرب) هذا هو الصياغة العربية (بالقلب) للإسم المذكور فى التوراة بصيغة (عابر) .

رب الزمان

منذ ما يزيد على خمسة آلاف عام، عندما كان الفكر الإنساني لم يزل في بداياته، كان العراق في قمة الابداع الحضارى، حيث نشأت أول حضارة إنسانية على ضفاف دجلة والفرات.

وفي جنوب وادي الرافدين، كان هناك الشعب السومري الذي لا تقل حضارته عن أية حضارة أخرى عاصرتة ففي هذا السهل الغريني الخصب، أبدع الحكماء السومريون أدباً وفكراً يتناسبان مع درجة ارتقاء الإنسان في تلك الأزمان.

تطلع الفكر هناك حوله مستكشفاً ظواهر طبيعة الكون مفسراً وقارناً ومبدعاً، في كيان الوجود المحيط، به فترك عدداً غفيراً من الآلهة، تعددت بتعدد الظواهر النافعة والضارة في الطبيعة ومن تلك الآلهة الإله (آن) إله السماء.

(آن) رب السماء

تعنى كلمة (آن) السماء المنظورة ذاتها في بدء الأمر، وكانت السماء في رؤيتهم سقفاً محفوظاً يعلوهم، ثم تحولت بالتدرج إلى علم ورمز على الألوهية عموماً، فعادلت الكلمة (آن) - بمعنى من المعاني - لفظاً جلالياً أو اسماً للجلالة، تدل على ألوهية أى مسمى إلهي، كما حملت الكلمة (آن) معنى السيادة والرفعة، باعتبار هذا الإله هو سيد الآلهة جميعاً.

ويقول آثارى السومريات المعروف (صموئيل كريم): إن الأسباب التي أدت إلى سيادة (آن) على مجموعة الآلهة السومرية، لم تزل وفصولها أسباباً غير معروفة. لكننا يمكن أن نتصور وببساطة، أن رؤية السومري للسماء بفساحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأجرام والظواهر فيها، مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامتها هذه، روحاً تحيط الأرض، وتغطيها لها من جميع الجوانب، كل ذلك كان كفيلاً بإجلالها، بما يلائم عظمتها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التي مهما بلغت مظاهرها هولاً وغرابة، فإنها لا ترقى أبداً إلى درجة الظواهر السماوية، مع الأخذ بالحسبان، عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً، يقع في نفسه موقع الجليل بما له من رهبة ورغبة وتقديس،

(*) نشر في مارس ١٩٨٩، بمجلة آفاق عربية، بغداد.

فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة طراً، وأبناً أولاً دائماً الاقتران، بتواصل وديمومة يخصب الأم للكبرى الأرض، وهو يحتضنها باستمرار، ليلقى ماء الحياة فيها.

واستطاع العرب أو الساميون أن يشيدوا بلاد الرافدين بعد أن أصبحوا سادة البلاد، وأسسوا هناك دولاً كبيرى نتذكرها عندما نتذكر (الأكاديين، والبابليين، والآشوريين، والكلدانيين). إن الإله (آن) لم يقم بإبداع الوجود دفعة واحدة فيكون قد فعل فعلاً واحداً شاملاً وانتهى الأمر، إنما كان إبداعه زواجاً مستمراً من الأم الأرض، عن طريق مطره الدائم ورعايته من عليائه باستمرار لأولاده من الكائنات الأرضية (إنسان ونبات وحيوان وكيانات أخرى)، وبذلك كان فعله مستمراً، وعليه فهو لم يفعل مرة واحدة إنما يفعل باستمرار، وبما هذا الفعل هو فعل (آن) الدائم، فهو (فعل + آن) أو (فعلان)، تلك التفعيلة التي دخلت كل اللغات السامية لتدل على الفعل المستمر والحضور في جميع الأزمنة. فهو فعل بدأ في الماضي، لكنه مستمر الحضور والعمل، وباعتبار (آن) أقدم الآلهة طراً، فقد اكتسب صفة الأزلية ولأن السماء منفصلة عن الوقائع الأرضية، التي تتعرض للدمار والفساد باستمرار، فقد بات واضحاً لعيني السومري أن الإله (آن) دائم الحضور دون فساد أو فناء، ومن هنا اكتسب صفة الأبدية، ومن ثم تحول إلى مفهوم، فأصبح هو الديمومة أو الزمان.

ولو توقفنا مع العربية، كفرع من اللغات السامية، وحللنا كلمة (الزمان)، سنكتشف عدداً لا بأس به من الكشوف، وأول ما سلاحظه في كلمة الزمان أنها على وزن التفعيلة (فعلان)، كما أنها تشير إلى جزئيات الزمن المتراصة المتلاحقة المتلاصقة في كلمة (زمان)، وأعني أن الزمان هو مجموعة من اللحظات أو من الآتات (آن وأن وأن هكنا...) أى مجموعة من اللحظات الحالية أو الراهنة أو الآتية (الآن)، مضت منها (آتات)، ونحضر منها الآن (آتات)، ومنها آتات لم تأت بعد، فالزمان هو مجموع آتات الوجود، ويضم هذه الآتات إلى بعضها البعض، أو لمها، أو جمعها، أو زمها تصبح هي زم الآتات أو (زم آن) أو (زمان) أو الزمان، الذى كان قديماً هو الإله (آن) رب السماوات.

(آن) رب المكان

ونعود مرة أخرى للساميين، فنجدهم يستبعدون الكلمة السومرية (إى E) ويستبدلونها بمقابل السامى (بيت Bit)، وبيت بالتحديد تعنى معناها فى عربيتنا (البيت)، لكنه كان يطلق فقط على المعابد فاخصص بالكلمة (بيت) بيوت الآلهة، أما باقى الامكنة على الأرض، فحظيت بأسم آخر، تأخذه من فرع آخر باللغات السامية، أقصد الكنعانية، التى أطلقت على بيوت آلهة أننى قليلاً من (آن)، هى الكلمة (بك)، وهى موجودة كمثال فى اللفظة الكنعانية (يعلبك)، وهى معبد قديم للإله (بعل) لم يزل قائماً للآن فى لبنان، والإله بعل يعنى (السيد)

أو (الرب) ، وهورب الأمطار والخضرة ، ورب الطبيعة المروية بفعله هو ، وليس بمساعدة إنسانية (بالمساقية أو الشادوف) وظل (يعل) حيا في لغاتنا حتى الآن ويحمل المعنى نفسه . ويعل المرأة سيدها وزوجها ورب بيتها ، كما لم يزل حيا في أذواقنا ، حين نفضل أكل النبات المروى طبيعياً ، النبات البعلى (القول البعلى مثلاً) ، ونفضله على (القول المسقاوى) الذى يدخل فى سقايته الفعل البشرى .

ولما كان الإنسان القديم ، يشكل فى التاريخ مرحلة الطفولة البشرية ، فإنه كثيراً ما كان لسانه يكن لكثة أطفال اليوم ، وكثيراً ما خلط بين الباء والميم ، وهكذا لم يكن هناك بأس من أن يصبح بيت الاله (مك) بدلا من (بك) ، فجاز نطق المعبد المذكور: بعلبك ، ومعلبك ، ومعلمك !! ومن هنا استماع (جورجى زيدان) فى مبحث لغوى ، أن يستنتج: أن كلمة مكة من (مك) وتعنى بيت الله فى اللسان القديم ، وقد نؤيده إلى حد ما ، باعتبار ما نعلمه عن أقرب اللغات السامية إلى الفرع الشمالى العدناني ، هو اللسان الكنعاني ، صاحب الكلمة (بك) ، مع أخذنا بالحسبان ما جاء فى القرآن الكريم عن مكة أنها أيضا بكة ، فى قوله تعالى: «ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا» .

ولما كانت الكلمة: إى ، أو بيت ، أوبك ، أومك ، تعنى بالتحديد والدقة مقراً ، أو محتوى ، أو مسكناً ، أو ملكاً (من الامتلاك) ، فهما من ذلك أن أى مكان أرضى هو ملك للإله المحلى له ، لكن على المستوى الأعظم الذى يليق بجلال أعظم الآلهة وسيد الكون (آن) ، فإن كل البيوت أو الأمكنة هى بيت وملك ومحل لسكنى الاله الذى تحيط بسماواته كل الأمكنة ، (آن) سيد الآلهة ، وعليه فالكلمة (مك) إنما هى التى أصبحت بعد ذلك تفصيلاً (ملكاً) ، بإضافة اللام فى العربية الشمالية ، وأصبحت جميع الأماكن هى ملكاً للاله (آن) ، فالأرض له ومن عليها ، وجميع الـ (مك) للاله (آن) أو ملك آن ، فالمكان اذن أيضاً كله لـ (آن) وملكه الدائم .

وهكذا نكتشف أن المكان بدوره كالزمان ، ينسب للإله الأعظم ، رب السماوات ورب الزمان ورب المكان ، (آن) .

من (آن) إلى (فعلان)

ولو أخذنا بما جاء عند فلاسفة الاستمولوجى Apstomology (نظرية المعرفة) ، وبما عند المناطقة الوضعيين Logical Positivism ، وطبقناه على ما بين أيدينا الآن ، لاكتشفنا أن التفعيلة كنوع من التصريف للفعل ، هى مرحلة أرقى وأكثر تطوراً فى الفكر البشرى من الفعل ذاته ، فقد جاء الفعل أولاً ، ثم وبعد مرور سنين طوال اكتشفت التفعيلة ، بعد الفعل بالحركة ، واكتشاف مفهوم الزمان ، مرحلة أكثر رقياً ، لأنه يرتبط بدوره بخبرة الإنسان بالحركة ، فلو قلنا

قيم نستخدم الزمن! فالاجابة هي أنه معيار ومقياس للحركة فالأرض تدور (تتحرك) حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع، وأنا أتحرك من منزلى إلى عملى، فأستغرق ساعة... الخ، فالزمان مقياس للحركة، وما كان ممكناً أن ينشأ هذا المفهوم عن الزمان، لولا الخبرة الواقعية الحسية أولاً بالحركة، وباعتبار السماء مصدراً لديمومة الحركة، فى نظر الإنسان القديم (مثل حركة الشمس والقمر والكواكب والسحب... الخ)، فقد ربطها الإنسان دائماً بكل ما يحدث من حركات، حتى الحركات الإنسانية، بل ربطها بالزمان المستقبلى فقرأ مستقبله وحركاته المقبلة من خلال عملية تفسير لما يريده (آن) بتحريك كواكبه ونجومه، فيما يسمى علم التنجيم، ثم ربط ذلك كله بديمومة وجود السماء وسكون الغطاء السماوى الأزرق، فنتج لديه مفهوم الاله الساكن الأبدى المستمر، بوصفه زماناً لا ينقطع، لكنه يؤثر فى جميع الحركات، بل هو المحرك الأول الدائم، عبر تأثير جنوده من النجوم على الحركات الأرضية، ومن ثم اعتبر القدماء أن النجوم هي جنود للاله، أصبحت مع التطور ملائكة له، تقوم نيابة عنه فعل الحركة بينما يظل هو ساكناً، يحرك ولا يتحرك، يغير ولا يتغير، لكنه مستمر الفعل أو فعلاً.

فى اللغة العربية، كفرع من اللغات السامية، ترك (آن) أثره كحفرية دائمة الحضور فى التفعيلة (فعلان)، كحفريات كائنات الطبيعة التى نجدتها فى الصخور، فبدلنا وجودها بأعتبرها أثراً من الماضى، على هوية هذا الماضى. ويسمى العلم الذى يهتم بحفريات الطبيعة (جيولوجيا)، بينما العلم الذى يهتم بآثار الإنسان وما تركه من تراث وحضارة (علم الاركيولوجى)، أما الأسلوب الذى نتبعه الآن فى بحثنا القصير هذا، فهو ما يدخل تحت ما يسمى علم أركيولوجيا اللغة، فى اطار من علم (الميثولوجى) أو دراسة الاساطير.

ولو تناولنا بعض الكلمات فى لغتنا لنتعامل معها أركيولوجيا، وفق ما عرفناه، عن (آن)، سنجد عدداً من الأمثلة التى لا يحصيها الحصر، فحرف الميم (م)، عندما نبحت جذوره اللغوية، نجده يدل على الضم والزم واللم والتلاحق والاحساس الشديد بالشئ، وعادة ما يكون مشدداً (م) كما فى (ضم)، (هم) أى استعدت أحاسيسه لتحريكه لأمر شديد القرب لدرجة التلاصق، و(شم) دلالة الاحساس الشديد بالشئ، و(جم) للدلالة على الكثرة المتلاصقة المضمومة لبعضها، و(عم) بمعنى اشتمل وغطى.. الخ.

والميم أصلاً حرف يعود إلى علاقة قديمة، بعبادة قديمة، هي عبادة الأم الأولى أو الأم الكبرى، المتميزة بالحنو الشديد، وبأنها مصدر للأمن والأمان لعبادها وقد حظيت فى مختلف اللغات السامية بأسماء مثل: ماما ومامى mami وأماً Ama وماه Mah، وهى كلها معبودات

أنثوية قديمة . تشتمل ميم الأمومة في أسمائها، وفي أسماء المعبودات من أمهات الآلهة في الأسر الثالوثية المعبودة، نجد (م) الأمومة والضم والحنو أساساً في تركيب أسماء هذه الإلهات، التي تدخل معها كضلع في أسرة ثالوثية، تتركب من أب وأم وابن، (فأفروديت) الرومانية كانت (مارى) Mari، وفي سوريا القديمة كانت الأم والزوجة الإلهية هي (ميرها) Myrha، وفي اليونان كانت (مايا) Maia، وفي الهند أيضاً مايا، وفي المسيحية مريم أو ماري Maria وmeriam .. الخ، وباعتبار حرف الـ (م)، أصلاً صوتياً، يعطى معنى الضم والحنو، والأمومة، لو طبقنا عليه التفعيلة من (أم) يصبح (أماناً)، والكلمة (أمان) تتركب من ملصقين: (أم) التي تعنى الأمومة، إضافة إلى (آن) فيصبح الأمان أمراً مستمراً دائماً، يعود أصلاً إلى أمن الوجود في دفء حنان الأم، أو الآلهة الأم.

والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هو في علم الأنساب من الفرع العدناني، وليس من الفرع القحطاني، و(عدنان) هي (عدن + آن)، وعدن لم تزل علماً حتى اليوم على مدينة في جنوب الجزيرة، ولو تتبعنا الهجرات القديمة في جزيرة العرب، نجد القبائل العدنانية، قد هاجرت فعلاً بعد دمار مأرب وانهيار اليمن السعيد، من الجنوب اليمنى إلى الشمال، لتستقر في أرض الحجاز، بينما ظلت بعض القبائل في اليمن بعد أن أصابها القحط ليصبحوا (قحطانيين)، من (قحطان)، علماً أن (عدن) أو (أدن) كان علماً على إله الخصب والمطر في كثير من المناطق السامية، وكان لقباً لأرب الخصب (بعل)، وإليه تنسب الكلمة (جنات عدن)، لأن كلمة (جن) كانت تعنى وحدة قياس للأرض، تعادل بمقاييس اليوم ثمانية عشر ذراعاً، وهي في اللسان اليمنى القديم (جنان) لأن أداة التعريف لديهم كانت حرف النون (ن) تلحق بآخر الكلمة، كما في اسم أحد كبار معبوداتهم القديمة إله الرحمة أو (رحمن)، و(جن) تجمع في اللسان العدناني الشمالي (جنات).

وباعتبار الأرض الخصبة ملكاً لإله الخصب عدن، فتصبح (جنات عدن) و(عدن) بدورها كلمة تتركب من ملصقين هما (عاد + آن)، لأن الإله عدن في أسطوره، كان إلهاً للخير والخصب، تعرض للقتل والموت كما تموت الطبيعة الخصبة في الشتاء، لكنه يعود من الموت حياً في فصل الربيع دوماً، فتعود بعودته الخصوبة والنماء، وهي قصة متواترة في ديانات الخصب الثلاثية، ويعد الاحتفال بعيد قيامة مجيد لآلهة الخصب عيداً كبير الانتشار في المنطقة، حيث كل مجموعة تؤمن بالله للخصب تقيم له احتفال العودة من الموت سنوياً، في فصل الربيع بالذات، ومن هؤلاء (عدن) أو (يسوع) المسيحية، ويصبح معنى (عدن) الإله (عاد - آن) العائد من عالم الموتى.

ولا يغيب عن الفطن ربط (عدنان) باليمن السعيدة المكتظة بالخير، والتي حازت على هذا اللقب نتيجة سعدھا فی سالف الأزمان، بخضرتها ووفرتها وخضبھا، نتيجة وجود الإله (عدن) أو (أدن) فی العبادات القديمة، ولتلاحظ أن (اليمن) بضم الياء، یعنی أيضاً السعد وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه: أنا رجل يمان، بمعنى أنه رجل سعد، بل وقال الحديث:

«إن الدين أيضاً يمان، والحكمة يمانية».

قصة الخلق بين ثقافة الصحراء وثقافة النهر

تأسيس

معلوم، أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير، تقاسمت الأرض حالتان طبيعتان، الأولى: يمكن تمييزها في تجمع شرايين المياه في أنهار، بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية. والثانية: وضحت في تصحر مطرد أدى إلى خفوت نبض الحياة تدريجياً، بحيث تنأثرت الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة، ومع ذلك التصحر المتزايد، وجدت الجماعة المشاعية الأولى- ذات النظام الأمومي- نفسها، إزاء متغير طبيعي شحيح بمطالب الحياة والمنافع، ونرى أن ذلك قد أدى بالضرورة إلى تفكيك بنيه ذلك المشاع، تبعاً للتفكيك الذي حدث في الطبيعة. بحيث أنهى إلى وحدات اجتماعية أصغر، وأكثر قدرة على الاستمرار والديمومة، حيث كان التجمع الكبير يعنى الهلاك جوعاً، والصراع على خيرات الطبيعة الضئيلة، وهو الصراع الذي- لا شك- حدث، وأدى إلى ذلك التفكيك، ثم الانتشار المتباعد للأشكال القبلية الأولى.

وعليه، فقد وجد الإنسان نفسه في البيئة المتصحرة، أمام خيارين: إما الموت جوعاً، أو تدجين الحيوان، ومن هنا حتم الظرف على البدوى الاعتماد على الحيوان ومنتجاته في معاشه، إعتقاداً شبه كامل، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه، ويلبس من نسيج صوفه، ومن ذات النسيج كان يبني خيامه.

والدرة خيرات الطبيعة الأخرى، فقد أدى ذلك المتغير إلى تغير مماثل في تطور البناء المجتمعي، فقد أصبحت الجماعة ترتبط برابطة الدم، وبفلس القوة ترتبط بحيواناتها وهي معتمد حياتها. وربما كان ذلك هو جذر الطوطمية، الذي عبر عن قرابة مماثلة- وبالدم أيضاً- بين الحيوان والجماعة، كما كانت الجماعة بحاجة ماسة إلى تنظيم يضمن للجماعة بشراً وحيوانات الأمان من النفوق أو الشرود أو التيه، ومع سعى هذه الجماعة المتجانسة وراء الكلاً، وما يحتاجه من قدرات عضلية لا تتوفر إلا للذكور، انهار وضع المرأة! وتحولت الجماعة إلى الشكل الذكوري، خصوصاً بعد أن امتلك الذكور أساساً انتاجياً متيناً تمثل في القدرة على السيطرة على الحيوان وترويضه، في وسط صحراوي يعتمد القوة الغشوم، وساعد على تثبيت مركز الذكور، ذلك الصراع الذي- لا بد قد- شب حول مواضع الكلاً بين الجماعات

(٥) نشر في ديسمبر ١٩٩٠، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

وبعضها، واحتاج قدرات قتالية، وهو صراع طبيعي تماماً فى ضوء اعتماد تلك الجماعات على المعطى الطبيعى الشحيح وحده. بينما فقدت المرأة قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة، بحيث اقتصررت وظيفتها على إنباب مزيد من الذكور. أما الإناث فكانت أفرأها تضيف على الجماعة عبداً، حدثنا التاريخ القريب عن حل إشكاليتها بأدأها. وحتى تضمن الجماعة المتبدية تماسكها، ذاب الفرد فى القبيلة وذابت القبيلة كلها فى الفرد، وأصبح الفرد يمثل القبيلة بكاملها فى كل تصرفاته، وبحيث أصبحت القبيلة كلها مسؤولة عن أعماله، كما أصبحت مطالبة بجميعها بالالتزام بتصرفه، والثأر له إن أصابه مكروه، وذاب الكل فى واحد، هو طوطم القبيلة وسيدأ وسلفها، الذى أصبح محل التبجيل والتقدیس، وتحول إلى رمز عزة قومية وجنسية ودينية، وكان كل فرد فى القبيلة يمثل هذا السلف، أو هودون مبالغة ذلك الطوطم الموحّد والموحّد.

وفى شكل من الديمقرأطية البدائية، التى تضمن بدورها مشاركة الكل وذوبان الكل، كان مجلس القبيلة هو الذى يحدد شيخها وقائدها، بصفات محددة، وترتبط بظروف آية. فقد يحتاج الظرف للحكمة مرة، وللجسارة والإقدام حيناً آخر، بمعنى أن الظرف كان هو الذى يحدد مؤهلات الزعيم المطلوب، وحسب الحاجة، كما يحدد أيضاً ظروف عزله وتعيين البديل الجديد المناسب. لكن من جانب آخر، تدنت مستويات الإنتاج إلى حد كاد يكون اعتماداً شبه كامل على الطبيعة، ولأن علاقة الإنسان بالطبيعة هى علاقة عمل يؤدى إلى إنتاج اجتماعى، فإن الجماعة البدوية ظلت بعيدة عن هذا المعنى الاصطلاحى، وظلت كائناتاً طبيعياً فى حصولها على الخيرات بالسعى الدائب وراء الكلاء، والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى. أو ما تمثل واضحا فى تطفلها المستديم على منتوج العمل فى المناطق الخصبة، والاستيلاء عليه والفرار فى غزوات لم تنقطع، سجلتها لنا نصوص الحضارات القديمة، التى استقرت على الجانب الآخر من الفرز الطبيعى، أقصد فى وديان الأنهار، التى طورت قاعدة إنتاجية، تبعثها نقلات ضرورية على المستوى الاجتماعى.

وعلى مستوى العقائد، فإن الطبيعة المتصحرة الضئيلة بأشكال الحياة وألوانها. تلك الأشكال والألوان التى تتعدد تعدداً هائلاً فى مناطق الخصب النهري. جعلت الإنسان فى بداوته أحدى النظرة، وأحدى الاعتقاد والنظام، فهو كما قلنا واحد فى كل، يتميز بذاة الوحدة مع سلفة الواحد، الذى عادة ما تمثله فى أهم حيواناته النافعة، لذلك غالباً ما قدس أنواع الشياء، بالذات، لذلك كان ذلك السلف المقدس هوربه الواحد الأرحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن - حيث لا وطن مع الانتقال الرعوى - والملاذ ومصدر العزة وموحد الكيان، ولا يوجد رب يمكن أن يدين بالطاعة له سواه، لأنه إنما

يمثل مصالح جماعته ووطنها الذى ينتقل معها أينما حلت أو ارتحلت (وهو البعد الذى نجده بعد ذلك فى العقائد الإسرائيلية المبكرة، التى كانت لا تنكر الأرياب الأخرى، لكن لا تراها فى مرتبة رب إسرائيل). ومن هنا لم يسمح الظرف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة، فظلت فى شتاتها، مع استمرار الإله الوطنى والاعتزاز بالنسب إليه بحساباته السلف الواحد اللامتعدد، ولا يمكن أن يتعدد، لذلك كان هو المعبود الواحد الذى يضمن لقبيلته تماسكها للزج وانصهارها وأمنها، لكنه من جانب آخر شكل أد لوجة واحدة للجميع، لم تسمح - لأزمان طويلة بعد ذلك - بظهور ثنائية طبقية تسمح بمزيد من التطور ودعم ذلك الوضع، الظرف ذاته الذى فرض استمرار الديمقراطية الابتدائية ومجلس القبيلة، والرعيم الظرفى الذى لم تثبت سيادته مدة زمنية تسمح بامتلاكه قدراً يودى إلى ظهور تشكيلة طبقية.

هذا بينما على الجانب الآخر، وفى مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار فى مجاريها بشكل نهائى، قد استغرق زمناً غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحال ما قل انحسار الجليد الأخير، من حيث انتشار الأحراش والمستنقعات مما فرض بالتالى استمرار الوضع الابتدائى للمشاع زمناً أطول، ضمن استمراراً موازياً لوضع المرأة المتميز فى النظام الأمومى، بسبب امتلاكها أساساً اقتصادياً دعم ذلك الوضع (سنأتى على شرحه الآن)، واستمر ذلك النظام فترة زمنية توازت مع المرحلة التى تغيرت فيها نظم المجتمع، الذى تحول للبدوة فى مناطق للتصحّر، وانتهت بالسيادة الذكورية، بينما كانت مناطق الخصب لم تستمتع بعد باستقرار الطبيعة النهرية تماماً. ولتوضيح ذلك سنحتاج إلى وقفات تفصيلية - حسب المساحة المتاحة - لأبد منها، وهى وقفات تلجج لزوماً عن رؤيتنا، والتى تمثلت فى اقتراح يحل أو يحاول حل - مسألة أيهما كان أولاً: النظام الأمومى أم النظام الأبوى؟ فبينما كان (داروين) قد افترض - بالمقارنة مع عالم الحيوان - أن السيادة المطلقة كانت ذكورية لا شك فيها منذ البداية، أكمل (آتكسون) فقال: إنه حدث أن ثار الأبناء على الأب المتسلط القاسى المتوحش وقتلوه وأفترسوه سوية واستكمل (روبرتسون سميث) البحث ليؤكد أنه قد مرت بعد ذلك فترة انتقالية ظهر فيها النظام الأمومى، وانتهى (فرويد) بعد البناء على ما سبق، إلى أن الأوضاع قد عادت إلى سابق عهدها وساد الذكر. بينما كان يقف على الجانب الآخر اقتراح يحمل أدلة ربما كانت أقوى - كما عند (إنجلز) مثلاً - يؤكد أن البداية كانت نظاماً أمومياً لا شك فيه.

وكان اقتراحى هو رفض السؤال: أيهما كان أولاً؟ من أساسه، بحساباته الخطأ الذى أدى إلى تضارب الاجتهادات، وزعمت أنه لم يكن هناك قبل ولا بعد، ولا سابق ولا لاحق، حيث قد انتهى الظرف البينى إلى تميز مجتمعين عن بعضهما رغم تزامنهما،

هما مجتمع البداوة ومجتمع النهر، أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمانيا، وهو الزعم الذى أضحي بحاجة إلى تأييد، وهو تأييد كما قلنا بحاجة إلى بعض التفصيل الوجيز.

سيادة الأنثى

لنقر مبدئيا أنه من غير المنطقي أن يوجد مجتمع كل آلهته إناث، ويسوده بشر ذكور، أو العكس. ولنقرأ بعد ذلك الترتيلة السومرية التى تقول: «عندما تزوجت الإلهات الأم.. وعندما توزعت الإلهات الأم بين السماء والأرض.. وعندما ولدت الإلهات الأم.. عند ذلك كتب العمل.. الإلهات العظام يراقبن العمل، والأبناء يحملون السلال» (انظر مثلا: فوزى رشيد، خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، آفاق عربية، آيار ١٩٨١) - ولنلاحظ أن البيئة السومرية فى جنوب وادى الرافدين، لم تكن قد تحددت فيها معالم نهري دجلة والفرات تحديدا واضحا، ولم تزل، وحتى الآن تختلطان فى الدلتا وتنتشر بيتهما الأهوار والأحراش والمستنقعات شبه الغابية.

حقيقة أنى أرى فى تلك الترتيلة حفرة رائعة، نقش فيها ما حدث فى حقب الحياة القديمة، فالإلهات هنا هن الإلهات الأم، اللاتى توزعن بعد ذلك بين الأرض والسماء، ومن الجدير بالذكر أن أول تمثيل للأم الأولى الكبرى كان فى تربة الأرض الخصبة، ومع نقلات تطورية استغرقت زمنا، تم تمثيلها - إلى جوار الأرض - فى كوكب الزهرة المتلالي ذى الحسن والدلال، وهو ما تشير إليه الترتيلة بوضوح. ولك أن تلاحظ أن قدسية الإلهات الأم قد ارتبطت بـ «عندما ولدت»، ولنتذكر أهمية (ولدت تلك فسنعود إليها)، بينما أصبحت مهمة الأبناء، وهم جمع الذكور، العمل، لتتفرغ الأم الإلهة لإدارة شئون العشيرة. ومن ثم لم يكن غريبا أن ينادى السومرون تلك الإلهة بالدعاء: ماما mama ومامى MAMI، أماء AMA (انظر حول تلك التسميات جان بوتيرو: الديانة عند البابليين. ١٩٧٠. ص. ١١).

وتلخص لنا الأنثروبولوجية جيكيثا هوكس JAQUETTA HAWKES الاتجاهات البحثية بصدد تأليه الأم الأنثى الأونى، فتقول: إن أقدم تماثيل شكلها الإنسان للعبادة، تمثل إناثا ضخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيا، أطلقت عليها هوكس اسم تماثيل إفروديت الولادة، وتبع ذلك عصر اتضحت فيه بعض رسوم تتسم بالذكورة، تلاها عودة كامحة إلى الإلهات الإناث، وذلك مع اكتشاف الزراعة فى العصر الحجري الحديث، ويعود تاريخ التماثيل الولادة إلى حوالى خمسة عشر ألف عام (أى فى العصر الحجري القديم)، ولنا أن

نلاحظ هنا أن الجليد قد تراجع قبل ذلك بألاف عشر أخرى، مما يشير إلى التحولات التي أشرنا لحدوثها فى البيئات المتصحرة على المستويين البيئى والمجتمعى، مع بقاء أوضاع المشاع فى البيئات الخصيبة على حالها، إلى ما يزيد عن عشرة آلاف عام.

وتؤكد هوكس أمرا منطقيا تماما، هو أن النساء هن مكتشفات الزراعة، إبان جمعهن للثمار فى منطقة مستقرة مع أطفالهن، وملاحظتهن - بالصدفة المتكررة - لنمو الثمار المتساقطة على الأرض مرة تلو الأخرى، فى وقت كان فيه الرجال يخرجون للقنص، وعند عودتهن يكون كل الرجال لكل النساء، فينسب الأطفال للأم دون الأب، وقد شكل اكتشافها الزراعة، وإجادتها لهذا العمل رغم بدائيته النسبية، أساسا اقتصاديا ساعد على تثبيت سيادتها (التي حفرتها لنا القرييلة السومرية)، ثم تلى ذلك نهاية العصر الحجري الحديث، أى منذ حوالى خمسة آلاف سنة تقريبا، سيادة الذكور النهائية. ولاحظت هوكس أن ذلك اقترن بنشأة المدن المستقرة الكبيرة (للمزيد إرجع إلى: HAWKES, PRE 357 - 359, P.O. 1963, HISTORY NEWYORK AMERICAN LIBRARY)، أما نحن فقد أجزنا لأنفسنا - وفق ما بيدنا من شواهد - أن نلاحظ أن ذلك الزمن تحديدا، (نهاية العصر الحجري الحديث) كان بداية هبوط الموجات البدوية على المناطق الغخصيبة بالهلال الغخصيب، والتي استمرت نوعا من الهجومات الدورية على الحدود لسلب الغخصول بعد جنبيه، وانتهت باستقرار السيادة البدوية فى المناطق الغخصيبة فى شكل غزو استيطاني كامل، وهى الموجات التى اصطلح على تسميتها بالهجرات السامية، ولعلنا نذكر أن البداوة كانت السلطة المطلقة فيها الذكور.

تدعيم رؤيتنا

تقول ميد MEAD مقولة اعتيادية تماما هى: إن النساء بفضل قدرتهن على الإنجاب، ولأن مسألة الولادة كانت فى عيني الإنسان البدائي مثيرة للدهشة والعجب - وربما الانبهار المؤدى للتقديس - فقد أدى ذلك إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة (انظر: Malé and Famale, New York, Morrow, 1949, pp. 102-103).

ونضيف إلى ميد: أن الولادة فى مجتمع أمومي، يأتى فيه أى ذكر أى أنثى، كانت لا تعطى للذكر فرصة لملاحظة أثره ودوره فى عملية الإنجاب، إضافة إلى الفترة الطويلة الفاصلة بين الحمل والولادة، والتي كان يمكن أن تخفى عن عين البدائي غير المدققة، للعلاقة بين الأمرين، كما أن معيشة الأولاد والبنات سوية حينذاك دون عائق قبل المراهقة،

ومعرفتهم الجماع الذى لا تنتج عنه ولادة، أدى بدوره لعدم الربط بين الجماع والولادة، وعدم إعطاء الذكر دوراً فى عملية الميلاد. بل أن هناك من يعتقدون اليوم- فى بعض المجتمعات المتخلفة- أنه يمكن للمرأة أن تحمل دون رجل يأتبها، بل وتدخل تلك الفكرة ضمن معتقدات كبرى، لذلك كان طبيعياً أن يتصور الإنسان فى المبدأ أن الأنثى وحدها هى الكائن المسئول عن منح الحياة، والقادر الوحيد على ذلك، بحيث أصبح إعطاء الوجود حياة جديدة اختصاصاً أنثوياً بحتاً، وقد دعم تلك الرؤية اكتشاف الأنثى للزراعة، حيث كانت الزراعة إنجاباً للحياة وامتلاكاً لأسرارها، لذلك لم يكن غريباً أن تكون أول التماثيل المعبودة لإلهات إناث ولادات.

وإعمالاً لذلك نرى أنه قد تبع اكتشاف الزراعة، استقرار دائم انتظاراً للنضج المحصول (وهو يشابه انتظار نضج الجنين)، وتبعه بالضرورة دعم لوضع المرأة السيادة، لكن ذلك الأساس الإنتاجى ذاته استبطن فى داخله الانهيار المقبل لوضع المرأة، والمتغير الآتى الذى فرضه التوسع فى قطع الغابات مع التحقيل وإحلال الزرع محلها، وما يحتاجه مثل ذلك العمل الجبار من قوى عضلية، وما يحتاجه من حيوانات قوية مدجنة لجبر الأشجار المقطوعة، وللعمل فى حرارة الحقل وحمل المحصول، وهو ما اقترن بالضرورة بسيادة تدرجية للذكور أدت إلى تبادل المواقع السيادية، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى سجل لنا فيه التاريخ أن الجموع المتبدية ذات النظام الذكوى، قد هبطت بقطعان مواشيتها القوية إلى أراضى الخصب، فمياً يعرف بالهجرات السامية.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا، هى أنه بعد هبوط الهجرات السامية على الهلال الخصيب (وهو نمونجنا هنا)، وما تلا ذلك من قيام الدول المركزية (وهو ما سنأتى على شرحه)، نجد استمرار تواجد الإلهات الإناث فى حضارات الشرق الأدنى القديم، إلى جوار آلهة الدولة الحاكمة الذكور، ثم أن التماثيل التى تركتها لنا فنون تلك الحضارات تصور لنا الإلهة الأنثى تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة، أو تصور على ثوبها سنابل الحنطة، هذا بالتبادل مع النخلة فى رسوم أخرى وإن كانت أقل انتشاراً، وهو ما يشير بوضوح إلى ارتباط الأنثى بالزرع، وبالحنطة تحديداً (أول الزراعات المدجنة)، ولو أخذنا بالحسبان أنه بمرور الوقت، ومع النظام الاجتماعى الذكوى، ومع الاستقرار، بدأ الذكر يلاحظ دوره فى عملية الإنجاب، كما لاحظ التشابه الواضح بين حبة الحنطة المفلوقة وبين فرج الأنثى المفلوق، وأن كلا الفرجين ينفلق عن ميلاد وحياة جديدة بعد رى الحبة بالماء ورى الفرج بمعنى الذكر، فربط بين المنى والماء واعتبر المنى ماء الحياة المذكر (أوزيريس النيل فى مصر، بل المطر فى الشام، أبسو وأنكى إلهى الماء فى الرافدين.. الخ)

كما ربط بين الحنطة والمرأة، ناهيك عن رصيدها في اكتشاف تدجين الحنطة تحديداً، والتي تحمل التشابه مع الفرج الأنثوي، هذا مع ما حملته التشابه مع نواة التمر الذي انتهى بتقديس التمر بدوره، وبحيث حملت النخلة قدسية المرأة وأصبحت رمزاً دالاً عليها في العبادات وفي الحوارات الجنسية، واحتسب التمر دواء شافياً يحمل كثيراً من البركات حتى اليوم، خصوصاً إذا خلط باللبن (وهو رمز المنى الذكرى ١٢) ولا ننسى أن مريم أتاها المخاض عند جذع النخلة والتفاعل معها بهزها.

أما الكلمة (تمر) فالواضح لدينا أنها الأصل والجذر في الكلمة الدالة على الزرع على وجه التعميم، أقصد كلمة (تمر). وتأسيساً على تلك التجربة والملاحظات، بنى الإنسان تصوراتته عن التكوين والوجود، فربط التكوين بدم الحيض الشهري، بعد أن لاحظ غياب الدم مع بدء الحمل المؤدى في النهاية إلى ظهور الحياة في المولود، فربط الدم بالحياة، وتصور أن ذلك الدم المنجس داخل الرحم هو الذى يكون الوليد المقبل، وقد ربط ذلك بملاحظة أخرى هي الموت المحتوم الذى يصيب الإنسان المجرّوح عندما ينزف دمه، ذلك الدم الذى أصبح على وجه العموم سر التكوين وسر الحياة، وبقي فى الذكرى، حتى فى مجتمع السادة الذكور، بحسبانه منحة الأنثى الإلهة الأولى.

هذا وقد لاحظ بعض الباحثين (مثل فرويد) ارتباط الأنثى بالقمر، والذى كان عادة ينقش إلى جوارها فى حالة الهلال، فاحتسبوا أن الإنسان القديم رمز للأنثى بالقمر، وأن القمر هو الإله المؤنث، لكننا ذهبنا إلى اتجاه معاكس تماماً، فقد افترضنا أن هذا الاقتران بين الأنثى والقمر إنما نتج عن تناغم إيقاعات الدورة الشهرية للمرأة مع التبدلات التى تطرأ على وجه القمر خلال الشهر القمري، الذى يضبط إلى حد مدهش مع الإحدى وعشرين يوماً للدورة الحيضية، وأن غيابة يترافق مع نزول دم الحيض، ويربط تلك الظاهرة بظاهرة نزول دم البكارة عند أول جماع للفتاة البكر، انتهى بتصور أن القمر هو الزوج الحقيقى أو الغائب للمرأة، بخاصة مع حدوث حالات حمل مع غياب الذكر فترة طويلة للصيد أو فى ظروف طارئة، والقمر قد اقتدرن من جانب آخر بحيوانات الرعى عموماً (الشيأة)، لشبه الهلال بقرنى الخروف أو الثور، وهى الحيوانات التى شكلت الأساس الاقتصادى الذى أدى إلى امتلاك الذكور قاعدة إنتاجية دعمت وضعهم السيادة، والذين مالوا عموماً منذ البداوة إلى الترميز للهلال بالخروف، والذى عادة ما رمز بدوره للسلف الأب الذى فى السماء.

وتأسيساً على ذلك احتسبت أولى نظريات التكوين أن بداية الخلق جميعاً من الأنثى الولادة، التى، تمثلت فى قوة أنثوية تلد كل شيء من الزرع إلى البشر، وأمجت كقوة خلق

كبرى فى جميع الإناث بشراً وحيوانات وأرضا ولوداً، وتمثلت المادة الأولى للتكوين فى دم الأنثى تحديداً.

ومن الطريف أنه بالقرب من موطنى: مدينة (الواسطى) وعلى الطريق إلى (الفيوم)، ظهرت كرامة زراعية رائعة الدلالة، تشير إلى بقاء المأثور القديم فى الوجدان الشعبى بقوة. فمئذ زمن غير بعيد (حوالى ٧ سنوات) انتشرت أسطورة تقول أن رجلاً أراد قطع شجرة الجميز القابعة على الطريق الرئيسى، ومع أول ضربة بالفأس (وهو رمز تكرر دائماً لأنه يشق رحم الأرض) صرخت الشجرة ونزفت مكان العنصرية دم غزير، وفى تلك اللحظة تحديداً، وكانت فى الثالث الأول من الليل، وعندما سمع أهل القرية جميعاً دوى الصرخة الملعاعة، نزفت كل امرأة كانت فى حالة جماع مع زوجها، ومن ثم اختار الأهلون للشجرة اسماً لا جدال فى دلالته، وهو (الشيخة خضرة)؟! ووضعوا بجوارها صندوقاً كتب عليه: تبرعوا لبناء مسجد الشيخة خضرة؟!، والغريب أنك عندما تقترب من الشجرة - التى أخذت المثانة تتعالى من خلفها - لتطالع المادة الصمغية التى جفت قطراتها على الساق المقطوع، ستجد أهل القرية قد علقوا على الفروع أشربة من نسيج أخضر، وعلقوا على الجذع قرنى خروف؟!، أما الهلال السيادة فقد تم الاهتمام بوضعه فوق المثانة، حتى قبل إتمام بقية المسجد.

الأنثى والأرض

ويمكننا أن نرى ارتباط الأنثى بالولود بالأرض، متمثلاً بروعة أخاذه فى أسطورة سومرية تحمل اسم (أسطورة الشعير والنعجة)، ولنلاحظ بداية الشعير (وهو الحنطة رمز الخصوبة الأرضية، وأول ما دجنت المرأة من زرع، كما أن النعجة هى رمز الأنثى الأشهر)، وتتلخص الأسطورة فى القول: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والحشيش وكل صنوف الحياة.

ويمكنك أن تجد ذات الفهم فى أسطورة سومرية أخرى تحمل عنوان (هبوط إينانا إلى العالم السفلى)، وقد وضعت - فيما يبدو - لتفسير ظاهرة التناوب الفصلى بين الخصب والجذب، كما تلخص المفاهيم الأولى عن الوجود والتكوين، ونقول: إن إلهة كوكب الزهرة إينانا، كانت تهبط إلى باطن الأرض دورياً كل عام حيث عالم الموتى، وتتضح اختياريته تتم وقت الاعتدال الخريفى، حيث يبدأ فصل الجذب على سطح الأرض بغيابها، وهى الأنثى الأم الولادة مانحة الحياة، ثم تعود مع الاعتدال الربيعى إلى سطح الأرض ومع عودتها تخصب الأرض وتفتح الأزاهير، لأن عودتها تعنى بدأ عملية الأخصاب والتوالد، فيعود الخروف إلى

شاته، والفر إلى أنثاه، والزوج الغاضب إلى بيته، أو كما قالت!! لذلك لم يكن غريبا - مع طرحنا - أن يتم تعديل تلك الأسطورة السومرية الزراعية، بعد سيطرة الأكاديين على بلاد سومر وقيام دولتهم المركزية، وهم من أصل رعوى بدوى خيموى، ليتحول اسم إيدانا إلى عشتار وعشتروت من العشرة والمعاشرة والتعشير، لكنها لا تصبح السيدة المطلقة المسئولة عن الخصب، إنما يظهر هنا سيد جديد كان فى الأساطير السومرية مجرد ذكر خامل الذكر، ضمن مجموعة عشاقها العديدين، (ترميزا لزمن الأنثى فى المشاع)، ليرتفع ذلك الذكر وتعلو مكانته ويصبح هو المسئول عن الخصب ومنح الحياة واستمرار الحياة، وهو المعروف فى الأساطير السامية الرافدية باسم (تموز راعى الخراف الطيب)، ويصبح هو رمز النبات الذى يموت فى فصل الجذب وينزل إلى العالم السفلى، ويعود مع بداية الربيع، دون أى ارتباط بواقع الغصب اللهم إلا الارتباط بمنطق السيادة التى حققها الذكور الأكاديون، منطق نظام اجتماعى يأخذ بالسيادة الأبوية فى نظمه الاجتماعية (وهناك أمثلة عديدة يمكن للقارئ الرجوع إليها فى أعمالنا المنشورة)^(١).

ورغم الواضح فى المأثور الحضارى فى المنطقة عن تراجع سيادة الأنثى، فيبدو أنها ظلت ذات وضع سيادى فى عالم الاعتقاد، ومعلوم أن بقاء المعرفى المتمازج من القديم مع جينات الجديد، يظل فترة أطول من تغير الواقع المادى الأسرع فى التغيير، وقد أبقي ذلك لنا ثروة طيبة، وجدنا فيها طقسا مثيرا كان يمارس فى المناسبات الدينية الاحتفالية بالإلهات الإناث، فى المراكز الحضارية الكبرى فى الشرق القديم، والطقس عبارة عن احتفالية جنسية عمومية هائلة عدداً وعدة، فى أيام محدودة بجوار معبد الإلهة، وكان أشرف الأعمال التى يمكن للأنثى تقديمها هى التضحية بالبكارة فى هيكل الإلهة. ولا أجدنى مخطئا إن احتسبت ذلك الطقس أفضل قربان يمكن تقديمه للإلهة المخصبة الولود الشبقة المنجبة مانحة الحياة، تذكر بالأيام الخوالى أيام كان الرجال للنساء جميعا، والنساء للرجال جميعا، وإذا كان ذلك ممجوجا من قواعدا الأخلاقية اليوم، فإنه كان حينذاك على العكس تماما، بل كان واجبا دينيا خطيرا تقدمه النساء للإلهة كى يفسو الخير وتأتى السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية للأم الكبرى لتبدأ فعلها فى الطبيعة، تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وليس أدل على شرف ذلك العمل الذى يتم من أجل خير المجتمع كله، من تلك اللوحة التى عثر عليها مؤخرا فى طرابلس بليبيا، منقوشة على عمود شرف مرمرى يعلن: أن الشريفة أورليا آماليا قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة،

(١) انظر تفصيلات أوسع لهذا الموضوع فى كتابنا الأسطورة والتراث.

فقد قدمت أمها وجدتها القربان ذاته، وأنه قد تم للهيلة الكهنوتية التأكد من ذلك؟! (انظر فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا ابراهيم، ص ٤٥).

وللحظ استمرار التواجد الأنثوي في العبادة حتى الآن في العقيدة المسيحية، حيث تعتبر مريم أم الإله المسيح من أبية السمارى، وهذه الأم الإلهية تستوجب الاحتفال والتقدیس، لذلك اختصت دون بقية الأقانيم الثلاثة بصيام العذراء، الذى يصوم فيه المسيحيون عن كل ما هو حيوانى، ويقتصرون فيه على الأكل النباتى لتذكير واضح للابس فيه، بالمجتمع الذى زعمناه فى سالف الأزمان، يعيش فى البيئات الخصيبة، ويستغنى عن اللحم فى الغذاء ويعتمد على الوفرة النباتية، وتسوده أم إلهية مقدسة، ولا ننسى التبادل بين كلمتى (نبات) و(بنات).

أما اللغة فكانت كمادتها تحمل دلالات أحفورية حملت الخبرة القديمة وما تأسس عليها من مفاهيم، تعولبت فى ألفاظ تحمل دلالات تلك المفاهيم، فالكلمة قديسة هى فى العبرية قديشا، وكانت فى الأكادية القديمة قاديشتو، وكان أباها للقب الذى تحوزه العشتارية، أى المصطفاه من جموع النساء العاشدة ليلة الحفل النزوى خارج معبد عشتار، لتقوم بدور الإلهة داخل هيكل الإلهة مع الكاهن الأكبر الذى عادة ما كان الملك يقوم بدوره (انظر كمثال فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، بغداد، ص ١٥٨، كذلك بالمرجع السابق ص ٧)، أما التى كان أهلها من النبلاء يقدّمونها طائفة للهيكل، فكانت تحوز لقب الإلهة الأم ناتها وهو (البترول) وهو فى الكنعانية والأكادية والعبرية (بتول، بتولتا، بتولا) ويعطى فى العقائد القديمة (إشارة للإلهة الأنثى غير المتزوجة وغير العفيفة فى آن معا.

الخلق فى الفهم الذكري

لأن المخلوق بالميلاد فى النظام الأموى كان يعتمد مادته الأساسية دم الحيض، فإن سيطرة الذكور النامية بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب، وسيادة النظام الذكري، كان لابد أن تعيد صياغة الأدلوجة بما يتفق والشكل السيادة الجديد، ولأن مفهوم التكوين من الدم بات راسخا، فقد لجأت الأسطورة الذكرية إلى صياغة جديدة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لا يلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر، قاموا بدمج إله يدعى (كيجو)، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان، وهو ما سجلته لنا الملحمة الرافدية (إينوما أيليش) وتعنى (فى العلى عندما).

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطأ آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى (تيامة) إلهة شريرة، أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة الذكرية

(مردوخ) بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد، ثم قام مردوخ بشق نيامة كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم العلوى وجعله سماء، وترك النصف السفلى ليصبح أرضا، وفي تلك التنظيرة نجد اعترافا ضمنيًا بضرورة الأنثى للتكوين، فمن جسد الإلهة الكبرى تم تشكيل الكون سماء وأرضا.

ولأن الجديد استبطن القديم، ولم يكن ممكنا التخلص نهائيا من دور الأنثى فى البناء المعرفى، القائم على فرز مادى تاريخى عريق، فقد حملت الأنثى فى ظل السيادة الذكرية قيمة ثنائية، فهمى فى لغة البداوة السامية (فى العبرية مثلا) حواء، لكن الكلمة حفرت فى تركيبها ومفهومها جذر الحياة، وفى الوقت نفسه حملت الوجه الآخر الجديد فارتبطت حواء بالحياة مصدر الأذى والشر، ولنلحظ الارتباط الجذرى بين: حواء، حياة، حية، حيا أى (فرج) والمرجح فى ربطها بالحياة ملاحظة البشر للحية تنسلخ من جلودها كل عام، فتصوروا أن الحية خالدة تجدد حياتها بهذا الأسلوب كل عام، فربطوها بالأنثى حواء مصدر الحياة المتجددة، ومع ذلك فإن الحية فى المأثور التوراتى الأشهر، وهو قصة وتطور وخلاصة المأثور البدوى الذكرى، ترتبط بالمرأة لكن فى صيغة تبخيسية، فهمى توغز لحواء بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، فيفقد الرجل الخلود بسببها، وتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

أما على مستوى القاعدة الاجتماعية، والشكل السياسى، وارتباطهما بالمنظومة المعرفية، فى ظل السيطرة الذكرية، فقط ارتبط جميعه بخطوات تطويرية سريعة تلاحقت بعد الغزو البدوى السامى للرافدين، فإن المشتركات الأولى ظلت تتمتع ببقايا الديمقراطية البدائية البدوية، وبمجلس القبيلة الذى أصبح مجلس المشترك الذى يختار الزعيم، لكن مع الاستقرار فى البيئة النهرية، والتحول إلى الفلاحة، وما يفرضه النهر من تلاحم القوى البشرية للسيطرة على مجارى المياه الهائلة وتوزيعها، فإن ذلك فرض نوعا من الطوارئ المستمرة، التى أدت إلى استمرار مماثل فى سلطة الزعيم، بحيث انتهى الأمر مع بقاءه ببقاء الطوارئ إلى تسليمه كل ألوية وشارات القبائل المتبدية، ليتحول الشكل السياسى إلى المركزية الصارمة، وإلى توارث الزعامة فى بيت الزعيم الملك، بعد دمج المشتركات الإقليمية فى الدولة المركزية، بعد صراع مزمن بين تلك المشتركات، وهو ذات الأمر الذى حدث فى عالم السماء، حيث تقول ملحمة الإينوما أيليش أن مجمع الآلهة الخمسين (ولاشك أنه يقابل مجلس القبيلة الأرضى، أو مجموعة الاقاليم) قد سلم سلطاته للإله مردوك، وأنهم قد اجتمعوا فى السماء ومنحوه قدرة تغيير كل شىء، وخلق أى شىء، بمجرد النطق بالكلمة، تعبيرًا عن السلطان المطلق الذى أصبح يتمتع به الملك الأرضى، وبعد أن أصبحت كلمته نافذة

لا تقبل الارزاء، حيث تقول الملحمة: «اجتمع الآلهة الخمسون، فى أبشوكينو فرحين، وسلموا مريدوك شاراتهم، وقالوا: من مثلك ملك، مر قطعة القماش المعزقة نلتهم، مرها ثانية تعود سيرتها الأولى» .

لكن الواضح فى كل الأساطير الراقية القديمة، أن تلك القدرة كانت بالقوة لا بالفعل، فهى قدرة مرجأة حيث كان الخلق يتم دوماً بالفعل اليدوى، بل ويظهر فى التوراة التى أقرت الخلق بالكلمة، لكن فى كل مرة كان الرب يصنع مخلوقاته بيديه صنعاً، مما يشير إلى أن الأمر قد تمت صياغته فقط لتبرير إطلاقية الكلمة السيادية على الأرض (راجع الاصحاحات الأولى من سفر التكوين التوراتى) .

المرأة فى المأثور الدينى والأسطورة

حريم وحرام

عندما نعاد الأمر يتحول إلى بدهية، ولا نلتفت إلى تناقضه وهشاشة أسسه، ويمرور الوقت يصبح من أشد الأمور اختلافا بين الناس، بين من يدقق ويرفض منطق الاعتقاد، وبين من اعتاده حتى اعتقد أنه بدهية.

ومن المعتاد - لكنه بالفعل ليس بدهيا - أن هناك متسلطا وهناك مقهورا، وأن للمستغلين مصالح تستدعى تزييف وعى المضطهدين (بفتح الطاء)، ويشهد التاريخ أن أشد الأدوات مضاء بهذا السبيل هى الأدوات الإيمانية، التى تلعب على الوجدان العاطفى للمتدين، ومن ثم نراهم ينفقون بسخاء وذكاء، على وسطانهم المحترفين من كهنة ورجال دين، ينشرونهم فى كل مكان، ييثون الصبر، وينفثون السلوان، مبشرين بجزاء أيوب، يتتبعون أى تحرك واع ضد تزييف وعى الناس، ينقضون على كل رأى أو سلوك أو حتى كلمة أو فكرة، فربما ثقت بالكلمة الجدار السميكة للجهل المنشور، الذى يمنع المضطهد من الوعى بحاله ويضعه فى المجتمع.

ولأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنسانى اللائق بكرامة الإنسان، فإن الظرف الاجتماعى الحالى لا زال يسوغ القسمة الطبقيّة الصارخة بين الناس، طبقات، طوائف، أجناس، دائما هناك الأقوى والأضعف، المقترس والفريسة، القاهر والمقهور.

وربما أبرز نماذج تلك القسمة اللا إنسانية، وتشكل وصمة عار كبرى فى تاريخ البشرية، ذلك الذى حدث منذ استولى الذكر على مقدرات المجتمع البشرى، وأزاح الأنثى من البؤرة إلى الهامش، ليصوغ مجتمعا ذكوريا أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجنس الواحد، ففرق بين طرفى حياة لا تكتمل الحياة دون التقائهما جنسا وجسدا وروحا وتكاملا إنسانيا.

والتاريخ يؤكد أن الشرق كان هو المؤسس لذلك التقسيم العنصرى الطبقي فى آن معا، ولم يزل، ومن يومها تتعزى المرأة الشرقية بالصبر والسلوان الفقهي، وتبلمس جراحها بخطابات مدبرية، تؤكد لها أنها فى مكان التكريم بين نساء العالمين، تتعزى صبرا فى عالم الأرض، وصبرا فى عالم السماوات، فى الدنيا وفى الآخرة. وإن أحسنت أيمانها وأحصنت فرجها

(*) محاضرة ألقاها الباحثة بدعوة من اتحاد النساء التقدمى بمقر حزب التجمع فى ٢٢/١٢/١٩٩٣، ونشرتها مجلة أدب ونقد.

وأمتعت زوجها وسيدها، دخلت يوم الدينونة ضمن حريم السيد المؤمن الذكر فى جنة رضوان، ذلك الحريم الذى تبدأ أعداده من السبعين لتصل إلى الملايين فى بعض الأحاديث المنسوبة للنبى .

وإيمانها الذى سيعطيها تلك المنحة الخالدة لا يحسن إلا بالطاعة الكاملة للرجل والخضوع له والتسليم الكامل لسيادته الغشوم فى دنيانا الفانية، حتى تضمن لها مكانا كغانية ضمن حريمة فى الآخرة أيضا .

والدارس للمرأة فى منظومة المأثور العربى، يجد ذلك المأثور يميز جنسيا وخلقيا بين الذكر والأنثى، فهو المخلوق الأول، وهى الثانى، بل هى منه قطعة، هو المخلوق لذاته، وهى المخلوقة له ومن أجله، ويلاحظ أن ذلك الاختلاف العضوى بين الذكر والأنثى، قد تحول فى مأثورنا من تكامل ضرورى لصنع الحياة، إلى امتياز خاص للرجل، مأثورنا يعيد وضع المرأة إلى زمن حواء الأسطورى، زمن الخطيئة الأولى، ويمركز الشر كله حولها، فهى شيطان غواية لأنها رفيقة إيليس (!) المرأة لا تتحكم بشهواتها، ولا تكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، ويتأصل سوء الظن بها فى لا وعى الجماعة على أسس من الإيمان لأنها هى التى أغوت آدم، حتى قصص الأنبياء تخبرنا أن نساء الأنبياء قد وقعت فى الخطيئة.. إمراة لوط، إمراة نوح، فى التوراة سارة إمراة إبراهيم، هاروت وماروت أغوتها إمراة! ولدا آدم تقاتلا على إمراة، فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعى أن تخون فهى أحد أربعة لا أمان لها (مع المال والسلطان والذهب) فى الحديث (ولو طالت عشرتها). كل هذا دون أن نلتفت لحظة لظاعة وضعها المجتمعى، ولا لكم الخيانة الذكورية للمرأة، وللتاريخ كله .

وهكذا يؤسس موروثنا لتبخيس المرأة، فقد خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، وليس لها من الطلاق شىء، ولو كنت أمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والكهنة رسل الشيطان والنساء مصايد، شل مستمر لشخصيتها، وإضعاف دائم لفاعليتها، ودفع دائم لها لتكون على الصورة التى يريد بها الرجل، ليسقط عليها عدم براءته وشهوانيته ونقائصه، لتصبح مجرد جسد، غير مطلوب منها أن تفكر فهناك من يفكر بالنيابة عنها. مطلوب منها فقط أن تعطيه الراحة والمتعة! أن تكون مجرد متاع! ويطرسخ المأثور داخلها هى حتى تؤمن هى ذاتها أنها مجرد فرج (!) وأنها لذلك حرمة وحرام، فتفرض المأثور على ذاتها فى شكل وسواس قهرى داخلى، يضع بينها وبين عالمها كل التحريمات حتى الصوت الذى هو عورة، لتحصل بذلك على رضا الزوج الذى هو رضا الرب، وتكتسب رضا الجماعة واحترامها، بحيث تتعايش مع

الضغوط وألوان العقاب والاحتقار، المفترض احتراماً، وتصبح أكثر أعضاء الأسرة والمجتمع تحملاً للاضطهاد، فقط لتعيش في وسط يترصدها ويعد عليها سكاناتها، ومن ثم يصبح وضعها هذا في المجتمع طبيعياً تماماً، معتاداً تماماً، بدهياً تماماً، لا تلتفت إليه، ولا نفكر فيه، إلا عندما تصادف امرأة وعت الأزيمة، فتكسر في وجوهنا عدم براءتنا بسلوك جديد ورأى جديد ومنطق جديد يخيفنا ويرعبنا، هنا فقط لن نفكر إلا في هذا الانفلات وكيف نحجمه ونعاقبه، حتى لا تأخذ لحريتها مساحة من حريتنا، حتى نظل السادة، وحتى نجد دوماً من نحمله أمراضنا الداخلية، من نحمله أيضاً أوزارنا. دون أن نناقش ذلك الفرض الذي فرضه ماثور، هو الذي فرز لمرحلة تاريخية طال أمدها، ودون أن نناقش مدى صدق الفرض ومدى اتساقه مع إنسانيتنا وما ندعيه من رقى بشرى، ونظل نطلب المرأة النموذج، التي تظهر الخجل عندما تتحدث الرجل، التي تكبت ميولها الطبيعية ولا تتذكر سوى كونها عورة، التي تعرف عن يقين أنها حرم.. حرم فلان.. فهي حرام، بل الحرام ذاته، حرمة، مقدس لا يجوز لمسه، وهي أيضاً وفي ذات الوقت منجسة لأن طبيعتها النجس، والفعل الجنسي، معها يؤدي للنجس، لا بد أن يقتل جسد الرجل جميعاً لرفع أى أثر لتلك الملامسة والممارسة، كذلك دم الحيض يغطيها بالنجس، لذلك ترفع عنها أثناء ذلك كل التكاليف، لا تصلى، لا تصوم، كذلك طوال فترة النفاس وهو الأمر الذي له أصوله في الأسطورة وفي القديم الذي أسس لمعنى الحرام والحريم، وهو ما ينقلنا عن تلك الصورة التي قَعَدَها لها الماثور، إلى محاولة قراءة نماذج سريعة لواقع المجتمع منذ ما قبل التاريخ، وهو يتحول بالمرأة من مركز السيادة إلى الحضيض، طبقاً وجنسياً وإنسانياً.

إمرأة: الأصل أسطوري

إمرأة، حواء، أنثى، أسماء ثلاثة مؤسسة أولى لذلك الكائن الذي كلما حاول التملص كلما قيل أنه لغز. وسعياً وراء أصول التسميات نحكى لنا التوراة أن الله خلق آدم الذكر، ووضعه في الجنة حيث عاش وحيداً لا يجد أنيساً يؤنس وحشته، وهنا قرر الرب أن يؤنسه بكائن يسليه، وكان هذا الأنيس هو المرأة، وذلك في نص يقول فيه آدم عن المرأة المصنوعة من ضلعه: «هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت/ تكوين ٢/٢٣».

وهكذا فالنص يجعل امرأة تأنثى إمرء وليس العكس، ليظل الرجل أولاً، فهي تابعة له في الخلق، وتابعة في المسمى، لكن بالتوراة نفسها نص آخر يعين تسميتها لشأن آخر فلأنها مصدر الحياة وفاتحة المواليد، يقول النص: «دعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي/ تكوين

٢/٣. وكلا التسميتين (امرأة) من ضلع امرء، و (حواء) أم كل حى، وفى الأصل العبرى (تلك التى تحيى) يشكلان فى يد الباحث مفاتيح تضىء له ذلك القديم، ليكشف أصل وضع المرأة فى المجتمع.

عند قراءة الأسطورة بحثاً عن الاسم (امرأة) لن نجد أبداً أنها كانت تابعة ل (امرء)، بل العكس تماماً، فالميم للأومة ولا تجد فى الإلهات الكبرى القديمة اسماً يخلو من ميم الأومة، فأصل الكون البابلى (مى)، والأم الإلهة الكبرى بالأسماء الثلاثة المتواترة حتى الآن (ما) (أماه) (ماما)، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط يحملن الاسم (ميرها، ميريا، ميريام، مريم، ستلاماريا)، والميرة هى الزاد، هى مانحة الطعام والحياة، وهو ما يلقى الضوء عليها كمكتشفة أولى للزراعة، وميرها هى شجرة المر المقدس أيضاً التى أنجبت الآلهة الذكور الأبناء.

أما الكلمتان: أنثى وحواء، فتضيؤهما لنا قصص الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان خاص كانت تعيش فيه الآلهة الخالدة يدعى (دلمون) (البحرين الحالية)، وهو ما يناظر (أولمب اليونان). وهناك جاء إلى الوجود إله باسم (جى) ممثلاً لبداية البشرية على الأرض، رعيلاً أول يجمع اللاهوت مع الناسوت، أو الألوهية مع الإنسانية. واسمه ملصق من مقطعين يشيران إلى كونه أول سكان الأرض فهو من (آن - سيد أورب) و (جى - الأرض) وتحكى الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى (مما ممهور ساج) أو (نلهور ساج) هى التى ولدته، وأنها حرمت عليه ثماراً بعينها فى دلمون حرصاً على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى وأكل منها، فأصيب بمرض شديد فى واحد من أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرع الأم الإلهة فخلقت له إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع وعلاج الإنسان الأول (آجى)، وكان اسمها (آنثى)، والإسم (آن تى) من ملصقين (آن = سيدة أوربة) + (تى)، و (تى) عندما تكون اسماً تعنى الضلع فيكون المعنى سيدة الضلع، لكن تى عندما تكون فعلاً تعنى تحيى أى تلك السيدة التى تحيى أى هى أحييت آجى بعدما أشرف على الموت، وهو ما يلقى الضوء على معنى كلمة حواء فى التوراة العبرية (تلك التى تحيى) والعربية (أم كل حى)، كما يلقى الضوء على أصل الأسطورة التى حورت أو فهمت خطأ فيما نقله المأثور التوراتى عن الرافدى، لتكون حواء أو (إنثى) مخلوقة من ضلع آدم، كما تبهرنا دراسة تلك الأصول عندما نعلم ببساطة أن (آن تى) هو أصل كلمة انثى هى (نتايه) ببساطة، والأنثى والنتاية فى الجذر تشترك أيضاً مع النوء والظهور.

الإله من أنثى إلى ذكر

والدارس للأساطير سيجد من الشواهد القرائن الأركيولوجية ما يدعم الفرض: أن الأنثى كانت مركزا لمجتمع أمومي ابتدائي، وأنها كانت في مركز يتناسب مع مجتمع كانت آلهته إناثاً، ومنطقياً لا يمكن أن نجد مجتمعا كل آلهته إناث ويسوده على الأرض ذكور ومن ثم تكون النتيجة أن الأنثى كانت سيدة ذلك المجتمع.

ويبدو لنا أن السبب في ذلك حسب قوانين الحراك التاريخي، هو امتلاكها أساسا اقتصاديا، دعم تلك السيادة. وهو ما نلمحه في تصور لشكل ذلك المجتمع الابتدائي، حيث كان المجتمع صيادا، يخرج فيه الذكور للصيد والقنص، بينما كانت رعاية الصغار تستدعي استقرار المرأة بجوارهم، فكانت هي بداية الاستقرار في المكان، الذي أدى بعد ذلك إلى نشوء المشتركات المستقرة ثم القروية فالمدنية.

وكان استقرارها هذا دافعا لها لاكتشاف الزراعة، وهي تلحظ سقوط الثمار على الأرض، ثم عودتها للإنبات فكان أن حاولت تقليد الطبيعة، فاستنبت الثمار، فأست لنفسها بذلك الكشف أول أساس اقتصادي متين لسيادتها. وهو الأمر الذي كان لابد أن يضيف لانبهار الرجل بقدرتها على الولادة ابهارة أخرى بأنها تمكنت من جعل الأرض تلد بدورها، مما أضاف لقدراتها السحرية (اقتصادية أصلا) رصيда آخر، وربما كانت أيضا هي مكتشفة الفخار، بالنظر إلى شكل الأوعية التي عثر عليها بجوار الإلهات الإناث القديمة وهي ما كانت تمثل دوما ثديا أو فرجا أو فخذا إذا استطالت، كما كانت مكتشفة الخمر، بتخمير الطعام الزائد في أوانيها، وهو ما فاجأ الذكور عند العودة من القنص بمزيد من السحر، يصفونة على المرأة السيدة الإلهة بعد ما دارت الرءوس بسحرها الجديد.

وهي أيضا مكتشفة النسيج، بما توفر لها من وقت واستقرار للملاحظة والكشف والتجربة والخطأ والمحاولة، حتى اللجاح الذي أضاف لأساسها الإنتاجي مزيدا ورصيда. لكنها وهي بمسبيل تأسيس الاستقرار الأول الذي أسس للمدينة فيما بعد، كانت تضع ثمار خسارتها لأساسها الانتاجي وفقداء لمقوم سيادتها الاقتصادي، عندما احتاجت الزراعة إلى حيوانات أقوى تحتاج في ترويضها وتدجينها إلى عضلات أقوى وتفرغ أوسع، بعد أن استقر الرجال إلى جوار زرع المرأة وغراسها، ومن ثم تم سحب البساط من تحتها لصالح الذكور. ويلاحظ الباحث أنه مع ذلك الاستقرار المديني وبدء استخدام الحيوانات القوية في الحرث، يبدأ ظهور الآلهة الذكور بوضوح في منظومة السماء، وهو أمر فيه تفاصيل كثيرة نحيل فيه الحضور إلى كتبنا للمزيد، ونكتفي بتلك الإشارات السريعة لضيق الوقت المتاحة، فقط نلمح ونؤكد على الأساس الإنتاجي

لسيادة المرأة الذي فقدته، فساد الذكر، وتحولت ربه السماء من أنثى إلى ذكر، فأصبحت الشمس ذكرا بعد أن كانت أنثى، كذلك عشتار نجمة الجمال الزهرة، تحولت مع السيطرة الذكورية إلى الإله الذكر عستر في خطوط المسند والخط النبطى.

أما تصورات ذلك المجتمع لبداية الخلق فكانت بسيطة بساطة المجتمع الأمومى الأول، الحدث سهل، كان على الربة الكبرى أن تلد الكائنات، والتي تم تمثيلها فى الأم الأرض ممترجة بالأنثى السيدة على المجتمع آنذاك.

ولما كان الرجل قد لاحظ اختفاء دم الحيض مع بدء الحمل، فقد تصور أن ذلك الدم هو الذى يقوم بتكوين الجنين فى الداخل ليعطى بعد ذلك تلك الظاهرة المدهشة المذهلة ظاهرة إعطاء الحياة والمواليد، لكن بعد السيطرة الذكورية وتحول الإله إلى ذكر، كان لابد أن يتحول فعل الخلق من الأنثى للرجل، ولكن لأن فكرة خلق الولادة من دم الحيض المختفى فى بطن الأنثى قد ترسخت تماما، قامت أسطورة الخلق الذكورية على ذات الأساس، فقام الآلهة الذكور بذبح إله صغير مخنت لا هو ذكر ولا هو أنثى ليستخدموا دمه بعجن طين الأرض ليصنعوا منه الإنسان الأول. ومن ثم تحولت القصة عن فعل الولادة إلى فعل الخلق، وهو ما يترافق مع مزيد التفرغ الذى أحدثه الاستقرار والوفرة للبشر على الأرض لمزيد من الكشف والابتكار أو الخلق.

كفى فى نفس الآن كان لابد أن يتم تبخيس الأنثى كرد فعل نفسى إزاء سيادتها القديمة وسحرها الدائم، فتحول الدم الحيضى فى المأثور إلى نجس، اكن يبقى المأثور فى اللاشعور الجمعى مستيقظا، فحين تحيض المرأة ترفع عنها التكاليف فلا تصوم للإله الذكر، ولا تصلى للإله الذكر، لأنها فى هذه الأيام الخمس تستعيد وضعها القديم، إنها لا تعبد أحدا حينئذ، لأنها فى هذه الأيام الخمس حين يتغيب القمر الإله الذكرى عن الحضور، والذى يوافق إيقاعه الحيض، يظهر حيضها وتحضر قدسيته، لتصبح فى هذه الأيام الخمس إلهة، وتقدس الخمسة لتصبح مانعة السحر والحسد كما كانت فى القديم، أما يوم الخميس فيصبح فى المأثور اليوم المفضل لجماع المرأة، أما الخمسة فهى دلالة واضحة على الفرج.

وللتذكرة فقط، ظل دم الحيض حتى عهد الجاهلية الأخير فى جزيرة العرب مقدسا. فقد كانت نسوة العرب ومكة يطفن بالكعبة، ثم يمسسن بدم حيضهن الحجر الأسود، تواصلن مع ذكر السماء، وهو ما عبرت عنه كتبنا التراثية كأبلغ ما يكون، وهى تلخص قصة تحول المرأة وتبخيس الدم الخالق، بقولها: إن الحجر الأسود كان أبيضاً، فأسود من مس الحيض فى الجاهلية.

أما الكلمة حواء فتقترن بعد ذلك فى الجذر مع الحية التى تحمل الكيد والدس والخديعة، وتقترن حواء بالحية، والإبليس، الذين اشتركوا معا فى خديعة آدم، ذلك الآدم الذى خدع الجميع وخدع التاريخ، لأنه حقيقة إنما كان ضحية شهوانيته وعدم براءته ومرضه السيادى، لأن خضوعه الداخلى الذى كان يرفضه باستمرار فيبغض المرأة، كان خضوعا لحواء الحياة للحية أم كل حى، ذلك المشترك الذى يضم فى الجذر كلمة «الحيا» أى الفرج الأنثوى سر الحياة ومصدر الميلاد، وأزمة عدم البراءة فى الرجال.

سر الأسماء المقدسة

فى كتاب المواجهة الصادر ضمن سلسلة كتاب الأهالى، كتب الأستاذ خليل عبدالكريم (ص ١٤٧) يقول: "الحواريون أو الرسل أو التلاميذ الذين كانوا مع المسيح عليه السلام كانوا ثلاثة عشر، وعدة أهل بدر الكبرى من المسلمين كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة، فهل هناك صلة من نوع خاص بين الديانتين الساميتين، وبين الرقم ١٣؟ وهل لهذا الرقم مكان ملحوظ فى الميثولوجيا السامية القديمة؟ هذا ما أدعوا أخى وصديقى د. سيد محمود القمنى عالم الميثولوجيا المرموق أن يجيبنى عنه".

وعندما يطرح مفكر فى قيمة الأستاذ خليل عبدالكريم سؤالاً، فإن الحصافة تستدعى الاستجابة الفورية للرجل الذى أثرى مكتبتنا العربية بقراءته المستبصرة فى منتوج الفكر الإسلامى، وإعمالاً لذلك قمت بكتابة هذه العجالة السريعة، مع وعد بتقديم دراسة مطولة حول الأرقام والأشياء والظواهر المقدسة فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، فى المستقبل القريب.

مقدسات البيئة

ورغم اشتراك معظم ديانات شعوب العالم فى معالم أساسية مقدسة، فإن هناك اختلافات جذرية فى كثير من التفاصيل بين تلك الديانات، كنتيجة محتمة لاختلاف الظروف البيئية باعتبار الإنسان ابن بيئته، وأن الدين يتفاعل مع ظروف البيئة والمجتمع، كذلك يسهم اختلاف المكان والزمان والتشكيلات الاجتماعية والأنماط الاقتصادية والمرحلة التطورية التى وصلها المجتمع، وكـم التراكم المعرفى لديه وكيف يسهم جميعه فى طبع الدين بسمات تختلف أو تقترب من ديانات الشعوب الأخرى.

وملاحظة الأستاذ خليل حول تشابه ديانات شرقى المتوسط السامية أمر صحيح تماماً، من حيث كون تلك الديانات قد ظهرت فى مجتمعات تتشابه فى ظروفها الاجتماعية والبيئية مع التجاور المكاني، وإن اختلفت زمانياً فدخل على المتأخر منها بعض التطوير والتجريد الذى لم يحظ به السابق.

ولعل أكثر أوجه التشابه تكمن بين الديانتين الساميتين: اليهودية والإسلام، لتشابه الظروف المجتمعى والبيئى، فكلا المجتمعين قد نشأ فى بيئة صحراوية جبلية، وكلاهما كان مجتمعاً

(*) نشر فى صحيفة العرب، الاثنين ١٩٩٥/٨/٢٨.

قبلياً تسوده أعراف القبيلة ونظمها ومرحلتها في التطور التاريخي، ومن ثم تجد ألواناً من التقديس لأرقام بعيدها، ولأشياء أخرى عينية هي من أهم معالم البيئة الصحراوية، فكلنا الديانتين ديانة قمرية: الشهور قمرية، مواعيد التضحية قمرية، الاحتفالات الكرنفالية الكبرى قمرية، الصيام قمرى، (والقمر يعطو المآذن الإسلامية)، والمطالع للتوراة سيكتشف أن القمر في أحيان كثيرة كان يعد أحد تمثلات الإله ذاته.

كذلك قدس البدو الصخور النادرة والأحجار والجبال، فاليهود يقدسون جبل (حوريب-كاترين) بسيناء ويطلقون عليه اسم (جبل الله)، وعرب الجاهلية والإسلام يقدسون جبل عرفات، وكان اليهود يقدسون كل مرتفع من الأرض، يقدمون عنده قربانهم وأضحياتهم، ويمارسون عليه طقوس الجنس المقدس، وعرب الجزيرة كانوا أيضاً يذبحون عند عرفات ويقدسون الصفا والمروة.

كما كان تقديس الأحجار في البيئة الصحراوية أمراً واضحاً في ديانات الصحراء، خاصة إذا كان الحجر من النوع النادر، ومن ثم قدس العربان منذ القديم الأحجار الليزكية المنصهرة القادمة من الفضاء، باعتبارها قادمة من حيث عرش الإله، ونتيجة انصهارها اكتست بلون أسود لامع زاد في روعتها وجلالها، ومن ثم قاموا بضعونها في أفنية البيوت المقدسة والمعابد، وللسبب ذاته قدس اليهود الليزك الكبير الموجود بالقدس، والموجود الآن تحت مايعرف باسم قبة الصخرة، وأحاطته القدسية الإسلامية بعد حديث الإسراء والمعراج، كذلك قدس عرب الجاهلية حجراً أسود وضعوه بالكعبة، ورغم ما جاء به الإسلام من تطور، فإنه جعل للحجر الأسود مكانة قدسية.

الرقم (٧)

ويلحظ الباحثون أن رقم (٧) قد أحيط بهالة كبرى من التقديس في الديانات السامية الكبرى، فقصة الخلق التوراتية تقول: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح من عناء عمله في اليوم السابع، لذلك تقديس اليوم السابع الذي اعتبروه يوم السبت، من (سبات) أو الثبات والسكون، لذلك لا يعمل اليهودي يوم السبت ويقال من حركته ما أمكن، واعتقد اليهود بأن المحافظة على قدسية اليوم السابع مجلبة لرضا الإله ولحسن الحظ، وأن انتهاكه نذير شؤم ودمار، ثم انصرف ذلك التقديس إلى مواضع شتى يشغل فيها الرقم (٧) مكاناً بارزاً فتحدثوا عن أعمار الإنسان السبعة، وما للقطط من سبعة أرواح.. إلخ، ثم جاءت المسيحية لتستمر في تقديس ذات الرقم، وتحدثنا عن الخطايا السبع المميتة، وسبوف الحزن

السبعة فى قلب العذراء، وأبطال المسيحية السبعة، مع تقديس اليوم السابع الذى أصبح يوم الأحد، وكلها لدى المؤمن المسيحى أمور واضحة ومعقولة لمجرد أنها سبعة وكفى بذلك سبيلاً.

أما القرآن الكريم، فقد قال بقصة الخلق ذاتها، لكن الإسلام خالف كلا المعتقدين فى يوم الراحة المقدس، وكرس له يوم الجمعة الذى كان يعرف باسم يوم العروبة، ثم أفسح مجالاً ضيقاً للرقم (٧) وهو مانجد نماذج له فى الآيات الكريمة:

- «ثم استوى إلى السماء، فسواهن سبع سماوات» (٢٩ / البقرة).
- «كمثل حبة أنبتت سبع سنابل» (٢٦١ / البقرة).
- «وقال الملك: إني أرى سبع بقرات» (٤٣ / يوسف).
- «سبع سنابل خضر وأخر يابسات» (٤٣ / يوسف).
- «ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق» (١٧ / المؤمنون).
- «الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن» (١٢ / الطلاق).
- «فسخرها عليهم سبع ليال» (٧ / الحاقة).
- «ولقد أتيناك سبعاً من المثاني» (٨٧ / الحجر).
- «لها سبعة أبواب لك باب منهم جزء مقسوم» (٤٤ / الحجر).
- «والبحر يمد من بعده سبعة أبحر» (٢٧ / لقمان).

ومع الميل للمبالغة يصل التقديس من السبعة إلى السبعين، كما فى عدد السبعين إسرائيلياً الذين اختارهم موسى لمقابلة الإله (يهوه) فى جبل سيناء، كذلك السبعون تابعاً للمسيح، وهو مايجد صداه فى الآيات الكريمة من قبيل:

- «فى سلسلة ذرعا سبعون ذراعا» (٣٢ / الحاقة).
 - «فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقاتنا» (١٥٥ / الأعراف).
 - «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» (٨٠ / التوبة).
- أما الحسنات السبعين فمتكررات فى كثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

أصل الأسبوع

من غير المعلوم يقيناً السر فى تقديس الرقم (٧) وقد وضع بسبيل ذلك عدة احتمالات، منها أنه عدد تام لا يقبل القسمة إلا على نفسه، وقيل إن الجذر (سبع) لغة يعنى الكفاية والتمام

والامتلاء، وهو بالعبرية (شبع) أى امتلأ، ثم هو يعنى القسم المفظ، كما فى حادثة بئر سبع التى أقسم عندها إبراهيم وأهل فلسطين، وتسمى لذلك بئر القسم، كما نعى أيضاً رقم (٧) لأنهم ذبحوا عندها سبع نعاج، أما السبع - الأسد - فهو ملك الحيوانات وأكملها وأجلها شأنًا. ولما كانت الباء تتبادل مع الفاء فى اللغات السامية، باعتبار أن كلتيهما من الحروف الشفائية، فقد تحولت سبع وشبع لتصبح شفع، علامة على الأرياب الشفعاء فى الجاهلية، أما الإسلام فقد ألغى جميع الشفاعات وأبقى على شفاعاة واحدة للمصطفى - صلى الله عليه وسلم.

لكن بعد التأمل والتدقيق، يمكن أن نطلعنا على السر وراء كل ما أسبق على الرقم سبعة من من هالات قدسية، لنكتشف أنه ليس لخاصية فيه، بقدر ما كان ناتجاً عن تقديس الساميين القدماء، وبخاصة أهل الرافدين للكواكب السيارة الخمسة مع النيرين الكبيرين الشمس والقمر وعندهم سبعة.

وكان للقمر بالذات فى البداوة وليل الصحراء مكانه المتميز، لذلك كان ألصق بخيال البدوى من الشمس المحرقة خاصة فى ليل الصحراء، مع السحر القمري المبهر المتمثل فى تحولاته ما بين هلال وتربيع وبدر ومحاق.

وقد لاحظ الساميون القدماء أن تحولات القمر تنقسم إلى قسمين متساويين، من ولادته إلى تمامه بدرًا أربعة عشر يوماً، ومن ظهوره بدرًا إلى محاقه أربعة عشر يوماً، والأربعة عشر يوماً ينقسم إلى قسمين متساويين $7 + 7$ ، ومن هنا وصلوا إلى تقسيم الزمان بمعرفة معنى الأسبوع، الذى هو ريع الشهر قمري، وقد قرن البابليون المتفوقون فى دراسة الأفلاك تلك النتيجة بالسيارات الخمس المعروفة آنذاك: المشتري (الإله مردوخ) والزهرة (الإلهة عشتار)، وزحل (الإله نيناب) وعطارد (الإله نابو) والمريخ (الإله نرجال) مع الشمس (الإله شماس) والقمر (الإله سين) (وعندهم جميعاً سبعة آلهة)، لينتهوا إلى وضع الزمن فى أسابيع على عدد الآلهة السماوية السبعة، وكانت أعظم الآلهة فى المعتقدات الرافدية، وغنى عن الذكر أن هياكل بلاد الرافدين كانت هياكل لعبادة تلك الأجرام كما كانت فى الوقت نفسه مراصد فلكية ومحلاً لدراسة الأفلاك ومتابعتها.

ولعل القارئ سيلحظ معنا أن السنة تتكون من (٥٢) أسبوعاً، ولو جمعنا طرفى الرقم $2 + 5$ سيعطينا النتيجة (٧).

والخلاصة من كل ذلك أن تقديس الرقم (٧) يعود أصلاً إلى تقديس الآلهة الكوكبية السبعة العظمى المعروفة بالآلهة مقررة المصائر، وقد تمت عبادة كل إله من تلك الآلهة

فى يوم سىمى باسمه، وقد ترك ذلك التقديس القديم أثره فى أسماء تلك الأيام حتى اليوم فى أسماء الأيام الأفرنجية، التى تعود إلى أصول سكسونية قديمة، فيوم الأحد كان يوم عبادة الشمس، وكان فى السكسونية sund's day الذى جاء منه اسم يوم الأحد Sunday ويوم الاثنين المكرس لعبادة الإله القمر اسمه اسمه Monday وقد أخذ من الأصل السكسونى Moond's day أما الثلاثاء الذى كان مكرساً لعبادة إله الحرب، وهو عند السكسون الإله Tiwes فقد جاء منه اسم يوم الثلاثاء Tiwesday كذلك شأن الأربعاء الذى كرس لعبادة الإله Woden ومنه جاء اسم يوم الأربعاء Wednes day، ثم الخميس يوم إله الرعد الصاعقة Ther ومنه جاء اسم الخميس Thurs day، أما الجمعة المنسوب للإله Friga فاشتق منه الاسم Fri day، لينتهى التقسيم بيوم عبادة الإله زحل Satern الذى اشتق من اسمه اسم يوم السبت Satur day.

الرقم ١٢

وهكذا كانت عبادة الأجرام السماوية هى الأصل والمنشأ لمقدسات ظلت تفرض وجودها فى تاريخ الإنسانية حتى اليوم، وهو الأمر الذى قصدنا بيانه من خلال التوضيح العاجل السالف، لنصل إلى عدد تلامذة المسيح وحوارييه، إلى العدد (١٢)، وهو ما جاء فى سؤال الأستاذ خليل بختاً من قبيل السهو فقال: إن عددهم ثلاثة عشر.

والرقم (١٢) أحييت إليه أعداد مقدسة الأشخاص مقدسين، فتلامذة المسيح من غير اليقيني أبداً أنهم كانوا اثني عشر حوارياً، لكن كتاب الأنجيل ضبطوا عدد التلاميذ مع العدد المقدس، وكذلك فعلت التوراة عندما جعلت أبناء يعقوب - إسرائيل المعروفين بالأسباط اثني عشر ولداً هم بنو إسرائيل، وفى الجلجال بفلسطين كان يقوم اثنا عشر عموداً مقدساً من سالف الأزمان، كذلك كانت مجالس الأمفكتيون المشرفة على المعابد اليونانية تتكون من اثني عشر عضواً، كذلك كان عدد أعضاء مجلس معبد دلفى المشهور فى اليونان، أما يسوع المسيح فقد أظهر تفوقه العقلى وهو يناهز الثانية عشرة، عندما كان يواجه كهنة الهيكل ويفهمهم (انظر مثلاً إنجيل لوقا ٢/٤٧).

وكما كانت قدسية الرقم سبعة قد فرضت نفسها حتى أصبحت أشواط الحج سبعة، ليدور المؤمنون حول المركز المقدس، كما تدور الكواكب السيارة حول مركزها الإله الكبير الشمس، فقد جاء كذلك تقديس الرقم (١٢) من ذات المصدر القديم، فالمنازل السماوية للكواكب الإلهية المعروفة بالبروج عددها اثنا عشر برجاً، فالعدد (١٢) هو رسم البروج، أى عدد علامات

الزودياك، وكما كانت الآلهة السبعة تسكن البروج الاثنى عشر الفلكية البابلية القديمة، فقد تم إسكان أسابيع الزمن فى اثنى عشر شهراً وهى عدة شهور السنة عند الله.

المحتويات

٩٣-٥لقسم الأول : وثائق القضية من المصادرة إلى الإفراج
٧كلام خارج السياق
٩محاكمة كاتب مصرى / صحيفة الدستور
١٠وجاء الدور على سيد القمنى /مجلة روزاليوسف
١٣أرفض الإسراف فى التقديس /مجلة المصور
١٦منطق المصادرة جزء من منظومتنا الفكرية /صحيفة الأهالى
٢٢بيان مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان
٢٣بيان المنظمة المصرية لحقوق الإنسان
٢٤بيان مركز الكلمة لحقوق الإنسان
٢٥نداء المثقفين المصريين
٢٧برقية الأستاذ عبد الرزاق البصير إلى الدكتور جابر عصفور
من يحاكم من / صحيفة الجمهورية أحدث صحيفة للفكر
٢٨الضال /
٢٩صحيفة اللواء الإسلامى
اللواء الإسلامى صحيفة الحزب الوطنى أم الناطق الرسمى
٣٤بلسان الإرهاب
٣٩نماذج من تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا مع المؤلف
٥٦حيثيات حكم القضاء
٦٥المصادرة مخالفة للدستور / صحيفة الأهالى
٦٦افتحوا النوافذ لنفهم ديننا / مجلة روزاليوسف

٦٩	ماكنبه سيد القمنى لا يستحق المصادرة/ الدستور
٧٠	Judge defies
٧١	حصانة الشيخ عبد الصبور.....
٧٤	صفعة لمشايخ التطرف / مجلة روزاليوسف
٧٧	قاض مستنير / صحيفة الحياة
٨٣	مجمع لتحديد الثقافة، لا لمصادرة الكتب /صحيفة الأهرام.....
٨٥	بيان مركز المساعدة القانونية بعد الإفراج.....
	بيان مركز الدراسات والمعلومات القانونية: القضاء المصرى
٨٧	يتصدى لمصادرة حرية الفكر.....
٨٩	تحية سورية للقمنى / أخبار الأدب.....
٩٠	برقية مركز الدراسات السودانية.....
٩١	برقية المصريين فى المهجر.....
٩٣	برقية الدكتور نوال السعداوى.....

القسم الثانى :رب الزمان ودراسات أخرى ٣١٠-٩٥

٩٧	إهداء.....
٩٩	مقدمة الطبعة الأولى.....

* إسرائيليات ١٠١

١٠٣	الرد على خطاب شامير فى مدريد.....
١١٩	الدين والتطبيع فى فيلم المهاجر
١٢٩	المصريون والإسرائيليون فى التوأرة وفى التاريخ
	فلسطين وإسرائيل .

- ١٣٧ الخلل فى التوراة أم فى التاريخ؟
- ١٤٥ قدماء العرب والإسرائيليين
- ١٥١ * معارك فكرية

هل بنى الفراعنة الكعبة؟!

- ١٥٣ تصحيح مغالطات
- ١٦٥ عفاريت التراث .. وتراث العفاريت
- ١٧١ الرد اليسير على توراة عسير
- حتى لانفسد تاريخنا.....

- ١٩١ قليل من العقل وبعض من الضمير
- ١٩٧ محمد الغزالي وسقوط الأقنعة !!
- ٢٠١ يا أبا العزائم نظرة !
- ٢٠٧ ما بين "القمنى" وهذا المترجم !
- ٢٠٩ الصهاينة مرة أخرى (!؟)

* مقالات ودراسات

- ٢١٥ حول الحاجة لتحديد المفاهيم
- ٢١٧ حول مفهوم التراث
- ٢٢١ "النص" بين الأزلية والتاريخية
- ٢٢٥ كشف الخدع

- ٢٢٩ فيما جاء به الخطاب الدينى من بدع
- ٢٣٣ ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية
- ٢٣٩ منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية

العرب قبل الإسلام :

- العقائد ... والتعدد والإسلاف ٢٥١
- متى ظهر العرب فى التاريخ؟..... ٢٧٣
- رب الزمان..... ٢٧٩
- قصة الخلق بين ثقافة الصحراء وثقافة النهر..... ٢٨٥
- المرأة فى المأثور الدينى والأسطورة ٢٩٧
- سر الأسماء المقدسة..... ٣٠٥

من أعمال المؤلف

- ♦ الموجز الفلسفى.
- ♦ مشكلات فلسفية (بالمشاركة).
- ♦ أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة.
- ♦ الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية.
- ♦ النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.
- ♦ الأسطورة والتراث.
- ♦ حروب دولة الرسول / جزآن.
- ♦ إسرائيل : التوارة والتاريخ والتضليل.
- ♦ قصة الخلق : منابع سفر التكوين.
- ♦ رب الزمان.
- ♦ النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.

هذا الكتاب

* يزعجني ويزعج كل عاقل الحجر على حرية الفكر باسم أى شيء ولو كان الدين.

* هل يمكن لهذه الأمة أن تنهض وهى تعيش حالة تماماً على التقليد والسلف؟ أم لايد من اجتهاد؟ .. إن الأمة إذا لم تجتهد في الأمور العملية والتشريعية بالمنهج العقلى بصفة عامة، فليس من حقها أن تتفاعل وليس من حقها أن تتوقع نصر الله ... ونصر الله ليس بالأدعية والأذكار وقراءة القرآن.. إنما الأخذ بالأسباب.

* أنا استمتعت بقراءة كتب الدكتور سيد القمنى وخرجت منها متعلماً من أجزاء كثيرة فيها .. ولست متأكداً على الإطلاق أن هناك خلاف بينى وبينه .. لأننى وجدت في كتاباته ما يشككنى في وجود هذا الخلاف.

* كلام الدكتور سيد القمنى في الأساطير مكتوب بشكل جيد جداً، وما ذكره صحيح وموثق، وهو عالم محقق مدقق، وأتى بالآثار وبالكتب المعتمدة عند أهل الملة وعند أهل الأمة وكل ما قاله صحيح.

من أقوال المفكر الإسلامى

الأستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد

فى برنامج على الهواء على شبكة تليفزيون أوربت الفضائية يومى ١١/٣

و١٦/١١/١٩٩٦.

800 37 51 8847 51

AXIELL

